

إعداد : تاتيانا سولوفيوا

مختارات من القصص الروسية المعاصرة



مكتبة

Telegram Network



ترجمة: د. فالح الحمراني

إعداد: تاتيانا سولوفيوفا

مختارات من القصص الروسية المعاصرة

ترجمة: د. فالح الحمراي

مراجعة: عبدالله حبه

© مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي

PG3286 .C37125 2021

مختارات من القصص الروسية المعاصرة / إعداد تاتيانا سولوفيوفا؛ ترجمة فالح الحمراني ؛ مراجعة عبدالله حبه. ط. 1.
أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.

ترجمة كتاب: антология (Contemporary Russian Tales: An Anthology)

تدمك: ٦-٥٣٦-٣٥-9948-978

1- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية. 2- القصص العربية- مترجمات من الروسية. أ- Solovyova, Tatyana.
ب- حمراني، فالح. ج- حبه، عبدالله.

د- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

Современный российский рассказ: антология (Contemporary Russian Tales: An Anthology)

Compiler: Tatyana Solovyova

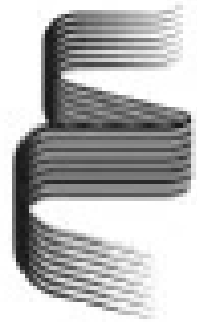
© O.G.I., Moscow, 2020

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام- وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب MC-
03-01-0577971.

طبع في المتحدّة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220



مركز أبوظبي
للغة العربية
Abu Dhabi Arabic
Language Centre



مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي غير مسؤول عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبير وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المركز.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لمشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

«مكتبة ٱ النخبة»

الفهرس

- 7 مجموعة من الرؤى المشرقة - سيرجي شارجونوف
- 9 تانيا - ميخائيل تاركوفسكي
- 16 فاسكا - ميخائيل تاركوفسكي
- 35 قبلة قنديل البحر - فاسيلي أفتشينكو
- 43 البنجر الأسطواني - فاسيلي أفتشينكو
- 48 الروس يسرعون إلى مساعدة «تيتانيك» - يفجيني فودولازكين
- 63 مدرج المطار - سيرجي شارجونوف
- 71 الحب - زاخار بيريلييين
- 84 عالق في الشبكة العنكبوتية - رومان سينتشين
- 181 الأسلحة - دميتري باكين
- 187 المتصوف - يوري ماملييف
- 193 السندباد البحري - يوري بويدا

| | |
|-----|--|
| 199 | حائط المبكى - أدوارد ليمونوف |
| 211 | البريد - إيلدار أبوزياروف |
| 233 | شقيق كاسبار الأبيض - أوليج زوبرن |
| 242 | عبر البراري والبحار - يانا فيشنيفسكايا |
| 252 | عيوب الذاكرة - جريجوري سلوجيتيل |
| 263 | مستشفى علاج السل - أندريه روبانوف |
| 278 | الغريب - يفجيني شكوفسكي |
| 289 | لم يحدث - دينيس دراجونسكي |
| 317 | الذئب - إيليا كوتشيرجين |
| 346 | دار عرض الأزياء - ألكسندر كاباتوف |
| 411 | عن المؤلفين |

مجموعة من الرؤى المشرقة

سيرجي شارجونوف¹

أحياناً تحلم، بأنك في بلد لم تزره أبداً، وتتجول في شوارعه كالشبح، وتتنفس الهواء،
وتنظر حواليك...

يبدو لي أنّ قراءة أدب بلد آخر تشبه هذا الحلم.

وإذا كان مستوى هذا الأدب جيداً، فسيكون هذا الحلم متألقاً وجذاباً.

ويكون أحياناً، وبأسلوبه الخاص، أقوى من اليقظة.

بين أيديكم مجموعة نصوص نثرية من روسيا.

إنه نثرٌ لِكُتّاب بارزين معاصرين، من مختلف الأساليب، ومختلف وجهات النظر، ومختلف الأجيال.

ألم، وحبّ، وفرح، وأمل، وشغف. وكل ما هو مهم في جميع الأزمان لجميع الناس والشعوب، وفي الوقت نفسه فيه شيء ما منّا، شيء روسي أصيل.

إنّ مضامين وأبطال وصور هذا النثر، مرتبطةً بمصير روسيا الدراماتيكي والعظيم. وهؤلاء الأبطال مختلفون؛ لطفاء، عصبّيون، أوفياء، أقوياء، مشككون، وشجعان. ولكن الأمر المثير للاهتمام أن تتعرفوا فيهم على أنفسكم، وعلى معارفكم وعلى أقاربكم وجيرانكم، فالأدب الحقيقي هو العالمي.

إنّ الأدب، يوفّر الفرصة أفضل من أية دراسات سياسية ومراجع تاريخية، لفهم البلاد التي
تقرأ لِكُتّابها، والإحساس بها.

انغمسوا في هذه التلاوين، واسبحوا فيها، ستجدون أنفسكم في روسيا.

ولو في الحلم.

تانيا

ميخائيل تاركوفسكي

كانت تانيا ذات بشرة صافية، وحزمة شعرها الناعم كثيفة، وابتسامتها سخية، فتجعل عينيها تضيقان، وعندئذ يرتسم على مَحْيَاها تعبير كما لو أَنَّها كانت تفهم كل شيء تماماً. ولو أضفنا إلى هذا حياة العزلة التي كنت أعيشها، وجمال نهر ينيسي المضيئي في بعض الأحيان، وعملي المملّ بحصد الأحراش، يغدو واضحاً، لماذا تقنّ للذهاب إلى قرية سيليفانيخا. لقد رأيت تانيا عندما جنّت إلى قطع الحطب الموعود. كنت أقطع الحطب في ساحة رملية تحت الربوة، بمنشار العمّة ناديا الذي يعمل بالبنزين. كان محرّك المنشار بلا مقبض مطاطي، وجرى استبداله بمقبض حديدي، فخدشتُ إصبعي، وبينما كنت ألقه بشريط عازل، ظهرت فجأة أمامي، لست أدري من أين جاءت؟! فتاةٌ هيفاء، ترتدي فانلة بلون أزرق فاتح. وعندما رأْتُ ما أقوم به، وقبل أن تمنحني فرصة للاعتراض على مساعدتي، هرعت إلى منزلها، وعادت على الفور وببيدها قارورة من بيروكسيد الهيدروجين. لم يكن مظهري مناسباً للتعارف مع فتاة، فقد كانت خصلات شعري مبلّلةً بالعرق، وسترتي ملوثة بالزيت، ويديّ بلون رمادي يميل إلى الزرقة، وطيات جزمتي ذات الساق العالية، مليئة تماماً بنشارة الخشب. وبينما كانت تُضمّد إصبعي بعناية، رحّت أراقب خُنفساء ذات لون فيروزي تدبّ على ساعدها الذي لوَحَّته الشمس، وأنشأت تتأفّف من البعوض، وتثرثر معي، كما لو كنت أحد معارفها القدامى. وفاحت منها رائحة المرهم المبيد للبعوض، ومزّحتُ معي بشأن يدي، بقولها: «يجب الاقتراب من المرأة فقط بمثل هذه الأيدي»، ومن ثم ذهبتُ إلى شؤونها الخاصة بالبعثة التي كانت تعمل فيها. أما أنا فقد انتهيتُ من قطع الحطب، وقلّلت راجعاً إلى منزلي في باختا. عندما ابتعدتُ بقاربي عن شاطئ النهر، ظهر على الربوة قوام فتاة في فانلة زرقاء، ولوَحَّت لي

بيدها. لم أتمالك نفسي، وبينما كنت أبتعد عن الشاطئ، قمت بحركة التفاف حادة بالقارب، فصعد من جانبه عمود ماءٍ مرن، مكلل بقمة بيضاء.

وهدر خلف ظهري محرّك القارب الذي انطلق بسرعة خاطفة، بمحاذاة شاطئ صخري محفوف بأشجار الشوح ذات الهامات المدبية، وكانت الشمس مضيئة، وتشكّل على امتداد الطريق قوس قزح صغير من الرذاذ الفضي المتطاير عند مؤخرة القارب، مثل ذكرى ممتعة.

أثناء عملي في حصد الأحرار، فكّرتُ في تانيا، وارتكبتُ خطيئة بحق رفاقي، إذ تمنيتُ أن يهطلَ المطر، حتى يتمّ إلغاء العمل في اليوم التالي، وسيكون باستطاعتي الانطلاق إلى سيليفانيخا لقطع الحطب. لقد سخر مني الأصدقاء الفطنون. ولم يهطل المطر. وجمعنا التبن الجاف، وقمنا بخزن العلف الأخضر. إنني أتذكر اليوم الأخير من أيام العمل، لقد وقفتُ في عربة يسحبها جرّار وهي تهتز، وبيدي مذراة، وتساقط عليّ وابل من العشب الأخضر، واستمتعت برائحة الأعشاب النفاذة. في اليوم التالي استولى عليّ التوتر من شدة نفاذ الصبر، فقد بدأت عطلة نهاية الأسبوع، لتؤذن بحياةٍ حرّة، ولم أجد ما أقوم به سوى الصيد، فقررت أن أذهب إلى قرية سيليفانيخا.

عندما وصلت إلى القرية، كانت تانيا ما تزال تغطّ في النوم، وطائر الزقزاق يغرد على نهر ينيسي بصوتٍ صافٍ تماماً. طفقتُ أقطع الحطب بالمنشار، وعندما تعالَى صوته، وأطلق محرّكه سحابة زرقاء، انتابني في البداية الشعور بالحرّج، من هذا الضجيج، كما لو أنّي لم أقطع بالمنشار كتلة من سيقان الشجر الطرية، وإنما باكورة هدوء الخريف، الذي خيم لتوّه على القرية شبه المهجورة.

كان منزل العمّة ناديا، الوحيد الذي بدا كبيت سكنٍ في القرية، بنوافذه ذات الأطر المطلية بمغرة زرقاء، وقد حُصد العشب حوله، وكانت هناك ثلاثة منازل للبعثة مبنية من عوارض خشبية، وتقع وسط أحرار كثيفة من نبات القراص والنبات المُسمى بـ«إيفان شاي»، وأشجار الصفصاف. شغلّت الجرّار الصغير الأحمر المركون على الربوّة، ووضعت تحت عجلاته قطعة خشبية لكي لا ينحدر للأسفل. وعندما مررت بجوار المطبخ رأيت تانيا، كانت تقف في مدخل البيت وهي تسقي من إبريق حزمة صغيرة من نبات الشّيت. أوقفتُ الجرّار بخيلاء، ونزلت من الكابينة وسلّمتُ عليها، وطلبتُ منها ماءً. مدتْ لي مغرفة، وأزالتْ بساعدها بعوضاً كان على جبينها، دَعَتني مبتسمة، لتناول الغداء. خفق قلبي بقوة. لكنني أجبته بتحفظ، بأن ليس لدي متسعاً من الوقت لتناول الغداء، لكنني سأتناول الشاي إذا استضافتني. لم يوجد أحد في المطبخ سوانا، أنا وتانيا.

تبادلنا أطراف الحديث، وسألتنني تانيا عن بعض الأمور، عن الصيد، وعن أصدقائي، وعن نهر ينيسي. لاحظتُ أن عدم الدقة التي يميّز بها أهل المدن، قد أثّرت للغاية في كلامها. «فالحطب، وفق كلام تانيا، لا يُقطع، وإنما يُقص»، وخالجتني رغبة في تصحيحها. علاوة على ذلك أردتُ أن أمسح ساعدها الذي تلوّث بالسخام، وهي تعالج الموقد.

بعد ذلك، واصلت الابتسام وأنا جالس في الجرّار، وشعرت بأنني لم أكن مخطئاً في هواجسي، نشأ في النهاية بيني وبين هذه الفتاة الغريبة عنّي تقريباً، شيء لا يمكن تفسيره، مترجرج،

مثل شجيرات الحور تلك، التي تسربت في سيل دخان أزرق يبعثه محرّك الجرّار، ولكنه في الوقت نفسه هاجس حقيقي، متناسق مع ما يجري في الطبيعة، وفي داخلي.

فكّرث في كيفية حمل هذا الشيء في جوانحي، جنباً إلى جنب مع عدّة الصيد، وغيرها من الحاجيات، وأنا أسير في قاربي الخشبي الطويل في نهر باختا الذي يسوده الهدوء في سبتمبر، وسيكون أمراً رائعاً تذكر ابتسامة تانيا، وأنا أرتجف من الريح، وأقود القارب في الوميض بين الفروع النهرية المتفرقة. جلسْتُ على جذع شجرة مقطوعة، وسحبْتُ سيجارة. انبسط أمامي نهر ينيسي مثل طبق فضي غمرته تموجات الماء التي أثارها النسيم. وعلى الجانب الآخر من النهر، خلف أشجار الشوح التي اصطفت كسياج مظلم، اكتسبت المسافة المتموجة والممتدة حتى التايغا لوناً أزرق غامقاً، زرقة خريفية لا توصف. ولسبب ما، يبدو لي دائماً أن الخريف لا يظهر هنا، بل إنه تحديداً يأتي كضرب من الهواء يميل إلى الزرقة، هواء ذي نوعية خاصة، ويبدأ كل شيء في التحوّل إلى اللون الأصفر، وبذبل، ويفقد شكله. أما بالنسبة للإنسان فالى جانب تزايد قوته البدنية، تتنامى لديه حساسيةٌ مدهشة تجاه الطبيعة. ورغبة في إخضاع إرادة الطبيعة الهادئة، والصعود إلى أعلى منحدر، والركوع هناك، والنظر إلى نهر ينيسي الواسع كالبحر، وشُكْرِ السماء على هذا الاشتياق الروحي الذي أرسله الربُّ، وعلى كل ورقة ملتوية من ورق شجرة البتولا التي ستطلب قريباً، عندما تذبل وتفقد نضارتها في الخريف، الكثير من الحب، والمغفرة على منظرها البائس. وستهجع في الروح ولفترة طويلة، صلاةٌ وداعٌ جنائزية، وامتزاج ألوان صفراء وخضراء، وضاف متعددة الألوان، وضوء متوهج كالنار في شقِّ سحابة رمادية رسمت حدود الشمال، وحتى طلوع الفجر. تلهمني ضربة مجذاف خافتة وسط الضباب، بأول قصيدة، كما لو أنها ترتفع على جناح.

حينما كنت في ضيافتها، مدّت لي العمّة ناديا بيدها، وهي تحدّق في عيني، وبانحناء رشيقة، على طريقة آداب الضيافة القديمة، قدحاً من الكحول العكر، قائلة: «هاك، هاك، هاك»، لقد ساعدتني في الخروج من مأزق، شكراً لك، وهاك أيضاً سمكة مملحة»، وانتابني شعورٌ بالبهجة مرة أخرى بخفة ونشاط هذه المرأة العجوز الصغيرة الحجم، التي لا تتعب أبداً من إحاطة حياتها المليئة بالوحدة، بزخرفة شاعرية لم يحلم بها أي شاعر. كانت دائماً ما تتخيّل وتحلم بشيء ما... ذات مرة بنيتُ لها ردهة مدخل جديدة في البيت، وأقمتُ في منزلها. كان ذلك في شهر أغسطس أيضاً، لكننا مع ذلك هجعنا تحت ناموسية، ولم نتجرأ بأيّ حال على إزاحتها. جلسْتُ العمّة ناديا قبل النوم بصورة مريحة لفترة طويلة، وتثاءبت، ثم بغتة طفقت تتحدث عن رجل مرعب، رأته في الحلم، ذو وجه نما عليه عشب النهر، لكنها لم تخف منه، بل سألته فقط عندما دخل «من أنت؟». وحدثتني عن أبناء شعب إيفينكي² الذين يأتون لقريتها في الشتاء على متن عربات تجرها الأيائل،

مع هِرِّ مربوط بحبل. وروث لي من ذكريات طفولتها (كان أبوها على قيد الحياة) عن سمكة «سلمون» كبيرة جداً لدرجة، عندما سحبها الصيادون من فوهة الحفرة في النهر المتجمد، اعتقدت هي أن هناك «هسانا» (حصان). كما روث مزحة عن صديقة لها من منطقة «فيرخنيمباتسك»، المشهورة بوحلها الذي لا يمكن اجتيازه. وقالت إنها كتبت في رسالة لها: «ناديا، لا أستطيع العيش في «ايمباتسك»: ساقاي قصيرتان، وقد أسقط من الجسر، وأغوص في الوحل». لقد روث لي كل هذا بصوت شبه طفولي تشوبه رنة، بترؤٍ مثل قرقرة دجاجة على مشارف نهاية الصيف. وقبل أن ألتقي بتانيا حلمت بأنني سرقت قدحاً خزفياً من المستشفى، وقالت العمّة ناديا إن هذا يعني: «إن أجورك في العمل ستزداد قريباً».

أدركتُ بعد تناولني القدر الرابع من الشراب، أنه لم يعد بوسعي إلا أن أطلب من تانيا عنوانها، وفجأة، تذكرت العمّة ناديا من جانبها شيئاً ما، وأخرجت صندوقاً من خزانة ذات زجاج منمنم، وسحبت منه صحيفة صفراء اللون، مطوية على شكل مربع، كنت قد نشرت فيها قصائدي... وبعد دقيقة كنت قد خرجت من مدخل المنزل وسط الريح الهائجة، في حفيف العشب وخرخرة مياه ينيسي، وموسيقى تصدح من مركب عابر في النهر، ولم يعد بميسوري منع دموع السعادة الدافئة التي بللت عيني، ورددتُ في خلدي أربع كلمات: «رائع يا ميخائيل، إن ما نظمته جيداً!»

لم تعطني تانيا عنوانها، وسألتنني بحصافة مصطنعة وهي تشيح بوجهها عني إلى مكان ما: «ما حاجتك للعنوان؟»، وأضافت شيئاً آخر بصدد المغازلة التي لن «تمر عليها». وإذ أحبطني في الحال مثل هذا التحول بعلاقتي بها، وكلمة «المغازلة» التي لم تتفق مع كل ما يحيط بي، هبطتُ إلى أسفل الربوة، عابثاً بقلم الرصاص في جيبي، الذي لم تعد هناك حاجة به على الإطلاق، وتوجهت إلى منزلي. وتساءلتُ، وأنا أسيرُ بقاربي في موجة رمادية، أضغطُ على المقود البغيض المنزوع المينا: «ولكن، ماذا كان سيكلفها هذا؟ فأنا لن أكتب لها أبداً»...

زال الشعور بالاستياء من تانيا تدريجياً. إنني حتى أفنعت نفسي بأنني أفسدت كل شيء بسبب جسعي، وكان اليوم نادراً فعلاً. إن الإنسان يحيا ثم يحيا، وينهمك في المشاغل ولا يلاحظ شيئاً حوله، وفجأة يحلُّ يوم خريفي حينما يرى كل غصن في الضفة الأخرى، ولا تولد السحاب الباردة أي ظلّ تقريباً، ويتغيّر أمرٌ ما في الدنيا، وتندمج ابتسامة فتاة مع الريح المتألقة، وتتردد أحاديث العمّة ناديا الثمينة، والموسيقى الصادحة فوق نهر ينيسي، وتخرق الروح، ثم تختفي، لكن يبقى واضحاً إلى الأبد شيء واحد هو: ابتسامة الفتاة، وكلمات العمّة ناديا النفيسة، والموسيقى الطافية على نهر ينيسي، وتتسرّب كلها في الروح وتختفي، ولكن يتضح إلى الأبد، أن تلك الأشياء التي نادراً ما تتلاقى، هي بالتحديد، وليس شيئاً آخر، تقود المرء في الحياة.

فاسكا

ميخائيل تاركوفسكي

1

كان أول ما تناهي لسمع فاسكا³ وهو يستيقظ صباحاً، حفيف المطر المتساقط على سطح الكوخ. وفكر في دخيلته، وهو لا يشعر بأية رغبة للنهوض من فراشه: «إذن لن نذهب اليوم لصيد طيور القطا».

كان الوقت متأخراً. بينما استيقظ نيكولاي منذ فترة طويلة، وجلس على سريره يحتسي الشاي، ويتنفس بصعوبة، ويدخن سيجارة، ويلفُّ السلاسل على فخاخ الصيد. قال له بلهجة جادة ساخرة، ومخاطباً إيّاه بصيغة «أنتم»، وباسمه الكامل، فبدلاً من «فاسكا» خاطبه بـ«فاسيلي ماتفييفتش»، وهو يرمي آخر فخّ في الكومة:

-... خمسة وأربعون فخاً... حسناً، وكيف نمثّم يا فاسيلي ماتفييفتش⁴؟

وفكر فاسكا في دخيلته، وهو يوميء برأسه إلى النافذة المغطاة بقطرات المطر:

- حسناً إذا كنت مستاءً إلى هذا الحدّ، فلماذا لم توقظني؟

ومن ثمّ، سأل نيكولاي من دون أن يعرف لماذا:

- هل المطر يهطل منذ فترة طويلة؟

وردّ عليه نيكولاي:

- هيا انهض، وتناول فطورك، سنذهب إلى النهر، لنتفقد شبكة صيد السمك التي نشرناها هناك.

لاحظ فاسكا في فناء الكوخ أنّ نصف الثلج الذي أفرحه أمس، قد ذاب، وظلّت فقط بقاياها عالقة في ثنايا الطحالب. ولمعت صفيحة معدنية مبلّلة عند موقد النار الخامدة، وهناك ماء في الحوض الذي يشرب منه الكلب، وتعلّقت كرياتٌ ثلجية صغيرة بإبر شجرة الأرز. وتحرك بكسل ذيل الكلب الرمادي عند الباب المفتوح تحت السقيفة.

كانت السحب المنخفضة قد ابيضّت قليلاً، وتساقطت قطرات ماء كبيرة من الأشجار بفعل الرياح المتصاعدة، وصرخ طائر «كسّارة البندق» من على شجرة الشوح. ولكن عندما هبطا إلى نهر باختا، ومشياً على حجارة زلقة كالحديد الزهر، أظلمت الدنيا مرة أخرى، وكان المطر الذي خفّت حدّته، يتساقط على الماء مُحدثاً صوتاً أجش. وعندما أصبحا قرب الشبكة، فكّ نيكولاي الحبل من الشجيرة، فانزلق القارب في الماء وهو يقرقع، تاركاً شذرات بيضاء على الحجارة.

تمتم نيكولاي مرتجفاً:

- اذهب، وشغّل محرّك القارب، سنعود فيه.

وقال فاسكا في ذاته:

- إنّه لا يريد أن يتحرّك، أو يلمس بيده أي شيء.

كانت في الشبكة ثلاث سمكات حراشف، وسمكة تايمين كبيرة، أطلق نيكولاي النار عليها من بندقية الصيد. وعندما قفلا راجعَيْن إلى كوخهما، اشتدّ هطول المطر الذي كان يضرب فاسكا، الجالس خلف محرّك القارب، في عينيه بصورة مؤلمة.

وبعد أن جفف فاسكا ملابسه، قرر السير في الطريق التي قاده نيكولاي فيها إلى الكوخ في هذا المكان. ولكنه سعد نزوة التلّ بجهد، ثم اجتاز بصعوبة غابة من أشجار الأرز المتباعدة عن بعضها البعض، حيث نصبت خمسة كعوب فاخاخ، وخرج تُصاحبه خشخشة الثلج، إلى مستنقع فيه طحلب أحمر، وفجأة هطل مطر غزير، فلم يبقَ لديه خيار سوى العودة.

عندما عاد فاسكا إلى الكوخ مبلّلاً، هزئ منه نيكولاي، الذي يبدأ عادة كل كلمة بـ«حسناً، ولكن»، قائلاً:

- حسناً، ولكن، هل كان يحلو لك أن تبلّل نفسك بهذا الشكل؟

وفي العشاء تناول فاسكا سمكة سلمون مرّقط مقلية مع البطاطس، أعدّها نيكولاي أثناء غيابه، وشرب الشاي، ومن ثم صنع على طاولة من جذع شجرة، جهاز خراطة صغيراً من الأسلاك السميكة، وبدأ يلفُّ السلاسل به لصنع فخاخ صيد الحيوانات. وسخر نيكولاي مما صنعه فاسكا قائلاً: «هيا، هيا، أيها الصانع الماهر، دعنا نرى ما ستكون نتيجة مهارتك بعد شهر؟». وكان نيكولاي نفسه يقوم دائماً بمثل هذا العمل، ولكنه يستخدم دوماً الزردية لِّلْفِ السلاسل، وليس جهاز خراطة.

ساد الظلام بسرعة. زوّد نيكولاي المصابيح بالكبروسين، ومسح الزجاج لفترة طويلة بقصاصة جريدة، وقطع ذوائب الفتائل بمقص صديء. فشبَّ اللهب، وتقلص على الفور حجم نافذة الكوخ ذات الزجاج الأزرق، وغدت قاتمة اللون، وأشعل نيكولاي سيجارته من لهيب المصباح، واستلقى على سريره، ومن دون أن ينظر إلى الأعلى، سحب مجلة كيفما اتفق من على الرف فوق سريره.

خرج فاسكا إلى الشارع، في حذاء مطاطي من دون أن يرتدي الجورب، وخلط طعام الكلب البارد في آنية الكلب الموضوعة على مكان مرتفع، وعاد، واستلقى على التخت الخشبي، وغمرته الكآبة. لقد قتل المطر فيه كل الحيوية السابقة، الحيوية التي بنّت المشاغل الجديدة فيه، والبرد الخفيف الذي استمرّ طيلة الأسبوع، حين وزّعا المواد الغذائية على الأكواخ التي يلجأ إليها الصيادون. وبدأ يشعر الآن بأنه تشبّع بالماء، وقد خارت قواه تماماً. وبعث كل هذا التحول في الطقس الكرب في نفسه. وغدت مزحات نيكولاي محرّجة بالنسبة له، ولم يعرف كيف يردّ عليها: ولم يرغب بإبداء الاستياء منه، ولم يقرر الردّ عليه بظرافة، ولم يعرف كيف يقوم بذلك. وقلّ إعجابه بنيكولاي نفسه أكثر فأكثر، فقد كان يُذكره بلا توقّف، بأنه هو السيّد هنا، وأنه يرتبط بعلاقات قديمة بكل ما يحيط بهما، بدءاً من الدلو في الكوخ، وانتهاءً بأطراف منطقة باختا. وخيّل لفاسكا أنه حتى حاجيات زميله تنظر له بتفوّق وتعالٍ، ولا سيما الرفّ الذي امتلأ، ورُصّ بإتقان بعلب رصاص السنارات، والتبغ، والسجائر. وتصوّر إذا ما طلب منه نيكولاي الجلوس خلف المحرّك، فحتماً من أجل أن يرى فاسكا، كيف أنه يعمل لديه بصورة جيدة. وخيّل له أن نيكولاي يبحث طيلة الوقت عن ذريعة لانتقاده ومماحكته، فعندما يقوم بقطع الخبز قطعاً سميكة، يقول له: «قمت بقطع الخبز إلى قطع كبيرة، خرقاء الشكل»، وإذا كانت القطع صغيرة قال: «إنها قطع شقّافة، يمكن رؤية النافذة من خلالها»، لذلك حرص على قطع الخبز بحجم متوسط، وعلى العموم تجنّب أن يكون البادئ في القيام بأي عمل كان.

لم يعد بوسع فاسكا التوقّف عن تأملاته. لقد قرّف من وجه نيكولاي، إنه وجه جاف بلحية صهباء، وعينين جاحظتين صفراوين، تنسدل عليهما عندما يمضغ جفوناً كثيفة فيها نمش، ويتحرّك أحدها صعوداً وهبوطاً على وقع الفكّين. لم يعجبه أكثر فأكثر أكواخه الصغيرة المنخفضة. جسّ فاسكا الورم على جبهته، الذي أحدثه ارتطامه بعارضة سقف الكوخ المنخفضة. وتخيّل ما كان سيقول والده عن هذا: ربما شيء من هذا القبيل: «لقد رغبت بالعمل في الغابة، ولكنك بلا دماغ تفكّر به». لم يعجب فاسكا ترتيب أكواخ الصيادين: فهي مرتبة في كل مكان على وتيرة واحدة؛ الطاولة بجانب النافذة، والتخوت على الجوانب. كان فاسكا منزعاً بشكل خاصّ من هذا الكوخ الذي يقيم فيه مع نيكولاي، حيث تمّ بناؤه لسبب ما على أرض منحدرّة بشكل شديد، ومائل في وقت واحد إلى

اتجاهين، بحيث عندما يدخله المرء، يتلقى أولاً ضربة من الباب على ظهره، ومن ثم يتعين عليه أن يتمايل على أرضية منحنية، لكي يتلافى السقوط على الموقد.

تخيّل فاسكا وهو يغمض عينيه نهر باختا، الذي انطلقوا فيه خلال عدّة أيام صعوداً بزورقهما الذي نقل فيه الحمولة. وبدا له كنهر واسع وغير جذّاب، مليء بالأحجار التي لانهاية لها، وعلى جانبيه أسنة أرضية متقدمة من الساحل، وصخور منحدرّة تبدو كأنها من الأجر، وعلى طول الضفاف امتدّت كشبكة، غصون كثيفة من شجر اللاركس التي تساقطت أوراقها في الخريف. جفل فاسكا عندما تذكر المنحدرات النهرية التي مرّوا بها، وبدت له كأن أمواجها كانت مبهجة من دون سبب، ودقّ محرّك الزورق بالحجارة، وزجاجة التصريف المشدودة، التي ظهرت من خلالها حافة الحجر الأخضر الذي يفرش قاع النهر. ثم بدأ يفكّر في أسماء أنهار المنطقة غير اللاتقة تماماً على نحو: «النهير المسكين»، أو «النهير البارد»، أو حتى أسوأ من ذلك: «هيجامي» و«يكي» أو «يادوكتا»، التي استبدلها نيكولاي، وهو أمر يحسب له، بمسمّى روسي، «ياغودكا» (التمر)، والمسألة الأخرى الأسماء اللاتقة للأنهار مثل «النهر الأعلى» و«مروج أندرونوفسكي»، و«نهير اليوشكين». وتذكر فاسكا بشوق لا يطاق قريته، ونهر ينيسي، والبحيرة على الجانب الأيسر من قريتهم، حيث أمضى الربيع مع والده، وتذكر شمس مايو، والضفاف الترابية لنهر «سارتيشا» الذي يمكن الولوج منه عبر قناة إلى البحيرة الطويلة، وتذكر البيت الريفي الخشبي القائم في غابة كثيفة من أشجار التنوب المدبية، والرائحة الضاربة إلى المرارة لأشجار الصفصاف التي ترتعش أغصانها المتدلّية في النهر، بتأثير التيار الجاري، والطبقات الرقيقة من الغرين الذي يتركه الماء على سيقانها، وفقاً لمستوى ارتفاعه وانخفاضه، فتبقى مثل شرائط متتالية.

لقد حدث أن اصطاد مع والده في الشبكة سمكة شبوط ضخمة، وأدهش فاسكا شكلها الأسطوري: فقد كانت بلون ذهبي داكن، وصدفها بحجم قطعة نقد معدنية، وأوحت نظرات عينها المنتفختين، وفمها المنفرج قليلاً، له بتعبير وجه بشري متعجرف. وفي مرة أخرى شقّ فاسكا طريقه خلال الصباح الباكر في قارب من جذع شجرة مجوّف، وسار في غابة من أشجار الشوح غمرتها المياه، فتناهت إلى سمعه بالقرب منه تماماً، وأمامه، صرخات طيور بريّة، رقيقة تشبه رنين الأجراس، فخرج من الدغل، ورأى بجعتين عائميتين على سطح بحيرة يشبه المرآة تماماً، وعندما اقترب منهما، أدارتا رأسيهما ذواتيّ المنقارين المائلين إلى الصفرة، وطارتا ببطء، منفصلتين عن انعكاساتهما في الماء، تاركتين مسارين تناثرا على الماء. وفي الوقت الذي قامت فيه بدورة فوق غابة الشوح، وبلغنا ارتفاعاً عالياً، تصايحتا، وحلقتا فوق فاسكا، وتحركت أجنحتهما المنحنية، على مهل وبشكل أسطوري أيضاً.

ذات مرة ذهب والده إلى القرية لتسليم ما اصطاده من السمك، وبقي ليوم واحد هناك. وبعد أن بات فاسكا ليلته، ذهب لإلقاء نظرة على شبكة الصيد، وانغمز في العمل إلى درجة أنه لم يثب إلى رشده إلا في المساء، وهو في قارب مثقل بالأسمك، وبعدما أدار المجذاف بصعوبة، دخل عبّر قناة ضيقة في بحيرة، اكتسب سطحها لون السماء الفضية التي انعكست فيها، حيث تعلّق على سحابة معكوسة في الماء، صقّان من شجر الشوح، وفي الوسط خط الضفة، الذي بالكاد يمكن رؤيته مع نصفي القارب، وعمودا دخان مقوّسان. وكان أبوه يجلس بجانب موقد النار على الطريق المؤدية إلى الماء، مُقلّباً في أنية كبيرة، القشدة الحامضة مع الثوم البريّ المفروم ناعماً.

بقيت في ذاكرة فاسكا طيلة حياته تلك الليلة المضيئة والقصيرة. كان الأب راقداً على جانبه، وهو ينظر عبر لهيب النار الخامدة إلى الماء المترجرج، ويسند رأسه على يد، ويحتضن باليد الأخرى فاسكا الذي مَالَ إليه. لم يَرِ فاسكا أباه مستغرقاً في التفكير على هذا النحو، ولم يضع يده أبداً على كتف فاسكا بهذه الصورة الحانية، ولم يشعر الابن أبداً بمثل هذه السعادة، وبمثل هذا التعب الذي استمرّ في هدهدته كغصن. وعندما أغلق عينيه، دار في خلدّه أنه يستخلص من شبكةٍ لا نهاية لها سمكاً أبيض فضياً، تنبعث منه رائحة الخيار. حمل الأب فاسكا إلى الكوخ، وعاد إلى الشاطئ لجمع الخبز المتبقي، وحينما كان يستعد بنفسه للنوم، لاحظ وهو يدير فتيل المصباح، كيف تشنجت يد فاسكا النائم، ذات الأصابع الحمراء المنتفخة.

غرق والده في صيف ذلك العام. ولم يعرف أحد كيف حدث هذا، عثروا فقط على قاربه الذي وصل إلى الجزيرة وهو مملوء بالرمل. وبقي فاسكا وحيداً مع جدّته، فقد توفيت والدته، وهو مازال صغيراً تماماً.

2

انصرمت ثلاثة أشهر على ذلك اليوم الماطر. اقترب فاسكا وهو يسير على سطح نهر (نيما) الأبيض المتجمد، في يوم صافٍ يسوده الزمهرير، من كوخ الصيادين البعيد القائم عند مصب مجرى مائي، لم يتجمد وسط غابة صنوبرية فسيحة ومشرقة. كان الصباح قارساً جداً. وكان البخار يخرج من فمه في سيل كثيف، ويتبدد مقروناً بحفيف.

حلّق غراب فوق النهر على ارتفاع منخفض وهو يرفرف بجناحيه، ومال نحو الكوخ. وكان بوسع المرء رؤية الرّغب المكسو بالجليد عند فُتْحَتِي أنفه. ونبج الكلب على الغراب من دون سبب، وما لبث أن لاذ بالصمت وأغض عينيه. كل هذا أبهج فاسكا جداً، ومنحه مزاجاً طيباً طوال اليوم. لم يُنخِ الزمهرير له فرصةً للتباطؤ، فقطع الطريق في خمس ساعات. وقنص ثلاثة مسامير. وكان الثلج يتلألأ، واكتسبت الظلال لوناً أزرق كثيفاً، وامتدّ خلف الزلاجة أثر مُدرج ناعم. ولاحظ فاسكا أن هناك نقصاً في عدد الفخاخ المنصوبة في الطريق حتى الكوخ، وفكّر بارتياح، وهو ينزلق فوق الأغصان الرنانة باتجاه النهر: «كل شيء سيكون على ما يُرام، سأظفر بها في العام القادم».

تدفّق الماء في أحد الأماكن المكسوة بالجليد، وتجمد وأصبح كالبورات. هبطت طيور القرزبيل الحمراء السمينة عليها، وقضمت بمناقيرها الشبيهة بمقصّ تالف، قَطَع هذا البلور الشبيه بالنجوم الخضراء. وانحنت الطيور عليها بهمةً ولصقت مناقيرها بالجليد، وتجلّت في حركاتها جراءة مضحكة.

تفضّضت تحت السماء التي مازالت مضيئة، أغصان أشجار الصنوبر الرقيقة المقوسة مثل قرون الحيوانات. وتعلّق شريط من البخار فوق الأخدود. ولاح خلف الرأس الممتد من الضفة، مجرى نهر مستقيم طويل، وفوقه رابية بقمّة طباشيرية.

مازال الثلج يغمر البرميل القائم عند الكوخ، والجذع الذي انغرزت فيه فأس قبل أسبوعين، وغطّى الثلج الأزرق كل شيء في المكان. حرّر فاسكا قدميه من الزلاجة بتمهل، وخلع بندقية الصيد

والحقيبية الصغيرة وحقيبية الظهر، ودخل منحنيًا في الكوخ الغارق في ظلام صقيعي. وقبل إشعال الموقد، ضرب أنبوب الموقد بقطعة من الخشب لتنظيفه. وجواباً على ذلك سقطت منه قطعة من الثلج مصحوبة بحسيس. ومن ثم، لم يتراخ، وارتدى زلاجته، وحمل من كومة الحطب عدّة قطع من جذوع الأشجار، التي بدا له أنها تكسّرت حتى قيل أن تلمسها الفأس، وتحوّلت إلى كتل حطب ليفية ضاربة إلى اللون البرتقالي. ثم نزل حاملاً الدلو إلى أخدود عند ضفة الجدول، وكان الجليد قد غطّى ضفاف الجدول، وتراءت خلال المياه الداكنة المتبخرة الحجارة في القاع. في تلك الأثناء انشقت قطعة جليد، واستدارت وهي ترسل حفيفاً. وتأثّر فاسكا للغاية مرة أخرى لدى رؤية حيوية النهيرات والجدول الشتوية هذه، التي تستمر عادة في الخريف الغامض في أي صقيع كان. وصعد فاسكا راجعاً إلى الكوخ، وأصغى ببهجة شخص متعب، إلى صدى النقرات والدوي المتصاعد في أنبوب الموقد العالي، الذي بدأ ينطلق منه في أعقاب الدخان الكثيف، هواءً ساخن شفاف، وشرر متطاير.

لاحت تباشير الغسق، وتلاشى آخر الدفء في قبة السماء الواسعة. وتعالى خرير ماء الجدول الناجم عن احتكاكه بالأحجار، بصوت صقيعيّ حادّ وواضح بشكل خاص. وارتفعت درجة الحرارة في الكوخ، وتألّق الموقد بلون أحمرّ ياقوتي، وطافت في الطنجرة قطعة مجمدة من لحم الطيهوج، وعلّق فاسكا المسامير التي قنصها، ونزع الفقطان الذي كسا الثلج داخله من الجانبين، وعلّقه على المسامير خلف الموقد لتجفيفه، ومن ثم، وعلى الرغم من شعوره الشديد بالجوع الذي عصر معدته، نزع حذاءه بأناءٍ، وشرع يأكل فقط بعد أن علّق بعناية في أماكنها المألوفة سراويل السير في المستنقعات، وما حملته الجدّة له من أحزمة ملونة لشدّ الحقائب، وحشاية الحذاء، وقطع القماش التي يلّفها حول قدميه عوضاً عن الجوارب. وبعد أن تناول الشاي، وضع طعام الكلب على الموقد لتدفئته، وارتقى على السرير الخشبي، وتسمّر في مكانه وهو يعيش متعة هذه اللحظة التي طال انتظارها.

كان فتيل المصباح يحترق بصورة رتيبة، وتمايلت ذؤابة اللهب الذهبية قليلاً خلف زجاجة بصلية الشكل تمّ تنظيفها جيداً. في مثل هذا الضوء يوجد دائماً شيء قديم ومهيب، متنسق للغاية مع جوّ تلك التقوى، التي تصاحب حياة الوحدة التي يعيشها الصياد، ولا يمكن التعبير عنها. في هذه اللحظات، استولت على فاسكا موجة من الحب لكل ما يحيط به، ولا يقارن بتلك الساعات الطويلة من التعب والبرد والفشل التي لا تعني شيئاً بالنسبة له. تقرّس بجدران الكوخ الداكنة، وأبدى إعجابه بمدى جودة بناء الزاوية الخشبية، وكيف تراصفت العوارض الواحدة تلو الأخرى بإحكام، ويتدلّى قطعة قماش لفّ القدم، وببساطة وجمال عارضة السقف التي تمّ صقلها حتى اللمعان. ونما فيه اعترافٌ غريزي بحياته، وبهذا التناوب اللامتناهي بين اللحظات الشاقة والبديعة، وبشعور البراءة الذي يُمنح فقط للمغمسين في التأمل في جوهر الوجود.

3

نادراً ما كان فاسكا يلتقي بنيكولاي، ويحدث ذلك مرة أو مرتين في الشهر، وغالباً ما كانا يلتقيان في الكوخ الرئيسي، ويحدّدان مسبقاً وقت التقائهما، لكي يأتيا إلى الكوخ في نفس اليوم. وعندما يحل ذلك اليوم، يساور فاسكا القلق منذ المساء، ويستيقظ أبكر بكثير من الوقت الذي اعتاد النهوض فيه. وعندما يقترب، وهو يسير على امتداد ضفة باختا، إلى المنخفض الناجم عن تدفق

السيول المألوف لديه، يتطلع من مسافة بعيدة إلى مسار التزلج في الثلج، أو عمود الدخان المتصاعد في وسط الغابة، التي جعلتها انعكاسات الثلج المتبقي فيها متعددة التلاوين، لكنه كان عادة أول مَنْ يصل إلى الكوخ، حاملاً على الزلاجة حطباً لموقد الحمام، ويظل يتصنّت، ويهرع إلى الربوة المرتفعة، على أمل أن يرى من مسافة بعيدة، عند الرأس النهري، ثلاث نقاط متحركة: نيكولاي وكلباه. ثم يعود إلى الكوخ، ويطول انتظاره، فيشرب الشاي، ويدير جهاز اللاسلكي. وبغثة يثب مندفعاً إلى الخارج بلا قبعة، لدى سماعه نباح الكلاب العالي، ويتخلّص من الكلاب التي تعترضه مرحبة، ويتناهى إلى سمعه الحفيف الرتيب والبعيد للزلاجات.

وسرعان ما يظهر نيكولاي أبيض الهيئة متلفعاً بالثلج بالكامل، وبلحية بيضاء، وقد وضع مجرفة من خشب البتولا تحت إبطه، وعلّق بحزامه سنجاباً ملطّخاً بالدماء، ولمعت قطع جليدية رقيقة على شاربه، وبالكاد انفرجت شفاته المتجمدتان، عن ابتسامة.

في بعض الأحيان، كانا يتبادلان الأدوار، فيأتي نيكولاي الأول إلى الكوخ، وكان فاسكا يبتهج كثيراً، حين يمضي في البداية وقتاً مع سمورٍ عالقي في شجرة أرز سميكة وشعناء، بعد إطلاق النار عليه ومن ثم يقترّب في مسار تزلج حديث العهد، من نافذة الكوخ، ويرى كيف تخفق في العنمة ذؤابة اللهب الصهباء فوق أنبوبة الموقد. بينما يتدفّق البخار من الباب نصف المفتوح، وفي داخل الكوخ كانت تتقلّى في المقلاة طيور طيهوج البندق. وهناك يستلقي نيكولاي متخماً ومسترخياً، وهو يستمع بغبطة كبيرة، إلى محادثات من جهاز الاتصال اللاسلكي الذي يربط بين أكواخ الصيادين وإدارتهم، وكان الحديث يجري بين نقطتين: الأولى يطلق عليها «الثالثة عشرة» والثانية «نقطة العبور»، ويدور الكلام حول طريقة ترميم دلو «مثقوب»، فتخرج أصواتهم من الجهاز حادة كأصوات دمي أطفال.

وحدث ذات مرة، في اليوم التالي للقاء كهذا، أن عاد فاسكا من الطريق، فرأى شريكه على السطح وهو يلقي بمجرفة مكعبات الثلج مقرونة بالصرير. وكان يودّ مساعدته، ولكن نيكولاي صدّه بانزعاج، وقال له: كان بوسعك أن تدرك منذ فترة طويلة، بأنه إذا تهاوت السقوف، فلن يقوم أي أحد بدلاً منك بإعادة بنائها. ارتجفت شفتا فاسكا من شدة الاستياء، وانزوى في الكوخ ليشرب الشاي، الذي بدا له على الفور بأنه من دون طعم، بالرغم من أنه كان يحلم به طوال اليوم. وأصبح لاحقاً أكثر انتباهاً. فعندما لاحظ أن نيكولاي، يترك دائماً عندما يخرج، حطباً مقطّعاً بقطع صغيرة حتى أكثر من اللازم، وصار هو يترك كمية أكبر، ومقطعة إلى قطع أصغر، وقام بينهما شيء مثل اللعبة التي تزداد فيها الرهانات، وخرج منها فاسكا منتصراً. وعندما لاحظ نيكولاي أنّ فاسكا وديع الأخلاق، وأثنى على مثابرتة في الصيد، أصبح مرة بعد أخرى أكثر طيبةً تجاهه، ويميل إلى تبادل الحديث معه. جلسا في ليلة رأس السنة حتى الساعة الخامسة صباحاً. وكان نيكولاي أول من تذكر حادث الثلج على سطح الكوخ، واعترف بأنه «بعد تصرّفه آنذاك شعر نفسه بالمعانة». وأردف قائلاً: «على الأرجح أن اللسان غير عاجز عن شرح كل شيء بكلمة طيبة، بدلاً من الصراخ الذي لا جدوى منه». وشرب زجاجة خمر حتى الثمالة تقريباً. ومن ثم تذكر فاسكا لفترة طويلة حكايات نيكولاي عن شركاء له في العمل، بلداء، وكان لدى نيكولاي مجموعة كبيرة منهم، ورغم أن أحدهم ليس أفضل من الآخر، بيد أنهم كانوا يغيطونه بمختلف الأشكال.

تحدث عن الصياد بوركا، الذي كان يردّد طوال الوقت في اجتماعات الصيادين وبنفاق: «إن العمل في التايغا ليس مثل تجرع الفودكا». حلّق نيكولاي مع بوركا في ذلك العام على متن مروحية. وقسم نيكولاي الشحنة التي حملاها إلى جزأين: أنزل أحدهما مع بوركا في الكوخ الرئيسي، وحلّق هو مع الجزء الآخر إلى منطقة ياغودكا، حيث كان يجب على بوركا المجيء ونقله من هناك بالقرب. بيد أن الوقت انصرم، ولم يظهر بوركا. وشعر نيكولاي بالقلق عليه، فذهب بنفسه إلى شريكه، وسار يومين، وتبلّل حتى العظام، قاطعاً الطريق عبر «خيجمي»، وعثر على بوركا في كوخ دافئ سليماً ومعافى، يشخر وهو يغط في النوم وسط قناني الفودكا الفارغة. وفكر نيكولاي في دخيلته ساخراً منه، «لم يُبقِ الوغد حتى رشفة واحدة». لكن الأمر انتهى ببساطة: ففي اليوم التالي ساعد بوركا على سحب قارب خشبي قديم إلى الماء، وجعله يغادر قسراً على متنه إلى القرية.

ذات مرة كاد نيكولاي أن يموت، لإصابته بالتهاب الزائدة الدودية. وكانت محطة اللاسلكي، التي يمكن من خلالها استدعاء مروحية الإسعاف الطبي، كالعادة في منطقة خولدون البعيدة، بينما أصاب نيكولاي الالتهاب الخطير في الجانب الآخر من المنطقة. وسار إلى هناك على مدى عدّة أيام، وهو يعرج ويتعثّر، ووصل ليلاً، وبأعجوبة وجد في محطة اللاسلكي صياداً من القرية المجاورة، ساعده على الاتصال بدائرة الإسعاف لإرسال مروحية لنقله.

أقلعت المروحية من المدينة، وذهب نيكولاي بنفسه للقائها في بلدة باختا. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى هناك، فقد سقط مغشياً عليه من شدّة الألم، وهو في الطريق إلى باختا. ووجد رجال الإسعاف بعد ذلك مستلقياً في الثلج، فاقداً للوعي، وبيده مصباح يد يضيء بصورة باهتة.

كان نيكولاي قد وضع في كل كوخ دفترًا مدرسيًا لكي يكتب كل صياد أثناء تواجده هناك تقريراً ملخصاً عن تنقلاته. وقرأ فاسكا ذات مرة في أحد الدفاتر تقريراً بخط جميل، جاء فيه: أن الصياد شلياخوف وصل من منطقة خولدونا، (التي لم يسمع فاسكا شيئاً عنها ولم يرها). وكتب صياد آخر: إنه ذهب إلى منطقة ياغودكا، وأن الزمهرير بلغ كذا درجة. بيد أن فاسكا يتذكر على وجه الخصوص تقريراً آخر، كتبه صياد وهو على ما يبدو يفارق الحياة، وانتهى بالعبارة التالية «... أكتب، وأنا جاثٍ على ركبتي، من المؤسف أنني عشت سنوات قليلة».

بدأ فاسكا بالتدريج يتفهم، بأن السبب الكامن وراء حدّة مزاج نيكولاي لا يكمن في طبعه العدوانى والمؤذي، وإنما في انعدام الثقة العادي لدى إنسان عركته الحياة. وشعر بارتياح بأن انعدام الثقة بينهما أصبح يتضاءل شيئاً فشيئاً. وشع الدفء في روح فاسكا على وجه الخصوص، عندما ظهر في أحد الأكواخ جهاز خراطة لفّ أسلاك صنعه نيكولاي بنفسه، على غرار جهاز الخراطة الذي قام فاسكا بصنعه.

علماً أنّ أكثر ما أدهش فاسكا في العلاقات مع الناس، الانخداع بمظهرهم الخارجي. كان دائماً يستمتع بمتعة للأحاديث التي تدور في جهاز اللاسلكي، وحتى استحدث لعبة: تصوّر مختلف الصيادين من خلال أصواتهم، ومن ثم ضبط الصورة التي رسمها مع حقيقة الشخصية لدى نيكولاي. وغالباً ما ظهرت النتيجة على عكس ما كان يعتقد. فقد ظهر أن الصياد الغريب الأطوار

والمتلعثم، الملقب بـ«البليد»، أفضل صياد في المنطقة، أما الصياد الحيوي الذي يغني جيداً بصوت عميق والملقب بـ«الطفيلي»، فقد ظهر أنه ثرثار، وكسول، وهزئت به القرية بأسرها. وكان هناك أيضاً شخص يتحدث من النقطة «الخامسة عشرة». لقد تكلم بصوت حادّ ساخط ومتبرّم، وتلمظ بشفتيه في حديثه، وبدا وكأن الآخرين دائماً يضايقونه، كما لو أنهم صرفوه عن التهام شيء ما لذيّذ. لم يعجب فاسكا بنبرته المتسلطة، وعادته في توجيه الملاحظات للجميع. كانت لدى «الخامس عشر» عائلة كبيرة، وكان يتحدث مع أفرادها بلا نهاية، وغالباً ما كان يقاطع أحاديث الآخرين، طالباً بالألا يزعجوه، وألا «يُغرقوا» الأثير بالأحاديث الفارغة. وتراه يخرج للصيد مع ابنه، الذي كان مثل فاسكا يمارس الصيد لأول مرة. ولدى هذا الابن صوت شبيه بصوت الأب، واسمه كذلك «جينادي» كأبيه، حتى إنّ فاسكا كان في البداية يخلط بينهما، لأن جينادي الابن يلمظ بشفتيه أيضاً في كلامه، ويتسم بالغرسة بقدر لا يقلّ عن أبيه، وكأنه يلمح للسامع بأنه رغم صغر سنه، هو أيضاً «الخامس عشر».

ذات مرة جاء فاسكا إلى الكوخ جائعاً جداً، لدرجة أنه لم ينتظر ذوبان العشاء المجمد، فألثّم قطعة عصير من الفواكه المجمدة. وعقب هذا تناول كوبين من حساء «البورش»، وقبل النوم التهم بسرعة صحناً من الرز مع لحم القطا، واستيقظ قبيل الصباح من وجع لا يُحتمل في البطن، وظلّ طيلة اليوم طريح الفراش، وظهر أن جينادي الابن كان مريضاً أيضاً، فاستغلّ الهدوء السائد، وتحدث قبيل الغداء مع زوجته الشابة، زدّ على ذلك، واصل في البداية، وبحكم العادة محاكاة «الخامس عشر»، ومن ثم راح، وبصورة مفاجئة يثرثر قائلاً: «اشتقت لك كل الشوق»، في غضون ذلك لم يبارح فاسكا الشعور بأنه يتصنّت إلى حديث غريب، فارتبك جداً، وأغلق جهاز اللاسلكي.

4

كان فاسكا طوال الوقت يفكر بجذته. كانت الجدة قصيرة القامة ونحيفة، تشبه فرخ البومة²، وتبدو ناعمة بين المناديل والبلوزات التي كانت ترتديها، وتفوح من ملابسها البالية رائحة زيت السمك والبطاطس، ولاحقته برعايتها من مسافة بعيدة. والآن، وبعد أن فارقها فترة طويلة، صبر فاسكا على اهتمامها به من دون انزعاج، وكان يبتسم في كل مرة يتذكر فيها كيف صانته بالحاح محرج من تناول الفودكا، أو كيف ضايقته بالنصائح قبل سفره: «ستصبح باختا صقيعيّة، لا تمش على الجليد».

ولكنه كان في كثير من الأحيان يفكر فيها بامتنان وقلق، ويتخيّل كيف أنها تتأوه وتئن وهي تقطع الخشب، وكيف تحمل الماء من نهر ينيسي ببرميل في زلاجة يجرها الكلب ذو الشعر الأشقر، وكيف تجرّ في الصباح المظلم قدميها بتناقل، ويبيدها الفانوس إلى مكتب الشركة، لكي تعرف «إذا كان هنا أي شيء، قد وصلهم عن حفيدها فاسكا».

وتذكر فاسكا أيضاً يوم سفره مع نيكولاي من قريتهم إلى باختا، كان يوماً عاصفاً. ويتذكر كيف تدرجت من النهر على الحصى الجليدية موجة باردة لا ترحم، ودفعت نيكولاي المبلّل وهو يشتمّ الزورق المثقل بشحنة من الحمولات، عن الشاطئ، وانتزعت الريح غطاء الشحنة، وراح

فاسكا، وهو يتصيب عرقاً يطارد الكلب الذي حلّ رباطه، وهرب. وحينما صرخت الجدة للمرة العاشرة وهي تمطّ مقطع «يا»: «هل أخذت الفقايز يا فاسيا- يا يا؟»، ردّ عليها آنذاك بحدة وفضاظة، لدرجة أنه حين يتذكر الآن ذلك يتضجّ خجلاً.

ومن أجل أن يخمد في نفسه شعور الخجل هذا، فكّر فاسكا بكل جوارحه، كيف سيسهر على راحة جدّته عندما يعود، وكيف أنهما، وبعد أن أصبح راشداً وقوياً الآن سيعيشان معاً حياة جيدة، وعن أنه في المرة القادمة حتما سيقطع لها الحطب، حتى يكفيها طوال فصل الشتاء.

مع اقتراب نهاية موسم الصيد، استولت عليه رغبة شديدة في العودة إلى البيت، ولكن عندما حلّ صباح اليوم الأخير للموسم، وقام هو ونيكولاي بتنظيف الكوخ، وإلقاء بقايا الأسماك للكلاب، التي راحت تتقافز، انتاب فاسكا بغتة حزن فظيع، وساوره الأسف على الكوخ الذي سيكون خاوياً بعد قليل، وعلى مسار التزلج الذي لم يُغطه الثلج، والذي تزلق عليه أمس، ولن يكون بحاجة إليه مرة أخرى أبداً، وعلى اليوم الذي يطول نهاره، والجو المشمس الذي سيكون من دون طائل. ولكن في الدقائق اللاحقة ساورته مشاعر سارة مشحونة بالقلق، وشعر بتلهف وشوق للرحلة القادمة.

أمضيا الليلة الأخيرة في كوخ غير بعيد عن قريتهما. وكان صاحبه شاب أنهى موسم الصيد ورحل إلى منزله، تاركاً في كيس ملون معلق على مسمار، كعكاً جرى تحضيره في المنزل. لم يتمالك فاسكا نفسه فأكل نصف الكعك اللذيذ، واضطجع على التخت، وغطّ في نوم عميق. أيقظه نيكولاي عند الفجر، وهو في منتصف حلم مضطرب. كان الموقد يقطع، وضوء النافذة يميل إلى الزرقة، وانبعثت من اللاسلكي أصوات مشوشة. تقرّس نيكولاي الذي بدا نشيطاً بشكل غريب، في فاسكا بإمعان، كما لو أنه قرر شيئاً ما، وقال له وهو يزفر في الهواء:

- اسمع يا فاسيلي. لقد تحدثت الآن مع القرية باللاسلكي. لقد توقّيت جدّتك.

شعر فاسكا كما لو أن الجليد قد انشقّ تحته، واستيقظ الآن بسبب البرد المتدفّق، بشكل فعلي، وعندما نظر حوله لم يكن بوسعهم أن يفهم، لماذا كان نيكولاي ينام وهو يصدر صغيراً أجش من أنفه، بشكل تلقائي وميكانيكي، بينما فتيل المصباح بالكاد يشتعل، من غير مبالاة وبلا حراك. ما عايشه في الحلم كان قوياً، إلى درجة أنه شعر وهو راقد على التخت، وعيناه مفتوحتان، كيف أن كل شيء استمر في الغرق، والبرد قد تغلغل في جسده حتى العظام، وتهدّياً له أنه صار مرة أخرى كطفل أبدي وعاجز، كما لو لم يكن هناك أبداً في القلب بهجة أثارها الصقيع، والثلاثون سمورة التي اصطادها، والمطروحة في حقيبة الظهر، بل يوجد فقط خوف أزلي يكشفه الحلم، لروح ضائعة تشعر بالوحدة. نهض فاسكا من تخته، وأشعل الموقد، وبدأت النار تزفر، وطفق كل شيء يتحرّك من مكانه، تكتكت الساعة على الطاولة، وتحرك نيكولاي، وكانت الكلاب تهرّ هريراً خلف الباب.

حلّ يوم السفر، وتوجّها إلى القرية، بيد أن الخوف لازم فاسكا طيلة الوقت، وخلال سيرهما في الطريق المطروحة جيداً، وعندما استقبلوهما في مزرعة تربية الحيوانات التي يعملان لصالحها، وفروا لهما جرّاراً وزحافة ليصلا على متنها لمنزلهما، ورافقوهما حينما مرّا بجوار البيوت التي تراكم عليها الثلج، وهما في الزحافة وسط دخان حادّ ينفثه الأنبوب العادم للجرّار، ولازمه الخوف أيضاً، وهما يمرّان بجوار الكلاب التي طغى هدير محرّك الجرّار على نباحها، فلم يعد مسموعاً،

وبقيتُ بدونهِ مجرد رؤوسٍ مرتعشة خرقاء، فاغرة الأفواه. ومن ثم لاح لهما منزل فاسكا القائم على الربوة، وكانت جدّته تقف هناك، تحت السقيفة في شال أحمر وقميص، وتحتضن حزمة من الحطب، وحينما هرع إليها وتعانقا، وخَفَتَ هدير المحرّك، كانت الجدّة تبحث بوجهها المجعّد عن شيء ما في صدره، فيما راح هو يُمسّد ظهرها، الذي شعر بارتعاشته عبر سترتها المبطّنة، وردّد بلا وعي منه: «لا بأس، لا بأس، سيكون كل شيء على ما يُرام»، وفوق ينيسي العريض دفعت الريح الغبار الأزرق، وتحركت جمرة الشمس الرائعة في الأفق المتعرج.

قبلة قنديل البحر فاسيلي أفتشينكو

إلى ألكسندر مارتسون

الذي فارق الحياة في خليج أمور

شعرتُ بألم حارق وأنا أخوض في ماء الشاطئ المكتظ بالطحالب، كما لو أن شخصاً ما قد وضع «وابور» لحام حديدٍ ساخناً، على منطقة الجلد الحساسة من الجانب الداخلي لركبتي.

حدث لي هذا في منطقة «تشايك»، ليس بعيداً عن منزلي. ذهبت للسباحة بصحبة أصدقائي الذين جاؤوا لزيارتنا من سيبيريا. هبطتُ بهم من على التلّ، وعَبَرْنَا قضبان السكة الحديدية، وها هو البحر ينبسط أمامنا. واقتدْتُ الأصدقاء السيبيريين إلى هناك.

لقد عشت في فلاديفستوك ثلاثين عاماً ونيفاً، بينما أمضيت في البحر ربما ما يعادل سنةً تقويمية. ولم يلدغني القنديل المسمّى بـ«صليب البحر»⁵، ولا مرة واحدة. حتى إنّي ظننت في بعض الأحيان، أنّ قناديل «صليب البحر» الشريرة كانت خرافةً مختلفة، مثل الإنسان الطائر الذي زعموا في قريتنا أنهم وجدوه في «التايغا» على جبل «بيدان»، أو حديث أهل القرية عن تحطّم سفينة فضائية في منطقة «دالني جورسك»، في عام 1986، على «ارتفاع 611 متراً». لم أكن أوّمن بخطورة قنديل البحر، مثلما يؤمن البعض بخطر إصابة أبناء بريموريه الأصليين بالتهاب الدماغ من

الفراد، ويزعمون أنّ الجوّ قام عندنا منذ زمن بعيد، بتطعيم الجميع بلقاح مضادّ للإصابة بهذا المرض، وهم معتادون عليه في منطقتنا...

وبشكل عام، نحن عادة لا نخاف قناديل البحر. ولكن قد يسحب الواحد منّا يده اشمئزاً منها، عندما يصطدم في الماء بكتلة ضخمة ضاربة إلى الحمرة، ذات مَجَسَّات متدلية للأسفل بحجم كفّ اليد الواحدة أو الاثنتين. وكثّاً في الطفولة نلعب لعبة الغميضة، باستعمال قنديل البحر الشبيه بمادة الجلاتين، (وقد عرفت مؤخراً أنّ هذا النوع من القناديل يسمى: أوريليا)، فعندما يكتشف اللاعب الرئيس، أحد اللاعبين المختبئين، يضربه بالقنديل. واستخدم الأطفال الموهوبون، لنفس الغرض قنفاذ البحر، وهي كائنات سوداء، غير صالحة للأكل. إذ يتمّ ضرب اللاعب الذي يتمّ اكتشافه بها، فتتغرز أشواكها بجلده، ومن ثم يروح يستلّها من تحت جلده لفترة طويلة.

بيد أن الذي لسعني هذه المرة كان «قنديل صليب البحر» وليس غيره. كان قنديل البحر صغيراً، وهو عبارة عن مظلة قطرها سنتمترين أو ثلاثة. يجب هذا القنديل السام أعشاب البحر النامية، والمياه الموحلة الدافئة عند الشاطئ. ومن الصعب رؤية «قنديل البحر»، وتتمّ رؤيته فقط بفضل القبة الشفافة التي يختبئ تحتها. ويحصل هذا القنديل المفترس الضئيل الحجم على طعامه، من خلال مجاسه السامة. وهو بالطبع غير قادر على قتل شخص، لكنه يؤذيه.

بعد أن نفضت عن قدمي كتلة المخاط التي بقيت من اللمسة الحارقة، غسلتُ مكان هذه اللسعة بماء البحر، فهو ذو خصائص علاجية، لأنه يحتوي على اليود، وتلتئم الجروح بمساعدته بسرعة. بقي الشعور بالحرق في ساقي لفترة من الوقت، ومن ثم تلاشت. وفي طريقي إلى البيت نسيت تماماً لسعة قنديل البحر.

الإنسان: مخلوق برّي يكتب الروايات عن الذئاب والحياد والكلاب والديبة. ولا يكتب روايات عن الأسماك وقناديل البحر. وكما كتب البحار وفيلسوف البحر الروسي فيكتور كونيتسكي: «عاشت الأسماك دوماً في عالم غريب عنا، ونحن لم نلتق بها، ولم نسمع كيف أنّها تغمغم، أو تُثأثئ في الحديث مع بعضها، نحن لم نمسح بيدينا برفق الأسماك الصغيرة، كما نمسح أذن عجل. لذلك لم يكن بالإمكان نشوء الحب في نفوسنا لها، إنّها باردة وزلقة. لذلك نحن اليوم، نحصد السمك بشباك الصيد الكبيرة أسراباً، مثلما نحصد أعواد القصب، أي أننا في الوقت نفسه لا نشعر بأي مشاعر رحمة وعطف حيالها».

لكنني ارتبطتُ بالبحر، تحديداً، بعلاقة شخصيّة، عميقة وحميمية. ليس على سبيل المثال، كعلاقتي بغابات التايغا، وعلى الرغم من أن والدي الجيولوجي منذ الطفولة كان يصحبني معه إلى وديان أحراج صنوبر التايغا، وسلسلة الجبال في شرق سيبيريا، وإلى مناطق «الداني» و«غليو» النائية.

إن كل شيء في البحر، مثير للدهشة، حيث عوالق الفوسفور تتلألأ في الليل، وعجول البحر الغوّاصة، وغابة الشجيرات تحت الماء، وبلح البحر، والأسقلوب، والمحار التي جرحت يدي أكثر مما جرحت وجهي شفرات الحلاقة غير الآمنة، وهناك نجوم البحر والقنافذ، التي «ندين بأول ظهور لاسمها في لغتنا الروسية للحملة الشرقيّة، التي قام بها إيفان جونتشاروف على الفرقاطة «باللادا»: والذي كتب: «قنفذ البحر: هو نصف نبات، ونصف حيوان: إنه ينمو، ويُخيل لنا أنه يتنفس...».

تتجمّع في خليج «بطرس الأكبر»، الذي تقع عليه مدينة فلاديفستوك²، مختلف أنواع الحيوانات المائية، وهي بهذا تشبه مدينة بابل التي التقت فيها الأقوام المختلفة. وعلى الأرجح لم يعرف الامبراطور بطرس الأكبر بوجود هذه الأنواع من الأسماك. ففي هذا الخليج الواقع في الشرق الأقصى، تلتقي أسماك البحر الشمالية والجنوبية مع بعضها البعض: أسماك الهفم والقد، والبلوق والفوجو، والقرش، وقنديل البحر الذي يحب المياه الدافئة...

حينما أنظر إلى كل ما يعيش، ويتحرّك تحت سطح الماء، أشعر في آن واحد بالانشراح والرعب إزاء الكون. إنّ المرء يشعر في الماء، بأنه أصبح وحيداً تماماً، معزولاً عن بقية البشر، كما لو كان في الفضاء.

نحن لا نحتاج في روسيا إلى «المواد»، التي تستعمل في مكان ما في هولندا «لتوسيع الوعي». فلنوسيع وعينا لدينا بلد كامل فيه كل شيء حقيقي. وليس لدينا وطنٌ آخر، ولسنا بحاجة إليه.

نحن أنفسنا مثل «السلمون الروسي الوحشي» بالمقارنة مع السلمون النرويجي، الذي تجري تربيته في البيوت البلاستيكية في مزرعة للأسماك، ولا يعرف ما هو المحيط، وما هي الحرية.

وما زلنا لا نفهم ظاهرة الصيد على الطريقة الغربيّة، «لأهداف رياضية»، عندما يجب إعادة الأسماك المصطادة إلى الماء. إنّ غريزة الصياد فينا لا تقهر، وتتطلب أن يصيد المرء، ويأكل ما صاده. إنّ حساء السمك الروسي يوحى للمرء بانعدام القيود، وبالجرأة، وبالوحشية والإرادة، وهو بهذا ليس مثل حساء السمك الأجنبي fish soup، ولا يمكن رؤية مواصفاته في «حساء السمك» البرجوازي المتأدب والمعقم.

ولكن الإنسان عموماً يتصرّف، في بعض الأحيان، خلافاً لغرائزه.

ذات مرة، ألقت الأمواج على أحجار رؤوس إحدى الجزر الروسية سمك السنمورة. وسَعَتْ هذه الأسماك لبعض الوقت، بالتحرك جيئة وذهاباً في البرك الملحية، ولكن في نهاية المطاف نفقت، حتى إنّ طيور النورس أكلت منها حتى التخمّة، إلى درجة أنّها بعد ذلك حلّقت بعيداً عن الشاطئ، لنيل قسط من الراحة. كان من السهل علينا أن نأخذ هذه الأسماك لوجبة عشاء،

ولكننا رفعناها بأيدينا، وألقينا بها في البحر، على أمل أن لديها قدراً من الفطنة للإبحار بعيداً عن الأحجار، كما تتعد السفن عن الصخور إبان العاصفة، لقد اعتبرنا أن أكل هذه الأسماك المسكينة، يعتبر منافياً لتقاليدنا في إعداد الطعام وتناوله.

وحدث ذات مرة، كان هذا منذ زمن بعيد، عندما كنت في سنّ المراهقة، أن ذهبت وصديقي إلى شاطئ البحر، ورأينا قسبة سنارة قصيرة تطير في الهواء. وظهر أنّ طائر نورس اقتنص من أحد الصيادين سنارة صيد الأسماك، وسحبها وهو يُحلق خلفه، إلى أن تعلقت بشجيرة. وبعد أن سقط النورس راح يتخبط بيأس، استجمعنا شجاعتنا، واقتربنا منه، وجدناه كمجنون هائج. وقمنا بإزالة الصنارة بعناية من خيشومة منقاره، الذي سعى لضربنا به، وأطلقنا الطائر.

نحن نتذكر من الأساطير اليونانية، أنه لا يجوز التحديق ملياً بوجه قنديل البحر. ومن الأساطير السلافية: أن حوريات البحر يمكن أن يجررن المرء إلى القاع. وأن أسلافنا، الذين سكنوا قرب الأنهار، وصفوا سكان عباب المحيطات بأشمزاز بـ«الزواحف البحرية». وصوّرت على النقوش الأوروبية القديمة أخطبوطات كراكن، وقد لقت مخالبتها على صواري السفن، لتجرّها إلى أعماق البحر المظلمة... كل هذا يعكس رعب الإنسان القديم من الظواهر الطبيعية. ويبدو أن كلمة «البحر» لها في العديد من اللغات نفس جذر كلمة «الموت». كان سكان الأرض ينظرون إلى البحر على أنه مصدر خطر عليهم، والشاطئ مكان يحمي الإنسان، من عواقب السحر، ومن المتاعب، والأرواح الشريرة.

يعرف الإنسان المحيط أقلّ من معرفته للفضاء الكوني. ولو تحدثنا بلغة العلماء، فما الهدف من كل هذا التنوّع البيولوجي في الدنيا، وتعدد أشكال الحياة تحت وفوق سطح الماء؟ يا تُرى! هل كل هذا لا يعدو كونه مجرد نتيجة تطوّر عبثي، عديم الرحمة وفق نظرية تشارلز دارون، أم أن هناك فكرة ما سامية وفائقة وراءه؟ ربما تكمن في كل هذا أسرار حركة الحياة الشاملة، التي تسير إلى الأمام، وإلى الأعلى نحو التعقيد، ومن ثم تنتقل إلى حالة أخرى، ذات نوعية جديدة، لا يمكن أن يتخيّلها الإنسان في الوقت الحالي.

إنّه لأمر مدهش أن تكون الصدف البحرية، المستخرجة من البحر هي في نفس الوقت «مأكولات بحرية»، وأحد مفاتيح معرفة العالم. إنّها المرأة التي يرى المرء فيها نفسه وكل اليابسة.

وعبثاً أنّي لم أعلّق أهمية على لسعة «قنديل البحر». فقد بدأت أشعر بالآلام في الليل. رحتُ أحكُّ، كمُدمِنٍ مبتدئٍ على الهيروين، أحكُّ كل جلدي. والمزعج أكثر أن الألم كان يهاجم العضلات: تارة أشعر به في جميع عضلاتي، وتارة بالتناوب، في القدمين، وثم في اليدين، وبعدها في الظهر... لقد تسرّب السمّ، الذي أختزن في مجاسّ كتلة المخاط البحري الضئيل، ليس فقط في مكان اللدغة، وإنما سرى إلى الجهاز العصبي بأسره. في الليلة الأولى لم أتم على الإطلاق، إذ جعلني الألم أتلقّى، وأتقلّب. وقام أصدقائي من سيبيريا، بتسليتي بقرع القناني الفارغة، وأداء أغنية على الأكورديون:

هناك طريق تمتد على مسار تشويسكي

يسلكها الكثير من السواق بيد أن سائقاً واحداً كان مجازفاً ومقحاماً كان اسمه كولكا، وهو سنجيريوف...

ومن ثم، قال لي صديقي صاحب الخبرة الطويلة، والذي أصفه بالبلاء الأبدى، عندما نكون وحدنا من دون شخص ثالث:

- كان يجب عليك بعد الشعور بالحرقة، أن تتناول مباشرة قَدْحِي فودكا.

وأكد (البلاء) لي:

- إنّ هذه حقيقة طبيّة معروفة، ولكن الأطباء لا يعلنون عنها، لأنهم لا يريدون عمل دعاية للإدمان على الكحول، وهيبوقراط حينها لم يفهم... أنا لا أعرف هل هذه حقيقة أم لا؟

لقد بدا لي سابقاً أن البحر لا يؤذي.

وها هي قبلة قنديل البحر: ربما جاءت لي كإشارة من القربان المقدس، أو ومضة من نبتون. وبعد ذلك أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أنظر في البحر متفكراً، وحاولت أن أدرك، والتقطت الإشارات المرسله منه، مثل تلك الإشارات غير المفهومة لمحطة كوكب «سولاريس»، في رواية (ستانسلاف ليم) الخيالية.

ربما، كان من العبث أني لم أصدّق الأساطير بصدد جبل (بيدان)، وتحطم سفينة فضائية في منطقة «دالني جورسك» على ارتفاع 611 متراً، وعلى متنها كائنات من الكواكب الأخرى! فحتى صديقي أرسينيف المغرم بالتايغا، الذي لم يُعرف عنه اختلاق الحكايات الخيالية، قال إنه التقى ذات مرة في الغابة بكائن له نفس مواصفات الإنسان الطائر المسمّى: «لي تشين تزو».

أنا شخص عادي، لا يختطف النجوم من السماء. ولكني عندما أحتاج لها جداً، بوسعي الذهاب إلى خليج (أمور)، والعثور هناك على النجوم فيه. أليس البحر هو انعكاس للنجوم؟!!

البنجر الأسطواني فاسيلي أفتشينكو

استخرج الرجال عدّة أسماك من الماء⁸، وقضوا عليها بالهراوات. ووضعوها في كيس. سألت من الكيس قطرات ماء مخلوطة بالدم والمخاط. تغضّن وجه السائق. رمينا الأسماك التي هدأت في أكياس سميكة. وتساقطت على الأرض بيوض ذات لون برتقالي.

قد تعترض طريقنا الشرطة في الحاجز الأمني عند الجسر في منطقة «زانادفوروفكا»، ولكن ليس هناك مَنْ يعترض طريقنا. إذ يجلس على طول الطريق هنا وهناك شباب عابسون مع حاويات بلاستيكية شفافة يترأى فيها شيء برتقالي.

توقّفنا عند رئيس إحدى البلدات، وسألناه:

- هل توجد لديكم أخبار طيّبة؟

وردّ الرئيس، وبدا أنه في حالة سيئة، إذ كان قد احتفل في العشية بعيد ميلاده: - لا شيء. جرف التيار الجسر، لكن أفتتح حانوت عندنا...

يتصل هاتفياً بصاحب الحانوت:

- تعال بسرعة، ولكن مع قنينة كونياك!

دخل علينا رجل في سروال قصير، وبقميص ملون، أبيض الشعر، له من العمر حوالي 50 عاماً، ولم يحلق ذقنه، وببيده كيس أسود.

- اعذروني، أتّي أشرب طيلة ثلاثة أيام متتالية بمناسبة افتتاح الحانوت، غداً أيضاً سنواصل الاحتفال، ومن ثم أترك الشرب!

بعد أن احتسنا الكونياك، واصلنا السفر. ابتعنا عسلاً في الطريق.
وسألنا البائع:

- هل تحتاجون إلى خيار البحر المجفف؟

هناك تسلقت سيقان شجرة ليمون السياج المصنوع من ألواح معدنية مُثَقَّبة، تستخدم في المطارات.

وصلنا إلى بلدة رازدولنويه. في يومٍ ما، خدم في هذه البلدة القائد العسكري البلشفي دميان بوديوني.

وقال لي عسكريون متقاعدون، مفعمون بالحيوية:

- لم يبق من تلك الثكنات سوى أنقاض.

ومن ثكناتهم بقيت أنقاضٌ أيضاً.

ينتصب على نافذة منزل العسكري صبارٌ ضخم. خُيِّل لي فجأةً، بأن ليس هناك على الإطلاق تربة في الأنية الخزفية التي ينمو فيها الصبار. إنه يغصُّ بعجين الصبار الأخضر، وهذا العجين يزحف إلى الخارج.

وصلنا إلى مؤسسة ما. جرى هناك لقاء نائبا ولاعب الهوكي فيتيسوف، مع العاملين في المؤسسة. لا أدري لماذا يمثل فيتيسوف، وهو من أبناء موسكو، إقليم بريموريه في مجلس الفيدرالية. يا ترى هل سيوقع هو أيضاً على ورقة، بأنه لا يعارض مشاركته في دعايتنا الانتخابية؟

وقالت مارينا بثقة:

- لا مفرّ من ذلك.

مدّ الناس لفيتيسوف الدفاتر والتقويم، لكي يوقع عليها للذكرى. وبدوره وقع عليها كأمرٍ مألوف لديه. دست مارينا له ورقتنا ليوقع عليها، ووقعها كذلك.

تحدثنا مع خريجة حاصلة على ميدالية التفوق في الدراسة.

كما تحدثنا مع روس من أصل كوري، اشتروا مزرعة خاسرة، من كوريين من أصل كوري، وحولوها إلى مزرعة رابحة.

وتحدثنا مع عجوز، كانت تعمل خلال الحرب العالمية الثانية، في صنع الألغام في المصنع. ومع غواص، يبحث عن الكنوز تحت الماء. ومع رياضي بعينين لاذعتين، وابتسامة شرسة، يستقل سيارة جيب «سيكوي»، وهو لصٌ وقاطع طريق سابق، والآن نائب محلي. في رقبتة سلسلة صفراء سميكة بشكل مضحك. منذ 10 سنوات لم يعد أحد يلبس مثلها، ربما لم يُبلِّغه أحد بذلك.

ذهبنا إلى إحدى المدارس المشهورة في المنطقة، التي لم نجد مديرتها في المرة السابقة. يُشاع أنها مدمنة على الخمر. يبدو أنها بالفعل مدمنة: عندما دخلت إلى مكتب المدير، لاحظت قنينة جعة على الطاولة. وفيما نحن نخلع الجاكيتات، اختفت قنينة الجعة.

يوجد في دولا ب المديرية نموذج كبير للكرة الأرضية.

وشرح لي دينيس:

إنه نموذج للكرة الأرضية، وفي نفس الوقت بارٌّ للمشروبات، عندما تضغط على كوبنهاجن مثلاً، يصبُّ لك مئة غرام من الكحول.

توقَّفنا عند أنقاض معمل طوب السيليكات. وهناك منزل خشبي بُني في عام 1938 فيه موقد للتدفئة ونوافذ بلاستيكية.

المهندس ذو الأسنان الذهبية يتنقل في أوتوبيس صغير من طراز «سيرينا».

يُحلق فينا مراقبون من دار الأيتام، بعيون واسعة.

وعجائز تغطّي وجوههنَّ المساحيق، ويرتدين ملابس زاهية، يرقصن، ويُغنين. متجر «بيريزوكا» تمتلكه المؤسسة الأهلية «بيريزوكا».

كتب على الجدار: «أحبك، امنحني فرصة أخيرة!»

رغبت أن أضغط على كوبنهاجن.

وأخيراً نتحرّك إلى بيوتنا. انظر إلى السماء، لقد انهارت للأسفل من خلال شقوق السحب، حُزْمُ أشعة ساطعة وباردة. إنها جميلة، ومقلقة.

وسألت دينيس:

- أنت عزمت على شراء سيارة؟ اشترِ «نيسان أي دي»، صالحة لحمل الخضراوات. ورخيصة جداً.

- إنَّ حياتي أصلاً وبلا هذا جحيماً.

نتوقّف قرب السوق عند المدخل، وقفت الصينية أنا. كانت تعمل في خياطة السراويل،
وتصلح «سحابات الملابس». هناك شعار مكتوب على السياج بحروف كبيرة: «المرشّح» (ليونيد
إيفاشوف) «فرصة الروس الأخيرة».

اشتريت الفطر، وثمر عنب البقر، وأسماكاً مقدّدة.

قريباً نصل إلى مصنع «زاريا»، الذي بقي من دون عمّال بعد انهيار الاتحاد السوفياتي
السابق، وكنت في يوم ما أرثدي بدلة مدرسية من إنتاجه.

قريباً سأكون في البيت. وقريباً ستنتهي السنة، ويفوز مرشّحنا.

أو ربما لا يفوز. الأمر سواء لديّ. أغلق عيني، ويتحوّل رأسي إلى بنجر أسطواني جميل.

الروس يسرعون إلى مساعدة «تيتانيك»

يفجيني فودولازكين

في أحد أيام الربيع أُفتتح صالون فني في سانكت- بطرسبورج بشارع زفيرينسكايا⁹، كان يسمى «السيد زفيرينسكي». وهناك علامة سهم فوق البوابة، تدعو المارة للذهاب إلى الفناء الثالث، وشراء لوحة رخيصة الثمن، ولكنها جيدة.

لفت الصالون انتباه المُخرج السينمائي نيكولاي يارفينين، الذي كان يمرّ بجواره. وبعد شيء من التردد، ذهب باتجاه إشارة السهم المؤدي إلى الفناء الثالث. علماً أنّ المُخرج يارفينين فقد الرغبة في العمل منذ أكثر من ستة أشهر، وبميسوره الآن الانحراف عن مسار الطريق الذي يسلكه يومياً، علاوة على ذلك، لم يكن لديه مسارٌ محدد بالمعنى الدقيق للكلمة.

وهذا ليس، لأن يارفينين كان مهتماً بالفن التشكيلي، ولكن ببساطة جذب انتباهه اسم الصالون والشيء الرئيسي موقعه. وكان المُخرج قد انفصل في العشية عن زوجته الثانية، وبدا له الفناء الثالث بغتةً لغزاً سرّياً، مثل لعبة «أحجية الصور المقطعة¹⁰». وفكّر المُخرج، وليس من دون حماس: «إن الحياة لغز، وأياً ما كان ينتظرنني في الفناء الثالث فسيكون خطوة إلى الأمام، مقارنة بما عانيته من زوجتي الثانية».

وعندما دخل المُخرج يارفينين الصالون، رن جرس صغير، مُعلنًا دخول زبون، فظهر حالاً من خلف الستارة المخملية المعلقة في عمق القاعة، رَجُلٌ ربعة عريض المنكبين. وأوماً برأسه للزائر، كما لو كان يعرفه منذ زمن طويل، وسأله إنَّ كان هو السيّد نيكولاي يارفينين، في إشارة إلى أنه عرفه (لم يتعرّف الجمهور على شخصه دائماً)، ردّ المُخرج عليه بلطف، وسأل بدوره الشخص الذي ظهر له من وراء الستارة، إنَّ كان هو «السيّد زفيرينسكي». فأجاب: إنَّ اسم الصالون يرتبط باسم الشارع، وإن كنيته هي: سيبياجو.

كان سيبياجو يتحدث بصوت مبجوح حقاً، كما أن كنيته بدت مضحكة، فانفجرت شفتا المُخرج عن ابتسامة. وقال وهو يتصعّب الارتباك: - أرجو المَعذرة، بالطبع كان بميسوري، أنْ أخمّن أن لا وجود «للسيد زفيرينسكي».

- لماذا لا وجود له؟

وأشار سيبياجو إلى الطاولة، فرأى يارفينين قطعاً أصهب، ذا هيبية يتربّع على المنضدة.

وأردف صاحب الصالون:

- إنَّ القطّ هو «السيّد زفيرينسكي» نفسه.

رفع القطّ رأسه بتمهل عندما سمع اسمه. وكانت خلف ظهره لوحة طبيعة جامدة، تصوّر عدّة برتقالات، مما جعل «السيّد زفيرينسكي» يبدو بشخصه مثل برتقالة ضخمة. وليس من المستغرب أن يارفينين لم يلاحظه على الفور، إذ كانت أمام القطّ أنية من الكريستال، مملوءة بالماء.

وأوضح له سيبياجو قائلاً:

- الماء عديم الرائحة، والقطط لا تشعر به، لذلك يجب إعطاء الماء للقطّة في أنية شفّافة وتراها هناك بفضل البقع الضوئية. ومن الأفضل أن تكون من الكريستال.

لمعت في مخيلة يارفينين صور القطط السائبة التي تجوب في شوارع مدينة بطرسبورج، وفكّر بنفسه: كيف أنّها تشرب الماء من دون حاجة إلى أنية كريستال، يبدو أنّها استغنت عنها. وهزّ المُخرج كتفيه، ولم يخفّ هذا على سيبياجو. وفي هذه الأثناء رنّ الهاتف في الصالون، فرفع سيبياجو السّاعة ونادى: - بولينا، تعالي إلى هنا، يطلّبونك على الهاتف!

فخرجت من خلف الستارة بولينا، الشقراء، ولمعت بذهن المُخرج فكرة أنّهم في الصالون يُقدّرون اللون الأشقر. وفكّر يارفينين: يبدو أنّ «السيّد زفيرينسكي»، الذي من الواضح أنه يحظى بامتيازات «سيد» في الصالون، وليس غيره هو مَنْ أوصى بها للعمل في الصالون، فهي مثله شقراء، والرؤساء يحبون رؤية انعكاس صورتهم في المرؤوسين. وعندما التقطت بولينا سمّاعة الهاتف كرر سيبياجو بشيء من التحدي للمُخرج: - القطط يمكن أن تشرب فقط من أواني الكريستال.

ألقى «السيد زفيرينسكي» نظرة مستاءة على يارفينين. وكما يبدو أن «السيد زفيرينسكي» بهيبته الرصينة، أوحى لصاحب الصالون بفكرة شرب الماء بأنية كريستال. وهزَّ المُخرج بعد لحظات رأسه مستغرباً، وراح يتطلع إلى اللوحات. لم يرَ فيها ما يجذب الانتباه. كانت هناك اثنتا عشرة لوحةً أخرى للطبيعة الجامدة. فتاة مع الأفوكادو. ومشاهد سانكت- بطرسبورج، استُنسخت من بطاقات بريدية (كان يارفينين لسبب ما متأكداً من هذا)، كاتدرائية القديس نيكولاس، وبانوراما شارع نيفسكي، وميدان ايساكيفسكايا. والحديقة الصيفية، وفينوس تطلُّ على صفِّ من أشجار السنديان، وبلوطات كبيرة بشكل لا يُصدِّق مرمية في الطريق. وبصراحة إن لوحة الأفكادو، كانت الأفضل بين اللوحات. لم يقرأ يارفينين الملصقات التي تحمل أسماء اللوحات: إنَّها عكست بدقة أسماء المعالم الأثرية عليها. وما يمكنها أن تعكس غير ذلك؟

لفتت انتباه المُخرج إحدى الملصقات التي كانت على الأرض. انحنى، والتقطها. ولاحظ أن عنوان اللوحة يختلف بشكل واضح عن الأخريات: «الروس يسرعون لمساعدة «تيتانيك»». وحينما رفع بصره، التقى بصره بنظرات سيبياجو وبولينا، و«السيد زفيرينسكي» الصامتة، التي كانت مصوبة إليه. وسأل وهو يشير إلى الملصقة: - وأين اللوحة؟

فسألته بولينا:

- أية لوحة؟

ونطَّ القُطُّ، الذي حجبت زاوية الطاولة عنه مجال الرؤية، على الأرض، واقترب من الملصقة.

- الروس يسرعون إلى مساعدة تيتانيك.

لم يتذكر أحد مثل هذه اللوحة. والملصقة لم تشبه تلك الملصقات التي عُلقَت على جدران الصالون. وافترض سيبياجو، أنها سقطت من إضبارة أحد الرسَّامين، الذين جاؤوا بلوحاتهم.

حاولت بولينا، أن تخمّن مَنْ كان الرسَّام صاحب اللوحة، وهتفت: - مارتشنيكو؟

ابتسم سيبياجو بلطف:

- ولكن، هذا غير محتمل، فمارتشنيكو يرسم السفن الحربية، فلماذا يا ترى، اهتمَّ «بتيتانيك».

حملت بولينا، السلام، وسحبت من الرفِّ العلوي إحدى لوحات مارتشنيكو، وأوضحت: -
حاملة الطائرات هيريو.

أعاد يارفينين السؤال:

- «أونريو؟» هل أنتما متأكدان من ذلك؟

وقرأت على خلف اللوحة شهادة مختصرة: يعني هذا باليابانية «تئين، يطير على سحابة في السماء». أغرقتها غواصة أمريكية في عام 1944.

وأكدت:

نعم، حاملة الطائرات «أونريو».

استغرق سيبياجو في التفكير. وجال في خاطره: لقد تمَّ إغراق السفينة اليابانية، وعلى الرغم من كونها عسكرية، لكنها أُغرقت، والغرق هو ما يجمع ما بين «أونريو» و«تيتانيك».

قرروا الاتصال هاتفياً بمارتشيونكو. وخلال إدارته رقم الهاتف سأل سيبياجو يارفينين: هل أنتم حقاً بحاجة إلى هذه اللوحة؟

- بأكبر قدر.

لم يردّ مارتشيونكو على الهاتف لفترة طويلة. وتجاوب الرنين في سماعة الهاتف، مع نقر قطرات المطر المتساقطة على قاعدة نافذة الصالون المعدنية. وتحولت القطرات المتساقطة على قاعدة النافذة المعدنية، إلى ما يشبه غبار مائي، يتألق بضوء الشمس المنعكس من النافذة المقابلة. وفكر يارفينين: «من كان يتوقع أن ضوء الشمس المشرقة سيبلغ حتى الفناء الثالث، وهذا هو ما يعني الربيع. إذ إن أشعة الشمس تتوغل خلاله حتى في الأزقة الخلفية».

وفي نهاية المطاف ردّ مارتشيونكو على المكالمات بانزعاج، لأنهم صرفوه عن عمل ما كان يقوم به، ونقلت السماعة في رده نبرة شخص متذمّر، من كونه موضع اهتمام المجتمع بأسره به، ورغبته في أن يشتم المُتحدّث معه بكل سرور، ولكنه يتحسب العواقب. بيد أنه انتعش، وخفّف من حدّة نبرته، عندما عرف أن الأسئلة قد طُرحت بناء على رغبة زبون ينوي شراء لوحته، وحتى إنّه اقترح رسم لوحة بهذا الاسم. ولكن يارفينين أشار بيده رافضاً العرض، وألقى نظرة أخرى على (حاملة الطائرات «أونريو»): كلا بأي حال من الأحوال.

اقترب سيبياجو من الباب ونظر إلى الخارج.

وخمّن الضيف:

- هل تغلقون الصالون؟

- نعم هذا صحيح.

وأوصد سيبياجو الباب، وأدار المفتاح في القفل، وأضاف: - في الوقت نفسه، لا نريد أن نترككم على انفراد مع مشكلتكم!

وأعطى إشارة إلى بولينا، فاخفت الفتاة خلف الستارة، واستغلَّ سيبياجو فرصة غيابه، وأوضح للمخرج: - إنها في الواقع رسّامة تشكيلية، وتعمل بدوام جزئي في الصالون.

بعد دقيقة ظهرت بولينا، ومعها قنينة وثلاثة أفداح. وغادرت مرة أخرى، وعادت ومعها علبة بازلاء خضراء، وعلبة من سمك الرنكة، ورغيف من الخبز الأسمر.

وقالت وهي تبدأ في تقطيع الخبز: «من المهم الآن مناقشة كل شيء بهدوءٍ، بطريقة عملية، ومن دون أن يستولي علينا الذعر».

نطَّ القَطُّ على الطاولة مرة أخرى.

وقال يارفينين موافقاً:

- نعم لسنا بحاجة إلى الذعر.

لم يعد الخبز طرياً، وتعيَّن بذل جهد من أجل تقطيعه. واهتَزَّ «السيد زفيرينسكي»، وطرش الماء في إناء السلطة، على إيقاع حركات بولينا، وهي تقطع الخبز.

عندما تمَّ صب الفودكا في الكؤوس، اقترح سيبياجو رفع نخب نجاح المشروع. ولم يفهم يارفينين تماماً عن أي مشروع يدور الكلام، لكنه شرب عن طيب خاطر: كان يحب الجلوس مع مثل هؤلاء الأشخاص. يشعر معهم بالهدوء وبسيادة الجوّ العائلي. كان منشراحاً، لأن بولينا، لم تأخذ سوى رشفة من الشراب: وهذا ما يجعلها بنظره فتاةً رصينة.

وبادر سيبياجو بالقول:

- أولاً وقبل كل شيء، من الضروري أن نقرر ما إذا كنّا سنواصل البحث عن اللوحة، أم نطلب رسم لوحة جديدة.

وأشارت بولينا، إلى الرفوف المكتنّزة باللوحات:

- لو تحدّد على وجه التقريب عدد الرسّامين الذين نتعامل معهم، فيمكننا أن نواصل الاتصال بهم هاتفياً طيلة الليل، وحتى صباح اليوم التالي.

حوَّلَ الحاضرون نظرهم تلقائياً إلى الرفوف. (استغلَّ السيد زفيرينسكي انشغال الأشخاص الثلاثة، فالتقط بمخلبه سمكة رنكة من علبة الصفيح). وفكّر يارفينين بدوره؛ أنه لا يمانع من البقاء هنا حتى صباح اليوم التالي، ولكن لا يعتزم أحد الاتصال هاتفياً طوال الليل. ورأت بولينا، وعكس هذا أيضاً حصافتها، أنّ من الأفضل أن يتمّ طلب رسم لوحة جديدة، فعلى هذا النحو سيكون من الممكن تحديد ليس مضمونها فقط، بل وأسلوبها أيضاً.

نهضت من خلف الطاولة، ودعت الجميع مرة أخرى إلى لوحة (حاملة الطائرات «أونريو»): - إنّ أسلوب هذه اللوحة...

وأطرقت لحظة متفكرة، ثم التفتت بحدّة إلى القبط قائلة له بسخط: - كلا، هل تعتقد حقاً أن أحداً لم يرك؟ نحن تظاهرنّا بأننا لم نلاحظك، ولكن حسناً، خذ اثنتين هذا يكفي لك أليس كذلك؟

ومن شدّة عدم فهمه لما تقول، ضيقَ زفيرينسكي عينيه. وكان أمامه نصف سمكة رنكة.

وقال سيبياجو، وهو يُعلّق على فكرة بولينا:

- فيما يتعلّق بالأسلوب، فإنّه يعتمد على ما سيتمّ تصويره في اللوحة. وماذا نعرف عن الخلفية التاريخية للمضمون؟ هل حقاً أنّ الروس هرعوا إلى مساعدة «تيتانيك»؟

لوح يارفينين بيديه في الهواء قائلاً:

- العنوان لا يؤكد أنهم وصلوا، يقول فقط أنهم أسرعوا....

واقترضت بولينا:

- يعني ربما لم يصلوا. يُخيّل لي أن هذا العنوان ينطوي على شيء من السخرية: الروس أسرعوا!

دعا سيبياجو بإشارة الجميع للعودة إلى الطاولة، وهو يتساءل: - أين تكمن السخرية؟

- نعرف كيف انتهى الأمر، إنّ الروس بلا ريب يسرعون عادة ببطء.

ضحكت بولينا، ولكن لم يدعمها لا سيبياجو، ولا السيّد زفيرينسكي الذي اختفى نصف سمكة الرنكة من أمامه. أعجب يارفينين بالطريقة التي ضحكت بها بولينا، وارتسمت على شفثيه ابتسامة.

وأوضح سيبياجو قائلاً:

- الشيء الرئيسي أنهم أسرعوا، ينبغي الحكم على الناس من خلال نواياهم، نظراً لأن الواقع اللعين يترك بصماته على النتائج. ربما صادفهم جبل جليدي عائم، نحن لا نعرف.

جلس الجميع عند الطاولة مرة أخرى. استلقى القبط، أثناء النخب الجديدة، في مكانه عند الأنية البلورية.

قال يارفينين بصوت مميّز، بين احتساء الكأس، وبين أخذ المزة.

- لا أستبعد أن المعنى يمكن أن يكون مجازياً، أقصد كناية.

سأله سيبياجو.

- أية كناية؟

لا أعرف بالضبط... شيء ما تاريخي. مثلاً: روسيا الغرب

ونظر يارفينين إلى بولينا، متسائلاً:

- ما رأيك؟

- أنا ببساطة لا أفهم. هل تقصد اللوحة أن الغرب هو «تيتانك»؟ ونحن من نكون؟

- نحن الروس. الذين يسرعون لإنقاذها من الغرق.

صبَّ سيبياجو الشراب لنفسه وليارفينين، وأردف قائلاً: - بالمناسبة، إنَّها فكرة ممتازة.. انهيار الأخلاق، وعبادة الاستهلاك، بالإضافة إلى هجرة الشعوب الكبرى من الجنوب والشرق إلى الغرب.

وهمست بولينا، في أذن «السيد زفيرينسكي» مباشرة: - وفي هذه الأثناء نحن نبحر.

وقف القط، وتلوى بهيئة قوس، وتثاءب، واستلقى مرة أخرى. كأنه يقول: لا أحد يبحر إلى أي مكان.

رفع سيبياجو القنينة، بيد أنه لاحظ أنها فارغة، وألقى نظرة على بولينا: - يجب الإسراع إلى المخزن الذي يعمل على مدار الساعة؟

- نعم عزيزي، أسرع.

سأل يارفينين نفسه: «تقول له عزيزي... ما هي العلاقة التي تربطه بها. من غير المرجح أن تكون زوجته. هل هي عشيقته؟ أخته؟ بالتأكيد ليست أمه، وبشكل عام بوسع بولينا، أن تكون...» ونظر في كيفية إدخال أصابعها في شعر القط. وفكر بأنها «يمكن أن تصبح زوجته الثالثة، كما يمكن أن يأخذ «السيد زفيرينسكي» معها، فهو يستحق ذلك، سيطعمه سمك رنكة، وسيدعو سيبياجو، الذي خرج من الصالون، وصفق الباب خلفه، لزيارتهم في أيام الأحد».

وضع يارفينين يده على كتف بولينا، وسألها:

- هل تريد التمثيل في فيلم من إخراجي؟

ردت بولينا:

- كلا، ما هو الفيلم؟

- الروس يسرعون إلى مساعدة تيتانك.

- روعة!

استمرّ يارفينين بوضع يده على كتف بولينا.

في مركز أحداث الفيلم الفتاة بولينا، الشقراء، تعمل نادلة في سفينة «تورجوك» التي تمخر عباب المحيط الأطلسي. الفتاة صمّاء. إنّها تقنع القبطان للذهاب لمساعدة تيتانيك الغارقة.

وتساءلت بولينا:

- صمّاء، وتقنع القبطان!؟

وواصل يارفينين:

- إنّها تقنع القبطان بالإشارات. تعرف بولينا، إنّ من بين ركّاب السفينة تيتانك، مُخرج الأفلام الصامتة هاكينين، الذي كان يكسب المال في الرحلة البحرية، من خلال قيامه بعرض جيّلي بورق القمار لتسلية الركّاب، ويجب أن تذهب الأموال المكتسبة إلى تصوير فيلم، تقوم بولينا، فيه بدور البطولة. وخلال سباقها مع الزمن للإسراع بإنقاذ السفينة الغارقة، تصطدم الفتاة ببعض المصاعب، إذ اندلع تمرّد للبحارة، وانفجرت الغلايات البخارية في البخرة، ولكن، دعنا نقول مع..

- مع ظهور جبل جليدي عائم.

- نعم، مع ظهور جبل جليدي حقيقي عائم، ويبدو أن الوقت قد فات، ولكن تيار الخليج الدافئ يلتقط هاكينين، ويحمّله للقاء السفينة «تورجوك». ومن أجل أن يحصل على الدفء بطريقة ما، يستمرّ وهو في البحر بأداء عرض جيّلي بورق القمار. وانتشلوه من الماء، وقد فقد الوعي تماماً، لكنه حيّ، ويضغط في قبضته على ورقة «ملكة الكبة الحمراء»، التي يشبه لون شعرها بشكل مدهش... شعر بولينا.

انزلقت يد يارفينين على شعر بولينا. ولمست شفتها بحذر شفتي المُخرج وقالت ضاحكة:

- رائع!

رجع سيبياجو مع قنينة، وألقى نظرة فاحصة ومربية على يارفينين، وقال ساخراً: - يبدو أنّك وبولينا، كنتما أسيري الحزن تماماً هنا؟

أوما يارفينين برأسه، وقال:

- لقد انفصلتُ عن زوجتي يوم أمس. علماً أنّها الزوجة الثانية.

ولم ينبس سيبياجو ببنت شفة.

وأوضح يارفينين له:

- أنا فكّرتُ بموضوع الفيلم. يمكن أن يكون هكذا: سفينة تبجر وهي ترفع العلم الروسي باتجاه الاتحاد الأوروبّي، ويمكن تصوير البحر على شكل خارطة مجسّمة، حتى يكون كل شيء

واضحاً.

لم تفهم بولينا، وتساءلت:

- خارطة؟

- نعم، خارطة مجسّمة ومجعدّة على هيئة أمواج...

وجد يارفينين أن موضوع الفيلم ممتاز، وأعجبه على وجه الخصوص كما لو كانت الباخرة تسير في البرّ. وعندما سأله، هل يمكن أن تقوم بولينا برسمها: ردّ سيبياجو بسرعة:

- إنّها انطباعية، ونحن هنا بحاجة إلى أسلوب، يتناسب مع الفكرة.

أراد يارفينين أن يعترض بالقول إنّ الإبحار في البرّ يستدعي كثيراً من الانطباع، ولكن بولينا، ارتمت على الكرسي قائلة: - ربما يتمّ رسمها وفق أسلوب تيار الفن البدائي؟

كان سيبياجو صارماً، والتفت إلى يارفينين:

- تصوّر، أنني أيضاً أعتقد ذلك، هل تعرّفت على أعمال الرسّام نيلوبين ذات الأسلوب البدائي؟ يمكن أن نطلب منه رسم اللوحة.

ردّ المُخرج:

-أمل أن يكون بدائياً بما يكفي، أنا مستعد لتقديم العربون.

قرروا الاتصال على الفور بنيلوبين، لكن بطريقة ما، اتضح لهم أن الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل، ولكن من المفروض أن نيلوبين لم يَنَمْ بعد، وكان سيتحدث معهم، ولكن زوجته...، كانت هناك علاقات معقّدة بينهما. وفيما تحدثت بولينا، عن مواصفات الزوجة، وضعت راحتها على معصم يارفينين، وراحت تقول: - بالمناسبة لوبا ونيلوبين زوجان مختلفان بطبيعتهما، والتنافر بينهما حتمي.

رفض سيبياجو أخذ عربون، ولاح هذا غريباً. كان هذا أمراً غير سارّ بالنسبة للمُخرج. تبادل سيبياجو أرقام الهواتف مع يارفينين، قائلاً إنه سيتصل به عندما تكون اللوحة جاهزة. فتح الضيف القنينة الجديدة، وملاً الأقداح. ولاحظ أن كأس بولينا، كانت فارغة هذه المرة. وقال سيبياجو باختصار: - أودّ أن أرفع نخب الكأس الأخيرة.

لم ينتظر يارفينين مثل هذا النخب.

الكأس الأخيرة! ردّد هذه العبارة وهو يسير ليلاً في شارع زفيرينسكايا. لقد بدت له عبارة مبتذلة، وحتى فظة، على وجه الخصوص، وقال الأخيرة وليست الأخيرة. سيبياجو. تنين يطير في السماء على الغيوم. من الواضح أنه شعر بالغيرة، وإلا لماذا أنهى هذه الأمسية العاطفية؟ وحينما بلغ

يارفينين شارع «البلشوي بروسبكت»، ضربته ريح الربيع الدافئة، التي هبّت من نهر «النيفا» على الرغم من أن الثلج مازال متركماً في بعض الأماكن.

انصرمت عدّة أيام، ولم يتلقَ مكالمة من الصالون. وبعد أن نفذ صبره، اتصل يارفينين به بنفسه. أبلغه سيبياجو بأنّ الرسّام الساذج، حسب قول زوجته، في حالة صحية سيئة، لذلك عليه الانتظار بعض الوقت. كما سأله فيما إذا كانت اللوحة مطلوبة على جناح السرعة حقاً. فأجاب يارفينين، أنه يريدّها بصورة عاجلة. وبعد تردّد، قال له سيبياجو إن نيلوبين سيرسم اللوحة على جناح السرعة، حتى قبل أن تتحسن حالته الصحية، وفي الوقت نفسه ستكون النتيجة، من حيث الجوهر، مثيرة أكثر.

مرّ أسبوعان، واتصل يارفينين مرة أخرى بسيبياجو، ولكن التليفون كان خارج التغطية. وفكّر يارفينين أنه في نهاية المطاف ليس بحاجة للحصول على فرصة الالتقاء بسيبياجو، وتوجّه إلى شارع زفيرينسكايا، ودخل الفناء الثالث، لكنه لم يجد لا بولينا، ولا سيبياجو، ولا حتى «السيد زفيرينسكي». كان هناك قفل معلّق على الباب. وخلف زجاج النافذة، الذي عكس شعر يارفينين الذي جعلته الريح أشعث، كان هناك إعلان بأن الصالون انتقل.

تردّد على مدى شهرين بشكل منهجي على صالونات ومعارض بطرسبورج، ولم يفتحه معرض واحد، أملاً في الالتقاء بسيبياجو وبولينا. وكان بحثه من دون جدوى. وفكّر: إذا كان الصالون قد انتقل، فإنه انتقل إلى مكان لا عودة منه، على سبيل المثال إلى أستراليا. وسرعان ما بدأت الدوائر الفنية في المدينة تتحدث عن أن يارفينين شخص كرّس نفسه للفن نهائياً، وكان يُشاهد باستمرار في المحاضرات حول تيارات الفن التشكيلي المعاصر، وفي افتتاح صالات العرض، وفي ذكرى ميلاد الفنانين.

في نهاية العام، ومع اقتراب عيد ميلاد المُخرج الخمسين، تمّ عقد مؤتمر صحفي له. وذكرت الصحف أنه، وبعد أزمة إبداعية مطوّلة، باشر بالعمل. صحيح أن يارفينين رفض الحديث عن ماهية مشروعه الفني، معتبراً إيّاه فالاً سيئاً. ولكنه أفاد رداً على إلحاح الصحفيين برفع حجاب السريّة، وكأنها فلتة لسان منه، إنّ الأمر يتعلّق بمساعدة الروس لسفينة تيتانيك.

وبدت فكرة الفيلم غير متوقعة، ولكنها واعدة كثيراً. وفي رأي الصحافة أن النقطة القوية للمشروع تكمن في الترويج لتجربة إيجابية في الوضع الدولي الحالي. وتمّ التأكيد بشكل خاصّ على حداثة الموضوع: فالفيلم مبنيّ على وقائع حقيقية، كانت مجهولة تماماً سابقاً.

مدرج المطار

سيرجي شارجونوف

دأب كابتن الطيران المتقاعد ألكسي بيتروفيتش سوكوف على التجول كل صباح في مدرج المطار الملعون، ويدوس بقدميه على البلاطات بعناية وحذر، كما لو كان يدوس على شواهد القبور.

وكانت ابنته تانيا قد وصفت المدرج بالملعون، ويبدو أنّها كانت تتحرج من استعمال كلمة أكثر حدّةً عند الحديث مع والدها. وكانت تانيا قد اقترحت على والدها العجوز، الانتقال من قريته الكائنة في مناطق غابات التايغا النائية، للسكن معها في مدينة بيرم، بيد أنه قال:

- وهو؟ وأين سأولي وجهي من دونه؟

- وهل هو زوجتك؟

- نعم ربما زوجتي، وعزيزة عليّ... فأنا أراعاه، وأعتني به كما لو كان مقبرة. ستغمره الأغصان المتساقطة من الأشجار في موسم الخريف، فأزيلها، وفي الصيف أحصد العشب في الأماكن التي سينمو عليها، وأنظفه في الشتاء من الثلج. أنت تعرفيني: ليس بميسوري الركون من دون عمل. وبشكل عام، أنا شخص عنيد. أعمل، وأتذكر أولئك الذين ما عادوا على قيد الحياة، كما لو أنهم يرقدون في مقبرة واحدة، وأنا أوقر لهم هذا الهدوء والسكينة، ومن باب الاحتياط أعمل نيابة عنهم أيضاً. فربما أنقذ أحداً ما.

وقالت تانيا له برقة وحُنو، وهي تُمسد رأسه الأصلع:

- مَنْ تُنفذ؟ وأي عمل؟ ومَنْ يحتاجه؟ لقد فقدت صوابك يا أبي!

كان عاري الرأس، فقد سقط الشعر منه بالكامل، ولكن تدلّى على وجهه شاربٌ أبيضٌ على شكل حدوة حصان. كان ألكسي بيتروفيتش سوكوف نحيفاً، وخفيفاً وبعيون صغيرة زرقاء متوهّجة، كما لدى شخص ممسوس.

وجد سوكوف معنىً لحياته في مدرج الطائرات الممتد على مسافة ثلاثة كيلو مترات، والمنتهي بمستنقع وعر، لا يمكن عبوره.. كان قد بلغ سنّ ثلاثة وستين عاماً، وعاش معتمداً على التقاعد في القرية التي بقي فيها حوالي مئة شخص وحسب. وكان نصفهم في يوم ما من مرؤوسيه، ولكن، لا يريد أحد منهم إسداء المساعدة له. ولم يعد الفريق السابق للمطار، الذي يعيش بجواره على مدى سنوات طويلة، يعترف بالكابتن. فقط أنطون أنطوننتش القصير القامة، كان أحياناً يقدم له المساعدة. وعندما يكون أنطون أنطوننتش في حالة سكر شديد، يقدم المساعدة بفخر وعلى وقع الأغاني. أما عندما يكون صاحبياً، فيقدم المساعدة خفيةً، أو مع اقتراب حلول الظلام.

كان يوجد هنا مطار، وتولّى سوكوف منصب مديره. وقبل خمسة عشر عاماً قررت الجهات المعنية، إلغاء مرابط الطائرات فيه واستخدام مدرجه، وأبقت ساحة للمروحيات، وخضت الملاك، وعلى هذا النحو أصبح الكثير من المرؤوسين عاطلين عن العمل، ومنهم مَنْ غادر القرية، ومنهم مَنْ بقي فيها، وهو يراقب بلا شفقة، كيف تموت قضية سوكوف. وقبل ثمانية أعوام جرى تسريح الجميع من العمل، كما أزيل الموقع من قيد السجلات الحكومية، ومنذ ذلك الزمن، بقيت على عاتق سوكوف المسؤولية عن ساحة المروحيات ومدرج المطار، لكونهما بجانب داره. وفي الوقت الذي انهارت داره، وكان عليه تغيير السقف وبناء سقيفة جديدة، كرّس سوكوف حياته أكثر فأكثر، وباستماتةً للعمل في العراء.

قام في الصباح بجولة حول الساحة، وسار على مهل على مدرج المطار، مثل غرنوق.

وكانت خرسانة المدرج تلمع من شدة الرطوبة، حتى في الطقس الجيد، كما كانت طوال الوقت تنفّث وتنقسم إلى بلاطات. عثر ذات مرة، في شهر مايو عند نهاية المدرج، قرب المستنقع على ذئب ميت، نحيف وضئيل، فسحبه، وطمره بالأوراق. وكان من الصواب أن يحمل السلاح عند التجوال في هذه المناطق، فالخطر ماثل هنا، بيد أن سوكوف فضّل أن يحمل معه شيئاً آخر، في الشتاء كان يحمل مجرفة، وفي الصيف منجلاً، إذ كان يواسي نفسه، بأنه سيدافع عن نفسه بهذه الأدوات، إذا هاجمه حيوان مفترس.

شعر أن الأرض أصبحت رخوة تحت الخرسانة المتداعية، وكان يروم التخلّص من هذه الخرسانة التي غدت عبئاً ثقيلاً، فلم تعد هناك حاجة إليها منذ فترة طويلة. علماً أنّ سوكوف نفسه بات يشكّل عبئاً على الأرض. فقد توفيت زوجته سوكوفا جالينا فيكتورفنا قبل ثلاث سنوات. وأدرك ألكسي بيتروفيتش ذنبه في موتها. فكان من الضروري الجلاء عن هذه الأماكن، وكانت المرحومة بحاجة إلى الهدوء والسكينة. وكانت تؤثبه في كل مناسبة.

وكانت تقول إنه جلب الخزي لها ولنفسه أمام الجيران: «من الأفضل الموت، ولا رؤية هذا العار»، حتى إنها كررت القول: «كان من الأفضل لو كنت مدمناً على الكحول، على أن تكون معنوياً إلى هذا الحد!». ووصفت سوكوف على الدوام بالمجنون. ثم فارقت الحياة، وهي مستغرقة في النوم. كانت عادة تتحدث بصوت عالٍ، بينما رحلت بهدوء.

أرهق عينيه أكثر، وأكثر في الصباحات، وهو يسير يتمهل على الخرسانة، ويطالع بامعان تحت قدميه، وكأنه يتوقع رؤية شاهد قبر زوجته الراحلة: «سوكوفا جالينا فيكتورنا 1945-2008».

عندما كبرت ابنته تانيا سافرت إلى مدينة بيرم. وعملت هناك في متحف، ولكنه متحف غير عادي، وإنما للفن الحديث. كانت تأتي لزيارته مرة في كل نصف عام، وتستغرق في الضحك بصوت رنان، وتحدث جلبة في المنزل، وتجلب معها بعض الأدوات التي تساعد على العناية بالمدراج بسهولة. وإن كانت تستغرق في الضحك، فإنها تخرج طيلة الوقت إلى السقيفة، لتدخن. هز سوكوف رأسه: «ليناك تتزوجين» وراوده الشك، كما راود الجيران أيضاً الذين ردّوا أقاويل عن: «أن تانيا مومس». وذات مرة عرضت عليه تانيا مجموعة من الصور، حيث كانت تطلّ في إحداها، من باب نموذج لدبابة مصنوعة من المطاط المنفوخ، ووجهها مطلي بلون قرمزي ساطع مثل التوت البري. وكان بدن الدبابة المطاطية أخضر فاتحاً، شبه شفاف. وضيق سوكوف عينيه ليرى أفضل، وسأل «ما ذا تعملين في الدبابة وأنت هكذا عارية؟» تضرّجت تانيا من شدة الخجل، ودمدمت: «لماذا؟ أنا في زيّ سباحة بيكيني»، وأخفت الصور في حقيبة السفر، ولم تخرجها بعد ذلك.

منذ أن تمّ إلغاء موقع المطار من قيد سجلات الدولة، دبّت الحياة في كل شيء، واستعجل بعض أصحاب النفوذ الجدد للاستيلاء على أرض المطار الذي أصبح من دون مالك. ودبت الحياة حتى في الطبيعة، التي أغرقت مدرج المطار عدّة مرات بمياه المطر الغزيرة، لدرجة أنه استوى مع المستنقع، واعتقد سوكوف لأنه فقدّه للأبد. بيد أن الشمس عملت المعجزات، وبخّرت المياه، فظهرت الخرسانة مرة أخرى، ولكن تعيّن عليه بالطبع بذل بعض الجهد، وتنظيف المكان من العكارة والطين. واستأجر سوكوف في الشتاء رجلاً من قرية أخرى، وقدم له قنينة، وراح هذا يشاكسه مداعباً، وكسح الثلج والجليد بجزّاره الشخصي.

وفي الصيف جاء هُواة جمع الفطر. كان هؤلاء أناساً غرباء عن القرية، وعادة ما يركنون سياراتهم على مدرج المطار، أو في الساحة مما يثير حفيظة سوكوف. وكان سوكوف يندفع خارجاً من منزله ويهددهم:

اذهبوا من هنا! سأدعو فتية القرية ليلقنوكم درساً! وهل عليّ أن آتي بالبندقية، ها؟.. ألا تفهمون؟! إنّ هذه منشأة حكومية. ماذا بوسعي أن أعمل، لو أن طائرة أرادت الهبوط فجأة؟.. هل ستهبط على رؤوسكم الفارغة، ها؟

تدقق اللعاب على شفثيه من شدّة الغضب، واتقدت عيناه بضوء ساطع كضوء مصباح كهربائي، حتى إنّ جامعي الفطر فضّلوا عدم التورّط في التعامل مع رجل غريب الأطوار. لوّح بذراعه بانفعال، ومدّها طويلة نحو السماء، كما لو كان يدعو طائرة، لتهبط على الفور.

وحدث أيضاً، عندما كانت زوجته ما تزال على قيد الحياة، وكانت الابنة في ذلك الوقت تعيش معهما، وترتاد المدرسة في القرية القريبة، وكان يعمل معه في المطار فريق من العمّال، ولو صغير، لكنه على كل حال فريق، وأحياناً كانت تهبط مروحيات، أن جاء ذات مرة أفراد عصابة إجرامية. كانوا ثلاثة، وتحدث سوكوف معهم على انفراد في نهاية المدرج، حيث تنداح المستنقعات اللامتناهية. تحدثوا معه بصورة غامضة، وأقدامهم تقوم بحركات شبيهة بالرقص.

وتوجّه له رئيسهم، ذو الرأس الكروي الخالي من الشعر، بنبرة متسائلة:

لديك أرض جيدة وجافة لم تغمرها المستنقعات، لماذا تهدر الأرض الجافة يا عاهر، وتضيع عبثاً؟ من الغباء التفريط بالأرض. هل نحن في جمهورية كومي أم ليس في كومي؟ أنت تعرف بنفسك، لا توجد أرض جافة لدينا في الجمهورية. وإنما موجودة لديك. سنزيل الخرسانة، وسنقوم بتنشيد المباني هنا، هل فهمت؟

راقب الزملاء في العمل المشهد من بعيد: رفع سوكوف يديه بتوسّل، ولوّح بذراعيه كما لو كانا جناحين، (ربما كان يكشّ البعوض بعيداً عنه؟)، وقام بقدميه بحركات شبيهة بالرقص، كما لو أراد أن يجادل الضيوف بهذه الحركات. دفعه أحدهم فسقط أرضاً. واندفع الثلاثة نحو السيارة الكبيرة بسرعة وبصمت، وانطلقوا بسرعة فائقة. نهض سوكوف وسار ببطء وهو يعرج، وكانت كمّه منتفخة بطين المستنقعات النتن، وبدأ الجميع في القرية في الاستعداد للأسوأ، لكن أحداً من أفراد تلك العصابة لم يعد للقرية. على الأرجح أنهم استعدوا للعودة، ولكن منعتهم مواجهة مسلّحة مع شبكة إجرامية أخرى، لتصفية خلافات، واختفوا إلى الأبد قتلى في مكان ما بين المستنقعات.

ولكن أدى ذلك إلى أن يصبح سوكوف أصلع تماماً، وغدا رأسه شبيهاً برأس رئيس العصابة الإجرامية، الذي طالبه بإعطاء الأرض الجافة المغطّاة بلا فائدة بالخرسانة السوفيتية. وانغمر سوكوف بقوة أكثر بالعمل. وأصبح يشبه كاهناً لعقيدة ملغاة، ويحرس فضاءً مقدّساً، في انتظار هبوط الآلهة.

... في أحد أيام خريف 2010، قدم أنطون أنطونيتش المساعدة إلى سوكوفوف كان كالعادة مخموراً. منحت حالة السكر الجار القوّة، والرغبة في التواصل مع سوكوف. وراح أنطونيتش يغني، ويدمدم، وذهب بعيداً عنه، واقترب منه، وحتى إنّه عثر على جذع شجرة، فدفع بها بعيداً في الأحراش وقال:

- مطروحة على قارعة الطريق! فهل يجوز هذا الأمر؟ النظام مطلوب! فقد يحدث أي

شيء...

لم يردّ سوكوف عليه.

قاما بتنظيف المكان، وتفرّقا، وذهب كلٌّ إلى منزله.

ذهب سوكوف للنوم في ذلك اليوم في وقت مبكر. وكان نومه قلقاً ومتقطعاً.

أيقظه ضجيج وصفير. ومرّ بسرعة خاطفة من راء النافذة ظلّ عريض، وانهار شيء ما مقروناً بقعقةٍ رهيبية لارتطام معدن.

كان سوكوف يعرف هذا الضجيج. فانقبض قلبه. دسّ قدميه في حذائه، وهرع من المنزل راكضاً. ركض عبر الريح، والرذاذ والعتمة في سروال داخلي وفانيليا. ركض، وركض، وركض.

وكما قال طيارو توبوليف 154 في وقت لاحق، إنهم لم يُصدّقوا عيونهم.

كانت طائرتهم المدنية تقوم برحلة من إقليم بوليارني إلى موسكو. ونفد الوقود لديهم تماماً، ولم تعمل البطاريات على متن الطائرة، إذ كانت مدّة صلاحيتها للخدمة قد انتهت، وطافت الطائرة فوق مستنقعات وغابات التايغا، وانطفأت الأضواء في داخلها، وانخفضت، لتلقى حتفها.

وفجأة، ومثل معجزة أو مسخرة، انبجست وسط ظلام الأشجار الذي لانهاية له، ساحة، وامتدّ مدرج طائرات...

قامت الطائرة بدورة، وهبطت مقرونة بالقرعة، ومرّت بسرعة كبيرة على الخرسانة من دون أية عوائق، وتوقّفت مباشرة عند حافة المستنقع. ونجّت، وطاقمها من الهلاك.

الحب زاخار بريليين

بالكاد أتذكر طفولتي، ويتهياً لي أنني كنت مريضاً طوال تلك الفترة. وحينما أعصر ذاكرتي لفترة طويلة، تظهر أمامي صورة باهتة، أبدو فيها جالساً على السرير، ولسبب ما، كانت رقبتني ملفوفة بكثرة وبشدة، وكأني قد كسرت رقبتني. إن طوق الرقبة الملفوف عليها، والياقة الملطخة بالأدوية... جعلاني شبيهاً بأمير. وأتذكر أن والدي كان يجلس إلى جوارني، ويبيده قدح حليب ساخن. وكان مثلي ينفّر من الحليب، فهو لم يحب حتى البارد منه، ولكن أمي أمرتني بأن أشربه، وانصاع كلانا لها.

واقترح أبي عليّ:

- هل أقرأ لك؟

فهزرت رأسي، بالنفي، - كلا!

وقال لي:

- إذن سأقرأ لنفسني..

حينما بلغت الثالثة عشرة من العمر، انحرفت صحتي، ونحف جسمي تماماً. وشعرْتُ كما لو أن شجرة غُبيراء نمت تحت جلدي، وأن ثمارها ذات اللون الأحمر، تزحف من هناك إلى كل

جانِب من جوانب بدني، فتبرز منها بثور على جسمي. وانبجست من جسمي مادة سائلة كالعصير، من القيقح، ومصل الدم. وحينما عاينت نفسي (الظهر والجنب) في مرآة ذات ثلاثة مصاريع، شعرت بالغثيان وأنا أحرّك المرايا في مختلف الزوايا. وحلمت ليلاً، بأن أحدهم كان يعصرني، مثلما يعصر خرقة غسيل، وانشقَّ كل جلدي وهو يصرّ، وطفق ينزف دون انقطاع. ووضعت تحتي إجانة، أخذت تمتلئ أكثر فأكثر، بيد أنني بالمقابل شعرت في داخلي بارتياح عظيم، بفراغ نفسي وطهارة: لم أعد أتقيح! وعصروا مني ثمار شجرة الغبيراء بأسرها!. أطلقت أمي التآوهات، ودهنتني بمادة اليود، ورحت أدور في الشقة مثل هندي أحمر مسعور، مثل رب هندي أحمر مسعور، مثل حلم إله هندي أحمر مسعور مرعب، وجسدي كله مزخرف بلطخات، وبقع يود منقطة. واعتقدت أمي أن اليود سيمتص كل ما أثمرته، في داخلي على مدار السنة شجرة الغبيراء. ونضج الثمر في كافة أجزاء بدني، ما عدا الركب. وإذا جاءت جاراتنا لزيارة أمي، كنت أختبئ في غرفتي، وأتظاهر بالنوم. كانت شقتنا صغيرة، وأمّي تلج عادة إلى غرفتي، مرة لتأخذ نماذج تفصيل الملابس، وأخرى لأخذ بدلتها الجديدة، لتتفاخر بها أمام الجارات، وكان خزّان الملابس في غرفتي. كنت دائماً أنغطي بالشرشف، وألملم البطانية قرب رأسي، لذلك لم تندهش أمي، حينما دخلت غرفتي، ورأت قدمي العاريّتين، تتدليان من تحت أكداس البياضات. اندهشت الجارات عند رؤيتي، وسألن: - أوي، من هذا؟

ردّت أمي بخفوت، وقد فترت شفاتها عن ابتسامه: - هذا ابني. فهو ينام على هذا النحو.

وسألتهما الجارات:

- ألا يختنق؟

وأردفت أمي، وحتى بشيء من الفخر:

- إنه يحب النوم بهذا الشكل.

لو كانت ثمة إمكانية، لمسيّث في الشارع، وعلى رأسي هذه البطانية. وأوضحت أمي للجميع: إنه يحب أن يكون بهذه الهيئة.

وإذا ما انتزع أحدهم البطانية عني، فسوف يرى وجهي المدهون بطبقة يود كثيفة. وأنا أيضاً أحب جداً تغطية وجهي على هذا النحو.

ألقت أمي خلال تناولنا الغداء عليّ نظرة ممزوجة بالشفقة والحنان. لم أعرف أين أختفي من هذه النظرة.

بينما لم يلحظ أبي شيئاً. وألحت عليه أمي، وسعتت جاهدة، لنزع قميصي في المطبخ: - ألا ترى ما أصاب وجهه، لقد انتقلت البثور إلى ظهره!

وتخلّصت منها بكسل.

وقال أبي، وهو مندهش من إزعاجه بمثل هذه الأمور الطفيفة: - ستزول.

وراحت أمي تعذّبه:

- هل أصبت بمثل هذا المرض؟

- لا، أنا لم أصب بمثله أبداً.

- فلماذا قررت بأنها ستزول؟! -

- وهل يا ترى ستبقى مدى الحياة؟! -

ردّ عليها أبي بنبرة، كما لو أن لسان حاله يقول: حتى لو بقي مدى الحياة بهذه الحالة، أو بأسوأ منها، فإنّ هذا لن يحزنه.

كانت تراود أمي دائماً مختلف الأفكار، عن كيفية القضاء على ثمار شجرة الغبيراء في داخل جسدي. ودهنتني بالدهون التي فاحت باستدامة بالروائح، وجعلتني أتناول كميات كبيرة من الأعشاب، بما في ذلك زهور الأفحوان والصبر والأعشاب، لدرجة، صار من الممكن القيام بمحاولة حلّي، كما تحلب البقرة من الأعشاب، إضافة إلى تناولي مختلف ألوان الفيتامينات، ووضع ضمادات الشاش والكمادات، وكان باستطاعة مصابيح الضوء البرتقالي الموجّه نحو وجهي، أن تُعمي بصر زنبور عند تعرّضه لأشعتها، وتجعل ذباب النفايات الذي لا يُباد، يفقد طنينه، والبعض يحترق في الهواء. بعد كل جلسة من جلسات العلاج الضوئي هذا، كنت أشعر بأن جلد وجهي يتخشّب، ويحمرّ، ويقرقع مثل طينة جافة. وإذا أردتُ أن أبتسم، خُيل لي حالاً، أنّ خدّي على وشك الانفجار، وأنّ جبّتي ستتناثر إرباً إرباً، وتتساقط إلى الأسفل. كانت البثور تزول خلال يوم أو يومين أو ثلاثة، ولكن ما إن تتحسر هذه الحمرة الحارقة اللعينة عن وجهي، حتى تبدأ بالظهور بعدها، على الفور، بثور على جبّتي في صَفّين، واحد على كل خدّ، وتجمّعت ثلاث منها على حَنَكِي.

ذات مرة، قررت أمي إرسالني مع والدي إلى الحمّام العمومي، وطلبت منه: - عَالِجُهُ
بالبخار.

وردّ عليها:

- بالطبع، فلماذا نحن نذهب إلى الحمّام؟! -

ونصحته أمي:

- عَالِجُهُ بالبخار، كما يجب.

وكانت أمي تعتقد أن البثور ستتبخر، وستحترق جذورها، عند ضربها بمكنسة من غصون شجرة البتولا، مُعدّة للاستحمام.

كان حمّاماً عمومياً. وحاولت في غرفة نزع الملابس ألا أدور، ولا أعرض جسدي، بكل ما فيه من قبح للمستحمّين. نزعْتُ ملابسِي البالية بسرعة، واختفيت على عجل خلف والدي في القاعة الدافئة التي خيم عليها البخار، ومن حسن الحظ أنّ الإضاءة في داخل الحمّام لم تكن قوية، بفعل البخار العالق. ولاحظت من هيئة أبي، أنه لم يتذكر ولو للحظة، كيف يبدو مذهري. ولم ينتبه القلق، من أنه يسير خلفه ابن كسيح في جلد سلحفاة بعيون بشرية. ذهب حالاً إلى غرفة البخار، اندفعت بعجلة إلى هناك. وكان الرجال هناك يطلقون الصرخات، يتأوهون، ويشتمون بعضهم البعض بكلمات بذيئة، وبالطبع اتكأت بظهري على الجدار. كان ظهري مريعاً. بحرّ أبي مكنسة من غصن البتولا، وصبّ ثلاث مرات على نفسه الماء بسخاء، من إبريق أسود اللون، وربّت نفسه بالمكنسة. وعرض جسمه للبخار وهو جالس في أعلى الرف، حيث درجة الحرارة فظيعة، من دون أن يزمجر، أو يصرخ. كان وجهه فقط يتغضّن أحياناً. لم يبق أحد جواره، فقد هبط الرجال إلى أسفل الرفوف، وخرجوا من غرفة البخار.

وسألني والدي:

- هل أعالكك بالبخار؟

قلت له:

- كلا.

لم أرغب أن ينظر إلي:

- كلا إذن.. كلا.

إنه لم ينس نصيحة أمي، ولكن لم يطراً على باله، أن يتعامل معي كمريض. صبّ أبي على نفسه ماءً مثلجاً، وعالج نفسه بالبخار مرة أخرى. تكيفتُ أنا مع الجوّ، وأخذت أتقلّب على رفوف غرفة البخار، وسمحت لنفسي بالاستلقاء على بطني، وعموماً استحوذ عليّ النعاس. خرجنا سوية إلى غرفة المغسل، وأخذ أبي طاسةً، كان أحدهم قد تركها، توجه بها إلى الحنفيات. فقال له أحدهم: - أي، هذه طاستي.

وردّ عليه أبي دون مبالاة:

- خذ لنفسك طاسة أخرى.

وتعيّن عليّ المشي بحذر في غرفة المغسل، لأن الأرض كانت زلقة. وباعدتُ بين قدمي مثل ضفدعة تمشي على قدمين. التفتُّ بغتة إلى الوراء، ورأيت أن شاباً أسمر قد ركز عينه علي.

وصرخ بأعلى صوته:

- أيُّ شيطان جاء بك إلى الحمّام العمومي بظهرك المتأكل، ينبغي أن تُنقَع في برميل منفرد، بحامض ملحي، متفَيِّحٌ أبله.

في هذه الأثناء، صَوَّبَ أبي بدنه ببراعة، بالطبع، لم يُعزِ الاهتمام إلى أحد، ولم يوضح له أحد بأن عليه الخجل مني، وإخفائي عن الناس. ولم يتوصل بنفسه لهذه الفكرة قطّ. تذكرت كيف اختمرت قبل سبع سنوات، ببال أمي فكرة إرسالني للتزلج، في ساحة التزلج الرئيسية في المدينة المغطّاة بقبة من خرسانة وزجاج.

سأل أبي أمي، على سبيل الترويح عن نفسه، دون أن يقصد معارضة ما عزمت عليه أمي: - ربما، من الأفضل تعليمه هوكي الجليد.

ولم تفهم أمي السؤال. اشتريا لي حذاء تزلج، وعصا هوكي. واصطحباني إلى المدرّب. ورضخ المدرّب لإلحاح أمي، ضمّني إلى الفريق. وكان أبي يرافقني إلى دروس التدريب. كان يجلس في المنصة وهو يدخن، على الرغم، من أنه لا يجوز التدخين هناك. وكانت بمعيتي دائماً جريدة أو جريدتان، ولكن يُخيّل لي أنها لم تكن جرائد جديدة. لا فرق لديه، كان يقرأ الأخبار القديمة، ويدخن. وقف الآباء الآخرون قرب الحاجز، ووقعوا في نوبات هستيريا، وهم يصرخون، يصرون بأسنانهم على أبنائهم. يصرخ أحدهم بابنه: - دعه، دعه، قلت لك.

وآخر:

- بسرعة! أين سرعتك! طارده، يا عفريت!

ويردّد الثالث:

- ماذا أصابك، هل فطست هناك؟ انهض بسرعة، يا لئيم! أي «قدم»! هل أصبت برضوض؟ انهض بسرعة!

كان من الممكن ألا ألاحظ إصابتي بخلع في قدمي فأنزلق، أصرُّ بأسناني من شدّة الألم، وقد أزحف على الجليد، مثل المصاب بالتيفوئيد. ولكنها لم تنثر اهتمام والدي، لا الأولى، ولا الثانية. وأحياناً ومن أجل أن يدخن ثانية، ينصرف عن قراءة الجريدة، يُلوّح لي بلطف بيده، مع سيجارته المُدخّنة.

ذات مرة، اقترب منه الحارس، وطلب منه أن يرمي السيجارة، هزَّ أبي له برأسه، وعندما ذهب الحارس، عاد أبي من جديد للتدخين، ولم يكن في هذا، أي ضرب من ضروب التحدي، لكنه، وببساطة نسي ملاحظة الحارس.

في صيف ذلك العام، سافرنا إلى البحر للراحة والاستجمام، وكان أبي قد عمل في شبابه هنا في فرقة بناء، وعرف مكاناً بشاطيء خالٍ من الناس، غير بعيد عن إحدى المدن الواقعة على البحر.

كانت أمي شاطرة حتى في تلك المناطق، حيث عثرت على المخازن التي عليها ارتيادها لدراستها، فيما أنا وأبي استلقينا لفترة طويلة على الشاطئ.

وغالباً ما كان والدي يلوذ بالصمت.

وعقب الغداء، ذهب عبر مزارع ما للقائها، فقد كانت أمي تخاف الأفاعي والسلاحف، حراس المزارع، عموماً، كانت تخاف المجازفة بأن تضلّ الطريق. وكانت تجلب معها أكياساً مملوءة بالمشتريات. وقررت أمي ألا تترك ما اقتنته في المنزل الذي استأجرناه، فربما يسرقه أصحاب الدار.

وكان أبي يردّ عليها بسخرية.

وكانت أمي تفتح الأكياس، لتعرض على أبي ما جاءت به من غنائم، فيتفرّس فيها، ويغمز باستحسان، وهو ينفث الدخان من سيجارته. وأعتقد لو أنها خدعته ذات مرة، وعرضت عليه بدل الملابس الجديدة، فستاناً من قماش عتيق، أو قبعة غريبة ممزقة عثرت عليها، أو شيئاً آخر، فإنه لن يلاحظ ذلك.

حينما دخلت أمي الماء، وقفت هناك وسط الأمواج، حتى الحزام، لأنها كانت تخاف السباحة من دون أبي.

سألتُ أبي:

- بابا هل أسأؤوا لك في المدرسة؟

نفض أبي رماد السيجارة عن صدره، وأجاب من دون مبالاة: - على الأرجح سيكون هذا أمراً صعباً...

ويبدو أن هذه هي المرة الأولى التي تُحرّك شيئاً ما في دماغه، فغرق في التفكير، وقال: - هيا، لأدربك على الملاكمة.

نهضنا واقفين، ونفضنا الرمل عنا، وأراني وقفة الاستعداد.

- هكذا نعم، على هذا النحو.

ووضع لمواجهتي راحتيه الكبيرتين المفتوحتين: - اضرب.. اضرب كفي، يسرة يمينة. يسرة يمينة. لا ليس هكذا. انظر. كان يتحرّك بصورة رائعة. تولدت ضربته في مكان ما في كعب قدمه، ومن ثم ترتفع مندفعة بشكل حلزوني، وتستدير في ساقيه نحو البطن، وتنطلق عبر القلب، وتعطي شرارة في الكتف، وكانت حركة كفيه تشبه ضربة تيار كهربائي في جبين الخصم.

عَلَّمَنِي كَيْفَ عَلِيٍّ أَنْ أُنْحَنِي، وَأَفَلَّتْ مِنَ الضَّرْبَةِ، وَكَيْفَ أُتَحَرِّكُ، وَأُنْقَلُ بَدَنِي بِخَفَّةٍ حَوْلَ الْخَصْمِ. تَدْرِبُنَا حِوَالِي 15 دَقِيقَةً عَلَى الرَّمْلِ.

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ أَبِي:

- حَسَنًا، حَتْمًا سَتَتَعَلَّمُ كُلَّ شَيْءٍ يَوْمًا مَا.

وَاسْتَلْقَى فِي مَكَانِهِ، مَغْطِيًّا رَأْسَهُ بِجَرِيدَةٍ قَدِيمَةٍ.

إِنَّهُ عَلَى الْأَقْلَى عَلَّمَنِي شَيْئًا مَا.

فِي طَرِيقِ الْعُودَةِ، رَكِبْنَا حَافِلَةً تَسِيرُ بِنْتِاقِلٍ وَاهْتِرَازٍ، وَتَفُوحٍ فِيهَا رَائِحَةٌ بَشْرِيَّةٌ كَرِيهَةٌ. إِلَى ذَلِكَ حَصَلْنَا عَلَى مَقَاعِدٍ مَتَفَرِّقَةٍ، حَيْثُ جَلَسْتُ أُمِّي فِي الْمَقْدَمَةِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ دَائِمًا بِالْغَثِيَانِ فِي وَسَائِلِ النُّقْلِ، أَمَا أَنَا وَأَبِي، فَقَدْ جَلَسْنَا فِي مَكَانٍ دَافِئٍ عَلَى مَقَاعِدٍ مَزْدُوجَةٍ، بِالْقُرْبِ مِنْ مُؤَخَّرَةِ الصَّالُونَ...

وَصَبَرْتُ حِوَالِي ثَلَاثَ سَاعَاتٍ، ثَمَّ تَعَقَّبْتَنِي نُوبَةُ غَثِيَانٍ، كَمَا فِي مَوْجَةِ الْبَحْرِ الَّتِي تَرَكْنَاهُ، وَضَرَبْتَنِي فِي ظَهْرِي، وَكَانَ بُوَسْعِي أَنْ أُطْلَبَ مِنْ أَبِي أَنْ يَصْنَعَ لِي كَيْسًا مِنْ وَرَقِ الْجَرِيدَةِ لَكِي، أَتَقِيًّا فِيهِ، وَلَكِنِّي خَجَلْتُ، وَانْتَظَرْتُ الْمَوْجَةَ التَّالِيَةَ.

وظَهَرَتْ هَذِهِ النُّوبَةُ، وَضَرَبْتَنِي فِي الْقَدَالِ، انْتَزَعْتَ مِنْ دَاخِلِي بِدَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ، بِقَايَا مَا كُنْتُ قَدْ تَنَاوَلْتَهُ فِي الصَّبَاحِ: الْجَبْنَةُ وَالْمَشْمَشُ، وَكُوبٌ مِنَ الْعَصِيرِ، تَقِيَّاتٌ تَحْتَ الْمَقْعَدِ الْمَجَاوِرِ.

وَلَمْ يُبِدِ أَبِي الدَّهْشَةَ أَوْ الْإِسْتِيَاءَ بِشَأْنِ مَا حَصَلَ، سَحَبَ صَفْحَاتٍ مِنْ مَنْتَصَفِ جَرِيدَتِهِ، وَغَطَّى بِهَا كُلَّ مَا تَقِيَّاتٌ، وَمَسَحَ وَجْهِي بِإِحْدَى الصَّفْحَاتِ الْمَدْعُوكَةِ.

كَانَ يَجْلِسُ فِي الْمَقَابِلِ مَنَّا عَبْرَ الْمَمْرِّ، رَجُلٌ مِنْ أُوْكَرَانِيَا، نُو خَدَّيْنِ مَنْتَفَخِيْنِ، وَشَارِبِيْنِ، وَيَتَدَفَّقُ الْعَرَقُ بِاسْتِمْرَارٍ مِنْ رَقْبَتِهِ الْغَلِيظَةِ مِثْلَ رَقْبَةِ خَنْزِيرٍ..

وَرَكِزَ الرَّجُلُ، الَّذِي مَسَخَهُ التَّشْنِجُ مِنْ هَفُوتِي، وَقَالَ وَهُوَ يُحَرِّكُ شَارِبِيَهُ مَتَوَجِّهًا لَجِهَةِ وَالِدِي، وَكَأَنَّهُ لَا يَخْصَهُ بِالْكَلامِ.

- لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، الْآنَ سَأَتَقِيًّا بِنَفْسِي، وَأَنَا أَنْظُرُ لَكُمْ.

لَفَّ وَالِدِي كَيْسًا كَبِيرًا مِنَ الْجَرِيدَةِ، قَدَمَهُ لِلأُوْكَرَانِي قَائِلًا لَهُ: - خُذْ، تَقِيًّا هُنَا.

وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى دَاخِلِ الْكَيْسِ.

سَأَلْتُ أُمِّي عِنْدَ أَقْرَبِ مَحْطَةٍ وَقُوفٍ، وَكَانَ وَجْهَهَا شَاخِبًا يَمِيلُ إِلَى الصَّفْرَةِ:.. كَيْفَ حَالُهُ؟

وَرَدَّ الْأَبُ:

- ماذا؟.. نحن نمضي بصورة ممتازة، وبقيت أمامنا مسافة غير طويلة.

وكان الأوكراني في هذه الفترة، يقف عند أقرب مضخة ماء وهو يتلملم، إذ أراد أن يصبّ الماء على رأسه، غير أن هذا تطلّب منه الضغط بيده في آن واحد على ذراع المضخة الصديء، ودَعَكَ رأسه، وقام بذلك بغضب

واقترح عليه أبي:

- دعني أساعدك.

لم يكن أبي يعتزم مساعدة الشخص المستاء، وإنما ببساطة كان يرغب هو بشرب الماء، وغسل كتفيه..

وكان يمسك بيده سلكاً سميكاً التقطه من الأرض، وطواه بأصابعه.

هزّ الأوكراني رقبتَه منزعجاً، ووافق على اقتراح أبي.

لقد روى كل هذا، على قدر ما استطاع بكلماته البسيطة: أمرُ فصيلة «كومود» التي كنت أخدم جندياً فيها، في جمهورية الشيشان، بعد أن قمنا بعملية تمشيط عسكرية. كانت هذه المهمة السابعة له في شمال القوقاز، وكان يحب الثرثرة وجهاً لوجه، بعد أن يدخن الحشيشة. ويبدو أنني لُدْتُ بالصمت حسب الأصول، وأنا أصغي إليه. وكان أمر «كومود» في الحالات الأخرى صموتاً، وذا نبرة ساخرة، وكان الجنود يخافون منه. وعلى العموم، فإن الخوف في مجتمع الرجال، يكاد يكون تعبيراً عن الاحترام، ولذلك، فبدلاً من القول إنهم كانوا يخافون منه، يمكن القول بثقة: «إن الجنود كانوا معجبين به».

واصل أمر «كومود» سرد ذكرياته لي، وهو يمسح وجهه الغليظ، الذي يبدو، وكأنه مرشوش بالرمل الوسخ، بيد أنه كان وجهاً ذكياً بتقاسيم صحيحة. وقال، حينما بلغت الرابعة عشرة من العمر تسلل والدي ليلاً، إلى إحدى جاراتنا، فطرده أمي من البيت.

استيقظ الصبي، لدى سماع الضجيج.

وراحت الأم تصرخ كالمذبوحة. ولا يتذكر الصبي أية كلمة من تلك الكلمات البذيئة، التي كانت تشتم بها الأم، كما يبدو تتجاوز الألف. ويبدو أنها تلفظت على التوالي بكلمات إهانة فظيعة، إضافة لعبارات غير واضحة مثل، «دع! دع الجميع ينظرون». كان الأب مخموراً جداً، وحاول دخول المنزل، بينما كانت الأم تدفعه. وظهرت بيد الأم فردة حذاء، فضربته بها في وجهه، فنزف منه الدم من عدة أماكن. ولم ينزف الدم من الأنف، بل من مكان ما في الشفتين والجبهة.

كان الأب مرتدياً فردة حذاء واحدة، وبهذه الفرده، ضربته.

ولم ينبس هو بكلمة واحدة، ولم يستر وجهه، وحاول فقط مرة بعد أخرى دخول الشقة، على ما يبدو، لكي يلوذ هناك بزاوية ما.

لقد تبين أن الأمّ تتمتع بقوة عضلية أكبر من الأب، إذ تمكنت من سحبه إلى الفناء، ودفعه من السلم. واندفع الصبي في أعقابه، ورأى كيف أن الأب لم يسيطر على قدميه، وتدحرج من السلم إلى الأسفل، متشقلباً بسقوطه، واصطدم رأسه بشبكة السلم الحديدية.

وبقيت على وجهه ندبة من أثر الجرح، الذي نما بصورة قبيحة.

لاذ أمر «كومود» بالصمت، ومن ثم تابع قوله: - ومنذ ذلك الحين لا يرى بعضنا البعض الآخر، إنه يزورني أحياناً، أحرص تماماً، ولا ينبس بأية كلمة، وأطرش لا يسمع كلمة بأذنيه... فماذا أستطيع أن أعمل له... وماذا أقول له؟ كنا قد انتهينا تَوّاً من عملية تمشيط دار أحد المقاتلين الشيشان في بلدة «ستاربه بروميسلي»، ولم يفتح أهل الدار لنا الباب. وحينها استشاط أمر «كومود» غيظاً، فقلع الباب بضربة واحدة من قدمه. لقد كانت الضربة قويّة، لدرجة أن الباب سقط، كما لو أنه انفلق بموجة انفجار، فتهاولى على الشخص الذي وقف خلفه.

وصرخ أحدهم من الخلف:

- سلاح، بيده سلاح.

كان الشخص الذي وقف وراء الباب يحمل رشاشاً، وقد اختفى حتى صدره وراء الباب المنهار. وظلّت لحيته المغطاة بالكلس عالقة، بينما كان يمكن رؤية يده، وهي قابضة على الرشاش، وسعى لرفعها، تحرّكت أصابعه على الزناد.

تراجعا جميعاً جانباً، لكي لا نتعرّض لصلية رصاص متوقعة، وقفز الأمر بسرعة بمفرده على الباب مباشرة، بمعنى على صدر الرجل الملتحي، ومن ثم نطّ عليه عدّة مرات ساحقاً نواياه، واحتمال إطلاقه النار، وعموماً لم يتح له المجال، للنظر فيما حوله.

ومن ثم أسقط الأمر بقدمه، الرشاش من يد البائس، الذي راح يُحرّك عينيه إلى الأعلى وهو مطروح تحت الباب، ولم ينبس الأمر أن يصرخ بنا، نحن الذين وقفنا خلف عضادتي الباب: - هيا أسرعوا إلى المطبخ.

واختفى هو في أقرب غرفة، ليعرف فيما إذا كان أحد ما هناك.

الآن نزع أمر الفصيل ملابسه حتى الحزام. كان ملوحاً وجميلاً، مثل حجر كبير صقلته الرياح، وانحنى تحت مضخة الماء للاغتسال.

التقط من الأرض سلكاً معدنيّاً، وطواه ببراعة على هيئة صنارة، وأمسك بأحد جوانب الذراع الضاغط للمضخة، للسماح للمياه بأن تمرّ، وركبها من الجهة الأخرى على الحنفية، وبالنتيجة تدفّق الماء بارداً دون توقّف، تيّارٌ رغوي ومثلج.

وابتهج الحجر الصقيل بتأثير الرياح، وزأر تحت دفع الماء.

عالق في الشبكة العنكبوتية

رومان سينتشرين

قصة قصيرة أدبية تنويرية

استيقظتُ في الصباح قبل أن يرن منبه الساعة، فعادة أنا أصحو في وقت مُبكر، إذا لم أشرب الخمر في الليلة الفائتة. وبوسعي أن أنام في الساعة الثانية ليلاً، ولكني أستيقظ في الساعة السادسة والنصف صباحاً، وكأقصى حدّ في السابعة أو بداية الثامنة. وفجأة تتنابني الرغبة في الجلوس إلى طاولة العمل للكتابة.

وبالأحرى إنني أشعر بالرغبة في العمل على مدار الساعة. وأحياناً أحلم بأنني أكتب أثناء النوم، بسرعة، بكثرة، وبنكران ذات. ليس بوسعي التخلّص من الشعور بأنني كتبت، ليس في الحلم، وإنما في اليقظة، حتى إنّي أقوم بفحص الدفاتر والمفكرات، وأقلب الملقّات في الكمبيوتر، على أمل أن أعرّ على هذه الصفحات.

نعم، اليوم استيقظت في الساعة السادسة وست وثلاثين دقيقة، قبل أن يرن منبه الساعة. إنه وقت رائع. وإذا اغتسلت بسرعة، وأعددت فنجان القهوة، ودخّنت، فسأجلس خلف طاولة الكتابة في الساعة السابعة. يتيح لي الهدوء المخيم، التعمق والتعايش مع مضمون وشخصيات القصة التي أكتبها. ونادراً ما أعود بعد وقت قصير، لمراجعة بعض القصص القصيرة والروايات العزيزة عليّ، التي باشرت في كتابتها قبل عدّة سنوات، وصار من الصعب عليّ أكثر، فأكثر اختيار القصة التي

سأواصل كتابتها أولاً، فالنصوص العشرة التي توقفت عن كتابتها، كلها عزيزة علي. إنها سلبت راحتني، وكلها تتمتم: «أكملني، أكمل الكتابة، أكملني».

وأنا أحرص على تنفيذ ما وعدت به زوجتي، بشرب رشفة من اللبن قبل أن أبدأ بتدخين أول سيجارة في الصباح. لقد أخبرتني أن زوج إحدى معارفها، الذي يكبرني بعدة سنوات، فارق الحياة مؤخراً، لأنه كان يدخن ومعدته خاوية، وفارق الحياة بسبب نوبة قلبية ألمت به...، وأن اللبن يمكن أن يصونني.

أخرجُ إلى شرفة الشقة. السماء صافية، والهواء دافئ. لقد حلّ الصيف في مدينتنا في غضون أربعة أيام. كانت الأرض في نهاية أبريل يابسة، وجافة مثل عظم، وفي الثالث من مايو، هطل الثلج غزيراً، وارتفع عالياً في الشوارع، وفي اليوم العاشر من مايو ظهرت الأوراق على الأشجار، وحلّق الذباب والبعوض. يَلُوخُ من طابق شقتنا الواحد والعشرين، منظر خلّاب، فغالبية المباني أوطأ كثيراً من بيتنا، ويشعر المرء بأنه ملّك المدينة. وتراءت من بعيد جبال، ليست عالية، لكنها جبال بالرغم من كل شيء؛ سلسلة جبال، وبالأحرى ذيولها. وباختصار سلسلة من المرتفعات، وفي كافة الأحوال، إنها لا تدعني أنسى، بأنني في إقليم الأورال.

تنداح من جهة اليسار كتلة من المباني، برز من بينها، برجاً شركتي «إسيت» و«فيسوتسكي». وتقوم تحت الشرفة ووسط المباني ذات الخمسة طوابق، خمس فيلات أخرى؛ ثلاث منها حجرية واثنان بلون أسود، مبنيتان من الخشب. وهناك ملعب للأطفال، وعدد من المستودعات، وحياض للزهور مسوّرة بإطارات عجلات السيارات. وعندما ينظر المرء لهذا، يُخيّل له أنه في مدينة صغيرة، لكنها ذات مبانٍ واطئة، ولسبب ما يشعر بغتة بأنه ارتفع إلى السماء، حلّق فيها، واختفت أرضية الشرفة، كما لو أنني أتعلّق فعلاً في الفضاء من دون سند، وأدرس المدينة من علوّ شاهق. وأدخّن سيجارة.

أما من الجهة اليمنى، فإن أكثر ما يثير الاهتمام هو الغابة وبحيرة شارتاش، حقاً إنّ ثلاثة مبانٍ شاهقة متعددة الطوابق، ارتفعت شاهقة خلال ثلاثة أشهر تفسد هذه الطبيعة الخلّابة. وليس بيميسوري أن أحصي الآن عدد طوابق تلك المباني، من دون أن أليس نظاراتي الطيئة. وتتملكني الرغبة بأن أحلّق إلى هناك في الفضاء الفسيح، وأدور فوق البحيرة، أو أن أذهب إلى هناك مشياً على الأقدام...

عندما اشترينا الشقة في هذا المبنى، خططتُ مع زوجتي، لقضاء عطلات نهاية الأسبوع عند بحيرة شارتاش، وشراء درّاجات هوائية، والتجول بها في دروب الغابة، وعزمتُ على صيد الأسماك... لكننا خلال سنتين زرنا البحيرة مرتين، بيد أنني، وبفضل الإنترنت درستُ ضواحي بحيرة شارتاش بدقة وبالتفصيل.

هناك، في البحيرة صخور غريبة تسمى «الخيام الحجرية». رأيتها بأّم عيني. أما الصخور الغريبة الأخرى التي تسمى «ميجاليت»، فقد شاهدها في الصور فقط. وهي عبارة عن جدران من ألواح ملساء مرصوفة بعضها على البعض الآخر بدقة، وكأنّ الناس، وليس الطبيعة، هم الذين

صَفَّقوها، ومن ثم قاموا بتثبيتها، بأدوات بناء بالغة الضخامة، وقطعوا النتوءات بمناشيرٍ متينة وحادة.

يَدَّعي البعض أن هذه محاجر قديمة لقطع الحجر، ويذهب البعض إلى أنها بقايا مبانٍ قديمة. ويتضح من المنتديات على مواقع الإنترنت، أنَّ الجدل احتدم بشأن هذه الصخور منذ فترة طويلة، وبشكل عنيف. وجعل بعض المؤرِّخين المحليين، الدفاع عن موقفه بشأن مصدر هذه الجدران والزوايا المستقيمة والسلاالم، والمدرجات الضخمة هدفاً لحياته، وأهدر وقته، من دون أسف، في كتابة النصوص المُطوَّلة، وعرض الصور...

أطفأتُ السيارة في المنفضة الفارغة. وكنت قد نظَّفتها أمس قبيل النوم، ووضعت أعقاب السجائر في كيس من البلاستيك، وأغلقتَه حتى لا تتسرَّب منه رائحة كريهة، وألقيته في سلَّة القمامة... أقوم بذلك كل ليلة قبيل النوم، فيحلو لي أن أبدأ كل يوم بمنفضة سجائر خالية من أعقاب السجائر، التي دَخَّنتها مساءً الأمس. هذا بمثابة تجديد، أو شيء من هذا القبيل...

أعود إلى مكتبي مع فنجان القهوة. مزاجي رائع. حسناً، إننا لم نشرب الخمر الليلة الماضية. أمس كان التاسع من مايو، عيد النصر على ألمانيا النازية. احتفلنا في المنزل بالمناسبة من دون خمر. شاهدنا أفلاماً عن الحرب في الكمبيوتر، ولكن من دون مشاهدة صور دموية كما في أفلام: «عشرون يوماً من دون حرب»، و«أغسطس عام 1944»، و«جينيا، جينتسكا» و«كاتيوشا»، و«أنشودة الجندي»، شاهدنا للمرة الخامسة فيلم المُخرج ألكسي فيدوروفيتش وهو من سكان مدينتنا «حرب أنا». إنه عمل سينمائي رائع، وليس عبثاً أن حصد كل الجوائز...

نعم، أمس كان عيداً، واليوم ينبغي عليّ أن أعمل. باشرت بكتابة الكثير من النصوص، والآن كل شيء متوقَّف.

لديّ مكتب مثالي. مريح، التقشف ضروري. توجد فيه طاولة كتابة، اشتريتها من شركة موبيليات «هوف»، وكرسي وثير، ومصباح طاولة لا يعمي العيون، ورقان للكتب، وطاولة صغيرة للطباعة، وأريكة فوقها صورة جرافيك: طفلان من أبناء قومية الهاكاسي يقفان قرب خيمة «يورتا»: إنها تذكرني بالمناطق التي انحدرت منها.

أجلس، وأفتح الكمبيوتر المحمول، أدخل كلمة السرّ. يظهر على الشاشة خمسون ملفاً ومجلداً. هناك تبقى في الوسط فقط مساحة ضئيلة غير مشغولة بالملفات، تظهر من خلالها بالكاد خلفية شاشة العرض، التي تصوِّر منحدر جبل مُغطّى بالعشب الأصفر... يجب عليّ نقل المجلدات والملفات في قسم «الوثائق»، ولكن قد أحتاجها في أي وقت، كل شيء مطلوب للعمل.

في أسفل الشاشة عدد من أيقونات — Finder, Siri, Safari «بريد»... أقوم بالنقر على Safari. وأفكّر: ينبغي عليّ إلقاء نظرة على ما يجري في العالم.

تظهر الأخبار، يتركز نظري على هذا الخبر:

«أرسلت روسيا إلى «ناسا» ملاحظات، بسبب رائحة الكحول على متن محطة الفضاء الدولية»¹¹.

وأفكر:

- هل هم شربوا هناك احتفاءً بعيد النصر؟

بالطبع. أنقر «الفأرة» على الخبر، وعلى الفور يظهر بشكل مفصّل:

«بعثت روسيا ملاحظاتها إلى «ناسا»، بسبب تسرب كحول ازيوبروبيل إلى الغلاف الجوي للمحطة الفضائية الدولية، بعد الالتحام السفينة دراجون 2 بها. صرّح بهذا لوكالة أنباء «ريا نوفوستي» بافل فلاسوف، مدير مركز إعداد رواد الفضاء، بطل روسيا الاتحادية».

إنهم يكتبون «نيفستي» بدلاً من «نوفستي»... بشكل عام حتى وسائل الإعلام الفيدرالية أصبحت تُخطئ بالكتابة.

«شعر طاقم المحطة الفضائية الدولية برائحة هذا الغاز في 3 مارس، بعد الالتحام مع سفينة دراجون 2 الأمريكية غير المأهولة. أنتدّ ازداد تركيزه في فضاء المحطة الفضائية الدولية ب 6 ملمغ على المتر المكعب. وهذا لا يزيد عن الحدود المسموح بها، ولكن، ووفق تعليمات الخبراء على الأرض، فتح الطاقم نظام تنقية الهواء، بعد ذلك انخفض التركيز إلى 2 ملمغ للمتر المكعب الواحد».

- يا له من خبر! سخرتُ مجدداً، الرائحة ظهرت قبل شهرين، مضياً، أما الخبر، فظهر

الآن...

وقلت بجدّ: على الأغلب، إنّ الخبر نُشر قبل شهرين، وكان مجرد خبر، بينما يدور الكلام الآن، عن الملاحظات التي قدمها الجانب الروسي، وليس عن مسألة ظهور الكحول. واحتلّ النبا مركز الصدارة بين الأخبار، على الأرجح، لقلة الأحداث في أيام الإجازة، وليس ثمة ما يمكن الكتابة عنه.

وفكرتُ: ماهو نوع الكحول هذا، الذي يسمى ايزوبروبيل؟ أنا أسمع به لأول مرة.

أكتب الكلمة في متصفح البحث الإلكتروني. وأحالي المتصفح إلى موسوعة «ويكيبيديا» الإلكترونية. ترددت للحظة أو لحظتين قبل الاستجابة للدعوة، وفتح الموسوعة العالمية، فعندما أدخل لويكيبيديا، سيكون من الصعب عليّ الخروج من هناك.

ولكن الفضول تغلب عليّ، لذلك... وقرأت:

«كحول الأيزوبروبيل (بروبان -2، أو ثاني بروبانول، آيزوبروبانول، ثنائي ميثيل كاربينول، (يختصر باسم IPA) هو مركب عضوي، ينتمي إلى مجموعة الكحولات، وهو أبسط الكحولات الثانوية الأليفاتية.

ويكون في الظروف العادية بشكل سائل شفاف وعديم اللون، ذا رائحة مميزة نفاذة، وطعم مرارة خفيفة، وهو غاز نموذجي لأصناف الكحول التي تحتوي على طعم سلسلة الهيدروكربونات القصيرة».

إذاً كتبوا عن المذاق، فهو إذن صالح للشرب... وبالمناسبة هنا خطأ «طعم نموذجي». ياإلهي..!

«ككل المشروبات الكحولية المتطايرة، فهو قابل للاشتعال. سام بدرجة معتدلة، (يعتقد بأنه سام أكثر بمرتين من الإيثانول [المصدر؟])، ويتطلب الحذر في التعامل معه».

وهكذا تذكر «المواصفات الكيميائية...» «المواصفات الفيزيائية...» أنا لا أفهم أي شيء من هذا.

وأخذتُ أفهقه ساخراً من نفسي، وأرى الصورة على النحو التالي:

«التسمم بالأيزوبرونال عرضي، وغالباً ما يحدث للأطفال دون سن السادسة. ونادراً ما تنجم وفيات عن التسمم بالأيزوبروبانول، وكقاعدة عامة، لا يُسبب اضطرابات كبيرة. ويمكن أن يُسبب تأثيرات سامة خطيرة على شخص بالغ يتمتع بصحة جيدة، إذا تناوله فموياً بجرعات تصل إلى 50 ملغ أو أكثر»

ما هو «الفموي». أعرّ على تعريفه في «ويكيبيديا»:

«تناول الأدوية عن طريق الفم أخذ الدواء عن طريق الفم، عن طريق ابتلاع الدواء.

على الأغلب يعني أخذ الدواء بهذه الطريقة للأدوية التي يمتصها جيداً الغشاء المخاطي للمعدة أو الأمعاء، في علاج أمراض الجهاز الهضمي، وفي بعض الحالات على العكس، يتم استخدام الأدوية سيئة الامتصاص...».

يكفيني هذا، لا توجد ضرورة للتوغل أكثر في ذلك. كل شيء واضح. أعود إلى المقالة عن الكحول.

«عندما يؤخذ الأيزوبروبانول عن طريق الفم يتم تحويله في الكبد، تحت تأثير نازعة الهيدروجين الكحولية إلى اسيتون، مما يسبب تأثيره السام.

وعندما يؤخذ عن طريق الفم، فإنه يسبب السكر، وعلى الرغم من أن سمية الأيزوبروبانول أعلى بنحو 3.5 مرة من الإيثانول، فإن تأثيره المسكر أعلى أيضاً، لكن بعشر مرات. لهذا السبب فإن التسمم بالأيزوبروبانول أقل شيوعاً مقارنة بالتسمم بكحول الإيثانول، حيث يقع الشخص في نشوة كحولية في وقت أبكر بكثير، من تناوله بنفسه جرعة مميتة من الأيزوبروبانول، إذا لم يشرب 500 ملغ دفعة واحدة. والعمر الحيوي لبإيلوجية كحول الأيزوبروبانول في جسم الإنسان يشكّل من 2.5 إلى 8 ساعات».

أعترمت غلق المقالة، ولكن نظري يقفز إلى السطور السفلى. لم أقرأ كل السطور، وإنما أمسك، كما يبدو لي بالسطر الرئيسي، وما يثير الاهتمام، وعلى الرغم من التناقضات، لا يبدو لي أن هذا الغاز أكثر خطورة من الإيثانول الذي نشربه. وتأتي منه نشوة السكر أسرع. فإذن لماذا لا يتم بيعه؟

أنا أسخر من نفسي.

- حسناً، أتصوّر مشهداً على هذا النحو: يجلس عشرة رجال حول قنينة من هذا المشروب، ويشرب كل واحد خمسين ملم، ويفقدون الوعي فوراً، ولا يتحدثون عن شيء ما...حسناً، إن التجارة تمرّ بأزمة...

أنقل المؤشر إلى الزاوية اليسرى العليا. تظهر دائرة حمراء صغيرة جداً. أنقر عليها ينقطع الاتصال بالإنترنت. سأغلق غطاء الكمبيوتر، أضعه جانباً، وأسحب حزمة الدفاتر. سأختار النص الذي سأعمل عليه اليوم.

ولكن نظري يتعلّق هذه المرة. بهذه الكلمات:

«يعود أقدم اكتشاف أثري، لأواني النبيذ في التاريخ إلى أعوام 5400-500 ما قبل الميلاد».

وماذا كان قبل خمسة آلاف و400 سنة مضت؟

يستولي عليّ الفضول فعلاً. الرقم غير كبير. لكن عندما تفكّر في أن المسيح عاش قبل أكثر من ألفي عام، والشاعر اليوناني هوميروس قبل حوالي ثلاثة آلاف...، فما هي الحضارة الإنسانية

التي كانت قبل هوميروس بألفي سنة؟

سواء هكذا أو بشكل آخر.

«الألفية السادسة قبل الميلاد:

الألفية السادسة قبل الميلاد الفترة الانتقالية من عام 6000 إلى 5001 قبل الميلاد.

خلال الألفية السادسة قبل الميلاد انتقلت، الزراعة من البلقان إلى أراضي إيطاليا الحديثة أوروبا الشرقية، ومن ما بين النهرين إلى مصر القديمة. ظلَّ عدد سكان العالم مستقرّاً عند حوالي 5 ملايين نسمة.

وحسب نظرية طوفان البحر الأسود، فقد امتلأ البحر الأسود بالمياه المالحة (اختراق البسفور والدردينيل). بعد اختراق المضائق، انصبَّ حوالي 12500 كيلومتر مكعب من المياه المالحة، وتقلّصت مساحة المياه العذبة في داخل البحيرة، وتحوّلت إلى البحر ذي المياه المالحة.

في حوالي أعوام 5500 - 5000 قبل الميلاد، تكوّن بعد العصر الجليدي بحر ليتورين».

حسناً هذا، لِنَتَخَطَّاه... هذه هي «الأحداث»:

■ «في 5900 قبل الميلاد تقريباً، نشأت في البلقان حضارة فينتشا فيما قبل التاريخ.

■ في حوالي 5760 قبل الميلاد: ثوران بركان بيودي دوم في فرنسا. (لم يذكر المصدر 819 يوماً).

■ في حوالي عام 5600 قبل الميلاد: ارتفاع منسوب المياه في البحر الأسود إلى مستوى كارثي.

■ في حوالي 5600 ما قبل الميلاد: بدأ تصحر شمال أفريقيا، مما أدّى في نهاية المطاف إلى ظهور الصحراء الكبرى، وربما تسببت هذه العملية، في هجرة بعض الشعوب الأصلية إلى منطقة النيل في الشرق، مما وضع الأساس للحضارة المصرية.

■ في حوالي عام 5600 قبل الميلاد: ما يسمى شعب القبعات الحمراء (Red Paint People)، الذين استقروا في المنطقة الواقعة بين لابرادور الحالية وولاية نيويورك.

■ في حوالي عام 5600 قبل الميلاد: نشأت حضارة حلف، وحضارة حسونة في شمال بلاد ما بين النهرين.

■ في حوالي عام 5500 قبل الميلاد: ظهرت في أراضي اليونان المستوطنات الأولى للمزارعين.

■ في حوالي عام 5500: قبل الميلاد: ظهرت حضارة شينال في الصين.

■ في حوالي عام 5500 قبل الميلاد: ظهرت ثقافة طرابلس في منطقة شمال البحر الأسود.

■ في حوالي 5480 قبل الميلاد (بين 5481 و5471): حدث نشاط شمسي بشكل غير طبيعي، تسبب في زيادة نسبة الكربون في الغلاف الجوي 14 على 2%.

■ في حوالي عام 5500 قبل الميلاد: انفجار بركان هيكلا في آيسلندا.

■ في حوالي عام 5400 قبل الميلاد: تأسيس مدينة أريدو حسب الأساطير السومرية، فإنها المدينة الأولى على وجه الأرض.

■ في حوالي عام 5400 قبل الميلاد: نشأ الريّ في ما بين النهرين.

■ في حوالي 5400 قبل الميلاد: حضارة باسين في الصين.

■ في حوالي عام 5200 قبل الميلاد: ظهور المستوطنين الأوائل في مالطا.

■ في حوالي عام 5000 قبل الميلاد: ثقافة هيمودو في الصين.

إذن كم كان عدد الثقافات في الصين؟ كل ثلاثمائة عام ثقافة جديدة...، والجدير بالذكر... لا توجد ولو كلمة واحدة عن النبيذ، ربما في «الاختراعات والاكتشافات».

تنتهي إلى سمعي طرق باب مكتبي، استحوذَ الخوف علي، كما لو أنني أفعل شيئاً غير لائق، أتمرر أصابعي على لوحة اللمس، يظهر سطح المكتب مع الملقّات والمجلدات. أنا أفهم أن هذا يعتبر أمراً مشبوهاً، أنقر مرتين على أحد الملقّات، يفتح في البداية ملفٌ يحتوي على مراجعتي لكتاب، غير مهم لمجلة إلكترونية تدفع لي مكافأة جيدة.

استغرق كل هذا أقلّ من لحظة. ومن ثم قلتُ بنبرة عملية مازحة:

- نعم، نعم، تفضلوا.

تدخل زوجتي...

حينما كنّا ننتظر في شقتنا القديمة المؤجرة ذات الغرفة الواحدة، تخيلنا كيف سنعيش في الشقة الجديدة، حينما ننقل إلى هنا، قالت زوجتي حينها:

سيكون لك مكتبك الخاص، وسوف أطرق الباب عليك بخفوت، ولطف قبل أن أدخل عليك.

انفجرت ضاحكاً، وتساءلت:

- لماذا الطرق؟

كي لا أقتحم عالمك الشخصي. ولا أنتزعك من عمالك، وستكون مشغولاً للغاية، أخبرني، ولن أستاذ، سأنتظر لحين أن تفرغ من العمل.

في كثير من الأحيان، وخاصة في الصباح، تقوم زوجتي بذلك، وتطرق الباب بلطف، وتنتظر الإذن مني.

- مرحباً يا حبيبي.

-صباح الخير يا عزيزتي.

تجلس على ركبتي، كانت دافئة وناعمة من النوم.

- تكتب؟

- نعم...أكتب.

- اعذرنني

- ما خطبك! حسناً أنكِ جئتِ.

- حقاً؟

- بالطبع، بماذا حلمتِ؟

- بماذا حلمتُ؟

طفقت زوجتي تتذكر ما حلمت به، وهي تُحرّك حاجبيها:

- نحن لم نتغلب على «السائرين البيض» من فيلم «لعبة العروش». قتلونا، ومن ثم تحوّلنا نحن إلى سائرين بيض، ومضينا قدماً...

- احم، انعطاف جيد للحدث. نحن انتصرنا، شكراً لها... ما اسمها بطلّة الفيلم.

- أريا ستارك؟

- عظيم جداً، بضربة واحدة، الجيش بأجمعه.

- سنشاهد اليوم الحلقة الرابعة.

أضافت زوجتي، لم تعجبها سخرיתי من مسلسل «لعبة العروش».

- قريباً ستُعرض الحلقة الخامسة.

- بالطبع سنشاهدها.

- حسناً.

تقبّلي:

- أنا ذاهبة لأستحمّ. أيُّ فطور أعدّة لنا؟

- ممكن البيض المخفوق بالحليب. أو «بيلميني» الشيشبرك.

- «بيلميني» للفطور؟

- وماذا؟ قالوا في الراديو، إنّ 24 بالمئة من أهالي مدينة يكاترينبورج يتناولون «البيلميني» في وجبة الإفطار.

- هل توجد لدينا الفطائر الأوكرانية؟ أقصد «فارينيكي».

- أعتقد أنها موجودة، مع البطاطس أو الفطر، ولكني أرغب بالشيشبرك.

- حسناً

وذهبت زوجتي، بعد أن قبّلتني مرة أخرى.

نظرت في المقالة لبعض الوقت، وأدرت فأرة الكمبيوتر. يتكون حجم المراجعة تقريباً من خمسة آلاف حرف، كتبت ثلاثة وسبعمئة...

ولكن بدلاً من بذل الجهود، عُدْتُ إلى المقالة في «ويكيبيديا»، بصدد الألفية السادسة قبل الميلاد. وعلى هذا النحو عثرت على مقالة، «اختراعات وأحداث».

■ «ظهور الزراعة في دلتا النيل»

■ زراعة الرز في آسيا

■ اختراع الطوب في أراضي ما بين النهرين [المصدر غير محدّد خلال 927 يوماً]

■ مصنوعات من الحجر والمعادن، والخوص، ومنتجات الفخار والمنتجات المنسوجة (أفريقيا)

■ يتمّ دفن القتلى في وضع الجنين، وتحيط به اللوازم الجنائزية والتحف، ووجهه إلى الغرب (أفريقيا)

■ أباريق من الطين، المزهريات، ومزهريات ذات رؤوس سوداء، والإسكالوب التماثيل، والأواني الفخارية الموجودة بأعداد كبيرة (أفريقيا)

■ مجوهرات متنوعة من مختلف المواد (أفريقيا)

■ تصنع الأشياء ليس فقط لقيمتها الوظيفية، ولكن أيضاً بسبب القيمة الجمالية (أفريقيا)

■ مستوطنات بشرية دائمة حول المناطق الزراعية (أفريقيا)

■ أحداث أسطورية [العدل | تعديل الكود]

■ 25 مايو 5493 قبل الميلاد: يوم خلق آدم، الذي منه جرى التسلسل الزمني الإسكندري».

احم، بعد خمسة عشر يوماً، سيحلّ عيد ميلاد آدم. يجب أن نتذكر...، ولكن لم يجر أي كلام عن النبيذ، ربما أفتح مقالاً عن النبيذ؟

لكنني الآن مهتم أكثر بطوفان البحر الأسود. لم أسمع أي شيء عنه من قبل. أو نسيته تماماً. ينبغي النظر...

«نظرية طوفان البحر الأسود هي فرضية علمية، ووفقاً لها أنه حدث في عام 5600 قبل الميلاد. ارتفاع كارثي هائل لمستوى البحر الأسود، والذي ربما يكون بمثابة الأساس التاريخي لقصة الطوفان. ويعتبر الزلزال السبب وراء اختراق المياه من البحر الأبيض المتوسط، إلى البحر الأسود الذي كان في السابق مغلقاً. وقبل هذه الكارثة، كان مستوى البحر الأسود أقل من المستوى العام للمحيط العالمي.

ربما يعتبر طوفان البحر الأسود، بمثابة الأساس التاريخي لقصة الطوفان المعروفة لدى شعوب الشرق الأوسط، كما ورد ذكر الطوفان الدرداني (المسمى باسم الدردان الأسطوري، ابن زيوس)، وفي النصوص اليونانية عن التوراة.

وفقاً لفرضية «ألكسندر انوبرينكو» وبعض الباحثين الآخرين، فإن علاقة هذه الكارثة بأسطورة أطلانطس، التي تحدث عنها أفلاطون في حوار طيماوس كريتياس، ليست مستبعدة».

«من الواضح، أنّ طوفان البحر الأسود أدّى إلى هجرة واسعة النطاق لشعوب العصر الحجري الحديث. ووفقاً لريان وبيتمان، يجب ربط تقدم نمط زراعة العصر الحجري الحديث، في منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد، بالهروب من مياه الطوفان من منطقة الأناضول إلى منطقة الأراضي الوسطى المنخفضة في الدانوب».

لقد قرأت بالفعل عن الزراعة في البلقان...، ولكن هل توجد فرضية عن أن أطلانطس يمكن أن تكون في منطقة البحر الأسود؟

أحببت كثيراً في أواخر طفولتي الكتب عن أطلانطس. تضمّنت الحكايات حول البحر الأبيض المتوسط، وحول المحيط الأطلسي بالقرب من جبل طارق... حسناً، هل هناك مقالة في ويكيبيديا عن أطلانطس البحر الأسود...

«1. قصة أسطورة

1.1. حوارات أفلاطون

1.2. أسطورة أطلانطس في سياق إبداع أفلاطون».

وبعد ذلك، بعد ذلك... «المحيط الأطلسي»، «البحر الأبيض المتوسط»... إم! «أطلانطس في جبال الأنديز»، «أطلانطس في البرازيل».

على العموم صدعوا لي رأسي... هنا:

«يمكن أن يكون النموذج الأولي لأحداث أسطورة أطلانطس، بمثابة وقوع كارثة في البحر الأسود، وربما حدثت في الألفية السادسة قبل الميلاد. ومن المفترض أنها حدثت خلال طوفان البحر الأسود هذا، وفي ضوء اختراق مياه البحر الأبيض المتوسط في مضيق البوسفور، قد يكون

مستوى سطح البحر قد ارتفع، بمقدار 60 متراً في أقل من عام (تشير التقديرات الأخرى إلى ما بين 10 إلى 80 متراً).

إن غرق مناطق واسعة من منطقة البحر الأسود الشمالية، بدوره، أعطى دفعةً، لانتشار مختلف الابتكارات الثقافية والتكنولوجية من هذه المنطقة إلى أوروبا وآسيا».

هل هذا كل شيء؟ لديكم أيها السادة؛ حجج قليلة لإثبات هذه النظرية؟

وكالعادة أنظر ما يلي في المقالة.

ولكن، اتضح لي أن هذا ينطبق أيضاً على نظرية البحر الأسود...

«الباحث الروماني نيكولاي دينوشيانو، طابق في عمله، «داكيا ما قبل التاريخ»، (1913) جبال الأطلس مع كربات الجنوبية في منطقة أوكتينيا، أما أطلانطس ككل، فمع رومانيا، مشيراً إلى أن حجم وموقع سهل الدانوب الأسفل، يتوافق مع وصف سهل أطلانطس الأوسط، وطرح فرضية عن خلط أفلاطون مصطلحات؛ «النهر» و«البحر» و«المحيط» من ناحية، و«الجزيرة» - «البلد» من ناحية أخرى.

مع مثل هذا الرابط، يصبح من الصعب العثور على ما ينطبق على عاصمة أطلانطس، والتي كانت وفقاً لأفلاطون، على بعد 9-10 كم من الساحل، وهناك جبلٌ منخفض في وسط المدينة. لا توجد جبال تحت البحر في دلتا الدانوب، والجزيرة الوحيدة هي جزيرة «الثعبان»: لا توجد علامات على وجود بشر هناك، حتى القرن السابع قبل الميلاد. على الرغم من أن الإغريق القدماء بنوا معبداً في الجزيرة، مكرّساً لآخيل، لهذا لا يوجد، في المصادر

المكتوبة شيء عنها باللغة اليونانية. - يشيرون إليها أحياناً باسم الجزيرة المباركة».

حسناً، حسناً...

أضع المؤشر على لوحة «أطلانطس ويكيبيديا...»، يظهر صليب مصغر ويسأل مباشرةً: «انقر - أغلق» كما لو أن قوة ما، تُوجّه عيني، تخطفني:

«في عام 1624، قام العالم والسياسي الإنجليزي فرانسيس بيكون في كتاب أطلانطس الجديدة، بمطابقتها مع أطلانطس البرازيل».

ماذا، هل هو الفيلسوف فرانسيس بيكون ذاته؟

أتأكد من الأمر. نعم، لديه أطلانطس جديدة.

لسبب ما فانتني هذا الكتاب. قرأت كوستو، وقرأت جريجوري آداموف، وجول فيرن، بالطبع، والأدباء الروس بيليف، وريخر، وغنتشاروف... والكثيرين غيرهم. حتى الشاعر الروسي فاليري بروسوف. لكنني لم أقرأ كتاب فرانسيس بيكون. ربما لم تتم ترجمته في الوقت الذي كنت فيه مدمناً على دراسة الأطلانطس.

فرانسيس بيكون، هذا أمر جدي...

«... طابقها مع أطلانطس البرازيل».

وسرعانَ ما تمَّ نشر أطلس جديد مع خريطة لأمريكا، قام بتجميعه الجغرافي الفرنسي نيكولا سانسون، والذي تمت الإشارة فيه إلى مقاطعات أبناء بوسيدون في البرازيل. وتمَّ نشر مثل هذا الأطلس في عام 1762 من قبل روبرت فوغودي.

وكان العالم الرحالة البريطاني الشهير العقيد بيرسي هاريسون فوسيت (1867-1925)، النصير الثابت لوجود أطلانطس أو (مستعمراتها) في البرازيل. وكان المؤشر الرئيسي بالنسبة له وجود بقايا مدن أطلانطس، في فترة ما قبل التاريخ في المناطق غير المتكشفة في البرازيل، هو ما يسمى بمخطوطة 512، وهي وثيقة من القرن الثامن عشر تصف اكتشاف الباحثين عن كنوز البرتغاليين (البانديراتيس) في عام 1753، أنقاض مدينة ميتة، غير معروفة في أعماق ولاية باهيا.

أطلق فوسيت على «هدفه الرئيسي» في بحوثه حرف «Z»، وهي مدينة غامضة، ربما كانت مأهولة بالسكان على أراضي ماتو جروسو، إنها افتراض وحسب في عام 1753 مطابقة لمدينة بانديرانت. مصدر المعلومات حول «Z» ظلّ مجهولاً، وأساطير الباطنية من زمن فوسيت إلى يومنا هذا، تربط هذه المدينة الأسطورية بنظرية الأرض المجوّفة.

أنا أردّد: «أيها الرب يسوع»، كما يحب أن يردّد متعجباً الكاتب الروسي يفغيني بوبوف.

«اعتبر فوسيت أن تمثال البازلت الأسود، هو دليل مادي على وجود حضارة ما قبل التاريخ في البرازيل. ووفقاً لفوسيت، فإن خبراء من المتحف البريطاني لم يستطيعوا أن يوضحوا له أصل التمثال، ولهذا توجّه إلى عالم القياسات النفسية طلباً للمساعدة، واصفاً له في الوقت نفسه؛ «قارّة كبيرة ذات شكل غير منتظم، تمتد من الساحل الشمالي لأفريقيا إلى أمريكا الجنوبية»، التي انهالت عليها بعد ذلك كارثة طبيعية. كان اسم البرّ الرئيسي هو أطلانطا.

ووفقاً لفوسيت، فإنه استطاع في رحلته عام 1921، أن يجمع خلال زيارته لمنطقة نهر قونغوجي في ولاية باهيا البرازيلية، أدلة جديدة على وجود بقايا المدن القديمة. وفي عام 1925، لم يعد فوسيت مع رفاقه من منطقة البحث عن المدينة المفقودة في أعلى نهر شينغو، وظلّت ظروف هلاك البعثة غير معروفة».

وهكذا: قرأت الكثير من المواد النظرية والخيالية، وسمعت الكثير من الشعوذة، ذهبت، واختفت... هي في، الواقع، هذه المخطوطة... «المخطوطة 512».

أقوم بالنقر فوق اللون المميّز باللون الأزرق، يظهر مقال حولها:

«المخطوطة 512 (الوثيقة 512): عبارة عن مخطوطة أرشيفية ترجع إلى الفترة الاستعمارية لتاريخ البرازيل، وهي محفوظة حالياً في خزائن مكتبة ريو دي جانيرو الوطنية».

أنا لا أكفّ عن الدهشة بمعجزة الإنترنت. بالطبع، إنه أمر مثير للسخرية بالنسبة لي، عندما أتذكر ما كان قبل عشرين عاماً..

منذ عشرين عاماً، كنت أدرس في المعهد الأدبي، وكان عليّ لكي أكتب بحثاً دراسياً قصيراً، حتى بحثاً يائساً جداً، أن أحيط نفسي بالكتب. والآن: نقرة بعد نقرة، يمكنني معرفة كل شيء

في العالم، وأن أفهم كل الحكمة البشرية. من حكاية «الدجاجة ربابا» كما جاءت في الفولكلور الروسي، إلى فيزياء الكم.

«الوثيقة» أو اصل القراءة بعنوان «العلاقة التاريخية حول المستوطنة غير المعروفة والكبيرة، الأقدم في الزمن وغير المأهولة بالسكان، اكتشفت في عام 1753»، وهي عبارة عن قصة تركتها مجموعة غير معروفة من رجال فرقة البانديرانتييس البرتغاليين (اسم المؤلف المباشر: رئيس المفزة الاستكشافية - مفقود)، تتحدث عن عثور البانديرانتييس في سرتان البرازيلية على أنقاض مدينة مينة مفقودة، مع وجود علامات حضارة قديمة متطورة للغاية من النوع اليوناني الروماني، وفضلاً عن ذلك تتضمن مؤشراً على اكتشاف حقول الذهب والفضة.

الوثيقة مكتوبة باللغة البرتغالية، تضم 10 صفحات. وكتبت بشكل تقرير استكشافي، وفي الوقت نفسه تأخذ في الاعتبار طبيعة العلاقة بين المؤلف والمُرسل إليه، ويمكن أيضاً وصفها برسالة شخصيّة. ويحتوي نص المخطوطة على بقع بيضاء كبيرة، نتيجة للضرر الذي تعرضت له، على ما يبدو، بسبب تأثير النمل الأبيض على مدى العقود التي فُقدت خلالها المخطوطة في الأرشيف (1754-1839).

ربما أنّ المخطوطة 512 هي أشهر وثيقة في المكتبة الوطنية في ريو دي جانيرو، ومن وجهة نظر التاريخ البرازيلي الحديث «أساس الأسطورة الكبرى لعلم الآثار الوطني». كانت المدينة المفقودة الموصوفة في المخطوطة 512 موضوع نقاش ساخن في القرنين التاسع عشر والعشرين، بالإضافة إلى عمليات البحث المتواصلة التي قام بها المنقبون والعلماء والباحثون.

بفضل أسلوب السرد النابض بالحيوية والبليغ، يرى البعض، أنّ المخطوطة 512 تندرج ضمن أفضل الأعمال الأدبية باللغة البرتغالية.

- عزيزي، كم من شيشبيرك لك؟ - تصرخ زوجتي من المطبخ.

- «إذا كانت من الحجم الكبيرة اثنتا عشرة قطعة، وإذا كان حجمها صغيراً، فعشرون».

- حسناً!

«تحدث الوثيقة: كيف أنّ المفززة رأت الجبال تتلألاً بالعديد من البلورات، مما أثار دهشة وعجب أفرادها. ولكنهم في البداية لم يتمكنوا من العثور على الممرّ الجبلي، وأقاموا معسكراً عند سفح سلسلة الجبال، ثم اكتشف رجل زنجي، وهو عضو في المفززة، كان يطارد غزالاً أبيض، بالصدفة طريقاً مرصوفاً، يمرّ عبر الجبال. وشاهد البانديرانتييس بعد الصعود إلى القمة، مستوطنة كبيرة، وللهولة الأولى ظنّوا أنها إحدى مدن ساحل البرازيل. وبعد نزولهم إلى الوادي، أرسلوا الكشّافة لمعرفة المزيد عن المستوطنة وسكانها، وانتظروهم لمدة يومين؛ ومن التفاصيل الغريبة أنهم سمعوا خلال ذلك الوقت أصوات دبكة، وهذا جعلهم يعتقدون أن المدينة كانت مأهولة. وفي الوقت نفسه، عاد الكشّافة، مع أنباء عن أنه لم يكن هناك بشر في المدينة. نظراً، لأن الباقين ما زالوا غير متأكدين من ذلك، فقد تطوّع أحد الهنود للذهاب إلى الاستطلاع بمفرده وعاد بنفس المعلومات، التي أكّدها فصائل الاستطلاع بأجمعها بعد الاستطلاع الثالث.

وجد البانديرانتييس على ضفاف النهر، أثراً لمكان الذهب والفضة. وتمّ تقسيم المفززة عند هذا المكان، وقام بعض أفراد المفززة بحملة لمدة تسعة أيام. رأت هذه المفززة قارباً بالقرب من خليج النهر، مع بعض الأشخاص البيض المجهولين، «زبّهم على الطراز الأوروبي»؛ من الواضح أن الغرباء ابتعدوا على عجل، بعد أن أطلق أحد البانديرانتييس النار، محاولاً لفت انتباههم. ولكن، يمكن الافتراض من قطعة العبارة المتبقية في هذا الجزء من المستند، أنّ هذا الجزء من المفززة اصطدم بأفراد بعض القبائل المحلية «الشعث والمتوحشين».

ثم عادت البعثة بأكملها إلى الروافد العليا لنهري باراجواسو وأونا، حيث أعدّ رئيس المفززة تقريراً، وأرسله إلى شخص صاحب نفوذ في ريو دي جانيرو. وتجدر الإشارة أيضاً إلى طبيعة العلاقة بين مؤلّف المستند والمرسل إليه (-) الذي لم يُعرف اسمه أيضاً (-): يشير المؤلّف إلى أنه يكشف فقط للمرسل له، سر الدمار والآثار، ويتذكر مقدار ما يدين به. كما يعرب عن قلقه من أن أحد الهنود، قد غادر المفززة بالفعل من أجل العودة إلى المدينة المفقودة بمفرده، ولتجنّب كشف اسمه، يشير المؤلّف إلى أنه، على المرسل إليه منح إكرامية إلى الهندي.

وجد أحد أعضاء الفريق (خوان أنطونيو - الاسم الوحيد الباقي في المستند)، بين أنقاض أحد المنازل في المدينة المفقودة عملة ذهبية، أكبر حجماً من العملة الوطنية البرازيلية البالغة 6400 رينس، وتُقشت على أحد

الجوانب صورة شاب راكع، وعلى الجانب الآخر، القوس والتاج والسهم. أقنع هذا الاكتشاف البانديريانتيس، بأنه تمّ دفن كنوز لا حصر لها تحت الأنقاض».

هذا منطوق مثير للاهتمام؛ أن تعثر مثلاً في حظيرة قديمة في منطقة ما، بروسيا على خمسين روبلاً من عهد القيصرية يكاترينا الثانية، وتقوم بقلب العزبة بأكملها رأساً على عقب، وأنت مؤمن بأن صندوقاً يحتوي على نقود معدنية، قد جرى دفنه في مكان ما هنا...، بالمناسبة، فمئتُ بالشيء ذاته، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، عندما زرت جدّي وجدّتي في بلدة مينوسينسك، وعثرت على عملة من زمن القيصرية في حديقتهم، ثم حفرتها طويلاً وعرضاً، أتذكر أنّي حفرت شجيرات البطاطس للتحقق، فيما إذا كان هناك أي شيء تحتها. وإعادتها. أهلكتُ العديد من الشجيرات، وعُوقبتُ على ذلك.

وها هنا يذكر فوسيت التعيس...

«بيرسي فوسيت»

العالم والرّخالة البريطاني الشهير العقيد بيرسي هاريسون فوسيت (1867-1925)، كان من أكثر المؤيدين شهرة وثباتاً بأصالة المخطوطة 512، وكانت المخطوطة بالنسبة له بمثابة مؤشر رئيسي، على وجود بقايا مدن قديمة من حضارة غير معروفة (وفقاً لفوسيت - أطلانطيدا).

و«أطلق فوسيت على «الهدف الرئيسي من بحثه «Z»، وهي مدينة ما غامضة، ربما مأهولة بالسكان على أراضي ولاية ماتو غروسو».

على كل حال، لقد قرأت عن هذا...

أوه، لقد صوّروا فيلماً عنه في عام 2016، «مدينة زد المفقودة» يجب أن يكون رائعاً: أفلام المغامرات الآن ليست ممّلة، سيكون من الضروري أن أشاهده.

أنسخ اسم الفيلم، وألصقه في متصفح «ياندكس» للبحث، أنقر على «فيديو». نعم يوجد. ممتاز. تماماً، بالطبع، لن أشاهده الآن بالكامل. على كل وفقاً للظرف.

- جاهز!

- ها، نعم، أنا قادم يا عزيزتي!

هذا يكفي، أغلق جميع النوافذ، والأيقونات. بما في ذلك «الفيديو» مع الفيلم. صوت الزوجة الرصين، أعادني إلى الواقع.

نحن نغني، ونشرع في العمل.

قبل إغلاق الكمبيوتر المحمول، أنظر إلى الوقت. التاسعة والنصف. أوه! أنفقت ثلاث ساعات على هذه التفاهة... ثلاث ساعات!.. وحتى لم أشرب القهوة، وحتى لم أذهب، ولو مرة واحدة لأدخن، بينما عندما أكتب، أركض كل خمس عشرة دقيقة...

نعم، سوف أتناول وجبة الإفطار، وأسرع بالعمل، بالعمل.

يتمتع المذيع في المطبخ.

تقول زوجتي: «توفي سيرجي دورينكو».

- نعم؟ «إنني لحدّ ما لم أفاجأ».

- كان يسير على دراجة نارية، وتوقّف قلبه عن الخفقان.

نجلس إلى الطاولة، أسحب صحناً فيه شيشبرك صغيرة الحجم. أسكب عليها قشطة رائبة، وأرش الفلفل.

- وما ذا كان يعمل دورينكو، وبماذا اشتهر، ليتحدث الناس عنه في كل مكان؟

- حسناً، إنه صحفي... كان لديه لقب: القاتل التلفزيوني.

- بسبب ماذا؟

زوجتي أصغر بكثير مني، لذا، فإنها تتذكر أعوام التسعينيات بشكل غامض، لا تعرف الكثير.

- قضى على بريماكوف ولوجكوف.

- حسناً، إنّ لوجكوف هو ذلك الوغد...

- في بعض النواحي، رجل وغد، في بعض النواحي غير وغد. كل شيء معقد، أنا أيضاً لا أتذكر كل شيء، لقد كان هذا كما لو في الحياة السابقة، ولكن عليّ أن أقصّ عليها، حتى لا أبدو أمام زوجتي بهيمة لا جدوى منها: كان يفجيني بريماكوف، الأمل الأخير في أن تكون لدينا دولة عادلة إلى حدّ ما. هو بشكل أساسي الذي بدّد الهلع بعد إعلان إفلاس الدولة. ثم جعلوه رئيس الوزراء بشكل خاص، حتى لا تنهار روسيا أخيراً في الهاوية. وعندما مرّ الخطر، وأصبح بريماكوف بطلاً، استأجر الأوليجاركي بوريس بيريزوفسكي دورينكو، وبدأ يُعيد ويكرر من على القناة الأولى: إنّ لوجكوف لصّ، وبريماكوف مريضٌ عجوز...، وبالمناسبة فقد رشّحوا بريماكوف إلى منصب الرئيس... وبالنتيجة، أصبح بوتين رئيساً، وطرد دورينكو من التلفزيون، بسبب تحقيق تلفزيوني له عن غرق الغوّاصة النووية «كورسك».

«إنك تعرف الكثير!»، تُبدي زوجتي إعجابها، وغمرني دفء عذب.

أضبط نفسي، حتى لا يتشتت ذهني، تنهتُ بحزن:

- كل شيء معروف، هذا هو الوقت الذي عشت فيه... بالمناسبة، على الأرجح، إنَّ المعارض الحالي ألكسي نافالني يأخذ مثلاً من دورينكو في مقاطع الفيديو التشهيرية التي يُعدّها...

- نعم؟ في ماذا؟

- حسناً، الضغط، والسخرية، وعرض الوثائق المثيرة، أو ربما ليس على غرارهِ. ولكن هناك أوجه تشابه بينهما.

أستمعُ إلى الأخبار في الراديو. اتضح أن فريقَي «أرسنال» و«تشيلسي» لكرة القدم ذهباً إلى نهائي دوري أوروبا. اتضح في كلتا النهائيتين الأندية الإنجليزية فقط، على ما يبدو، لم يحدث مثل هذا من قبل؛ أن يكون الفريقان من بلد واحد.

- شكراً لك يا ربة المنزل. عملتِ شيشبرك لذيذاً جداً، وبسرعة.

زوجتي تتفاعل مع مزاحي بابتسامة.

أسكب بقية القهوة في حوض المغسل، لا أشعر برغبة بتناول بقاياها، أقومُ بصنع الشاي الأسود لزوجتي؛ الأخضر.

- ما هي خططك لهذا اليوم؟ تسألني.

بالأمس كانت هناك عواصف رعدية طوال اليوم، وهبط البرد، لذلك لم نغادر المنزل. واليوم ظهرت الشمس، والدفء يعود...

أجيب: نعم، أروم أن أعمل.

- لقد تراكم الكثير للكتابة...

- لدي أيضاً مشاغل؛ إنهاء الحلقة، السيناريو توقّف.

زوجتي كاتبة مسرحيات وسيناريوهات. معروفة. تفو، تفو، تفو، حتى أبعد عنّا الحسد - تنهال من يديها الواحدة تلو الأخرى. وبفضلها، اشترينا هذه الشقة.

دَخْنَا في الشرفة. انتقلت زوجتي مؤخراً إلى سجاير أيكوس، وتمتدحها، وتحاول أن تجذبني إليها. دَخَّنتها عدّة مرات - لم تعجبني. لكن مع ذلك سأحاول، حان الوقت للتفكير في صيانة الصحة.

- حسناً، يا قِطّي سنفترق حتى الغداء؟

- نعم يا عزيزي.

تبادلنا القبلات. ألوذ بمكتبي، وزوجتي في غرفة النوم. لديها أيضاً طاوله كتابة.

أجلس، وأضع كوبَ الشاي على صحن من الورق المقوى، وأفتح الكمبيوتر المحمول. وبعد ذلك أَقْطَبُ جيبيني: لماذا فتحته؟ كان من الضروري أن أتناول الدفاتر والمفكرات.. هناك، العمل الرئيسي.

لكنني فتحت شبكة الإنترنت، وجدت «بوابه الرياضه»، ورحت أقرأ عن دخول «أرسنال» و«تشيلسي» في نهائي دوري أوروبا.

في الدور قبل النهائي، فاز فريق «أرسنال» على فريق «فالنسيا» الإسباني. في المباراة الأولى، فاز فريق «أوناي إيمري» في أرضه 3-1. في مباراة لقاءهما في الجولة الثانية، فاز الفريق اللندني على أرضه بنتيجة 4: 2.

تغلب «تشيلسي» في الدور نصف النهائي على الألماني «إينتراخت». تعادل في اللقاء الأول، الفريق اللندني 1-1. فاز في المباراة الثانية فريق «موريزيو ساري» بركلات الترجيح في ميدانهم.

ستقام المباراة يوم 29 مايو في الإستاد الأولمبي في باكو، وتبدأ الساعة 21:00 بتوقيت موسكو.

تُذكركم في نهائي دوري أوروبا، سوف يلعب أبطال فريقين إنجليزين أيضاً؛ - «ليفربول» و«توتنهام هوتسبر». وستقام المباراة في مدريد في الأول من يونيو».

لم يحقق منتخب إنجلترا انتصارات كبيرة منذ ألف عام، لكن الأندية الآن تسجل أرقاماً قياسية...، مَنْ الذي يسجل الأهداف في بطولاتهم المحليه هناك؟ لاعبون من أصول أجنبيّة:

«صلاح محمد - 22 (3)». إنه مصري، أتذكر كيف كُنا في روسيا نخاف منه عندما أقيمت بطولة كأس العالم لدينا، وتواجه فريقا روسيا ومصر.

«ماني ساديو - 20». واضح من لقبه ومن هيئته أيضاً، أنه ليس إنجليزياً. إذا حكمنا من خلال الصورة فإنه زنجي الأصل.

«اجويرو سيرجيو - 20 (2)» أرجنتيني.

«اوباميانج 20 (4)». أيضاً غير إنجليزي مائة بالمائة.

فقط الخامس فاردي جيمي - 18 (4). لا أريد أن أستوضح من هو، لكنني أريد أن أثق بأنه من الجزر البريطانية. يلعب في «ليستر»، لكن أين هو «ليستر»؟ إنه في المركز التاسع.

إنني أنظر إلى ترتيب البطولة الإنجليزية.

«مانشستر سيتي» برصيد خمسة وتسعين نقطة في المركز الأول. خلفه - «ليفربول» و«تشيلسي» و«توتنهام هوتسبر» و«أرسنال». «مانشيستر يونايتد» الخامس فقط، ويبدو أنه منذ زمن بعيد أموره لا تجري على ما يرام.

أتذكر... في عام ما كان أمراً مدهشاً، عندما انتزع دوري أبطال أوروبا من «بافاريا». كانت تلك حقاً مباراة مبهرة...، الآن الوضع مختلف.

أكتب في «الفيديو» «نهائي دوري أبطال «مانشستر بافاريا». يعرض متصفح «يانديكس» على الفور جدول أفلام المباراة. أضغط على القمة.

ماذا؟ السنة التاسعة والتسعون؟ حسناً، هذا منذ عشرين عاماً! ربما ليس هذا؟

كلا، إنها بالذات تلك المباراة النهائية. مدهش... حقاً، كما لو حدث هذا في الماضي السحيق، وماذا، دَعها، لم تجر بالأمس، لكن... أعتقد أنها جرت في الألفين وأربعة أو ستة... لكنها منذ عشرين عاماً!..، والآن مازال يتم في بدء المباريات عزف نفس نشيد دوري أبطال أوروبا...

اجتاحوا يانكر في الدقيقة الخامسة بالقرب من خط الجراء، وسجل باسلى الهدف. حارس مرمى مانشستر لم يتحرك.

أين يانكر هذا الآن، كان مهاجم «بافاريا»، وهو حليق الرأس تماماً؟ أتذكر لقبه: «آلة تكسير الصخور».

أنظر في ويكيبيديا؛ لقد قام بتدريب «راييد»، والآن يدرّب فريق «هورن» من الدوريات الثانوية في النمسا... بالمناسبة، هو يصغرنى، إنه من مواليد الرابعة والسبعين.

ومن غيره كان أيضاً في ساحة الملعب؟ بيكهام، بالطبع... أصغر مني أيضاً. عموماً، من مواليد الخامسة والسبعين. لكنه لم يلعب منذ ألف سنة. وبشكل عام عندما غادر في بداية حياته إلى الولايات المتحدة. دَمَّرَ بنفسه صعوده المهني، عبثاً انضم إلى فريق «ريال»؛ هذا الفريق بأكمله يتألف من نجوم كرة القدم. لقد ضاع، وتزحلق في المنحدر.

ريان جيجز، آندي كول، غاري نيفيل، نيكي بوت، بيتر شميشيل، شيرينغهام، سولشير... أية أسماء نجومية في عالم كرة القدم! هذا في فريق مانشستر، ولعب في فريق بافاريا: أوليفر كان، وبالطبع، لوثر ماتيسوس. هذه بوجه عام شخصيات فذة. يُخَيَّلُ لي حسباً أتذكر، أنني سمعت باسمه في طفولتي. ومع أنني تحوّلت من طفل إلى شخص راشد، وخدمت في الجيش، وولّد طفل لي، وهو

استمرّ في اللعب طيلة ذلك الوقت... ومع ذلك، كانت نهاية مسيرته الرياضية محزنة: في البطولات الأوروبية في الألفية... نعم، الآن ينتظم تدريجياً التسلسل الزمني في ذهني: في البداية كانت هذه النهاية، ثم في آخر بطولة دولية كبرى لماتْيوس.. في تلك البطولة الأوروبية، خسر الفريق الألماني، وانهار، ورفض العديد من لاعبي كرة القدم الذهاب إلى المباراة النهائية، التي لم تعد تقرر شيئاً. لكن ماتْيوس، وعلى الرغم من أنه احتفظ بمظهره الخارجي كشاب، بيد أنه يبدو كمهزّج في الميدان. فمن الصعب على المرء أن يحتفظ في الأربعين بلياقته البدنية. وليس فقط في الرياضة.

أقوم بتشغيل خدمة الفيديو، لمشاهدة تلك المباراة مرة أخرى. لن أقوم بمشاهدة العرض بأكمله، وإنما سأتابعه لعشر دقائق.

ارتفع ضجيج المدرجات باستمرار، وترامى من مكان ما من العمق صوت المعلق. إمّا ماسلاتشينكو، أو بيريتورين.

لم يكن بوسع فريق «مانشستر»، الذي كان لاعبوه بقمصان باللون الأحمر، أن يفعل أي شيء، فهجماته تنكسر مثل الأمواج ضد جدار خرساني، و«بافاريا» الذي كان لاعبوه بقمصان باللون الرمادي، يضغط، ويضغط عليه، ويلسعه بالهجمات. سدّد يانكر ضربة من خط المرمى من خلال نفسه، إلى العارضة. استبدلوا في نهاية المباراة ماتْيوس، حتى يودّعه مشجعو بافاريا بالتصفيق.

وأضيفت ثلاث دقائق عن الوقت الضائع. وشغل بيكهام الزاوية، واندفعت الكرة في منطقة الجزاء، وأخرجها الألمان، لكن أحد الإنجليز يرسل تسديدة ضعيفة نحو الهدف، ويوجهها شيرينغهام بأسلوب كرة الهوكي، ويرفع أوليفر كاين يده، ولا يسجل الحكم الشهير بيرلويجي كولين، موقف التسلّل. وقبل الوقت الإضافي كان التعادل بين الفريقين.

ولكن بقي هناك حوالي دقيقتين.

مرة أخرى ضربة زاوية على هدف «بافاريا». ويضع بيكهام ذاته الكرة أيضاً، يركض، ويضرب بنفس الطريقة، ويوجّه شيرينغهام الكرة بضربة رأس في زاوية الهدف. تسير الكرة ببطء شديد، ويبدو أن المدافع الألماني الذي يقف على خط المرمى سوف يركلها. أو على العموم تمرّ قربه. ولكن في هذه اللحظة يظهر سلوشير، فيضع ساقه التي تغيّر اتجاه الكرة. مانشستر يحقق هدفاً.

يبدو الارتباك على وجه ماتْيوس جندي كرة القدم القديم. وتتطلق الصافرة النهائية. البريطانيون فرحون، ويخلع ماتْيوس الذي يجلس على مقاعد الاحتياطيين حذاءه...

نعم، مباراة رائعة.

وأنتساءل: ماذا كان هناك بالأمس؟

سأعود إلى بوابة الرياضة.

انتهت مباراة فريقي «فالنسيا - أرسنال». بنتيجة هدفين أربعة. وإذا حكمنا من خلال عرض الفيديو، فإنها كانت مباراة جيدة. ولكن، بشكل عام، من دون معجزات رياضية، وعلى غرار مباراة الدور نصف النهائي الثاني: «تشيلسي - أينتراخت». ونتيجة لذلك، سيشتبك فريقا «أرسنال» و«تشيلسي» في نهائي دوري أوروبا... وبالمناسبة، لعب حارس مرمى «أرسنال» بيتر تشيك لصالح «تشيلسي» سنوات عديدة. وعندما اقترب من الشيخوخة، تمّ بيعه لنادي «أرسنال» الأقلّ ثراءً. الآن سيلتقي مع رفاقه السابقين، ليس فقط في بطولة إنجلترا. إنها حكاية ممتعة. يجب مشاهدة المباراة. سأشجّع «أرسنال»...

وماذا عن البطولة في روسيا؟

خرج عملياً من بطولة روسيا فريق «ينيسي» من إقليم «كراسنويارسك». وحاز فريق «زينيت» من مدينة «بترسبورج» على البطولة، وهذا أمر مفهوم. ولكن المعركة من أجل كأس أوروبا خطيرة. وأضيف إلى الرّواد الدائمين: فرق «لوكو» و«تسي أس كا» و«سبارتاك» و«كراسنو دار»، أيضاً فريق «أرسنال» من إقليم «تولا» الذي احتلّ المركز السادس بعد فريق «تسي أس كا» بثلاث نقاط، وبعد فريق «سبارتاك» بنقطة واحدة. وجاءت هذه النتائج بعد ثلاث، نعم، ثلاث جولات قبل النهائي. وفي هذه الحالة ستصبح كل كبوة لأي فريق قاتلة بالنسبة له.

فهيّا، يا «أرسنال» تولا، يا مَنْ يحمل اسم «أرسنال» الإنجليزي، سيرُ قُدماً إلى الأمام... من الجيد دائماً أن يخرج فريق من بلدة صغيرة كتولا، إلى الساحة الرياضية الدولية.

وبالمناسبة، كم يبلغ عدد نفوس سكان مدينة تولا؟

أنقر، أنقر فوق...

نعم، إنها ليست مدينة صغيرة إلى هذا الحدّ: يبلغ عدد سكانها أربعمائة وثلاثة وثمانين ألف نسمة. وأكاد أجنُّ سرعة تناقص أعداد النفوس: في السنة الماضية، كان عدد نفوس المدينة وثمانين ألف نسمة، وقبل عشر سنين - خمسمائة.

نعم، إن حجم سكان المدن القريبة من موسكو يتقلص. على سبيل المثال؛ مدينة يكات ينضم إليها أبناء البلديات المحيطة بها، وينضم إلى موسكو أبناء المدن المحيطة بها مثل؛ تولا وسمولينسك وكالوجا... إلى ذلك غادر إلى موسكو في السنوات الأخيرة، الكثير من معارفنا. هناك رواتب عالية مقارنة بالمدن الأخرى: من عشرين إلى ثلاثين ألف روبل.

ربما تكون أجور العاملين في المصانع في المدن الروسية، بالطبع أعلى، ولكن أولئك الذين أتواصل معهم: من ممثلي المسارح وأمناء المكتبات المُدرّسين، المُصوّرين بالتحديد، يستلمون راتباً يعادل ثلاثين وعشرين ألف روبل...

عندما انتقلت من موسكو إلى هنا، كدت أجنُّ، لكون أسعار المواد الغذائية هنا أعلى بكثير بالمقارنة مع العاصمة. وقارنت بين أسعار شبكة مخازن «بيتيورتشكا» هنا وهناك، وجدت أن السلع

هنا أعلى. إننا، أنا وزوجتي، ننفق في كل زيارة إلى متجر، كحدّ أدنى ألفاً وخمسمائة روبل. أعيش أنا وزوجتي فقط، ونذهب كل أربعة أيام تقريباً بمثل هذه الزيارة للمخزن... لو نقسم ثلاثين يوماً إلى أربعة: سبعة ونصف. حسناً، خُذ، سبع زيارات. نضربها، بألف ونصف. عشرة وخمسمائة. أليس كذلك؟ نحن ننفق فقط على المنتجات الأكثر أهمية. نحتاج أيضاً إلى فواكه وخضراوات حقيقية، أشتريها من الحانوت الخاص. أو ما يُسمى هنا كشك؟ كشك؟!

باختصار، إنّ زيارة واحدة إلى مثل هذه المباني، ولن تجد خمسة آلاف روبل في جيبيك.

ولكن هناك مدفوعات إضافية على الخدمات، وشراء الجوارب والملابس الداخلية، وأحياناً على الأقلّ الجلوس في مطعم...

شرعتُ في الآونة الأخيرة، في حساب النقود الواردة لي من هنا ومن هناك، فيصلني في غضون شهر من ستين إلى تسعين ألف روبل. وأين هي؟ إنّها تتبخّر دون أن نشعر بها...، تودع زوجتي دخلها في مصرف، لبناء منزل ريفي لنا، على الرغم من أنها تنفق أيضاً مبلغاً كبيراً على شؤونها الخاصة، بما في ذلك على مختلف أنواع الكريم، وعمليات تقليم وتجميل الأظافر، وتحديث الملابس والأحذية، وما إلى ذلك، وطلب سيارة أجرة، والدفع عن طريق بطاقة الائتمان، وهناك كذلك مختلف الاحتياجات، هذا ما تنفقه على شؤونها الخاصة. كذلك يبلغ خمسين ألفاً شهرياً.

نحن لا نعيش حياة مترفة، ولكننا لا نكتفي مثلما يفعل الكثيرون بشراء عشرة كيلو غرامات من البطاطس، وعشر علب من المعكرونة، والحنطة السوداء، والرز، ونعيش عليها لمدة شهر، مُحسّنين مذاقها، بإضافة صلصة الطماطم والملفوف المملح عليها.

ومن ناحية أخرى، توجد لدى الجميع أجهزة iPhone، وسيارات فارهة، ولم يعد قضاء عشرة أيام في جزر المالديف حصراً على الطغمة الأوليغارشية...، وعلى هذا النحو يمكن الجدل بشأن ذلك من دون نهاية.

دعني أشاهد مجريات البطولة، وأبأشر بالعمل، فخلال ذلك سيتمّ قتل اليوم مرة أخرى.

يحتلّ فريقنا «الأورال» المركز الحادي عشر. وفي أفضل السيناريوهات لن يصعد إلى أعلى من المستوى السابع، وفي أسوأ الحالات، يمكن أن يتدهور في التصنيفات الأوروبية، وبعد أن يخسرها، يغادر الدوري الأول. وبالمناسبة مثل فريق «دينامو» في موسكو.

بالمناسبة إن صديقي، الكاتب ديما دانيلوف، من مشجعي فريق «دينامو»، وعلى الأرجح إنه الآن في حالة اكتئاب مرة أخرى...، إنه منذ فترة طويلة في حالة كآبة. بمعنى كمشجع رياضي، ولكن حالته في الأدب، على العكس من ذلك، إنّ أموره تسير هناك على ما يرام، مسرحياته تُعرض في كل مكان، وبالتأكيد تعود عليه منها موارد مالية جيدة.

لكن ليس بوسعي أن أحسده، كمشجع لفريق «دينامو» الذي يعيش عيشة بائسة في عالم كرة القدم.

وحاول ديما منذ ثلاث سنوات، مساعدة فريقه إذ ألف كتاباً، كان موضوعه مدونات تاريخية عن بطولة روسيا لكرة القدم: من البطولة الأولى، وحتى الثلاثين.

لم يُخفِ ديما حقيقة أنه ألف كتابه على غرار الكاتب الأمريكي ستيفن كينغ، مشجع إحدى فرق «البيسبول» الذي لم يستطع الفوز لفترة طويلة. وكتب عن موسم هذا الفريق، وعملياً وضع سجلاً زمنياً، وفي اللحظة الأخيرة، تقدم الفريق للأمام، وفاز.

وحصل لديما خلافاً لذلك، فقد خرج «دينامو» في نهاية المطاف من الدوري الممتاز، وهذه هي مفارقة مريبة.

وبالمناسبة، غالباً ما يحدث هذا في عملنا نحن الأدباء، فأحياناً يكتب الواحد منّا كتاباً جيداً عن موضوع ما، ويبدأ الانهيار إلى حدٍّ لا يطاق، أو يقرر الكاتب أن يُجسّد روحه في قصة، يصور فيها كيف أن كل شيء من حوله سيئ، وإذا بالحياة تتحسن فجأة، وعلى العموم يحدث فشل ذريع، يدفع المرء للقفز من النافذة.

المرء لا يعرف ما ينتظره. يبدو من الأفضل عدم الكتابة على الإطلاق، ولكنها تجذب...، والآن أنا منجذب إلى دفاتري الرثة، والمفكرات وفي الوقت نفسه أعاند، أتصفح الإنترنت.

والدقائق تقطر، تقطر مثل الماء من صنوبر معطوب، وتختفي في الأنبوب النتن، لمجاري الزمن الماضي.

... يُساورني الشعور بالشفقة على فريق «ينيسي»، فنحن تقريباً من مدينة واحدة.

حسائياً، لا تزال لديه فرصة للبقاء بين الأوائل، ولكن على الأرجح سيخرج، سيخرج بنسبة تسعة وتسعين في المئة.

في نهاية الموسم، انتعش، حتى إنه فاز على بعض الفرق، وكسب بالتعادل في عدد من المواجهات، ولكن بعد فوات الأوان، وبقي إقليم كراسنويارسك مرة أخرى من دون كرة قدم قيّمة.

وأثارت سيبيريا والشرق الأقصى الشفقة على صعيد النشاط الرياضي، ففي الحقبة السوفيتية، كان هناك فراغ رياضي كبير، ولم يوجد أي فريق لكرة القدم أو الهوكي في شرق الأورال. وبالطبع كان فريق «ينيسي»؛ (كان فريق كرة القدم هذا يسمى سابقاً «ميتالورج»، ومن ثمّ لسبب ما أطلقوا عليه اسم «ينيسي»)، وفريق «سي كي أي» (في مدينة خاباروفسك)، وفريق «سيان أباكانسي»، وبعض الفرق غير السيئة في إيركوتسك.

ولكن يجب على المرء مشاهدة مباريات هذه الفرق في أرض الملعب مباشرة. عندما كنت أعيش في مدينة «أباكان»، ذهبتُ بضع مرات لمشاهدتها، كانت رائعة. إنّ مشاهدة المباراة على التلفاز ممّلة. لذا لا يمكن مقارنة عرض كرة القدم هذه، مع الهوكي الكندي.

أرى خبراً مدهشاً ضمن الأخبار، يشير إلى أن فريق «دينامو» و«روستوف» سيلعبان قريباً. وعلى هذا النحو إذا خسر «دينامو»، فسوف يهبط في الترتيب في مجال التصنيفات، وإذا فاز «روستوف»، فإنه يقترب من «أرسنال»، وما زال بإمكانه التنافس على كأس أوروبا.

إن فريق «روستوف» جذاب، تمكّن من حصد الفضي في العام السابق، أو في ما قبل الماضي..، على أي حال في الأونة الأخيرة. ولم يُصدّق حينها أحد بهذا التقدم المفاجئ، لكنه سعد، سعد، حتى احتلّ المركز الثاني. وخرج «دينامو» بعد ذلك من دوري الفرق الممتازة. نعم، أتذكر ذلك جيداً، لقد ذهبت مع صديقي ديما دانييلوف بالذات لمشاهدة مباراة «دينامو» - «روستوف». في منطقة رامنسكويه بموسكو. وخسر فريق «دينامو». في البدء سجل الهدف الأوّل، ومن ثم مرّر هدفين..، وكان حينها أيضاً موسم الربيع، لقد تقرر الكثير في تلك المباراة... وانزعج ديما للغاية، فاشترينا زجاجة، وذهبنا معاً إلى منزلي، حينها كنت ما أزال أعيش في موسكو.

على العموم، ليست هناك حاجة إلى التحدث عن هذا...، سأكتب قصة حول هذا الموضوع، تدور حول حياتي الماضية. شرعت بكتابتها في ديسمبر/ كانون الأوّل، من العام الماضي، وكتبت بسرعة ما يقرب من ستين صفحة في دفتر، ثم انهالت عليّ أعمال أخرى، أعمال جانبية، وكسبُ إضافي، واتضح أن من الصعب عليّ الاستمرار. لقد جمعت ما كتبتّه على جهاز الكمبيوتر، وأضفت عليه بضع صفحات أخرى، وتوقّفت مرة أخرى.

طمأنت، نفسي بأن عليّ أن أكتب الكثير من الأشياء الأخرى، وأن أقرأ، ولكن...، بالتأكيد إنّ هذا يؤلمني، ففي السابق، كنت أعرف كيف أنقل الألم إلى الورق، لقد تحقق هذا، سواء كان ذلك بمستوى جيد أو سيئ، فليس من شأنى الحكم عليه، لقد نُشر. نُشر ضمن نصّ، والآن لم يحدث ذلك بالتمام. يستقر الموضوع الذي أنوي كتابته في الداخل، مثل الشوكة التي دخلت في عمق شديد، وتتغفن ببطء، وتسمم اللحم المحيط بها، ويلتحم الجلد في الأعلى، ويصبح خشناً. إنها ليست مؤلمة، حتى يمكن أن تُلمس.

كل شيء على ما يرام، سأدخّن، وأبأشر بالعمل. وهناك نصوص أخرى شرعتُ بكتابتها؛ حول طالب يدرس على حسابه الخاص، ويكسب مع والديه من جني الثمار في التايغا لدفع أجور الدراسة، وعن أحد معارفي، الذي كان في السابق يكتب نصوصاً نثرية، ومن ثم أصبح مُدوّناً في الإنترنت معارضاً سياسياً، وعن موسيقار اعتنت به إحدى المعجبات، بعد تعرّضه لحادث سير، لكنه هجرها...، إن سرد الحدث، بالطبع، أمر مضحك، ولكن كل واحد منها ثمين بالنسبة لي. أنا متأكدٌ، ستكون نصوصاً أصيلةً، ينبغي فقط كتابتها.

أذهب إلى الشرفة، وأمتصُّ السجارة بسرعة. بتعطش بشكل مفاجئ لي، وكأني لم أدخن لعدّة أيام.

أدعس عقب السجارة في منفضة السجائر مرة، مرتين، وثلاثاً، وأتحدث مع ذاتي: طيب لا تدخّن.

- أجلس إلى الطاولة، وأسحب الدفتر الأعلى. إجمالي صفحاته ثمانٍ وأربعون صفحة... تعودت على الكتابة في دفاتر. يقولون إن هذه علامة الإدمان على الكتابة، وينبغي على كاتب النثر في أسوأ الأحوال فقط استخدام ورق الكتابة، ومن الأفضل له الكتابة مباشرة على جهاز كمبيوتر، لأنه يوفر خيارات عديدة، إنني غالباً ما أؤكد في المقابلات الصحفية: في البداية أشرع بالكتابة في دفتر.

أو ربما أن توقفي عن الكتابة، جاء بسبب استعمال الدفاتر! ربما أن الطبيعة نفسها أوقفتني، توقفت التيارات، غير المرئية والانبعاثات غير المحسوسة، التي تأتي من المجال البيولوجي للإنسان. والكتابة باليد أصبحت الآن مستحيلة.

من ناحية هذا هراء، ومن ناحية أخرى...، أنا أتعامل بسخرية مع مؤثرات قوى ما وراء الطبيعة، ولكن فيما يتعلق بالكتابة شيء آخر... لم تعد الطبيعة والعقل الأعلى بحاجة إلى أن تكتب البشرية المسرحيات الشعرية، واختفى هذا النوع من الأدب، وحاول البعض التجربة فيه - لكن النتيجة كانت مقرفة. بيد أن هذا النوع كان أدباً متكاملًا... حسناً، لن نتناول بالحديث شكسبير وغيره من الأدباء الأجانب، ولكن هناك أعمالاً رائعة من هذا النوع في الأدب الروسي: «بوريس جودونوف» لبوشكين، و«الحفلة التنكرية» لليرمنتوف...، وماذا يوجد أيضاً؟! لقد كتب المسرحي نيقولاي أوستروفسكي أيضاً مسرحية شعرية، ربما... «ملكة الثلج»!.. قررت أن أتأكد.

تظهر على الشاشة أخبار المتصفح «ياندكس». لنذهب إلى الجحيم، تصرف الانتباه فقط! أقرأ في الإنترنت خبراً جديداً:

أنا لا أهتم كثيراً بالمؤسس المشارك لـفيسبوك، ولكن دعوة فيتورجان هي موضوع مثير للاهتمام. أمل أن يكون مكسيم فيتورجان الابن، وليس الأب...، فبالنسبة لمكسيم الابن: لقد هجرته زوجته، مقدمة البرامج التلفزيونية كسيوشا سوبتشاك، ومن المحتمل أنه يمر الآن في أزمة نفسية على هذه الأرضية، أو ببساطة كان في حالة سكر.

أقرأ الخبر:

«دعا الممثل مكسيم فيتورجان إلى التخلي عن الاحتفالات والنزهات الجماعية والمراسم بمناسبة يوم النصر»، وقال زوج مقدمة البرامج التلفزيونية كسينيا سوبتشاك: «لأن الجيل الحالي ليس لديه ما يحتفل به، والفنان واثق، بأن هذا لا يعني تجاهل، أو الصمت على، أو نسيان مآثر أسلافنا». نشر هذا الخطاب على صفحته في إنستغرام.

«يوم النصر هو لأولئك الذين حققوا هذا النصر. وبقوا على قيد الحياة، وعانوا، وتعذبوا. لأولئك الذين فقدوا أعزّاءهم أحبّاءهم، لكن هنا، والآن. لم يبق أحد منهم تقريباً. لقد وقّرنا سنّ شيخوخة كريمة للقليل منهم فقط. وعلى وجه

التحديد، كما يبدو لي أنه ليس لدينا ما نحتفل به»، وأضاف أن 9 مايو هو «يوم التعاطف، والامتنان، والذكرى لما شهده المشاركون في الحرب الوطنية العظمى».

اقتبست العديد من وسائل الإعلام هذا الخطاب، ولم يعجب الممثل أن العديد منها، وضعت في العنوان الرئيسي لها عبارة «ليس لدينا ما نحتفل به». ووفقاً لفيكتورجان، إن هذه العبارة أخرجت من سياقها.

«لقد تمّ ذلك، بالطبع، من أجل العنوان المثير. وهذه خسارة. ويفعلون ذلك بوعي. نعم ليذهبوا إلى الجحيم؛ أنا كتبت عن شيء آخر». كتب مكسيم فيتورجان في مقاله التالي. وأشار إلى «أن هذه العبارة تشير إلى ناس اليوم (ناس ما بعد الحرب)».

بالإضافة إلى ذلك، قال الممثل: إنه يحب مسيرة «الفوج الخالد»، ولا يحب الاستعراض العسكري، وغير معجب بجميع ضروب الاستعراضات، وأجدد القول: الاستعداد «لإضفاء» يوم النصر على كل شيء على التوالي: النتائج الرياضية، الشخصيات السياسية».

«ولا يعجبني عندما يرتدي الأطفال الزي العسكري، ولا يعجبني عندما ينشر زملائي صورهم في هذا اليوم ببدلات عسكرية، وعبارة «شكراً لجدي على النصر»، يبدو هذا مبتذلاً مهيناً. وقال فيتورجان: «إن كل هذا لا يناسب تماماً جوهر هذا اليوم». وفي الختام؛ أوضّح أن «يوم الصمت»، الذي أقترحه لا يرتبط «بالتجاهل أو الصمت أو النسيان».

«إنه أقرب، إلى ما يجري في إسرائيل في يوم «ضحايا المحرقة»، عندما يتجمد، وبكل معنى الكلمة، البلد بأسره. تتوقف السيارات والناس في الشوارع». وأضاف الممثل في رسالته على إنستغرام: «بتوقفون، يتذكرون، يفكرون».

وقد ظهر نقاداً للممثل؛ فقد شجب مُقدم البرامج التلفزيونية فلاديمير سولوفيفوف، في مقابلة مع وكالة أنباء «أنترفاكس»، فيتورجان لفرض رأيه على الآخرين».

من السهل جداً أن يلقي المرء الأضواء على نفسه مرة أخرى. أنا لا أتحدث عن فيتورجان الآن. أخشى من أن أشاطره موقفه حتى ذهنياً، رغم وجود فرق كبير بين «عدم جعل المناسبة عيداً»، و«عدم الاحتفال بها». فرق هائل...، أنا أتحدث عن أولئك الأكثر أو الأقل شهرة، الذين يجلسون في شبكات التواصل الاجتماعي، ويتعقبون من كتب، وماذا كتب؟ ثم يدخلون معه في جدال على صفحاتهم. ويجوب الصحفيون في صفحاتهم، وينتزعون، تلك المناقشات، وينشروها في وسائل الإعلام. أو كملاذ أخير، يتصلون بالشخصيات المعروفة، ويطلبون منها التعليق على تلك الآراء.

وعندما كان اسمي في الموضة، كنت أعطي في بعض الأحيان تعليقات أو ثلاثة يومياً على حَدَثٍ ما، حقاً، في كثير من الأحيان كنت أرفض الإدلاء بتعليق. ربما لهذا السبب توقّفوا عن الاتصال بي...

نعم، تعقّب تعليق شخص ما في «الفيسبوك» أو تغريدة في «تويتر» أو في مكان آخر فوراً والردّ عليه، ومن ثمّ يتمّ تحميل كل هذا في وسائل الإعلام، وماذا يُطلق الآن على هذه العملية؟-
hype؟

ويشعر الجميع بالارتياح. وعلى الأغلب لن يتجاهل المُخرجون؛ سولو فيوف وشاهنزاروف وليشنكو ما قاله مكسيم، بشأن الاحتفال بـ 9 مايو، إذ ستكون ردودهم على ما كتبه إضافة على شهرتهم، كما ستصبُّ في جيوب الصحفيين كمية من النقود. أنا أعرف هذا المطبخ، وكنت بنفسني لفترة من الوقت على غرارهم...

حسناً، لكن هذا على العموم ممتاز، أشاهد في أيقونة الأخبار: «نوصي بالقراءة. تُوقّي سيرجي دورينكو في موسكو».

بماذا الحمقى «يوصون»؟ بالموت؟ إنني، حتى لن أفتحه.

سأفتح هذا: «أنا ديلفي ستذهب إلى السجن».

«حكمت محكمة في نيويورك على آنا سوروكين، وهي مواطنة من بلدة «دوموديدوفو» الكائنة في ضواحي موسكو، والحاصلة على الجنسية الألمانية، بالسجن كأدنى حدٍّ لأربع سنوات بتهمة سرقة أكثر من 200000 دولار. قدمت المرأة نفسها على أنها وريثة ألمانية، وقامت بتزوير شيكات، مما مكّنها من الحصول على قروض، والعيش مجّاناً في فنادق باهظة الثمن، وترتيب عشاء للأصدقاء. كما أفادت «الخدمة الروسية لبي بي سي».

قد يتعيّن عليها أن تمضي أربع سنوات في السجن، وبعد ذلك يمكن تغيير فترة السنوات الثماني المتبقية تحت المراقبة.

أُتهمت المرأة التي تبلغ من العمر 28 عاماً، والتي عُرفت في السنوات الأخيرة باسم آنا ديلفي، باستخدام وثائق مزيفة، وجذب الأموال من الفنادق والمؤسسات المالية والمعارف. لقد أقنعت الضحايا أنها تملك ثروة قدرها 60 مليون يورو. وأكد الادعاء أن سوروكينا ارتكبت هذه الجرائم في غضون 10 أشهر، من نوفمبر 2016 إلى أغسطس 2017.

في أواخر أبريل، أدينّت سوروكين بالاحتيال. وقبل الإعلان عن الحكم، طلبت المرأة المغفرة.

طيب، لقد عاشت الفتاة بصورة جيدة، لذا كان عليها دفع الثمن عن كل شيء. لو كنت محلها، لهربت على عجل ومن دون إبطاء، لا يجوز التأخر والتأجيل في مثل هذه الحالة. أكلت ما هو طيب ولذيذ، وأنفقت النقود من دون حساب، وكان عليها المغادرة على عجل، ثم تتذكر في مسقط رأسها ببلدة «دومودوفو» بضواحي موسكو، تلك الأشهر الباذخة كحلم أسطوري. وتقوم على مهل، بإنفاق الدولارات التي سحبتها.

نعم، هنا خبر جيد: اليوم تبدأ بطولة كأس العالم. في كرة الهوكي. لم أتذكرها اليوم عيباً.

لحدّ ما تجري البطولة في وقت متأخر من العام. قرأت عن أن بطولة الهوكي كانت تجري في الستينيات في فصل الشتاء، ثم - عندما كنت مراهقاً - كانت تجري في مارس، وفي التسعينيات، تجري من نهاية أبريل إلى بداية مايو، والآن المباريات الأولى تجري قريباً في العاشر من مايو، من أجل إرضاء دوري الهوكي الوطني، وعلى العموم هل سيتم إجراؤها في الصيف، حين ينتهي كأس ستانلي في أمريكا؟

لذا... تمّ التخطيط لهذا العام، لإجراء مباراة النهائي في الثاني عشر من يونيو. يبدو أننا نتجه ببطء، نحو الهوكي كرياضة صيفية.

وأي فرقٍ ستكون في التصنيفات؟: «سان خوسيه»، «كولورادو»، «سانت لويس»، وفريق يدعى «كولومبوس»، و«فرسان فيجاس الذهبي». يا إلهي! أين هي فرق «مونتريال كندينس»، «بيتسبورغ البطاريق»، «فيلادلفيا»، «دمونتون أويلرز»؟ ليذهب إلى الشيطان كأس ستانلي، وكل دوري الهوكي الوطني...

بطولة كأس العالم... سأكون مشجّعاً، بإذن منكم، بدءاً من الدور ربع النهائي. أمل ألا يتكرر للفريق الروسي ما حدث له في عام الألفين...، ويبدو أنها كانت أسوأ بطولة بالنسبة لنا، على الأقلّ تاريخياً، وبالتأكيد الأكثر خزيًا.

جرت المباراة في سانكت-بترسبورج، وفي ذلك الوقت بالذات كنت هناك، لم أذهب إلى الملاعب، شاهدتها على شاشة التلفزيون، لكنني شعرت بتياراتها. بترسبورج عموماً مدينة المشجّعين. وفجأة تجمّع هناك نجوم الهوكي: بافل بور، وياشين، وأفينوجينوف، وشينسكي...، كما أتذكر الفريق الأمريكي الذي خسر في المباراة مع السويسري، والبيلاوسي، ومع فريق آخر...، تزلّجوا بشكل جميل، لكنهم لم يسجلوا أهدافاً. وقال أحد المعلقين: «الباليه على الجليد». وهذا صحيح.

يؤكد البعض، بأنه لا يجوز انتقاد الرياضيين. بمعنى إنهم يقدمون وفق قدراتهم، أو قولهم: يا مَنْ تشتمون أولئك الذين لا يصيبون الهدف بكلمات نابية، وأنتم جالسون على الأريكة، وتحسّون الجعة بتكاسل، حاولوا القيام بذلك بأنفسكم. أنا لا أوافق على هذا الكلام. وأرى أنه إذا خرج المرء إلى ساحة ملعب كرة القدم، أو طريق الجري، أو إلى ساحة الهوكي، أو التزلج، فليكن على استعداد للمحاسبة إذا خسر، وخاصة إذا لحقت به هزيمة منكرة. وإذا فاز، فسيحملونه بالأيدي... وفي كثير من الأحيان، يتحوّل معبود الجماهير في لحظة إلى شخص حقير.

ولكن ثمة ما هو مشترك بين الرياضيين الكتاب. فثمة كتابٌ ناجح يمكن أن يجلب الشهرة للمؤلف، ويضعه الكتاب التالي، الذي يعتبرونه فاشلاً، في فيلق الخاسرين. ومن الصعب عليه أن يفهم، هل هذا الكاتب عبقرى، أم يفهم، أنه كتبه بدافع هوس الكتابة. وفي الرياضة يضع المرء الرهان على القفز ستة أمتار، ويصل إلى ارتفاع أربعة أمتار وحسب، ويسخر منه الجميع، ويشيرون إليه بالبنان.

كلما تقدم المرء في العمر، زادت عليه صعوبة الكتابة. حتى إنها تكون مُروّعة، فالكاتب اعتاد على تقنيات راسخة، وعلى كليشيهات كانت ذات يوم طازجة، ومفردات جديدة، وأنه يريد، أو لا يريد أن يكرر نفسه في الشخصيات، وفي حركة الحكمة وفي اللغة.

وفي الواقع، إنّ كل النصوص التي بدأت بكتابتها تتكرر بطريقة أو بأخرى، أو تواصل النصوص السابقة. من ناحية؛ هكذا ينبغي أن يكون عليه الأمر، فكل أديب يأتي حاملاً معه موضوعه الخاص، حاملاً رسالته، ومن المستحيل أن يكتب بنفس القوّة عن الحاضر، وعن الماضي البعيد أو المستقبل، ومن المستحيل أن يكون في نفس الوقت كاتباً واقعياً، وخيالياً علمياً، و حَدَاثِيّاً، أو طليعيّاً. ويحاول البعض القيام بذلك، لكنهم حرفيون، وليسوا فنانيين صادقين.

في كثير من الأحيان أكرر القول: «في الحياة السابقة»، «في الحياة ما قبل السابقة»، ولكن في الواقع، توجد حياة واحدة، فأنا نفسي باقٍ كما كنت عليه قبل عشر سنوات، وفي الثلاثين من عمري. وفي الواقع أكتب ذات الكتاب، وأنا متأكد، من أنه كتاب صادق ونزيه. ولكن يؤلمني أن الناقد الذي أحترمه، والذي كان يعرب عن دهشة ممزوجة بحماسٍ وابتهاجٍ بأعمالي، ومن ثم نصحني بإدراج بعضها في المناهج الدراسية، وبعدها راح يتحدث عن خشيته من أنني إذا واصلت الكتابة بنفس الروح، فسوف أكون فرعاً مسدوداً في العملية الأدبية، واقتراح عليّ كتابة ما هو غير متوقع، ونتيجة لذلك توقّف عن إبداء رأيه في أعمالي الجديدة.

نعم، لم يعد لديه ما يقوله في المراجعات عن كتبي، لأنه سيكرر نفسه...

أوه، يكفي.. يكفي. تصلّب رأسي. لا يجوز لك تحليل أعمالك. ولكن بميسورك تحليل أعمال الآخرين، ولكن ليس أعمالك. وعلى هذا النحو يمكنك التوقّف عن الكتابة على الإطلاق، إذا ما فكرت بجديّة: ماذا؟ وكيف؟ ولماذا تكتب؟ إن القنفذ مات كما جاء في إحدى النكات، ليس لأنه نسي كيف عليه أن يتنفس، ولكن لأنه بدأ مراقبة عملية التنفس. اختنق في الهواء، ومات...

سأذهب لأدخّن. بعد أن دخّنت، شعرت بالحاجة للذهاب إلى المرحاض. دلفت إلى المكتب، والتقطت جهاز الآيفون من على الطاولة. لم أعد أتخيّل الجلوس على كرسي المرحاض بدون مشاهدة صفحة الفيسبوك. أتمرر إبهامي عبر الشاشة، تُبدّل الصفحات بعضها البعض. تظهر النصوص والصور والرسومات. أضع علامة على رمز «أعجبنني»، وأحياناً «نجاح باهر!»، وأخرى «أتعاطف»، وأحياناً «ساخط»، ويحدث «فائق».

بالطبع، أنا أنظر إلى ما هو مكتوب هناك. أنا لا أضع ببساطة «يعجبنني» للأصدقاء.

صورة دعابة فوتوغرافية: « مشروبات من الجبل الأسود»: « اشرب! لا تغضب الطبيعة!» أضع «يعجبني». يكتب بعضهم:

«خُطط لشهر مايو -يونيو 2019. مرة أخرى أضع خططاً بعيدة المنال، وأتوقع أن أنقذ 30 بالمائة منها، لكنك لن تنفذ حتى هذه النسبة منها، إذا لم تكن قد حدّدت المهام مسبقاً. «أعجبني».

«لا يمكنني العيش من عوائد الكتابة الأدبية وحدها. قررت فتح مرحاض عام للنباتيين في شارع نيفسكي. «تحديث للمعلومات»: شكراً للأصدقاء! بناءً على نتائج المناقشات يتم تحويل المشروع إلى شبكة الفيدرالية لمراحيض النباتيين. «عملاق أخضر» أنا أبحث عن شريك ومستثمر». هذه بوضوح بؤابة ساخرة. «جيد جداً».

في مثل هذا اليوم قبل 28 عاماً، بؤابة يانكا دياجيليف. ستبقى ذكراه أبدية. «أتعاطف»

«نشرث في مجلة «التقاليد الطليعة» مقالتي الموسّعة عن قرية كريفيل وضواحيها، وهي محاولة لاكتشاف المحيط الذي أعيش فيه خلال السنوات الأخيرة». «رائع».

« لم يكن لديّ متسع من وقتٍ للكتابة عن أن احتفالنا بيوم 9 مايو، وهو واحد من السمات الأصلية القليلة لروسيا اليوم، حتى خرج مكسيم فيتورجان علينا «بخشخاش أحمر»، ليقول يجب أن يكون الاحتفال من دون شريط جيورجس. إن أكثر ما يخشاه هؤلاء من على شاكلة فيتورجان، هو الاستقلال والأصالة».

هنا، سوف أمتنع عن ردّ الفعل.

تحت النص تعليق: «إلى سلّة المهملات»!

«لن تروا مثل هذا الرئيس أبداً».

وأدناه مقطع فيديو أمسكُ به، فتدبّ الحياة فيه. يتحرّك الشخص فيهِ، ولكن من دون صوت.

يبدأ بالحركة رجالٌ، بوجوه سمجة في قمصان وسراويل مطرزة، ويشرعون في تمزيق ملابسهم، وسلخ شواربهم، ويبقون في «تي شيرت» مازوخية، وفي أحذية ذات كعوب عالية.

يرقصون، ويجرجرون أجسادهم، ويهزّون الوركين. أحدهم، قصير القامة، أسمر، يذكّرني بشخص ما، بوخش روما؟

أفتح الصوت. في البداية لا أستطيع أن أفهم الكلمات. شيء ما باللغة الأوكرانية.

- شحم، تسيبول، هرين، سيفوها...

أوه، إنه فلاديمير زيلينسكي، الذي تمّ انتخابه مؤخراً رئيساً لأوكرانيا، أم قلّده؟ ربما للتشهير؟

أوقف الفيديو، أطلب في متصفح «يانديكس»: «مقطع مع زيلينسكي». أقرأ في الرابط الأول:

«في يوليو 2014، عندما تمّ تحديد مصير أوكرانيا في دونباس، وعندما أهلك جيشنا ومقاتلونا المتطوّعون، الأوكرانيين في معارك دامية مع المقاتلين الروس والخونة الأوكرانيين، نشر استوديو كفرتال 95 مقطعاً على شبكة الإنترنت تسخر من الأوكرانيين».

حسناً، حسناً، واضح. دعهم يضربون بعضهم البعض بمقاطع، وأشياء أخرى... سأعود إلى الشريط.

«برنامج T9 في هاتفي الذكي مجنون، لكن ذلك ممتع. على سبيل المثال، يقوم بتبديل الضمير البريء «أنت»، بفعل غامض «انتركويم» لكنه لطيف، وفيه نبرة موسيقية... كما يقولون...، وأنقر «أنا أتعاطف».

«الكاتبة إيلينا تشيزوفا من إحدى عوائل المحاصرين في لينينجراد أثناء الحرب العالمية الثانية، وخبيرة اقتصادية، ومترجمة.

قالت في مقابلة مع صحيفة سويسرية: إنّ ستالين وهتلر دمّرا لينينجراد «في أربع أيام»، وأن ستالين كان يحقد على لينينجراد».

«يائري، أحقاً أنّ ستالين كان يحقد على لينينجراد؟ لماذا إذن بدأ الحملة الفنلندية؟ أليس من أجل دفع الحدود عن مدينة لينينجراد، لتكون بعيدة عن القصف؟

لا أريد أن أجادل، هناك مؤرخون، سيقولون كلمتهم».

ولاحقاً، وخلافاً لرغبة المؤلف المعلنّة، هناك نصٌّ مطول حول حاجة الدولة السوفيتية إلى لينينجراد.

أنا أعرف مَنْ كتب هذا النص، إنه صديق لي، وكاتب جيد. كذلك أعرف إيلينا تشيزوفا أيضاً: منذ عشر سنوات حصلت على جائزة بوكر الروسية. وأدرج كتابي في القائمة النهائية، حيث قال الكثيرون قبل وبعد الحفل، من الواضح أنّ كتابي كان الأفضل، ويستحقّ الجائزة. بعد منح الجائزة، تشاجرت مع صحفي مختص بالشؤون الأدبية، ودارت شائعات، بأنني أعربت عن استيائي وإحباطي. لا، لقد كنت في حالة سكر، وهذا الصحفي الأدبي، في رأيي، كان يستحقّ اللكمة. ضربته في ذلك الوقت، وبعد ثلاث سنوات، وفي عرض حفل تقديم بوكر الروسي، ضربني. في ذلك الوقت، كان هو في حالة سكر... عندما يتشاجر الكتاب، ينتصر مَنْ يكون في حالة سكر.

لم تعد جائزة «البوكر الروسي» على قيد الوجود. وكانت هي الجائزة الأكثر شهرة. لم أحصل على الجائزة، رغم أنني وصلت إلى النهائي ثلاث مرات. لكنني حصلت على العديد من الجوائز الأخرى.

... ربما لا يوجد لدي الآن دافع، لأخذ القلم وتدبيج نصّ جديد... غالباً ما تظهر كلمة «الدافع»، عندما يدور الحديث عن المسابقات الرياضية، هل يوجد لدى هذا أو ذاك من الرياضيين أو الفريق. ربما هذا ينطبق أيضاً على الكتاب. قد يريد الأديب الكتابة، ولكن لا يوجد دافع لديه، لا توجد فكرة حقيقية.

ما هو الدافع؟ أستخدم خدمة مساعد الصوت في هاتفي، وأطرح السؤال:

- هالو!

«مرحباً بكم»، يأتي من جهاز تلفون آيفون صوت مهذب، مقروناً بنبرة ساخرة قليلاً. أشرح له مازحاً:

- لا تتحلق. ما تعريف الدافع؟

هذا ما أفلحت في العثور عليه، ويظهر النصّ على الشاشة:

«الدافع: هو التوق إلى العمل، وهو عملية فسيولوجية / نفسية، تتحكّم في سلوك الشخص، وتحدّد، وتُنظّم اتجاهه ونشاطه واستقراره، وقدرة الإنسان على تلبية احتياجاته بفعالية»

واضح... أغلق الآيفون من دون أن أضع إشارة على التعليق على تشيجوفا ومقابلتها. أبرّر ذلك لنفسي بحقيقة، أنني لم أقرأ النصّ المنشور بأكمله، والأكثر من ذلك المقابلة.

أغادر المرحاض، وتخرج زوجتي من غرفة النوم.

- مرحباً! - بادرتها بفرح أصيل. يساورني الشعور كأننا لم نرَ بعضنا البعض منذ وقت

طويل.

- مرحباً يا عزيزي. مع مَنْ كنت تتحدث هناك؟

- آه؟ آه، مع التليفون. سألته، ما معنى الدافع؟

- وماذا هو؟

- لا شيء يذكر...

تعانقنا. أشعر فجأة بالجوع. لا، ليس الجوع، ولكن... يبدو أن المعدة ممتلئة، ويقول الدماغ: أنت بحاجة لتناول الطعام. وأسألها:

- ربما سنتناول الغداء؟

- يمكن... ولكن ماذا؟

- لا أعرف، لنر.

نذهب إلى المطبخ، وأفتح الثلاجة.

كانت هناك قشدة حامضة، وطماطم، وسمك مُعلّب، وقطعة من اللحم المقدد، والخبز؛ نحن نأكل القليل من الخبز، ولذلك نحفظه في الثلاجة كي لا يتعفن، والصلصة، والبيض، والجبن، والزبدة في مَرِيّة...

أغلق الثلاجة، أفتح الفريزر.

أرى عبوتين من الخضراوات المجمدة، وبيلميني مع البطاطا والفطر، وصدور الدجاج المجمدة...

تقترح الزوجة علي:

- اسمع، دعنا نطلب غداءً من المطعم؟ من دون أن نتعب أنفسنا...

كان طلب الطعام من المطعم إلى المنزل، حتى وقت قريب، باهظ الثمن، والآن هو ليس رخيصاً جداً بالطبع، لكنه بسعر مناسب. إذا احتسب المرء ما سينفقه على إعداد الطعام بنفسه في المنزل، فسيظهر بأنه ليس أرخص بكثير من سعر المطعم. إضافة إلى ما سينفقه على الكهرباء والماء لغسل الصحون، فسيصل إلى هذه النتيجة.

لقد أصبحت شركات توصيل الطعام للمنزل كثيرة. بالطبع ليس بالعدد الهائل، ولكن يصادف المرء في كل خطوة في الطريق، راكبي الدراجات، والزلاجات الدوارة، والسيجاواي وهم ينقلون الوجبات الغذائية بحقائب شركة «فود ياندكس»... والحقائب الخضراء... لشركة نسيت اسمها.... لقد نشبت منافسة بين هذه الشركات، وعندما تكون المنافسة صحية، تتراجع الأسعار.

أجبت زوجتي:

- أنا لا أمانع سئوفاً الوقت، بالمناسبة كيف كان العمل؟

- نسبياً... وأنت؟

- أيضاً.

ثومى، وهي غارقة في الأيفون، لتختار مطعم طلب الغداء.

- هل تريد شوربة؟

- نعم.

- هل تناسبك شوربة توم يم التايلاندية؟ مع المأكولات البحرية.

- هل هي حارة؟

- نعم...

- لا أريده إذن، أطلب أكلة تقليدية.

- هناك شوربة الخضار.

- ممم.

أشعر أنني أتصنّع، وعلى الفور أشيع البشاشة في جهي: نحاول أنا وزوجتي ألا نعرب في التخابط مع بعضنا البعض عن مشاعر سلبية، أنا أرى أن شوربة الخضار، التي لا يجري إعدادها في البيت، مقرفة إلى حدّ ما. انظري في البازلاء.

- توجد البازلاء. مع اللحوم المُدخّنة.

- عظيم!

- والوجبة الأخرى؟

- حسناً، بضع شرائح من اللحم البقري. والبطاطا المهروسة، فالبطاطا المهروسة عادة ما تكون لذينة. أعدتها الآلة.

- حسناً...، تنقر زوجتي على شاشة الآيفون. - أنا سوف آخذ شعرية «أودون»، مع الدجاج والفطر.

- ومن ثم، سوف تشكين من أن المعدة تؤلمك.

- ولكن ما العمل، أنا أحب المطبخ الآسيوي... ربما ماكي سوشي الياباني؟

- كما يحلو لك.

لكن هل ستأكل زوجين؟

- أكل.

- أي منها؟

- لا فرق.

- مع ثعبان البحر... وفيلادلفيا الخضراء. كل شيء سأدفعه؟

«نالني التعب من هذه العملية».

- نعم

سيأتون به خلال اثنتين وثلاثين دقيقة.

- حسناً... سنعمل إذن مرة أخرى؟

- هيا.

نتعاقق، ونتبادل القبل، نفترق.

كانت شاشة الكمبيوتر المحمول قاتمة. أغلقتة بحزم، ودفعتُ به جانباً. وأخذت دفتر الملاحظات. أي نصّ هذا؟ إنه رواية «الوديان الذهبية». لقد بدأت بكتابته قبل أربعة عشر عاماً. حتى هناك تاريخ أمام العنوان: «البداية في 14 أبريل 2005»، وتحتة: «انتهى...»

أنا دائماً أكتب تاريخ البدء بالعمل. فهذا يُحفّزني على الانتهاء منه بسرعة.

نعم، بدأت حينها بكتابة خمس صفحات، توقّفت. وفي وقت لاحق كنت أعود له من وقت إلى آخر. وحينها تقدمت في كتابة نصّ آخر. وكما يبدو لي الآن، كنت أتقدم بسرعة محمومة. لقد كتبتُ الكثير بسرعة. متى تمكنت من إيجاد الوقت الكافي للكتابة بهذه السرعة؟

عشت لسنوات طويلة بوتيرة عمل صارمة؛ كنت أنهض في السادسة صباحاً، وأغتسل بسرعة، وأخذ فنجان قهوة، ومن ثم أجلس أمام الطاولة، وأكتب حتى الساعة إلا خمس دقائق. ثم أشرع بإيقاظ بناتي للذهاب إلى المدرسة (في البداية كنت أوقظ الكبرى فقط، وحينما بلغت الصغرى سنّ رياض الأطفال، أصبحت أوقظها أيضاً)، ومن ثم أكتب لمدة 15 دقيقة تقريباً، بينما يجهز أنفسهنّ، ويتناولن وجبة الإفطار. ونخرج معاً إلى الشارع، نقطع مسافة مائة متر، وننزل إلى قطارات مترو الأنفاق. وإذا نصل إلى قطار مترو الأنفاق حتى الساعة السابعة والنصف، نتمكن من الجلوس في القطار بسهولة، لأن فرص إيجاد مقعد خالٍ بعد خمس إلى عشر دقائق من هذا الوقت، ستبتدد.

شاهدت ذات مرة في «اليوتيوب»، فيلم فيديو عن مترو الأنفاق في اليابان في ساعة الذروة. هناك مستخدمون خاصون بفقّازات، وظيفتهم دفع الركّاب لاستحداث المزيد من المكان في العربة. ويحدث مثل هذا الازدحام عندنا في محطة مترو «كولومينسكويّا» في كل صباح من أيام الأسبوع، فقط لا يوجد أشخاص مهمتهم استحداث المزيد من المكان، ويقتحم الركّاب العربات من دون أي انضباط أو مجاملة.

إن الركّاب الذين يستخدمون المترو يومياً، طبيعيون فهم معتادون، وقد يفسحون المجال للركّاب مع الأطفال، ولا يشعرون بالإهانة إذا وخزهم أو دفعهم أحد، ولكن حينما تهطل الثلوج بكثافة في الشارع، أو تحدث جائحة ما، فإن سائقي السيارات يتركون حافلاتهم في الشارع وينزلون إلى المترو...، إنهم ينسلون بوقاحة، وكانوا يردّون بضجر إذا ضغط الركّاب عليهم، ولم يلاحظوا الأطفال.

أكد العديد من النقاد لفترة طويلة، بأن الكتابة عن المترو أمر غير لائق. لا أعتقد ذلك. غالباً ما يظهر المترو في أعماله، فالمترو في موسكو كان على مدى عشرين عاماً عنصراً مهماً في حياتي..

وعلى هذا النحو، عندما لا تكون الفتيات متقلبات الأهواء، نأخذ الخيار الأفضل، ونجد أنفسنا بسهولة في القطار.

ونسافر. تقع كل من المدرسة وروضة الأطفال بالقرب من محطة «مايكوفسكايا». تقريباً في مركز العاصمة، وتستغرق الرحلة من «كولومنسكايا» بدون توقّف، حوالي خمس عشرة إلى عشرين دقيقة. وهناك سبع دقائق أخرى سيراً على الأقدام.

بالطبع، كانت زوجتي السابقة أحياناً تأخذ الأطفال، ولكن بالأساس، أخذتهم أنا. وفضّلت الزوجة السابقة العودة بهم إلى المنزل بعد انتهاء الدوام.

عندما كبرت ابنتي الأكبر سناً، رفضت أن تصطحب معها أختها الأصغر. حتى بلغ الأمر حدّ المشاحنة، ولكنها لم تطع، ووجدتُ عدّة ذرائع لتصرّفها هذا، مرة تقول:

- سأذهب مشياً على الأقدام إلى محطة «تياترالنيه»...، وسألتقي بالفتيات في شارع محطة بوشكينسكايا»...

وأخرى:

- سأذهب إلى الدرس الثاني.

باختصار، بطريقة أو بأخرى، اضطررت إلى الخروج في بداية الساعة الثامنة. أحياناً خمس مرات في الأسبوع، وأحياناً ثلاثاً أو أربعاً، ولكن بشكل عام، أطول من فترة الجلوس إلى المكتب في ساعات الصباح المناسبة.

وفي بعض الأحيان كنت أعود إلى المنزل، بعد توصيل البنات لمدارسهنّ. بيد أن هذا لم يكن منطقيّاً، علاوة على أنه مُكلف مالياً، إذ إن المسافة بين المدرسة وروضة الأطفال ومكتب تحرير الصحيفة التي عملت فيها، تبلغ كيلومتراً واحداً، ويبدأ يوم العمل في الصحيفة في الساعة العاشرة. واتضح أنه من غير المجدي، أن أعود إلى منزلي قرب محطة «كولومنسكايا» لانتظار يوم العمل: فسأصل للبيت، وعقب نصف ساعة عليّ الذهاب للعمل. وكل رحلة في المترو تكلفني شيئاً من النقود.

كان رئيس التحرير، الذي يكتب كثيراً، وبسهولة غير إنسانية، يسألني كل يوم: «هل سلّمتُ المادة؟» لم يكن يأخذ في الاعتبار أن أكون قد سلّمتُ له مادة في اليوم السابق. وحقّته؛ «يوم جديد مادة جديدة». وأبلغه:

- أريد أن أكتب تقريراً لكذا كتاب.

فيردُ عليّ:

- ممتاز! سلّمهُ!

وأوضح له:

- ولكنني ما زلت أقرؤه.

- كانت لديك ليلة كاملة! تقرؤه في الليل، وتكتب عنه في النهار!

لقد أغضبني، وتشجبت عظام وجنتي، وتدققت الدموع، وبدأت المفاصل في الحكّة. لكني الآن أرى أن ضغطه اليومي، أفادني. لقد كتبت الكثير. سواء للصحيفة أو لنفسي. طبعاً، بمعنى نصوص نثرية.

وعدت في المساء غاضباً، متعباً، منهكاً، كما بدا لي تماماً. أتناول العشاء، وأهوي على كرسي في مكتبي في الشرفة المدفأة. ومع الغضب والتهيج، كتبت عشر صفحات في دفتر الملاحظات، أو طبعت خمس صفحات من دفتر ملاحظات على جهاز الكمبيوتر.

ثم تركت العمل في الصحيفة، وأصبحت أكتب ما يسمى بالقطعة، حيث أنفق تدريجياً من قيمة الجوائز التي حصلت عليها، ما يقرب من مليون روبل على احتياجات الأسرة، وكبرت ابنتي الصغرى، وبدأت في الذهاب إلى المدرسة بنفسها. وأصبحت أيامي أكثر حرية، لكنني بدأت في الكتابة بشكل أقل. والآن، كل صباح أمامي وقت طويل حتى المساء، ليس ثمة ما يشنت انتباهي، وأجلس، أعمل لمدة ست عشرة ساعة على الأقل، هاهو أحد النصوص...

وهكذا، أين توقفت عن استكمال روايتي «الوديان الذهبية؟» إنها قصة عن طالب يعمل خلال عطلته مع والديه، لدفع أجرة الفصل الدراسي التالي. المضمون جزئياً من سيرتي الذاتية. وعلى الرغم من أنني، والحمد لله، لم أدرس أبداً على نفقتي الخاصة، ولكنني كنت أعمل كل صيف في الحقل، وأجمع الفطر والتوت في غابة الصنوبر. نحن نذهب من القرية التي تعيش فيها أمي وأبي إلى أقرب مدينة، وبتاجر في السوق هناك. في بعض الأحيان يُساعد ما كسبته هناك، أسرتي في موسكو، ومن ثم أصبحت هذه العملية؛ الزراعة والحصاد والتجارة - تقليداً. وبالمناسبة، أعرف أن العديد من الطلاب، وليس وحدهم، يقضون الصيف في القيام بنفس العمل...

أقوم بإعادة قراءة السطور الأخيرة.

«لم تنضج شجيرات الياسمين البرّيّ بعد، أما الفراولة البرّيّة النامية بعيداً عن مجرى النهر، في الحقول والأراضي الجرداء التي دفأتها الشمس، فقد أصبحت ناضجة وكثيفة.

لكنهم لم يسرعوا في جمعها، طافوا حول الشجيرات، قدّروا الكمية التي تحملها، وتشاوروا فيما بينهم.

سألت الأمّ، ولكن على أمل يشوبه الغموض.

- ما رأيك، نقطفها؟!!

قال الأب كالسابق بحيوية، وإن لم تكن بنفس المصادقية:

- أعتقد إذا قطفناها، فسيمكنا جمع دلو ونصف، أو اثنين منها، وسنقطع الثوم البرّيّ.

أومات الأمّ برأسها.

- بقيّ من الفجل، عشرة عناقيد...، سنذهب للسوق، ولدينا ما يمكن بيعه من المحصول.

لم يفهما عبارة الوالد التالية، هل كانت مجرد تأكيد أم سؤال:

- سنقطف إذن...

ألقي كلاهما نظرة على إيليا، وأراد هذا مرة أخرى أن يقول لهما، يجب إنهاء هذا البحث الشاق عن المال، وتعليمه المهين على نفقته الخاصة. سوف يعود إلى هنا، وسيعمل في المزرعة، أو أي شيء آخر... لكنه قال شيئاً آخر:

-« سنقطفه».

حسناً، النصّ ليس سيئاً، وأعرف كيف أوصل كتابته. اصطفت الكلمات في رأسي في طابور، نفذ صبره. وأخذت القلم، وشرعت بالكتابة:

«عادوا إلى السيارة، وشربوا الماء، وسحبوا الدلاء، وذهبوا إلى المروج».

الحبر مختلف. أزرق أيضاً، ولكن مع تباين طفيف...

أقلب الصفحات، وتبدو كما لو كانت عليها كلمات من الإسمنت. تلك التي كتبتها قبل أربعة عشر، عشرة، ثمانية، خمسة، ثلاثة، ستة أشهر، مضت.

أصبح لون الخطوط الآن، مرة أزرق فاتحاً، وأخرى شاحباً، ومن ثم تقريباً بنفسجياً، ومرة قاتماً، هنا نصف صفحة بلون جيلاتيني. والحروف مرة ثخينة، ومرة رفيعة. لقد كتبت هذه بأقلام الحبر الجاف، فهناك أقلام حبر جاف ذات خطوط عريضة، وهناك ذات خطوط دقيقة جداً، وكنت في السابق، أحب، كلما كانت الخطوط دقيقة كان ذلك أفضل، وكلما كان الخط دقيقاً كان أحسن، أن يكون الخط دقيقاً وجذاباً، يُذكَرُ بخط راسبوتين، والآن أفضل أقلام الحبر الجاف ذات الخط العريض، التي غالباً ما، لا تتناسب الحروف بها مع خطوط الورق... لقد ساء خطي، وبصري ليس على ما يرام.

أنا أتصفح الدفتر بسرعة، فإن الصفحات تشبه غطاءً من مزق متعددة الألوان... أوه، وهنا بشكل عام، نصُّ مكتوب بقلم الرصاص!.. لقد أصبحت الحروف بقلم الرصاص باهتة تقريباً، فمن الضروري إنهاء الكتابة، أو كتابته بقلم الحبر الجاف.

أتذكر لماذا كتبت بقلم رصاص. كنت في مطار شيريميتيفو. أقلعت إلى مدينة براتيسلافا. نعم، إلى براتيسلافا، لمحفل تقديم مشروع «مائة رواية سلافية».

كانت حقبتتي مليئة: كمبيوتر محمول (حتى في الرحلات القصيرة، كنت أحمل معي جهاز كمبيوتر محمول، على أمل العمل)، وجهاز شحن البطارية، ودفاتر، وكتباً للعرض، وأسلاكاً كهربائية... ألم بي التعب من انتظار الركوب في الطائرة، وسحبت هذا الدفتر، وكانت أقلام الحبر في أسفل الحقبية، وكان في السترة قلم رصاص مثلوم الجرافيت، وطفقت أكتب به.

«أصبح مجرى النهر الآن، في نهاية يونيو، ضيقاً وهادئاً، إنَّ الصخور المصقولة الملقاة على امتداد ضفافه، والأغصان التي انجرفت، وحتى جذوع الأشجار الضخمة مع اللحاء المجذول، تُظهر أنه غداً، يبدأ ذوبان الثلوج في الربيع على أعالي مجرى النهر، قوياً وشرساً».

بالطبع، يجب العمل على تطوير النصّ، ولكن عندما سأطبعه في الكمبيوتر. ومن ثم أقرأ ما طبعته، وبعدها يجري تنسيق شكل الكتاب في دار النشر، إن شاء الله.

نعم، كنت أكتب في كثير من الأحيان في المطارات، وفي القطارات والقطارات الكهربائية، وفي الطوابير. الآن أصرف الوقت في الأيفون...

ومتى سافرت إلى براتيسلافا؟

أسحب الدرج العلوي، حيث جواز سفري.

قرع جرس الاتصال الداخلي للمبنى السكني.

نهضتُ، ذهبتُ إلى الردهة. وكدت أصطدم بزوجتي، ولكني تجاوزتها، التقطت الهاتف أولاً. ليس لأنني أريد التواصل مع السّعاة، لكنني أريد توزيع العمل بيننا. زوجتي طلبت الطعام، وأنا أستلمه...

- نعم!

- الساعي.

- أفتح الباب لكّ

ضغطت الزر على السّاعة، ترامت لي صفارة رقيقة، لتعلن أن الباب انفتح للساعي. أغلق السّاعة، لكنني لا أغير الردهة: مرّ الساعي من خلال البوابة العامة للمبنى السكني، والآن سيكون جرس الاتصال التالي من باب المدخل، حيث شقّتنا.

وقفْتُ منتظراً. ساد الهدوء. ربما أن شخصاً ما دخل أو خرج مع الساعي في نفس الوقت...

أعود إلى المكتب. لا وقت هناك للكتابة. أخذتُ جهاز الآيفون، ورحت أطلع الموجود على شريط فيسبوك. أفعل ذلك بشكل تلقائي؛ من أجل أن أشغل نفسي بعمل ما. لقد اكتسبت هذه العادة منذ زمن بعيد؛ من ناحية هي جيدة: لا بأس أن تحصل على المعلومات، ومن ناحية أخرى، تقلُّ بسببها أكثر فأكثر فرص التفكير في الأشياء الجادة. أقرأ باستمرار، أسمع، أشاهد، أكتب:

«هل جميع كُتّابِ قصص الأطفال طيّبون؟»

هناك صورة صفحة لكتاب، قصيدة.

«إذا جلستم على أرجوحة،

ولم تتأرجح بكم الأرجوحة،

وإذا بدأت الأرجوحة تدور،

وسقطتم من على الأرجوحة

يعني إذا أنتم لستم على أرجوحة،

هذا واضح.

يعني أنكم جلستم على مراجيح دوارة.

ولكن، هذا رائع.»

أختار لبعض الوقت ما أضعه، لتقييم النصّ: «واو!» و«شائن!». أنا وضعت «واو!»!

«شاهدت بهدوء الموسم الثاني من مسلسل الجسر. بترجمة ليوكوفسكايا، جيد. أكلتُ العصيدة. ذهب الابن لجلب الكرواسون. أنا حزينة، كل هذا لا معنى له، أوّذ أن أكتب باسم مغفل على الإطلاق، لكيلا يسأل أحد أو يقول أي شيء. غداً وضعي أفضل. لدرجة يمكنني مشاهدة فيلم، وكتابة ما يمكن كتابته في الفيسبوك بأني حزينة. وأتناول عصيدة. أصبحت الحالة جيدة لدرجة ما. عندما يكون كل شيء سيئاً، كل شيء من هذا مستحيل، كل هذا لا معنى له، كل محاولات العيش في سعادة دائمة عملية لا معنى لها.»

هذه الفتاة - شاعرة - تشتكي دائماً. في البداية كنت خائفاً من نصوصها، ثم اعتدتُ على ذلك. «أنا أشفق عليها.»

«خروج برشلونة من دوري الأبطال، ولادة ابن للأمير هاري، يوم النصر، الضجيج حول الفوج الخالد، دورينكو، فيتورجان، تشيزوفا...»

من يتذكر الكارثة في شيريميتيفو؟ باستثناء الناجين وعائلات الضحايا، لقد مرّت خمسة أيام على الحادث.»

هذا بالطبع... أنا لا أضع أي شيء، أسئل من التعليقات:

«نعم، لقد نسوا، ولهذا السبب يظهر أشخاص من أمثال كالوييف، يتعذبون في العزلة، يأخذون السكن، ويذهبون للانتقام.»

كالوييف، من هذا كالوييف... آه، نعم تذكرته، الرجل الذي قتل المراقب الجوي في مطار سويسرا... اصطدمت طائرتان بسبب خطأ المراقب الجوي، وتوفيت زوجة كالوييف وابنتاه في الحادث.

انتظر الاعتذار، ثم ذهب، وطعن المراقب الجوي. جرى إطلاق سراحه بسرعة، وأعادوه إلى روسيا.

بالمناسبة، نصحني العديد من الأشخاص بمشاهدة فيلم عنه. تمت إزالته مؤخراً. يقوم الممثل ناجييف بدور البطولة.. يجب مشاهدته بطريقة ما.

أين الساعي مع وجبة الطعام؟ شعرت فعلاً بالرغبة بالأكل.

وضعت الأيفون على الطاولة، أنا أذهب إلى المدخل. أفتح الباب. أستمع إلى حركة المصاعد الكهربائية. المصاعد صامتة.

لدينا مداخل فريدة من نوعها. هناك مصعدان. إذا سعدت في أحدهما، فسيكون ترقيم الشقق طبيعياً، وإذا كنت في آخر... لم أفهم حركتهما خلال هاتين السنتين. باختصار، أحد المداخل عبارة عن شقق، والآخر عبارة عن شقق للتأجير أو استوديوهات. في طابقنا الجناح «180» وهكذا، والجناح الأربعمئة. ويفصل الأجنحة باب، يُفتح بحرية، لكن هناك الانطباع بأنّ هذا طريق مسدود. لذلك يضلُّ الكثيرون طريقهم.

ساعي اليوم، هو واحد من هؤلاء الكثيرين. وصل غاضباً، لاهئاً. صحيح اعتذر عن التأخر، لكن بنبرة، كما لو كنتُ أنا مسؤولاً عن تأخيره. لقد نسيت أن أحذّره، ومع ذلك، فإني غير ملزم. ولا فائدة من ذلك، إذا لم تفهم في هذه الهندسة المعمارية...

سألني الساعي:

- بإسْم من الطلب؟

باسم زوجتي. أوماً براسه، أخرج حزميتين من حقيبة الظهر الخضراء.

- شهية طيبة.

- شكراً.

خرجت زوجتي للتو من غرفة النوم. أخذت مني الحزميتين، وأغلقت الباب.

نباشر بتناول الغداء.

- هل سأشغل الراديو؟

- نعم، نعم، هيا.

وانطلق من السماعة على الفور:

«... أظهر تشریح الجثة أن دورينكو مات بسبب تمزق الشريان الأورطي». كما يعتقد الكاتب ألكسندر نيفزوروف: «كان العجز السمة الأساسية لأسلوب سيرجي دورينكو». يقول المُقدِّم التلفزيوني فلاديسلاف فلاركوفسكي: «كانت القسوة هي السمة الرئيسية لأسلوب عمل دورينكو». تقول مذيعة التلفزيون سفتلانا سوروكينا: «كان سيرجي دورينكو بالتأكيد شخصيَّة مشرقة». «قال محافظ موسكو السابق، يوري لوجكوف: كان سيرجي دورينكو شخصاً موهوباً للغاية، ولكن في نفس الوقت غير مبدئي»، «محطة إذاعة أربي كا» مباشر.

- حسناً، الكلاب، الآن دورينكو وحده لديهم على الهواء. أدير إلى «إذاعتنا»؟

توافق زوجتي. إنها عموماً لا تجادل، على الرغم من أنها من برج السرطان. حتى في الأمور المُتعلِّقة بالمبدأ تقول: «حسناً»، لكنها تقوم بذلك في كثير من الأحيان بطريقتها الخاصة... ما نسمعه أثناء الغداء مسألة غير مبدئية.

على موجة محطة «إذاعتنا» المحلية، يتحدثون عن السيارات.

- ما هذا؟!!

- لقد نضج المستمعون فقط، والآن أصبحوا مهتمين بالسيارات أكثر من الروك، زوجتي ظريفة، لذلك، ربما لذلك أصبحت كاتبة مسرحية جيدة. أجلس، ومن غير ذلك برُد الطعام.

نتناول الطعام بصمت، كلُّ في أفكاره... ولكن، ما هي أفكارني؟ على هذا النحو أقلب ما في رأسي، ما حملته فيه في النصف الأوَّل من اليوم. في الواقع إنها نفايات وحسب، وقریباً سأنسى كل

هذا. وإذا لم تُنس؟ إذاً ستملأ هذه النفائات جميع خلايا الدماغ.

يقولون إنّ دماغنا يعمل بقوة قليلة، وإنه في الغالب فارغ، ويغفو، ويجب تدريبيه باستمرار، ورفده بمعلومات جديدة... لا أستطيع أن أتفق مع ذلك. عندما كان عمري سبعة عشر عاماً، وكنت أعرف أقلّ بكثير من الآن، كنت أرغب بشدة في الكتابة، لأخبر الآخرين عن اكتشافاتي وأفكاري وتخميناتي. لسوء الحظ، لم أكن حينها أعرف كيف أكتب. وظهرت نصوصي معقدة وضبابية. الآن، على الأقلّ لحدّ ما أعرف. ولكن ليس لدي رغبة شديدة للكتابة. هناك وعي بأنه يجب عليّ أن أكتب، ولدي عادة الجلوس وراء الطاولة، ولكن لا توجد لدي رغبة بأخذ القلم، وتدبيج نصّ ما... قيل في مكان ما إن المعرفة تزيد الهموم! في مكان ما بالكتاب المقدّس.

ليس لأنني أشعر بالهم. على الرغم من... حسناً، إلى الجحيم...

بعد الحديث عن السيارات في الإذاعة، انطلق المغني «جالانين» بالشكوى والتذمر:

ما الذي أحججه؟ فقط الضوء في النافذة.

ما الذي أحلم به؟ أن تكون الحرب قد انتهت.

إلى أين أنا ذاهب؟ حيث تشرق الشمس.

فقط، أيها الإخوة، أن أصل قبل حلول الظلام.

عند تشغيل محطة «إذاعتنا»، ستستمع بالتأكيد إلى هذه الأغنية. بشكل عام، لم تتغيّر قائمة المقطوعات الصوتية المرتبة، التي تشكّل ألبوماً موسيقياً خاصاً بهم، منذ عشرين عاماً. ومرة أخرى، كما مزحت زوجتي ذات مرة: «لقد شغلوا جهاز التسجيل، وذهبوا بعيداً، وراحت الأغاني تدور على نفسها».

- شكراً لك يا عزيزتي. أنتِ لديّ مثل ساحرة: بضربة واحدة، والغداء جاهز.

- هل تسخر؟

تردّ من دون استياء. ولكن إذا ردّدت مثل هذه الجملة ثلاث مرات في اليوم، فمن المحتمل أن تستاء، وتغضب في النهاية. يجب أن أتوقّف.

- لا أسخر، ولكن أمزح، ولا أمزح، انظري كم من الوقت فائض لدينا؟ حتى الأطباق لا تحتاج إلى غسل.

أفتحُ الباب تحت المغسلة، وألقي الأواني البلاستيكية، والملعقة، والشوكة، والسكين في دلو النفائات، وأسأل زوجتي:

- أي شاي ترغيبين؟ الأخضر!

- نعم.

«نعم» جاءت بنبرة تثير القلق. أنظر حولي. لا، إنها متحمسة فقط لماكي سوشي.

تسأل عندما أعود إلى الطاولة.

- سنأخذ قيلولة بعد الغداء؟

- بالطبع.

لدينا مثل هذا التقليد. نأخذ قسطاً من الراحة من العمل. نصف ساعة معاً.

في بعض الأحيان، نغط في النوم. أحلام الظهيرة ثقيلة، عبثية، وأحياناً كوابيس، ولكنك ترى أحلاماً تودُّ إثرها أن تقفز، وتحولها إلى نصّ نثري. سجلت حوالي عشرة أحلام في دفاتر الملاحظات.

في كثير من الأحيان يتكرر نفس الحلم: كما لو بقيت لي في موسكو مخطوطات لقصتين ممتازتين. على الأرجح رمّتهما الزوجة السابقة في صندوق النفايات، وأنا من شدة الأسف أشرع بالنشيج. توقظني زوجتي الحالية، وتهدّني.

في الواقع، لم تكن مثل هذه المخطوطات موجودة، على الرغم من أنني رميت بأرشفيف رصين. وما زلت أسف لبعض الأشياء. هناك ملفٌ كامل من المسرحيات التي كتبتها قبل زمن الكمبيوتر، على الآلة الكاتبة. ولكن من غير المحتمل أن أضعها اليوم على خشبة المسرح، إذ إن زوجتي كاتبة مسرحية، وسيقولون: يقلدها... كلا، الآن كتابة المسرحيات بالنسبة لي غير جائزة. على الرغم من أنه يمكن حسد الكُتاب المسرحيين، الذين تُعرض أعمالهم بكثافة، على ما يكسبون...

التصقت بي زوجتي، وأدخلت يدها تحت قميصي، وطفقت تمسد بطني، لقد نما بطني في السنوات الأخيرة. ويجب أن نعتني بأنفسنا، وسألتني:

- هل سنرى المسلسل الرابع؟

أردُّ عليها:

- نعم، لقد ناقشنا المسألة، لكن فقط في المساء.

- في المساء... ولكن بالتأكيد، فبعد غد يُعرض الخامس.

هكذا نحن نتحدث عن «لعبة العروش». مسلسل بليد، في رأيي، ولكن الجميع يشاهدونه. على مدى عدة سنين.

متى تمّ إخراجها؟

بدافع العادة، أبحث بعيني عن جهاز الآيفون... تركته في مكتبي. حسناً... على أي حال، منذ سبع سنوات، لا أقل. أتذكر أن ابنتي الكبرى التي ما زالت مرافقة، أخبرتني بحماس. تارغرين، لانيستر، ستارك...

شاهدته، شاهدت العصور الوسطى الخيالية، والأزياء المسرحية بصورة واضحة، وتعبيرات الوجه، والإيماءات للأمريكيين الحديثين، أسماء وهمية تتخللها أسماء عادية، مثل جون... ثم أكتشف أن المزيد من التنانين ستظهر، فتركته. وقلت لزوجتي:

- لذلك، انسحب لا حاجة للنوم. سأذهب إلى العمل.

- نعم يا عزيزي، أنا أيضاً...

نتبادل وزوجتي القبلات. أذهب إلى مكتبي، ولكنني أتذكر القهوة في الطريق. نعم ينبغي إعداد القهوة. وليس لكوني أشعر برغبة شديدة في القهوة، ولكن رائحتها تثير في الميل للعمل.

وبينما تغلي الغلاية، أخذت أدخن سيجارة في الشرفة. ولاحظت أن منفضة السجائر فارغة تقريبا، ولا أعرف ما إذا كان علي لهذا السبب، أن أبتهج أم أقلق.

كان الطقس رائعا كالسابق. لا بد أن أتتزه غداً. ربما أذهب إلى فعالية أدبية في أحد الأندية، ففي يكاترينبورج تُقام يومياً اثنتان أو ثلاث فعاليات أدبية. يلقون خلالها الأشعار، أو يقدمون الكتب وأعداداً جديدة من المجلات، والتقويمات... أو عرضاً في مسرح «كوليدادا»، الذي يبعد عنا حوالي 15 دقيقة...

أجلس وراء الطاولة، وأفتح الكمبيوتر المحمول. أتذكر كرة القدم... بوابة «سبورت بوكس». مشاهدة البث المباشر للمباريات فيها بالأجر، ولكن لدي اشتراك. وماذا يا ترى عن مباراة دينامو - روستوف؟

الدقيقة الحادية والستون، ولم تُسجل أهداف، سأتابعها.

لاعبو فريق دينامو باللون الأزرق، وروستوف باللون الأسود...

دينامو يضغط، يوجّه برولايف ضربة مباشرة. يقبض حارس مرمى روستوف على الكرة، ويوجّه لوتسينكو ضربة، بالقرب من عارضة الهدف.

بدأت المشاهدة في الوقت المناسب.

أنا أتعاطف مع روستوف. لكن دينامو لا يريد الهزيمة. لا بد أن يكون صديقي ديما دانيلوف جالسا في الملعب. سيستاء إذا خسر فريقه. بعد كل شيء، قريباً مرحلة اللقاءات للفرق المعلقة...

دينامو يتسلل إلى ركلة جزاء الخصم، وينفجر.

تمر الكرة على كاردوزو في صوت المعلق ترتعش الأعصاب، أوه، يا للروعة!.. ولم يسجل!

التقط حارس مرمى روستوف كرة تطير تحت العارضة.

ساد الهدوء، وانفجار جديد من دينامو. ينفذ حارس المرمى فريقه.

الدقائق العشر الأخيرة كئيبة تماماً. ترددت أغاني حزينة في مدرجات المشجعين. بالتأكيد من مشجعي دينامو.

ألاحظ عبارة المعلق: «ضرب الساق بدلاً من الكرة». وأعقبه آخر: «أوه، كيف قفز جوازين عالياً».

وماذا بعد؟ والآن قفز روبرتو كارلوس، أعلى من كولر.

كان يان كولر مهاجماً طويل القامة، أما كارلوس فهو وفق معايير كرة القدم، تقريباً قزم...، وبالمناسبة ما طوله؟ مائة وثمانية وستون سنتماً. بالنسبة للمدافع، هذا لا شيء... أما كولر فطوله متران و2 سنتماً.

في مكان ما يوجد مقطع فيديو يُصوّر كارلوس وهو ينتزع الكرة من رأسه.

نعم، إنه على هذه الشاكلة، يستحق أن أكتب على المتصفح «روبرتو كارلوس كولر».

مدهش...، وما هي الأهداف التي سجلها كارلوس؟ حتى خبراء علم القذائف يدرسون تحليق الكرة بعد ضرباته.

كان لاعب كرة قدم لا مثيل له، وما يبعث على الأسى أن مسيرته الرياضية انتهت بشكل مشينٍ ومخزٍ.

كلا، كان ظهوره في فريق محج قلعة «أنجي»، مثيراً: فلأول مرة ظهر في بطولة روسيا لاعب عظيم حقاً. هبّ أنه غير شاب، وليس في مرحلة الصعود، ولكن مع ذلك، وقبل فترة قصيرة من انتقاله إلى «أنجي»، سجل في البرازيل، وطنه الأم، هدفاً بضربة مباشرة من الزاوية.. وقبل ذلك، لعب في ريال مدريد على مدى عشر سنوات. ثم لعب في مكان آخر...

أسأل نفسي بصوت عالٍ في لهجة الفاحص:

- أين؟ تذكر، حرّك عقلك.

لدقيقة واحدة، تعذبني بشدة مسألة أين لعب روبرتو كارلوس بعد ريال مدريد؟ ثم أستاذ:

- لماذا؟ وأفتح مقالاً عنه في ويكيبيديا.

ومن هنا:

1996 - 2007 ريال مدريد 370 (47)

2007 - 2010 التركي «فنربخشة» 65 (6)

2010 - 2011 «نادي كورينثيانز البرازيلي 35 (1)».

ثم انضم إلى أنجي في جمهورية داغستان. ولعب قبل «ريال مدريد» في فريق «إنتر ميلان»... ألاحظ أن كارلوس لعب في ثلاثة أندية مع رونالدو.

ليس مع كريستيانو الحالي، ولكن مع الحقيقي، مع زوباستيكوم.

إنتر، ريال وكورينثيانز.

يجب أن أتأكد من المعلومة. أتأكد. كلا إنهما لم يلتقيا في فريق الإنتر. التحق رونالدو بالإنتر بعد عام من رحيل روبرتو. ولكن بعد ذلك لعباً معاً في فريق ريال مدريد لعدة سنوات. وكان ريال مدريد هو النجم. ولعب فيه فيجو، وزيدان، وكانافارو، وأوين، وبيكهام، وراؤول، وجوتي، وكاسياس... بشكل عام، تكرر نفس الشيء تقريباً في فريق أنجي الداغستاني. ولكن على نطاق أصغر.

لقد أصبح سليمان كريموف صاحباً للفريق، وأعطى الضوء الأخضر لشراء أي ضرب من لاعبي كرة القدم. ولم يمنعه السعر من شراء أي لاعب. وأصبح جوس هيدنيك المدرب الرئيسي للفريق... وظهر روبرتو في محج قلعة في إطار مثل هذه المجموعة.

وكما أتذكر لعب كارلوس في الدفاع بروعة، وورّع «الباصات» على اللاعبين الآخرين، والتي حققت الأهداف، وبفسه سجل الأهداف. حتى إنه أصبح علامة تجارية حقيقية لمنتجات داغستان، بما في ذلك طاقبات الرأس من الفرو، وكل شيء.

لم يتمكن أنجي من الفوز بالبطولة من أول محاولة، وقصّ كريموف التمويل، وقلّ أكثر فأكثر ظهور كارلوس في ساحة الملعب. وذات مرة رموا عليه من منصة الجمهور قشرة موز، وانتابته نوبة هستيرية، وفرّ إلى غرفة خلع الملابس، واتهم روسيا بالعنصرية، لكن تولّد انطباع، بأنه أراد أن يترك أنجي.

نعم، كان على ما يبدو يبحث عن أعذار. علاوة على ذلك، إنه لم يتميّز عموماً بسلوك مثالي، ووصف في إحدى البطولات العالمية، لاعبي باراجواي، بأنهم هنود حمر قذرون، وكانت هناك فضيحة. إلى ذلك من الصعب أن نسميه رجلاً أسود.

ولكنه ترك أنجي. في منتصف الموسم التالي.

وبالأحرى أصبح في البداية مدرباً لاعباً، ثم في فريق التدريب، ثم مدير نادٍ، ولكن كل هذا كان مجرد محاولات غير ناجحة للحفاظ على ماء الوجه...

وكان من الصواب لو أنه تحلّى بالصبر، وحتى لو أنه في بعض الأحيان يكون لاعب احتياط، ويقوم من حين إلى آخر بركلات الجزاء الرائعة التي يميّز بها، ثم سننظّم له مباراة وداع، لنقل في مباراة «أنجي» مع المنتخب الوطني لروسيا، أو ضد أحد فرق البرازيل الحائزة على البطولة، أو مع المنتخب العالمي. وليس ثمة شيء خيالي في هذا، لقد كانت مباريات وداع لاعبي كرة القدم العظماء شائعة سابقاً، وكانت إلزامية تقريباً، أما الآن فيقدم اللاعب ما لديه ويتقدم في السن، ويقولون له: ارحل من هنا.

كان يمكن لكريموف أن يبذل بعض الجهد في هذا الشأن. وتوديع كارلوس بطريقة إنسانية.

أم كان هناك شيء من هذا القبيل؟ على ما يبدو كان هناك شيء،...

أنا أكتب في «محرّك البحث» «مباراة وداع روبرتو كارلوس».

هناك تقارير:

«روبرتو كارلوس: سوف يلعب في مباراة وداع...»

«روبرتو كارلوس يستعد للعب مباراة وداع، «ريال مدريد» سيجري مباراة وداع مع روبرتو كارلوس...»

أفتتح هذا المقال. الذي نُشر في مارس 2007.

«شرعت إدارة ريال مدريد، بالاستعداد لتنظيم مباراة وداع للمدافع الأسطوري للنادي الملكي روبرتو كارلوس. وكما هو معروف أن البرازيلي سيغادر فريق «ريال» في الصيف المقبل، ووفقاً للبيانات الأولية، فإنه سيواصل مسيرته الرياضية في نادي فنربخشه التركي.

وكان اللاعب البالغ من العمر 33 عاماً، قد قال في أوائل مارس لصحيفة «ماركا» الإسبانية: لا أنوي تجديد العقد مع الفريق». موضحاً «أعتقد أن الوقت قد حان، لوضع حدٍّ لمسيرتي المهنية في ريال مدريد، وبدء فصل جديد في حياتي». ولا يكمن سبب هذه التصريحات فقط في عمر الرياضي، الذي أصبح وفق معايير كرة القدم «متقدماً»، بل، وكذلك في وضع النادي في الدوريات خلال السنوات الأخيرة، سواء في مباريات بطولة إسبانيا، أو في دوري أبطال أوروبا، حيث إنّ ريال مدريد لم يحقق نتائج مهمة.

بيد أنه وعلى الرغم من تصريحات البرازيلي هذه، فإن رئاسة الفريق، وخاصة الرئيس رامون كالديرون عبّروا عن احترامهم العميق للاعب، على الـ 11 عاماً التي أمضاها في «ريال»، وبالنظر إلى الإنجازات الماضية، قرر النادي تنظيم مباراة وداع بمشاركة كارلوس. والمشكلة الوحيدة في الوقت الحالي هي جدول النادي الكثيف، الذي من الصعب للغاية العثور على «فراغ فيه» لإجراء مثل هذه المباراة. وتؤكد إدارة الفريق أن مباراة الوداع ستتمُّ.

ولكن هل جرت مثل هذه المباراة أم لا؟

بدأت أبحث عن إجابة لفترة طويلة وشاقة. أشعر بالثقل، كما لو كنت أعمل على حلّ معادلة معقّدة... كانت علاقتي بالرياضيات دائماً متوترة، وهنا أكوام من الرسائل، مثل X، ولاعبين، وما هناك من أشياء أخرى...

تشير الأنباء إلى كل شيء بصيغة المستقبل، «سيجري»، و«تجري الاستعدادات»، وكذلك هو الحال بشأن مباراة الوداع في «أنجي». حتى جرى التخطيط لأن يلعب ريال مدريد مع أنجي في داغستان...

يمكن أن يفقد المرء صوابه مع كرة القدم هذه، فيما ينتظرني الطالب الذي يجمع الثمر لبيعه، وكسب المال للدراسة.

أنا لا أغلق الكمبيوتر المحمول، فقد أكون بحاجة له لتأكيد أو توضيح مادة، أكتفي بدفعه جانباً. أفتح الدفتر. الأوراق تطلق.

هذا ماكتبته اليوم: «لقد عادوا إلى السيارة، وشربوا بعض الماء، وجّهزوا المغارف، وتفرّقوا في الحقول».

وبعد ذلك... وبعد ذلك: «لقد بدؤوا». هذه فقرة منفصلة. كلمة قوية وكثيفة...

ولكنها بحدّ ذاتها ليست قوية، بشكل عام على هذا النحو: يجب أن تكون الكلمات المنفصلة، على غرار عبارة جاجارين عندما حلّق في الفضاء الكوني: «انطلقنا!».

أنا أكتب بعد ذلك:

«كان هناك الكثير من الثمار، وبدا في كل مرة لإيليا الذي شارك في جمع الفراولة منذ طفولته، أنّ الأمر سيستغرق عشر دقائق لجمع سلة. لكن التوت صغير، بحجم حبة البازلاء، أو حتى أصغر، ولا يزال من المستحيل إخفاء الجزء السفلي من السلة، وبدأت السلال في الضغط على ظهره، وتصلبت أصابع الإبهام والسبابة من الحركات الرتيبة. وظهر ذباب الخيل والتّعرّة، وحلّق

فوق رأسه، وجلست على ظهره ذبابة الخيل، كما لو أنه مُهدّد، والنُّعْرَةُ، كما لو أنها معتذرة. وراح يدفع بها بعيداً باليد اليسرى، وباليمينى يقطف، يقطف، يقطف من الشجيرات، وينتزعها بحدّة مع ورقة كؤوس الزهر الحمراء.

تدحرج كؤوس الزهر الحمراء إلى عمق راحة اليد، وعندما تتجمّع أربع أو خمس منها، يضعها في السلة، ثم يقطف مرة أخرى. وفي بعض الأحيان يصادف ثماراً كبيرة الحجم، تكون أكبر بمقدار مرة ونصف من العادية، ليست دائرية، ولكنها مستطيلة. ويفرح بها كهديّة باهظة الثمن، ويتحرّك ببطء، زاحفاً على يديه وركبتيه، ويبحث في الشجيرات، متوقفاً أن يجد لاحقاً مثل هذا الثمر المستطيل، بين شجيرة وأخرى...

كلا، ليس «زاحفاً على ركبتيه ويديه»، وإنما «يجلس القرفصاء». أضحّ الفقرة.

«ينهض، وينفض ملابسه، ويقوم بعدّة قفزات، لتسريع حركة الدم في ساقيه اللتين أصابهما الخدر، ويقبض على ذباب الخيل، ويقوم بتصفيته، ويجلس مرة أخرى، ويقطف بيده اليمنى، ويضع الثمار في السلة بيده اليسرى، ويلوّح بيده اليسرى فوق رأسه، ويربت على ظهره، ورقبته، ومؤخرته».

في منطقتنا يكون ذباب الخيل والنُّعْرَةُ من الحشرات المختلفة، فلدينا ذبابة الخيل؛ ذبابة كبيرة الحجم. ذات لون رمادي، وتخلّق من دون ضوضاء تقريباً، لذلك تلدغ الشخص بشكل غير متوقع. أما النُّعْرَةُ فحجمها ضئيل، ملوّنة، وذات أجنحة حادّة، تطنُّ بكدر وشكوى، وتخلّق على ارتفاع منخفض، لذا يمكن أن يصيدها المرء بقبضته وهي محلّقة....

أنظرُ إلى صورها في الإنترنت.

فعلاً، أنا على حق. إنّ حشرة ذباب الخيل رمادية اللون، وتشبه الطائرة قاذفة القنابل. والنُّعْرَةُ تشبه طائرة مقاتلة قاصفة.

يا لذبابة الخيل من كلبة! تضع اليرقات تحت الجلد، أما النُّعْرَةُ فتلدغ، وتشرب الدم. اعتقدتُ العكس. لذلك، فإن ذباب الخيل أكثر خطورة...

بالمناسبة، كنت أرغب في مشاهدة الفيلم الذي يصوّر حادثة فينالي كالويف.

أبتسم بسخرية:

- بأي معنى بالمناسبة؟

ربما، لأنني مرة أخرى في شبكة الإنترنت...، فلا بدّ من مشاهدته. لقد نصحتني الأصدقاء بمشاهدته، حتى استغربوا من أنني لم أشاهده! هذا أمر غير حسن.

وضعت الدفتر جانبا، وسحبت الكمبيوتر بالقرب مني، وكتبت «كالويف». ظهر في الويكبيديا:

«السيرة الذاتية»، «العائلة»، «تحطّم طائرة فوق بحيرة كونستانس»، «اغتيال بيتر نيلسن»، «المحكمة والسجن».

«أدانت المحكمة العليا في إقليم زيوربخ في 26 أكتوبر 2005 فيتالي كالويف، وحُكم عليه بالسجن ثماني سنوات. وأطلق سراحه بموجب قرار صادر عن المحكمة، في 8 نوفمبر 2007، بسبب سلوكه المثالي بعد انقضاء جزء من الحكم. وصل كالويف إلى جمهورية أوسيتيا الشمالية في 13 نوفمبر 2007، حيث تمّ استقباله بحرارة في المطار».

هذا موقف إنساني. اتضح أنه أمضى في السجن، أقلّ من أربع سنوات منذ اعتقاله. من دون ريب لو كان عندنا في روسيا، لسجنوه لمدة عشر سنوات، وجعلوه يُمضي فعليا في السجن سبع سنوات. على الرغم من... نعم، بالتأكيد.

بعد الإفراج عنه.

وفقاً لعدد من تقارير وسائل الإعلام الروسية، في 9 أغسطس 2008، في اليوم الثاني للحرب في أوسيتيا الجنوبية، تمّ رصد فيتالي كالويف بين الميليشيات في بلدة جافا. وفي وقت لاحق، أكّد شقيقه أن فيتالي كان بالفعل في ذلك الوقت في أوسيتيا الجنوبية، لكن وجوده كان مرتبطاً ببناء محطة «زاراماجسكايا» الكهربائية، وأنه عاد إلى المنزل في تلك الليلة.

وتمّ تعيين فيتالي كالويف في أوسيتيا الشمالية، نائبا لوزير الهندسة المعمارية وسياسة البناء في الجمهورية. وأحيل في يوم عيد ميلاده الستين على التقاعد، قبل أيام قليلة من حصوله على ميدالية «مجد أوسيتيا».

في الثقافة الشعبية.

وجرى إنتاج عدّة أفلام سينمائية استندت على الكارثة: «الطائرة في الليل. الكارثة على أوبرلينجن» (سويسرا / ألمانيا، 2009، بطولة كين دوشين وإوجين سيتوخين)، و«العواقب» (الولايات المتحدة الأمريكية، 2017، ارتكزت على صورة شخصية كالويف، قام بدوره أنولد سفارزنجير) و«غير مدعو» (روسيا، 2018، أدّى فيه دور فيتالي كالويف الممثل ديمتري ناجيف).

عجيب سفارزنيجر! لم أكن أعرف بهذا. فاتتني أن أشاهد هذا الفيلم بطريقة ما. مع أنني أتابع نشاطه. في الفترة التي شاهدت فيها في صالونات الفيديو أفلام سفارزنيجر «المبيد»، و«كوماندو» و«كونان البربري»، لاح لي أنه ممثلٌ رائعٌ، ويقوم بالتصوير في هذه العكارة المذهلة. يبدو أنني كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما أدركت أن هذه الأفلام تافهة، ومع ذلك ليس بوسعي أن أكفّ عن مشاهدتها...

لاح لي في نقطة معينة، كما لو أن انعطافاً حدث في اتجاه سفارزنيجر، وبات يلعب أدواراً جديدة خاصة في فيلمي: «التوأم»، و«شرطي الحضانة»، حيث أصبح في هذا الفيلم حاملاً بطفل. وعلى الرغم من أنه فيلم بلا مضمون، ولكنه على الأقل من دون إطلاق النار، واجتراح المآثر الخارقة.

ومن ثم عادت أفلام القتال مرة أخرى، والتي أصبحت ذروتها سلسلة «المرتزقة». هناك، السوبرمان من كبار السن، مثل لوندغرين، ويلييس، ورورك، إنّ سفارزنيجر يحاكي نفسه في هذه السلسلة كما كان عليه قبل ثلاثين عاماً...

ولكن ربما، وفّر الفيلم عن فيتالي كالوييف الفرصة لسفارزنيجر لكي يؤدي أخيراً دوراً حقيقياً؟ فَمِنْ غير المرجّح أن يركض هناك بمدفع رشاش، ويدمر أحياء بأكملها.

ولكن، لو أن الفيلم كان قوياً، لتحدثوا عنه في كل مكان، بهذا... ولكن، ومن ناحية أخرى، ربما لم يظهر كالوييف في الفيلم كشخصية حسنة وإيجابية، ولذلك تجاهلوه عندنا.

أنا أتعذب مرة أخرى، بسبب ما يجب عليّ أن أشاهده أولاً: «غير المغفور» بتمثيل ناجييف، أم «العواقب» الأمريكي، حيث يمثل سفارزنيجر.

اخترت فيلمنا. أولاً، لأنني سمعت عنه قبل الأمريكي، ومن المرجّح أنني سأرغب بمشاهدة فيلمنا بعناية، وبالكامل بعد مشاهدة الفيلم الأمريكي، فالمستوى مئة في المئة غير قابل للمقارنة.

أجد «غير المغفور». سأدخل أثناء التحميل.

الشمس على حافة السماء. لم يحلّ الغروب بعد، ولكن من الواضح أن اليوم قد انتهى. إنه مساءً ربيعيّ طويل.

اليوم هو العاشر من مايو. وأمامنا خمسة أشهر دافئة. بالطبع، وعلى ما أعتقد، سنذهب إلى البحر، إلى شبه جزيرة القرم. لقد زرتها قبل ثلاث سنوات في إطار وفد رسمي، لذلك من غير المحتمل أن يُسمح لي بدخول أوكرانيا. وهم لا يدعونني لسبب ما. زرت معارض الكتاب في كازاخستان، وبيلاروس، وفي البلطيق، وفي مولدوفا، وحتى في تركمنستان، ولم يدعوني حتى مرة واحدة إلى أوكرانيا. ليذهبوا إلى الجحيم.

أعجبتني بداية فيلم «غير مغفور». حقاً أن ديمتري ناجييف يؤدي فوراً دور بطل إيجابي؛ دور شخص نزيه في العمل، يثير نزاعاً بسبب وجود عيب في المشروع: «أنا أبني جيداً، أو لا أبني

على الإطلاق». وناجيب يشبه تماماً رجلاً أوسيتينيا؛ عيناه تتألقان، ويبرز ذقنه، ولكن في كل حركة، وفي كل كلمة، يشبه تمثيله في مسلسل «فيزروك» الكوميدى.

نعم، ممثلونا لا يعرفون كيف يجسدون شخصياتهم، أو لا يجبرونهم على ذلك. على سبيل المثال يفستيجنييف، ويفغيني ليونوف، ليس هناك أي مكياج خاص، ولكنهما في جميع الأدوار مختلفان.

التصوير قوي، في المقطع الذي يُصوّر ناجيب كالويف وهو ينتظر زوجته وأطفاله في المطار، وينظر إلى لوحة حركة الطيران، وفجأة تختفي الرحلة مصحوبة بحفيف مريع. لوحة حركة الطيران ليست إلكترونية، ولكن... حيث تتم كتابة الأحرف والأرقام من المربعات... أشعر بالكسل من تصفح الإنترنت مرة أخرى، لمعرفة ما يسمى هذا بشكل صحيح.

والمشهد الذي يتم فيه إبلاغ المنتظرين بالكارثة، جيد أيضاً.

ثم مقطع يصعب تصديقه: البطل يقفز بعد فترة وجيزة، ويشتري تذكرة سفر، ويُقلع إلى موقع تحطم الطائرة. ويصل عندما ما يزال الدخان يتصاعد من حطام الطائرة، والجثث ملقاة على الأرض. وسمحو له بالبحث عن الموتى. يجد قلادة ابنته، وبعد ذلك يعثر عليها...

أضع الفيلم في حالة توقّف مؤقت، وألقي نظرة على مقالة عن كالويف الحقيقي.

«في الثاني من يوليو عام 2002، عندما علم بما حدث، أقلع كالويف على الفور من برشلونة إلى زيوريخ، ومن هناك إلى ألمانيا في أوبرلينجن، حيث وقعت الكارثة. لم ترغب الشرطة في البداية، بالسماح لفيتالي بالذهاب إلى مكان الكارثة، ولكن بعدما أوضح أن زوجته وأطفاله كانوا هناك سمحوا له. ووفقاً لفيتالي، جرى العثور على ابنته ديانا على بعد ثلاثة كيلومترات من موقع تحطم الطائرة. ووفقاً لقناة ناشيونال جيوغرافيك الوثائقية، شارك كالويف نفسه في البحث، ووجد أولاً قلادة ديانا ممزقة، ثم جسدها».

حسناً، أثق. حسناً...

ثم حزن البطل، وترك العمل، وأطلق لحيته وهو يعيش في منزل كبير. لديه أخت، لعبت دورها روزا خيرولينا. تمثل كذلك مثل ما مثلت في الأدوار الأخرى؛ في «القوم الرحل»، و«أولجا»، و«كيف أصبحت»، و«حموضة»، و«حراسة المرمى».

يتوقع البطل اعتذاراً من الشركة التي تتحكّم في حركة الطيران، وشخصياً من المراقب الجوي، الذي بسبب خطئه اصطدمت الطائرتان. غير أن الشركة تعدّه بالتعويض، تصرف رئيس الشركة بمنتهى الوقاحة حيث قال له: «نريد مساعدتك في قلب هذه الصفحة»...

وفي المحصلة، يعرف ناجييف كالوييف أين يعيش المراقب الجوي، ويسافر إليه في سويسرا. إنه يريد التحدث معه، لكن المراقب يهدد بالاتصال بالشرطة، ويختطف من أيدي البطل صورة زوجته وأطفاله. ويطعنه البطل بسكين.

يتم القبض عليه. الزنزانية، المحكمة، والحكم. رئيس الشركة، وفي النهاية، يعترف بمسؤوليته، ويعتذر لأسر الضحايا بلغة روسية مكسرة.

بعد عامين من المحكمة يتم الإفراج عن البطل، ويعود إلى وطنه. إنه ليس منتصراً، ويعترف للصحفيين: «أنا تخاصمت مع الرب». وفي الختام، يجلس في منزل فارغ، وتدق عقارب الساعة... وعقب ستة أشهر يلتقط قطعاً صغيراً بلا مأوى. ولكن النهاية على هذه الشاكلة فظافة، يا ناس...

كنت أود أن يكون الفيلم نفسانياً، وأكثر تعقيداً. وألا يكون رئيس الشركة وقحاً إلى هذه الدرجة، والمراقب يعاني من عذاب الضمير. واضح وجود تقنيات فنية.

لذلك، أعلن فترة استراحة، ومن ثم أشاهد فيلم سفارزنيجر.

لاح في الأفق شريط قرمزي بدلاً من الشمس... ماذا يعني ذلك؟ يبدو أن غروب الشمس ينذر في أن الطقس سيكون غداً دافئاً، والجو حاراً. وعادة في الشتاء ينذر مثل هذا الشريط بموسم البرد، الصقيع. يجب العودة إلى جوجل...

يمكن رؤية الجدار المغلف بلوحة خشبية لمبنى «مركز يلتسين» من الشرفة. ويبدو الآن مبنى أزرق، جميل: غروب قرمزي، واللوحة زرقاء. وفي الواقع، يبعد «مركز يلتسين» من هنا مشياً على الأقدام أكثر من ساعة واحدة، لكن الارتفاع يخفي المسافة.

يتحدثون، ويكتبون أشياء سيئة كثيرة عن المركز. لا عن الفعاليات التي تجري فيه، بل عن وجوده بالذات. ويلومون السلطات المحلية على افتتاحه، كما لو أنها التي أقامت «مركز يلتسين» هذا.

يذكر عدد قليل من الناس أنه ظهر بفضل مرسوم الرئيس آنذاك دميتري ميدفيديف. وحضر الافتتاح كل من دميتري ميدفيديف وفلاديمير بوتين، وتتم إدارته من موسكو. لكن الانتقادات تنهال على مواطني يكاترينبورج، ويقول منتقدو سكان المدينة ما معناه: «أنكم تمجدون يلتسين». ولكن في الحقيقة لا أحد يمجده هنا. ولكن يبدو أن من المستحيل تخيل يكاترينبورج من دون المركز، حيث تجري فيه فعاليات كثيرة. أنا شخصياً أعتبر بورييس يلتسين مجرماً، لكنني أذهب إلى مركز يلتسين. ما العمل؟!!

أعد الشاي، وأقطع قطعة من السجق، وقطعة من الجبن، وقطع الرغيف الفرنسي. مع صحن وكوب، وأعود إلى المكتب. أفتح فيلم «العواقب».

البداية تشبه تماماً بداية فيلمنا. بالأحرى، فيلمنا معهم، حيث تمّ عرض فيلمهم قبل عام. فمن الواضح، أنه استناداً على أحداث حقيقية، ولكن لا يجوز الاستنساخ بهذه الطريقة، الجدول الزمني، انعطافات المضمون... فقط اسم البطل لدى الأمريكيان رومان ميلنيك (روسي، من مدينة سامارا، لكنه يعمل في الولايات المتحدة الأمريكية)، وهو يشغل منصباً أصغر، تلقى زوجته وابنته الحامل حتفهما، وليست زوجته وطفلان صغيران، كما في الحقيقة، والطيران ليس إلى برشلونة وإنما إلى مدينة أمريكية. الباقي يتطابق تماماً.

ولكن هناك اختلاف في تأويل صورة المرسل. القراءة الأمريكية ترى، أنه في الواقع ليس المسؤول إلى هذا الحدّ، فثمة سلسلة من الحوادث أفضت إلى المأساة. لكن المُرَاقب الجوي في الفيلم الأمريكي صادق في معاناته يبكي، ويبدأ لديه انهيارٌ عصبي، ويتعرّض إلى انسداد المسالك البولية، كما هي العادة في الولايات المتحدة. ويُغيّر اسمه، وينتقل إلى ولاية أخرى، ويلتحق في عمل آخر، ولديه حياة أخرى، بيد أن هذا لا يُخلّصه من عذاب الضمير، ويعيش في خوف مُستدام، ويضطر للإقامة بمفرده بعيداً عن زوجته وابنه. بمعنى أن البطل شفارزنيجر، قام بعمل خير، حينما غرز السكين فيه.

حكم على شفارزنيجر ميلر بالسجن لمدة عشر سنوات، وقد أمضاها...

وفي النهاية، يأتي إلى قبر زوجته وابنته. وكان في انتظاره هناك ابن المُرَاقب الجوي وهو يحمل مسدساً في يديه. يعرب شفارزنيجر لميلر عن الأسف عما فعله. وردّ ابن المرسل قائلاً: «لن أقتلك. فأنا تربيت بشكل مختلف. اغرب عن وجهي». «يردّ شفارزنيجر ميلر «اعذرني»، وينصرف.

اتضح الآن، أنه وحيدٌ مُسنّ، وسيعاني في بقية حياته أكثر بكثير من ذي قبل: ابن المُرَاقب الجوي القتل أشفق عليه. رحمة بكرامة وسخاء.

يُظهر فيلمنا أن قانون «الدم مقابل الدم»، يكون عادلاً في بعض الأحيان، (وهذا ما أظهرته بشكل غير مباشر السلطات السويسرية، التي أفرجت عن كالويف بسرعة)، والأمريكيون يعملون على إقناع المشاهد، بالألّا تنتقم، بأي حال من الأحوال، سيكون الأمر أسوأ بالنسبة لك.

وبشكل عام، ثمة شيء من هذا القبيل...، وقد مثّل شفارزنيجر دوره بشكل جيد. غير سيء... غير سيء، ولكن غير ممتاز. على أقلّ تقدير. إن هذا الدور لم يكن طفرة بالنسبة له...

إذن سأتوقّف عن السرد، وسأنقُض على القصة. أكتب ثلاث صفحات، ومن ثمّ أشاهد - مسلسل «لعبة العروش»، وأخلد للنوم. الوقت الآن تقريباً الساعة العاشرة، اللعنة.

والفيلم الثالث؟ ألماني... «الطيران ليلاً. كارثة فوق اوبيرلينغ». جرى تصويره قبل هذه الأفلام بعشر سنوات... من دون ريب، لن أشاهد الفيلم بأكمله، ولكن سألقي نظرة عليه، أي بطل لديهم هناك؟ لأرى كيف يبدو مظهره وحسب؟

هناك روابط كثيرة في الإنترنت تحيل إلى الفيلم، بيد أن الفيلم نفسه غير موجود، وبدلاً منه هناك موجة الإعلانات. كلاب، محتالون..

أنسخ الاسم باللغة الألمانية، وأصقه في محرك بحث يوتيوب. وهناك، أيضاً، لم يتم الكشف عن الفيلم بأكمله، ولكن هناك عدّة مقاطع، تصوّر تصادم الطائرتين... ومشهد حين يأتي البطل إلى المراقب الجوي. إذن، من هنا اقتبس منتجو فيلمنا مظهر بطل الفيلم. فهو أيضاً رجلٌ غير طويل، ذو لحية عريضة، ورأس حليق، وفي معطف واق من المطر. محادثة، وصورة فوتوغرافية، ومونتاج واضح للطعنات..

من المفهوم أن الأفلام قامت على أساس وثائقي، لكن... حسناً، لو كتبت شيئاً ما بنفس الكلمات تقريباً، وب نفس الأسلوب الذي اتبعه سلفي. وعندما بيدؤون في إدانتني بالانتحال، سأقول: إنّي كتبت ما كتبت اعتماداً على الأحداث الحقيقية، مثل سلفي. على الأرجح سيفونوني بالمنتحل. وهنا أصمت. أم أثير ضجة؟

كلا، كلا! لن أقوم بجولة جديدة عبر المتاهة... أغلق «الفيديو»، في الختام أشاهد الأخبار في محرك «بياندكس». لأرى ما الجديد؟ وأعكف على كتابة القصة.

لا يجوز من دون أخبار. طوال اليوم على شبكة الإنترنت، كما لو كنت في مقصورة محكمة الإغلاق، تكاد لا تنفذ لها الأصوات من الخارج. تترامى بعض القطع...

«أرسلت الباحثة السياسية ناتاليا إيسايفا طلباً إلى لجنة التحقيق، بشأن مقال الكاتبة إيلينا تشيزوفا، الذي نُشر في الصحافة السويسرية».

إذاً هذا مقال، وليس مقابلة، كما كتبوا في الصباح...

«تعتقد تشيزوفا أن ستالين سهّل تنفيذ خطة هتلر، لإهلاك لينينجراد في الحصار. وفقاً لرأي الكاتبة، فإن ستالين كان يشعر بالكره للينينجراد». وتكتب تشيزوفا أيضاً: «لا يوجد أي تفسير آخر، لحقيقة أنه خلال الحصار، ذهبت قطارات كاملة من الأسلحة من مصانع لينينجراد إلى المناطق الأخرى، في حين أن ستالين وشركاؤه لم يزودوا المدينة بأقل قدر ممكن من الاحتياطات».

تعتقد الباحثة أنه ينبغي مقاضاة الكاتبة، لنشر المعلومات التي تعبّر عن عدم احترام واضح للمجتمع حول أيام المجد العسكري لروسيا. وكتبت الباحثة السياسية على صفحتها على الشبكة الاجتماعية: «أصدقائي! أثار ندائي إلى لجنة التحقيق موجة من العواطف، نصف زوّار صفحتي دعمني، شكراً لكم. والنصف الآخر لعنني، يبقى على ضميرهم. سأبقى أسير على خطي، كما سرت عليه سابقاً، لذلك هكذا نتنصر.

نضيف أن زعيم الشيوعيين في مجلس الدوما جينادي زبوجانوف كان قد صرّح، بأنه يعتبر تصريحات تشيزوفا استفزازاً ومثيراً للاشمئزاز وتجديفاً. كما تحدث الكاتب نيكولاي ستاريكوف، ووصف نصّ تشيزوفا بأنه دعاية للأفكار الكاذبة.

إن مقالة «إعادة تأهيل النازية» تقضي بمعاينة كاتبها بالغرامة أو بالعمل القسري أو السجن لمدة خمس سنوات».

ما علاقة إعادة تأهيل النازية بهذا؟. إنني حتى لن أتأمل في ذلك. ولن أكتب شيئاً ما في الفيسبوك تحت تأثير الانفعالات. ستنهال على رأسي مختلف ضروب التوبيخ. وبشكل عام، لا يستطيع الكثيرون ضبط أنفسهم، ويبلغون العالم عن كل شيء تافه، ويقدمون للعالم الهديان. أشعر بالخزي من أجل البعض.

«قد تضيع لوحات الفنان إيفان إيفازوفسكي¹²، التي من المحتمل أن تكون على متن السفينة «الجنرال كوتزيو»، التي غرقت قبالة ساحل شبه جزيرة القرم. وفقاً لرئيس البعثة، رومان دوناييف، إنّ إنقاذ اللوحات الفنية، يتطلب القيام بأعمال معقّدة، قد تُعرّض سلامة اللوحات للخطر».

أوه، هذا شيء مثير. منذ الطفولة، وأنا أحب أخبار السفن التي غرقت، والكنوز.

«إن عملية انتشال الأعمال الفنية من باخرة الجنرال كوتزيو»، التي غرقت قبل أكثر من 100 عام، قبالة ساحل القرم، بما في ذلك اللوحات التي رسمها الفنان إيفان إيفازوفسكي، قد توقّفت.

«من المحتمل جداً أننا سنخسرها عندما نرفعها، على الرغم من أن هناك دائماً فرصة لإنقاذها، كما نقلت وكالة أنباء تاس عن رئيس بعثة «نبتون» رومان دونيف.

وفقاً للوكالة، من المفترض أن مقاطع أكثر من 10 لوحات، بما في ذلك فرش إيفازوفسكي، على متن السفينة التي غرقت في عام 1885. علاوة على ذلك، وفقاً لدونيف، لم يتمّ تأكيد من هو صاحب اللوحات بعد».

ولكن لماذا يعتقدون أن هذه هي لوحات إيفازوفسكي؟ هل يرغبون من جديد في إثارة الجمهور؟

تقع «الباخرة الغارقة «الجنرال كوتزيو» على عمق 40 متراً، وعلى بعد 12 ميلاً من رأس «تارخانكوم» الواقعة في غرب شبه جزيرة القرم. واكتشفها

في عام 2015 علماء الآثار في مركز البحر الأسود للبحوث تحت الماء. ويُعتقد أن السفينة صُنعت في إنجلترا عام 1866، لحساب الشركة الروسية للملاحة والتجارة. وأطلق عليها اسم حاكم إقليم «نوفوروسيا»، الجنرال بافل كوتزيبو.

ووفقاً لتقارير وسائل الإعلام، أصبحت «الجنرال كوتزيبو» أول سفينة تمرّ عبر قناة السويس في نوفمبر 1869. ومن بين الذين كانوا على متنها الفنان التشكيلي إيفازوفسكي. وكان قد تمّ تكليف الفنان، برسم حفل افتتاح القناة نفسها. واصطدمت السفينة في 16 أبريل 1895 عند راس «تارخانكوم» بسفينة «بينديراكليا» التابعة لأسطول البحر الأسود للنقل. وغرقت نتيجة لذلك».

كتبوا أعلاه أن السفينة غرقت في عام 1885، وهنا يكتبون في عام 1895. لقد أفقدي صوابي هؤلاء الكتّاب الصحفيون. إنهم لا يتحققون من الأمر، ولا يقرؤون بامعان. وينبغي فرض الغرامات على مثل هؤلاء.

أفتح ويكيبيديا، وأكتب: «باخرة» الجنرال كوتزيبو».

إذن أبحر إيفازوفسكي على متن هذه الباخرة في 16 أبريل 1895 لحضور مراسم افتتاح قناة السويس، وتوجد لوحته «قناة السويس» التي تمّ إنقاذها...، ومن الصعب تخيل أن إيفازوفسكي أهدى الباخرة العديد من لوحاته، وعلى الرغم من أنه كان غزير الإنتاج، وقرأت في مكان ما، بأن لوحاته لا تُباع في المزادات العلنية، بأسعار باهظة الثمن.

وكم عدد اللوحات التي رسمها في حياته؟

أجد الإجابة بسرعة: حوالي ستة آلاف.

وكم كان عمره عند وفاته؟ ثمانين سنة. وُلد في عام 1817، وتوفّي في القرن العشرين.

وما هو معدل إنتاج أعماله؟ أشعل مصباح الطاولة، وأجد الآلة الحاسبة في الدرج... اثنان وثمانون على ثلاثمائة وخمسة وستين «29 930» يوماً، إذن إنتاجه ليس كثيراً... وكم عشت أنا؟ سبع وأربعون مرة، أضربها في ثلاثمائة وخمسة وستين. سبعة عشر ألفاً ومائة وخمسة وخمسون.

بدأت الكتابة بجدية في سنّ الخامسة عشرة. سبعة وأربعون ناقص خمسة عشر. الحاصل يكون اثنان وثلاثين سنة. أضربها في ثلاثمائة وخمسة وستين. أحد عشر ألفاً وستمائة وثمانون.

أحد عشر ألفاً وستمائة وثمانون صباحاً. استيقظت مع فكرة: «يجب أن أكتب»! حتى وأنا في حالة سينة. أتقلب على السرير، وأفكر: «من الضروري أن تكتب». كنت أذهب إلى المدرسة،

وأفكر: «من الضروري أن تكتب!» وحينما خدمت في الجيش قفزت بأمر: «سرية نهوض»، وفكرت «من الضروري أن تكتب، ينبغي إيجاد زاوية في الثكنة للكتابة». لقد مارست الجنس، وتناولت الإفطار، وقدمت ابنتي إلى رياض الأطفال والمدارس، وتزوجت، وذهبت إلى محكمة الطلاق، وتزوجت مرة أخرى، وذهبت إلى العمل، وأقلعت بالطائرات، وركبت القطارات، وفكرت: «يجب الكتابة! يمكن أن أكتب، يجب إنهاء هذا تماماً، والجلوس والكتابة، والآن كذلك. أتجول في متاهة الإنترنت التي لا معنى لها، وأقتنع نفسي: «يجب!...»

ولد إيفازوفسكي وتوفي في فيودوسيا¹³. يبدو أنه عاش هناك بدون أن يسافر إلى مكان آخر. هذا صحيح. لم يتجول في العالم...

لقد زرت فيودوسيا حوالي خمس مرات. مكان جميل، وكتبت هناك...

قال تشيخوف: إن إيفازوفسكي يعبد بوشكين، لكنه لم يقرأه. وبشكل عام لم يقرأ أحداً. ربما هذا صحيح!

لكنهما كانا متعارفين. أعني تشيخوف وإيفازوفسكي. وكان إيفازوفسكي أيضاً على معرفة ببوشكين. إذا لم تخني الذاكرة.

أين التقيا؟ في فيودوسيا؟ كان بوشكين هناك. رأيت لوحة تذكارية على واجهة أحد المنازل: «هنا أمضى بوشكين ليلة»، ومتى قام بوشكين بزيارة القرم؟ في 1820؟ ولكن كان عمر إيفازوفسكي حينذاك أربع سنوات. ربما جلس في حضن بوشكين! كان والداه من الأغنياء، من نخبة المدينة...

أكتب في المحرّك: «بوشكين وإيفازوفسكي». عثرت على مقال: «إيفازوفسكي، بوشكين، ريبيين».

إنها مبنية على صيغة سؤال - جواب. وهناك الكثير من الرسوم التوضيحية... وقرأت:

«هل تعرّف إيفازوفسكي على بوشكين؟»

نعم. وهذا التعارف يشبه إلى حدّ كبير، كيف بارك الشاعر جافريل ديرجافين، وهو على حافة الموت الشاب بوشكين، خلال حضوره الامتحان في مدرسة الليسيه في عام 1815.

قام بوشكين في سبتمبر 1836 بزيارة خاطفة لمعرض أكاديمية الفنون الجميلة...، حيث قدموا له إيفازوفسكي البالغ حينها من العمر 19 عاماً؛ كأحد الموهوبين من طلبة الأكاديمية. وفي فبراير 1837، لقي بوشكين مصرعه في مبارزة.

انطبع هذا اللقاء في ذاكرة إيفازوفسكي. وذكره في رسالة بالتفصيل بعد 60 عاماً، في عام 1896:

- في الوقت الحاضر، يتحدثون كثيراً عن بوشكين، وبقي قلّة من أولئك الأشخاص، الذين عرفوا شخصياً شمس الشعر الروسي، الشاعر العظيم، ما دفعني لكتابة بضع كلمات عن ذكرياتي عنه هي:

جاء ألكسندر سيرجيفيتش بوشكين إلى الأكاديمية مع زوجته ناتاليا نيكولايفنا، لمشاهدة معرضنا السنوي في سبتمبر. كان ذلك في عام 1836، قبل مصرعه بثلاثة أشهر، بالضبط في سبتمبر، وحالما عرفنا أن بوشكين كان في معرض الجاليري الأثري، هررنا نحن طلاب الأكاديمية والفنانين الشباب إلى هناك، وأحطنا به. كان واقفاً، وهو يتأبط ذراع زوجته أمام لوحة رسمها لبيديف، رسّام المنظر الطبيعي الموهوب، وأعجب بوشكين بها.

وكان المسؤول عن فصلنا في الأكاديمية كروثوف، الذي رافقه، يبحث عن لبيديف من بين الجميع لتقديمه لبوشكين، ولكن لبيديف لم يكن هناك، وعندما رأيته، أخذ يدي، وقدمني إلى بوشكين، كحاصل علي ميدالية ذهبية (تخرجت من الأكاديمية). التقاني بوشكين بلطف شديد، وسأل أين لوحاتي. أريتها لبوشكين. كما أتذكر، كان هناك اثنتان منها: «السحب من ساحل بحر أورانييناوم»، والأخرى، «مجموعة من التشوخونيين على ساحل خليج فنلندا». وحينما عرف أنني منحدر من القرم، سألتني الشاعر العظيم، من أية مدينة؟ وإذ كنت هنا هذه الفترة الطويلة هل أشعر بالحنين، إلى الوطن؟ وهل أمرض في بطرسبورج الشمالية؟ لقد نظرت له بإمعان، أتذكر، بماذا كانت نتاليا نيكولايفنا الجميلة.»

كان أنطون تشيخوف لاذعاً في سخريته. قرأ إيفازوفسكي بوشكين. أجل، على الأرجح قرأ الكثير. ربما سخر من تشيخوف على وجه التحديد بقوله: لماذا عليّ أن أقرأكم أيّها الأقرام المعاصرون؟

«والسبب في هذا الحب، بطبيعة الحال، هو أن بوشكين زار شبه جزيرة القرم، وكتب على شرفها عدّة أبيات، وفي 16 أغسطس 1820، زار فيودوسيا، مسقط رأس إيفازوفسكي.»

أنا سعيد جداً، لأنني لم أخطئ في تحديد عام إقامة بوشكين في القرم...

«وأطلق إيفازوفسكي سالفه، ليكون شبيهاً ببوشكين؟»

«كلا. على أي حال، إنّ الفنان نفسه لم يعترف بهذا مطلقاً، فقد كان هذا الأسلوب الشائع في الموضة، لكن المعاصرين وجدوا أن إيفازوفسكي يشبه بوشكين، وكتب الأديب فيازيمسكي إلى صديقه بوجودين قبل زيارة إيفازوفسكي إلى موسكو: «يرغب الرسّام الشهير إيفازوفسكي بالتعرّف عليكم، فهو بالإضافة إلى الموهبة الممتازة، يتمتع بميزة إضافية أخرى: فهو يشبه بمظهره ألكسندر بوشكين. استضيفوه في موسكو، من أجل الموهبة والتشابه...».

نعم، يشبه ألكسندر بوشكين حقاً.

تناهى إلى سمعي الطرق على الباب. تدخل زوجتي:

- حبيبي، دعنا نذهب لمشاهدة المسلسل؟ النعاس يأخذني. أنام حقاً.

وخزني كدرٌ حادّ وشديد. اخترق الدماغ، مرّاً كإبرة طويلة، حتى إني خشيت على قلبي.

القدر ليس من زوجتي، على الأغلب، لأن اليوم قد انتهى حقاً. وحان الوقت للنوم، وما تمّ عمله... لا شيء في الواقع. أجل، لا شيء قطّ، وهذا «في الواقع» ليس من قبيل المخاتلة.

- عزيزتي امنحيني ثلاث دقائق. ممكن؟

- نعم... أنتظرك في السرير.

وبدلاً من فتح الدفتر، مررت بنظري على السطور الموجودة على شاشة الكمبيوتر المحمول. يجب أن أكمل القراءة.

«هل رسم إيليا ريبيين¹⁴ جميع صور بوشكين في لوحات إيفازوفسكي؟»

كلا. فقط في واحدة. رسم إيفازوفسكي كيف التقت الموجة والحجر، ورسم ريبيين، الشاعر نفسه. تحدث ريبيين، باستخفاف بنفسه عن مشاركته في رسم لوحة «وداع بوشكين للبحر»، على النحو التالي: «رسم إيفازوفسكي البحر الرائع...، وقد تشرّفت برسم شخصيّة هناك». تعود مبادرة رسم اللوحة بأربع أياد إلى إيفازوفسكي.

ولكن ريبيين لم يفلح برسم صورة بوشكين نفسه بصورة جيدة. إليكم ما يقوله كورنيه تشوكوفسكي، حول هذا الأمر في مذكراته:

-... يجب أن نتذكر أنني التقيت به (ريبيين)، فقط قبل وفاته بخمسة وعشرين عاماً، عندما انحسرت موهبته. لكن الإرادة على الإبداع ظلّت كما هي عليه».

«موهبتة في انحسار».

يرتد نظري كما لو أن الفلاش الضوئي حرقه. أنظر أمامي في الجدار، أرفّ عيني. هذه هي الكلمات التي كنت أبحث عنها طوال هذا اليوم. كلمات رهيبية، ولكن كيف شكّلت بدقة:

«كانت موهبته في انحسار».

بدون إغلاق النوافذ والإشارات المرجعية، أقوم بإنزال غطاء الكمبيوتر المحمول. أنهض، أطفئ مصباح الطاولة، وأهرع إلى الشرفة.

تقول الزوجة، وقد سمعت خطواتي.

- خذ راحتك.

أنا لا أرد. أغلق الباب ورائي، وأشعل سيجارة.

داعب نسيم الليل وجهي بعذوبة. أرمش، وأشعر كيف تعبت عينايا. إذا أغمضتهما وفتحتهما في بضع ثوانٍ، يُخيل لي أنني مصاب بالعمى. أنا لا أُميّزُ أي شيء. ومن ثم تعود لي الرؤية. وأرى الأضواء، والصورة الظليلة للمباني، والأشجار، وبقعاً سوداء على السماء المظلمة - والسحب.

ينبغي مرة أخرى تناول حبوب تحتوي على التوت الأزرق. ربما أشتري دواء على شكل قطرات. ومن الأفضل ألا أسأل الزوجة، إنها ستقلق... نعم، يجب مساعدة العينين. وإلا...

كانت موهبته في حالة انحسار، ولكن... ماذا حدث له لاحقاً؟ يبدو أنه سعى إلى الإبداع كالسابق...، وليس بطريقة مختلفة. ليس هكذا...

الشيء الرئيسي ليس هذا، وإنما: تعرّفت عليه قبل وفاته بخمسة وعشرين عاماً، وكانت موهبته في حالة انحسار... قبل وفاته بخمسة وعشرين عاماً، كان الضرر قد لحق بموهبته.

أطفأت عقب السيجارة، لم أطفئها، لكنني سحقت العقب في منفضة سجائر بغضب. دخنت قليلاً، لا داعي لهدر كيس النفايات، دعها مطروحة حتى الصباح.

أذهب إلى المرحاض، وأنادي في الطريق، محاولاً جعل صوتي حيويّاً:

- عزيزتي، أنا أغسل أسناني - وأنضم إليك.

- نعم لقد قمت بالفعل بتنزيل المسلسل.

- أنا بسرعة.

بعد الاغتسال، تذكرت أنني لم أجهز الماء خلال الليل. استدرت نحو المطبخ، ملأت قديحاً من إبريق فلتر الماء، ووضعت على الطاولة القائمة عند السرير، بجانب كتاب زاخار بريلييين الجديد: «بعض الناس لن يذهبوا إلى الجنة».

أستلقي. أقبل زوجتي. إنها تضع جهاز كمبيوترها المحمول في حضني. تضغط «Play».

وتظهر قائمة عناوين طويلة. وموسيقى عالية، إنه بالفعل ممل، والمؤثرات الخاصة، مملّة طويلة...

أملتُ نظري في كتاب زاخار بريليبين. أنا قرأت خلال الفترة الماضية نصفه، وتوقّفت. ليس لأنه مملّ، ولكني لم أستمرّ في القراءة لأسباب أخرى... مرة لمشاهدة الأفلام قبل أن أذهب إلى سرير النوم، أخرى لأنني تناولت الخمر، أو ببساطة نالني التعب لسببٍ ما غير مفهوم...، لكني في نهاية المطاف شرعت بقراءته. كتب بريليبين تاريخ بدء تأليفه الكتاب، وتاريخ الانتهاء منه. وإذا كان صادقاً بذلك، فقد كتبه في غضون شهر واحد فقط. ألف كتاباً كبيراً خلال شهر واحد فقط. هذه روعة. لم أستطع أن أكتب مثله. ولكن اتضح، يمكنني...

من المؤكد أن زوجتي شعرت بشيء ما يدور في ذهني، فسألتنني:

- هل تشاهد؟

- بالطبع. وبإمعان شديد.

تمّ تكريس الحلقة الأخيرة من المسلسل السابق للمعركة مع القادمين البيض. وكانت مذهلة، ولكنها لا تمسّ الروح لسبب أو لآخر. ربما لأنني أعرف: أن هذه الشخصيات غير نمطية. إنّها حكاية مذهلة.

والآن شخوص المسلسل مبهجون؛ المتوحش ذو اللحية الحمراء، يقترب من الفارسة الثخينة، ولكنها ترفضه، فيأخذ الشاببة الحمراء، إنّها جذّابة...

تشرب شخوص المسلسل الخمر، تتحدث كثيراً، وتمزح بغموض.

سألْتُ زوجتي:

- كيف عملتِ اليوم؟

- لو أقول بصدق، ليس بصورة جيدة، يبدو لي أنها الآن أيضاً لا ترغب في مشاهدة الفيلم، طوال اليوم كانت عالقة في شبكة الإنترنت.

نعم؟ وأنا أيضاً... لقد أصبح التعلّق بالإنترنت عادة في الفترة الأخيرة.

تطلب الشقراء داينيريس إرسال القوات إلى رويال هاربور، فعليها قتل كيرسي، والجلوس على العرش الحديدي، ويطلبون منها منح القوات الراحة...

لا يمكنني التركيز، الفكر يدور حول التعلّق بالإنترنت، ومع كل دورة، وينمو القلق.

- ماذا لو حسدونا؟

- بأي معنى؟

- حسناً، لأننا نكتب كثيراً، وبسرعة، وناجحان. يحسدنا شخص ما بشدة، وتصيبنا عين الحسد، أو عن قصد.

الزوجة تبتسم ساخرة، وتضيف:

- عين الحسد تصيب فقط أولئك،الذين يخافون من هذا.

- هل تعتقدين ذلك؟. كلا، يمكن أن تصيب أي شخص، ألا تخشين من أن ينقطع الخيط في أي لحظة؟ ذلك الخيط الذي تستند عليه موهبتك في الكتابة، وعبقريتك، ونجاحك. وبعد ذلك لن يكون بوسعك كتابة أية صفحة أصيلة...

زوجتي لا تردّ، ربما بدا لها سؤالي سانجاً جداً. أتذكر الكلمات من مقابلتها الطويلة مع إحدى الصحف، التي قرأتها منذ أربع سنوات عندما التقيت بها للمرة الأولى. وكنت أرغب في معرفة أي نمط من الناس هذه الفتاة الجريئة، التي يصفها الجميع بالكاتب المسرحي الرائع. دخلت في الإنترنت. وعثرت على المقابلة حيث كان الأمر هكذا: أجابت زوجتي عن سؤال الصحفي، هل الإلهام مهمٌ في أعمالها؟ أجابت زوجتي القادمة: «ما هو الإلهام؟! أنا أجلس، أكتب!»!

- أنا خائفة. تقول الآن خائفة جداً.

لم يكن في صوتها ما يثني بالخوف، ولا بالسخرية أيضاً.

- ولكن... اسمعي، ربما يمكن كتابة قصة عن شخص، يقرأ طيلة الوقت جميع ضروب العكارة في الإنترنت، ويشاهد مقاطع الفيديو. ويتعذب، ولكن لا يمكنه الإقلاع عن الإنترنت... ما رأيك؟ ويكون عنوانها: «العالق في الشبكة العنكبوتية».

- كيف؟ عالق؟ سينتقدونك على مثل هذا العنوان،على الفور.

- في هذا الشكل في الأدب الروسي. أو في الطبّ النفسي.

- حاول.

الآن تبدو لهجتها ساخرة، فأشرح لها:

- يحدث لي الأمر التالي: أكتب عن رجل لا يملك المال مطلقاً، أقصد نفسي،، وفجأة يردّ المال لي، وأكتب أن كل شيء في البلد فظيع، وعندما يذهب النصّ إلى النشر، تتحسن الحياة. ربما يكون الأمر نفسه هنا: سأصف بالتفصيل هذا اليوم، إذ أردتُ منذ الصباح أن أكتب، ولكنني... - لم

أتذكر عنوان قصتي التالية - علقت، وإذا كنت سأكتب لن يتكرر مثل هذا اليوم مرة أخرى. ما رأيك، هل من الممكن ألا يتكرر؟

- نعم يا عزيزي، أعتقد.

توقف زوجتي الفيلم مؤقتاً، وتغلق الكمبيوتر المحمول، وتُعانقني؛ يقبل أحدنا الآخر لفترة طويلة، ويمسد أحدنا الآخر. ثم يذهب كل واحد إلى نصفه من سريرنا العريض. نستلقي لبعض الوقت في الهدوء والظلام.

ليس ظلاماً تاماً، فضاء المدينة ينفذ بقوة، حتى من خلال الستائر.

تقول الزوجة:

- ينبغي شراء ستائر سميكة. لا أشعر بالدهشة من أنها تفكر أيضاً في الستائر، هذا غالباً ما يحدث لنا، على غرار الستائر في غرفة الفندق الذي نزلنا فيه في موسكو. هل تتذكر؟

قضينا في أبريل أسبوعين في موسكو. كان هناك مهرجان المسرح. وكنت مدعواً للمهرجان، بصفتي زوج الكاتبة المسرحية.

- أتذكر... سنشتري.

- لكن الستائر غالية الثمن. دفعنا عن هذه عشرين ألف روبل.

- لا شيء. النوم الهادئ أكثر أهمية.

- حبيبي.

تبادلنا القبل مرة أخرى. ومرة أخرى نستلقي في صمت لفترة من الوقت.

- ماذا، هل سنشاهد شيئاً ما من المسلسل؟

- نعم.

أفتح الكمبيوتر المحمول، أكتب كلمة مرور زوجتي، وأقوم بتشغيل الفيلم، وألاحظ أن هناك سبعاً وعشرين دقيقة حتى النهاية.

أنتظر بصبر.

في المسلسل، تجري معركة؛ يموت التنين الثاني، وتذهب سفن الشماليين إلى القاع، مثل أطباق الصابون. وعينايتي تلتصقان. لا أريد مقاومة النوم. الشيء الرئيسي هو عدم الشخير، وإلا ستوقظني الزوجة، أو تغلق الكمبيوتر، وغداً ينبغي استكمال المشاهدة. وربما يظهر عمل ما: ولكن

ما هي الكتب الأخرى، التي كتبها ريكي مارتن مؤلف قصة المسلسل، أو ما اسم مؤلف الكتب التي أخذوا عنها فيلم «لعبة العروش»، من أين جاءت أساطير التنين هذه؟ وما هي ميزانية الموسم الماضي؟ ومثلها من العكارة...

أخذ بهدوء إلى النوم. يحفر في رأسي إيفازوفسكي، ويلينا تشيزوفا، وغابة الأمازون، والمرأة السمراء التي ذهبت مع المتوحش، وخلافاً للعادة، لم أفرغ المنفضة من أعقاب السجائر، وبقعة من بحيرة شارتاش، وروبرتو كارلوس الذي يسجل عادة الهدف من منطقة الجزاء، يجب جمع كل هذا الآن في النوم، ونحطه في كتلة واحدة، ودفنه.

الأسلحة

دميتري باكين

بادئ ذي بدء، يجب عليه أن يحرق جميع الكتب واللوحات والصور الفوتوغرافية التي بحوزته، لأنها، حسب اعتقاده، قد تُزيكه عندما تقع تحت بصره، أو أنها ستعرقل، فحسب، تنقلاته من غرفة إلى أخرى حينما سيصل الأمر إلى محاصرته. وقد انشغل اليوم كله في حرقها، ليس لأنها كانت كثيرة، بل لأنها تحترق ببطء. وشعر بالإحباط من بطء احتراق أغلفة الكتب الجلدية، أُطر اللوحات المذهبة. وقف بلا حراك أمام الموقد وهو يرتدي روباً منزلياً طويلاً بني اللون، وينتعل بابوجين متقوبين، فكّر بأن وقته ضيق، وقته ضيق. وتابع بنظراته كيف تلتهم النار الأغلفة الجلدية للكتب القديمة بجهد، مثل كلب لا يستطيع ابتلاع عظمة، سدّت بلعومه. وكانت النار تلتف مثل الماء حول الإطارات المذهبة. فكّر أنها ليست خشبية، أو أنها خشبية مطلية بطبقة طلاء سميكة. أما اللوحات فقد احترقت منذ وقت طويل. وفي نهاية المطاف، أجهزت النار على الأغلفة الجلدية. أما الإطارات المذهبة فلم تمسّها النار، التي كانت تلتهم تحت نظراته المحمومة. وعندما تهاوى على الأريكة خائر القوى، شعر بأنه سقط من ارتفاع عالٍ لا يمكن تصوّره، كما لو أن الربّ هبط على الأرض. وشعر بأنه مُثقل، ومنهك لحدّ الموت، لكي يؤدي كل ما يجب عليه القيام به.

عندما استرجع قواه، كانت هناك عاصفة رعديّة في الشارع. خرج إلى الشرفة الأرضية، نظر إلى الغابة، فكّر لو أنهم هاجموا الآن، فكل شيء سينتهي، ولم تكن هناك حاجة لحرق أي شيء.

وحاول عدم التفكير في الأمر.

وعندما أمعن الفكر في الأمر: أنهم يمكن أن يقلعوا بالطائرات التي ستقضي عليه، وتدمّر كل شيء ليس من ممتلكاتهم في محيط تحليق طائرة يعادل ألف ميل.

لكنه قال: كلا، إنهم لن يوجّهوا ضدي المدافع والدبابات، ولن تقلع الطائرات. الأمر سواء كما لو جرى إرسال سفينة مجهزة للحرب الذرية إلى البحر، من أجل أن تقطع رفاصاتها قنديل بحر واحد.

وحاول عدم التفكير في الأمر.

دلف إلى غرفة النوم، وفتح خزانة الملابس، وأخذ منها بزة عسكرية عتيقة، ومعطف تمويه، حقاً إنه لا يُموّه إلا في الأعشاب الطويلة، وتحت وهج الشمس.. عثر تحت السرير على فرشاة تنظيف ملابس، وبلّ لها بالماء، ونظّف بعناية البزة والجزمة العسكرية الثقيلة ذات البرشامات. خلع ملابسه، وأخذ حمّاماً بارداً. ومن ثم ارتدى زيّه العسكري، والجزمة العسكرية التي شددت بنقلها الساقين بالأرض، وارتدى فوق البزة معطف التمويه، فشعر بنفسه كأنه شجرة ينتظر أن تمشي.

اعتاد شيئاً فشيئاً على المشي في الجزمة العسكرية، واعتاد على عدم إيلاء أهمية لبطنه في السير، معتبراً أن السلحفاة تدين بطول عمرها لحركتها البطيئة، وفكّر: من الضروري التفكير أيضاً على مهل، مثل السير، وبخلافه سيموت داخلياً أسرع بكثير من أن يموت خارجياً. وما عدا ذلك من الضروري إيطاء سرعة دوران الدم في العروق، حينها سيكون التآكل أقل، لأن الاحتكاك سيكون أضعف، وتبطئ ضربات القلب، فالمطرقة التي تدقّ ألف مسمار ستبلى قبل المطرقة، التي تدقّ مسماراً واحداً، وينبغي خفض سرعة التفكير، ليكون على مهل، على غرار حركة رقائق الساعة هنا يكمن السرّ.

استغرق في النوم على الأريكة بعد منتصف الليل بفترة طويلة، واستيقظ عند الظهر وهو يفكّر في الدبابات والطائرات. ولاحظ أنه عندما يفكّر في الدبابات والطائرات، ترتعش يداه وقدماه، ويتساقط شعره، ويضعف بصره، ويتحجر دماغه، وأدرك بأنه: إذا فكّر باستمرار في الدبابات والطائرات، فلن يعيش فترة أطول من عمر الفراشة. ومن ثم فكّر: إنه في قبضتهم منذ زمن بعيد. أصاخ السمع، وتنفس بعمق. وكان الهدوء قد خيم على كل شيء، وحينها تذكر القتل الصامت، وعندها امتنع عن تناول الطعام والماء، لأنها قد تكون مسمومة، وأدرك أنه سيمتنع في نهاية المطاف عن النوم، لأن الإنسان في النوم يكون عاجزاً مثل الجماد.

وحاول ألا يفكّر بذلك.

هبط إلى الطابق الأوّل، وتحقّق من أن الأقفال في الباب الأمامي مغلقة. وبعد أن اقتنع بأنهم لن يتمكنوا من دخول المنزل دون ضجة قام بفحص دُرف جميع نوافذ الطابقين الأوّل والثاني.

وعندئذ فكّر في الشرفة التي تُطلّ على الغابة، كان يعرف في أعماق دخيلته، بأنهم سيأتون من الغابة، وسيحاولون في البداية الاستيلاء على الشرفة الفسيحة. وأدرك الآن، أنه كان يعرف ذلك

دائماً، وُلِدَ أعمى، وأخرس، وأصم، ولكنه عرف بصورة أكيدة، أنهم سيأتون من الغابة، وسيحاولون في البداية الاستيلاء على الشرفة الفسيحة.

نصب في المدرج مدفعين رشاشين، ومضى نصف النهار، فقط من أجل سحبهما إلى هناك، وثبت بإحكام، الألواح القائمة الفولاذية الملحومة، بأرض الشرفة الفسيحة ببراعي كبيرة مثل، التي يجري بها شدُّ أعمدة الكهرباء ذات الضغط العالي، حتى لا تستدير المدافع ضده في حال الاستيلاء على المدرج. وتحسباً للسيطرة على المدرج، نصب في الغرفة المقابلة مدفعاً يدوياً، زوّد قرصه بطلقات متفجرة على شكل صليب، ذات تجويف في القسم الأمامي، ونصب مدافع يدوية في كل غرفة، ونزع صمامات الأمان منها، لأنه قد لا يكون هناك متسع من الوقت لذلك.

وفكر مرة أخرى في الطائرات والدبابات، وشلَّ اليأس عقله.

بيد أنه قال لنفسه: كلا إنهم لن يحرّكوا ضدي الدبابات، ولن يبعثوا الطائرات. لأن هذا سيكون بمثابة دفع سفينة مجهزة للحرب النووية في البحر، لتقطع أوصال أحد قناديل البحر، بشفرات رفاصاتها.

وقف على المدرج ووجهه نحو الغابة، بين المدافع الرشاشة وركيزتها، التي تمّ تثبيتها بصمولات فولاذية يساراً ويميناً، على استدارة البساطين الأفقية في دائرة، نصف قطرها ثلاثين درجةً. وفكر لو أنهم جاؤوا إلى المدرج مع مجموعة اقتحام إسفيني، فإنه سيعزز المدفع الرشاش في جهة اليسار، ويدير السبطانة إلى أقصى حدِّ نحو الجهة اليمنى، ويضع قطعة معدنية للضغط على الزناد، لتطلق النار تلقائياً، ويقف بنفسه وراء المدفع الرشاش الأيمن، لأن المدفع الرشاش في الجهة اليمنى، أقرب إلى باب الغرفة المواجهة للمدرج، حيث سيتراجع منها. وعلى هذه الشاكلة، فإنه سيواجه اقتحام الخصم الإسفيني، بنيرانٍ على شكل مخروط من زاويتين، أي مواجهة الاقتحام الإسفيني في اقتحام مماثل. وإذا كانت الجوانب الخارجية، لاندفاع النيران المدفعية تعمل، فسيكون الاقتحام الداخلي أجوف. ثم أحصى بالخطوات المسافة من مدفع رشاش إلى آخر، وحسب نصف قطر منعطف الجذوع، وحسب المسافة حتى النقطة، حيث تتقاطع رشقات المدافع النارية، مُكوّنةً مخروطاً. وأخذ فأساً، وخرج من الشرفة، ووقف على الأرض، وسار في المسافة محسوباً بالخطوات حتى النقطة، وعمل حزاً كبيراً على ساق الشجرة، وكانت هذه هي النقطة التي تتقاطع بها الرشقات النارية المدفعية.

وعندما تمرّ مجموعة اقتحام الخصم في المنطقة، التي لا يمكن أن يطالها رصاص المدافع الرشاشة، فسيفقد فضاء المخروط الأرضي لِكلا المدفعين أهميته، وسيجد نفسه مضطراً للتراجع إلى الغرفة المقابلة للمدرج، نحو المدفع اليدوي ذي الرصاص المتفجر، ويواصل إطلاق النار من خلال الباب المؤدي إلى المدرج عبر الحاجز. وفي هذه الحالة سيكون المدفع الرشاش اليدوي المنصوب في الغرفة أهمّ من المدفعين الآخرين المنصوبين في المدرج، المُعدّين فقط، لتصفية أكبر عدد من الأفراد الذين يتمكن من إسقاطهم، قبل أن يجتازوا الحزّ الذي عمله في الشجرة.

بيد أنه قال إنهم لن يهاجموا على هيئة إسفين.

وإذا هاجموا من الأجنحة بصفٍ متراصٍ، ومن ثم تطويق البيت، ففي هذه الحالة سيكون أحد المدافع اليدوية وبالذات الأيسر، من دون بوصلة محوِّلة مع سبطانة مثبتة باتجاه واحد، سيفقد أهميته تقريباً، لأنه سيكون من السهل تفادي الرصاص الذي سيطلقه. وإذا ما امتنعوا مؤقتاً عن الاستيلاء على المدرج، فعليه أن ينتظر الهجوم من باب الدخول، وبعد أن يظهروا في الدار، لا يجوز ترك المدرج.

وحاول ألا يفكر بهذا، ولا بالجوع والعطش، لأنه يدرك كل الإدراك بأن من الغباء تسميم نفسه الآن بهذه الأفكار، حينما عمل كل ما أراد القيام به، ومن الضروري الانتظار فقط.

جاء مرة أخرى الغرف، وفحص المدافع، وطبع قبلة على كل واحد منها، وطبع قبلة على المدية، التي كان يحملها، وانبعث من النصل رنينٌ كرنين البلور.

ورسم بفحم الموقد أسهماً على جدران الغرف، وحدد لنفسه بشكل مُبكر، إشارات طريق الانسحاب، من غرفة إلى أخرى، وفكر أن هذا المسار واقعي، إذا قام بالدفاع عن المنزل بدءاً من المدرج.. وإضافةً لذلك رسم على جدران الغرفة أسهماً تُبيِّن طريق الانسحاب الذي يتعين عليه السير فيه، إذا ما هاجموا من جهة الباب الرئيسي، وسيحتّم عليه الانسحاب بدءاً من صالة المدخل. إن هذه، وتلك الأسهم تلاققت في الغرفة الكائنة في الزاوية القصوى، حيث لا يوجد أثاث ولا مدافع رشاشة، وحيث وُلِدَ فيها قبل سنوات طويلة.

المُتصوّف

يوري مامليف

يقع هذا الفناء في أطراف موسكو، في زقاق ضيق ذي بيوت خشبية خضراء، يبدو صغيراً، وكأنه بلدة منعزلة. ونادراً ما ينطلق فيه هدير شاحنة متربة، الربّ وحده يعرف من أين جاءت، وإلى أين تتّجه؟ انزوى في الفناء ركن مريح تشوبه القذارة، واستظلّ بألواح خشبية كأنها قُطعت بسكين. كانت فيه مصاطب ومنضدة خشبية متداعية.

وفي الأمسيات الصيفية، حينما ينبعث من سقوف عليّات البيوت ذات الطابقين الغناء، وعويل القطط يتّجه باشا، وهو رجلٌ بدين، ابن الأربعين عاماً، نحو ذلك الركن، بهدوء ووقار، ويتهدى بكرشٍ يتدلّى كَشَفَتَيْنِ.

ويبدأ باشا من دون عجلة من أمره، عندما يجتمع الجمهور هنا، بسرد حكايته الطويلة العذبة، وبإسهابٍ عن الحياة الأخرى. ويروي كيف تواجد بنفسه في العالم الآخر.

ويأتي الجمهور من بعيد، وحتى من الشوارع المجاورة للاستماع إليه. يجلب البعض معه القدر المليئة بالمأكولات، والمناديل، ويفترشون الحشائش. وتأتي إحدى النساء مكنتزة الصدر إلى هنا، حاملةً طفلها ابن السنة، ورغم أنه يغطّ دائماً في النوم، فإنها تدير وجهه كل مرة إلى جهة الحكواتي.

يجلس باشا الحكواتي عادة نصف عار، بقميص فانيلا وبنطلون، فينكشف صدره الكث الشعر، وتتدلّى دوماً من جيبه سمكة «فوبلا» مقدّدة. ويستلقي إلى جانبه المعجبون المقربون منه،

وهم: ثلاثة، وهم معوّقون، وعجوز ناحلة، على رقبتها ربطة عنق فتیان الطلائع اللينينية، وعامل عابس الوجه قويّ الملاحظة. إنهم يجلسون بالقرب منه بهيئة سلسلة دائرية، ويصايقون الآخرين. وهناك رجل عجوز بنظارات، عقلانيّ جداً، يكتب في قصاصات أوراق مدعوسة ومتكنلة.

وقبل البداية فقط يبرز من نافذة أحد البيوت القريبة، قوام أسمر، ناحل. إنَّها ليدوتشكا. بغيّ الحارة، وأول المعجبين بحكايات باشا عن العالم الآخر. إنها ترتدي فستاناً غريباً مُلطّخاً، إما بقذارة أو بالبول، وعيناها متعبتان، كما لو تبحث عن الملكوت في السماء، وتعتمر إكليل أطفال من الأخوان البري.

ويستدير باشا نحوها برأسه الكبيرة التي أثقلتها الأفكار، ويدعوها إليه بشفتيه، فتهرع ليدوتشكا إلى باشا بكل ألق أعوامها التسعة عشر.

لقد اعتادت نساء الحارة العابسات السمينات كأرغفة الخبز، على ليدوتشكا. ورغم أنها تطارح أزواجهنّ الغرام، فإنهنّ يضمنن لها حباً عميقاً خالصاً. إنهنّ يضمنن لها الحب، لأن الأزواج بكل الأحوال سيُمارسون الخيانة الزوجية، وحتى مع ظلّهم مثل الرجل الأهل الساكن في الطابق الثاني. ولولا ليدوتشكا وغرامياتها، لمّا كان لدى نساء الحارة موضوع لأحاديثهنّ في الأماسي الطويلة ليوم الجمعة. فماعدًا حكايات باشا عن العالم الآخر، كانت الأحاديث الطويلة الصاخبة عن مغامرات ليدوتشكا، المُنتفّس الوحيد لنساء الحارة. وغالباً ما شرعت بهذه الأحاديث، تلك المرأة التي يعاشر الآن زوجها ليدوتشكا، وتروح بدقة وتفصيل وبحماسة، تقصّ كم من النقود أنفق زوجها على ليدوتشكا، وكم من القدور والمسامير أهداها.

كل ذلك كان شيقاً للغاية، لذلك فإن النساء قَبِلْنَ بليدوتشكا.

وتشقّ ليدوتشكا طريقها بين المصاطب، وكالعادة ترقد على الأرض عند أقدام باشا، ووجهها نحو السماء.

فبعد ممارسة مهنة البغاء، يصبح شغلها الشاغل النظر إلى السحب الشاهقة في السماء، وعقب ذلك يتنحج باشا، ويطلق بالحديث، في البداية بصوتٍ واطىّ خجل، ومن ثمّ عالياً فعالياً:

حدث هذا بالضبط عشية الجمعة، وحدثت نفسي بالخطأ في العالم الآخر. ومن ثم اعترفوا هناك بالخطأ، فانبجست فجأة على الأرض.

في هذه اللحظة يسحب باشا بحذر من سرواله سمكة الفوبلا المقددة، ويشمها على مهل. ويواصل الحديث:

أقول لكم إن هذا البلد، أي عالم الحياة الأخرى، عالم جذّاب، فكل ما هناك يختلف عمّا لدينا. في البداية اعتراني الخوف، وبكيت مثل طفل معتوه، فأنا لا أعرف ما العمل... الأمر السيئ هناك أنه، ومن كافة الجهات، وأينما تتوجّه، تواجهك حفرةٌ طويلةٌ مثل طريق التبانة... ومهما حاولت السير جانباً تجد نفسك دائماً تمشي على الحافة... وبعد ذلك بدا الأمر سهلاً، فقد اعتدت الأمر...، وفيما يتعلّق بالنساء، يا بنات لا شيءٍ منهنّ على الإطلاق...، لانعدام وجودهنّ...، فهناك

كل شيء يبدو هوائياً. ولكن يمكنك أن تحب أياً كان...، لأن الغرام عندهم من أجل تبادل أطراف الحديث...، فإذا وقع أحد في حب إحداهن، فإنهما ببساطة يجلسان، ويتجاذبان الحديث طيلة الوقت عن مختلف الأشياء... وهذا هو الحب كله... والبعض يقول إنَّ هذا أفضل مما لدينا...

وفي هذا المقطع من الحديث، عادةً تتأوّه، وتندب العجائز والنساء المحيطات بباشا. وتردّد العجوز الناحلة ذات منديل الطلائع طيلة الوقت:

- يا للفضاعة!

ينتعش باشا، ويقول:

إذا وقع أحد بحب صديقه جداً، فهناك فقاعة لهذا الغرض... حيث تبرز من عيون المحبين فقاعة كبيرة، وتلفهما في حزمة واحدة، ومع ذلك يبقيان منفردين...، فالإتصال بينهما يبقى روحياً، وإنهما يبقيان محميين من الفقاعات الأخرى...

وبغثة تغمر عيون باشا كآبة وحشية، ويبدأ باشا بقضم سمكة الفوبلا على عجل.

وتتعالى الأسئلة بتهيب:

- ماذا بك يا باشا؟

ويتمتم باشا، وكأنه يتحدث في الفراغ:

- فقدت صديقاً لي هناك، إنه يراودني في الحلم أحياناً...، وقد حدث ذلك على النحو التالي: عندما وجدت نفسي هناك، أردتُ في البداية أن أفتش عن أمي وأبي، وجدّي. لكن البحث هناك ليس سهلاً، فحشود الناس لا تُعدّ ولا تحصى! ولا تعرف إن كان الوقت نهراً أم ليلاً، لا يوجد هناك قمر ولا شمس، ولا نجوم. لا يوجد هناك شيء من هذا القبيل. تجذبك الحفرة في كل مكان. تملّكني الحزن، وفكرت بالانتحار، فأنت تمضي، ولا تعرف إلى أين، ولا يعيرك الناس أي اهتمام، كأنك وسط أسماك، وفجأةً التقيتُ رجلاً سميناً، رجلاً ممتازاً، اسمه «ينتيم» ظهر أنه بابلي... مهنته «حمامجي»... لقي حنقه قبل خمسة آلاف سنة... فرحتُ للغاية، حتى رقصت من شدة السرور، ذهبت معه إلى الأعلى في مكان ما، وانغمرنا في تبادل أطراف الأحاديث. روى لي كيف لقي حنقه. فقد مات على يد حلاق... إذ استعمل فأساً غير مواتية لقصّ شعره، وهذا ما أفضى لموته...

ساد السكون المطبق في الفناء، كما لو عُقدَ هناك اجتماع يعتزم اتخاذ إجراءات خطيرة. واستمرت الحال على هذا النحو ساعة أو ساعة ونصف، لا تنقطع، إلا حين تطرد عجوز ما صبيحاً وقحاً.

ويختتمُ باشا حكايته في نهاية المطاف. وكانت ليدوتشكا أوّل مَنْ ينهض، وقد اغرورقت عينها بالدموع. إنَّها تُعدّل الإكليل على رأسها، وتأخذ باشا من يده.

وكان باشا الرجل الوحيد الذي تمنحه ليدوتشكا جسدها مجاناً، والدموع التي تفيض بها عينا ليدوتشكا، لا تعدو كونها مجرد حبات بلورية، تعبد الطريق إلى قلب باشا والكائنات العليا.

وبعد أن يهدأ الجميع، تأخذ ليدوتشكا القيثارة، وتجلس على المائدة، وتتشد أغاني مشحونة بالكلمات البذيئة...

وبالتالي يسدل الظلام ستارته، وأول مَنْ ينسحب باشا مع ليدوتشكا. إنهما يسيران متعانقين، رجلٌ أعرج يتهدى بكرشه الكبير، وفناة رشيقة القوام، في فستان ملطخ بالبول.

وتُشيعهما أنظار العجائز، فيُخيل لهنّ أن الإكليل من الأفحوان البري على رأس ليدوتشكا، هالة خفية متوهجة.

وغالباً ما يتحدثُن بقولهنّ:

- إنها قديسة.

إن ليدوتشكا تعشق باشا وحكاياته. بيد أنها سرقت منه ذات مرة فنجاناً عتيقاً، حقاً إنه رخيص الثمن، ولكنه عزيز على قلب باشا، لأنه ورثه عن جدّه، غير أن ليدوتشكا كانت تبغي شراء حذاء جديد ونقصتها عدّة روبات.

... الجميع يراقبون اختفاءهما في ثقب القبو المعتم. إنهما يختفيان، وقد التصق أحدهما بالآخر مثل ورقتي شجرة واحدة...، وبعدها يتفرّق الآخرون.

السندباد البحري

يوري بويدا

طلبت يكاترينا إيفانوفنا مومتوفا عشية وفاتها، استدعاء الدكتور شيبيرستوف الذي عالجهما طلية حياتها، وكان قد أُحيل على المعاش منذ فترة طويلة. وسلّمته مفتاح منزلها، بورقة مطوية مربّعة، وطلبت منه أن يحرق هذه الورقة، مع الأوراق الأخرى في شقتها، وشرحت له وقد اعترأها الارتباك: - هناك أوراق في منزلي، لكن أرجوك لا تخبر أحداً عنها، كان من المفروض أن أتلّفها بنفسي..، وأنت ترى كيف تطوّرت الأمور.

رفع الدكتور حاجبه متسائلاً، بيد أن العجوز ردّت عليه بابتسامة مُترعة بالشعور بالذنب. لقد كانت حالتها سيئة للغاية؛ وكانت تعاني سكرات الموت بنتيجة ورم سرطاني، وقال طبيبها المعالج لشيبيرستوف، من غير المحتمل أن يمتدّ العمر بها حتى الصباح.

عند مدخل المستشفى، كان رئيس قسم شرطة المنطقة ليوشا ليونتيف، الذي بدا إلى جانب شيبيرستوف الضخم الجثة، كأنه صبي ببذلة رجل بوليس، يجلس على مصطبة وهو يدخن. كانت قلنسوته، التي بهت لون إطارها، في عربة الدراجة النارية.

وسأل الدكتور ليوشا ليونتيف، وهو يرمي بنظره فوق رأسه على بعوضة، كانت تدور بالقرب من مصباح الشارع الشاحب، الذي تدلّى من عمود خشبي مُخضّر بفعل الرطوبة: - ألا ترغب بالتمشّي؟ إلى شقة مومتوفا يكاترينا.

- إلى السندباد البحري؟ أم أنها توقّيت؟

- كلا، عرض الدكتور المفتاح على رئيس قسم شرطة المنطقة، لقد طلبت إلقاء نظرة على منزلها. أنا عابر سبيل، وأنت على أية حال ممثل للسلطة.

ورمى لوشا عقب سيجارته في أنية حجرية واسعة، ملأى بالماء، ونهض متأففاً.

- أتمنى لو يحلّ الشتاء علينا بسرعة...

وسارا بتمهّل على الرصيف المغطى بالبلاط نحو الطاحونة التي، تعيش بجوارها يكاترينا إيفانوفنا، المعروفة في المدينة بأسرها، بأن حياتها كانت نموذجاً للحياة الفاشلة.

جاءت يكاترينا إيفانوفنا إلى بروسيا الشرقية سابقاً، مع الوجبة الأولى من النازحين إليها. وعمل زوجها في مصنع الورق، فيما اشتغلت يكاترينا إيفانوفنا غسالة في المستشفى. وكان لديهما أربعة أطفال، اثنان من صلبهما، واثنان تمّ تبنيهما من دار اليتامى. وأخذت يكاترينا إيفانوفنا، المرأة الصغيرة النحيفة، على عاتقها مسؤولية البيت الكبير؛ الحقل والبقرة والخنزير وعشرون رأس من الغنم، الدجاج، وحتى البط، وسهرت على زوجها العليل، (جرح ثلاث مرات على جبهة القتال في الحرب العالمية الثانية)، والأطفال. وحينما بلغت السابعة والخمسين من عمرها، جرى بتر قدمها حتى الركبة؛ عندما سقطت تحت عجلات القطار لدى عودتها بالعجل من المرعى. وتعيّن عليها ترك العمل بغسل ملابس الآخرين، والتحقّت للعمل كحارس في روضة أطفال. وفي هذا العام غرق ابنها الأكبر فاسيا، في نهر بريجول، وعقب ثلاثة أعوام مات بعد عذاب طويل، زوجها فيودر فيودرفتش، إذ لم يتحمّل عملية جراحية، لاستخراج بقايا شظية أصابت قلبه، وكبرت البنات، وتفرّقن. وتزوجت الصغرى فيرتشكا من سكير، ولصّ، وصلوك متسرّد. تركت وزوجها ذات مرة ابنيهما عند الجدّة، ورحلا إلى سيبيريا للعمل، ويبدو أن الابنة توارت عن الأنظار. وبغية تنشئة الطفل، راحت يكاترينا تحوك الملابس حسب الطلب، وحتى بعد أن لوى التهاب الشرايين أصابعها، واشتغلت بجز صوف الأغنام، وعملت طيلة الصيف راعية أغنام. ولم يكن من السهل عليها مطاردة الماشية، بساقها الخشبية الاصطناعية، ودفعوا لها أجراً لا بأس به، فضلاً عن أنّهم قدموا لها أحياناً الطعام في الحقل، إنها لم تتذمر، وشبّ الطفل، والتحق بالخدمة العسكرية، وبعدها تزوج، وندراً ما كان يتذكرها، وبيعت لجدّته بمناسبة العام الجديد والأول من مايو، ببطاقات تهنئة مع التمنيات بالنجاح في العمل، والسعادة في الحياة الشخصية. وكان راتب تقاعدها ضئيلاً جداً. وانجرت يكاترينا إيفانوفنا، دون أن تشعر، إلى جمع القناني الفارغة في الخلاء والأزقة، وعند المخازن، ودخلت في شجار مع الأطفال، الذين نافسوها بجمع القناني. وكان الأطفال عند رؤيتها يصرخون بها: ما سعر الجنية العجوز! ويصادرون منها ما جمعته من قناني كغنيمة. غضبت يكاترينا إيفانوفنا، وراحت تصبّ اللعنت عليهم، بيد أن غضبها لم يستمرّ لفترة طويلة، وفي نهاية المطاف عثرت على حلّ. كانت تتوجّه منذ الصباح الباكر، وقد أقت الكيس على ظهرها، إلى ضواحي المدينة، بحثاً عن القناني المرمية في الحفر، على جانبي الطرق وممرّات الغابة. وكانت تقطع يوماً في رحلتها كيلومترات طويلة، ودون أن تبالي بالألام التي تنهش ساقها، وترجع في وقت متأخر من المساء بغنيمة ثرية، غارقة بعرقها الساخن، وبعينين ملتهبين. وبعد أن تفتّت الخبز في صحن عميق، تصبّ عليه الفودكا، وتأكله بملعقة، وبين الفينة والأخرى تبدأ عقب ذلك تدندن، بصوتٍ خفيض مرتعش بأغنية، وقالت عنها أميرة المدينة المشهورة بويانخا: لو كانت امرأة أخرى في محلّها، لفارقت

الحياة منذ زمن بعيد، أما هذه فلم تفقد عقلها بعد. وحصلت يكاترينا إيفانوفنا على لقب (السندباد البحري)، بسبب رحلاتها الطويلة للبحث عن الفنانين.

بعد أن أجال الدكتور شيبيرستوف بصره لسبب ما حوله، فتح الباب الأمامي لمنزل يكاترينا، وأمر ليوشا أن يمضي إلى الأمام. فتح ليوننتيف النور في المدخل وفي المطبخ. وصاح من الغرفة: - ماذا أردت، عن ماذا نبحث؟

ولم يردّ عليه شيبيرستوف. وفتح الورقة المطوية أربعاً، التي أعطتها له يكاترينا إيفانوفنا سوية مع المفتاح، فتضرج وجهه، واحتقن. ورمى بغضب الورقة على طاولة المطبخ، وانحنى حتى لا يصطدم رأسه بعتبة الباب، ووقف وراء ظهر ليوننتيف، وهو يتنفس بصوت مسموع. وتفحص رئيس قسم شرطة المنطقة، بتأملٍ الوضع في الغرفة الثانية للعجوز، وسلط الضوء الخافت، لمصباح من دون غطاء على كومة ضخمة من الورق، احتلت تقريباً المساحة الخالية بأكملها، وتمتم ليوننتيف باستيائه: - هل كانت تؤلف الروايات، أم ماذا؟! انظر.

والتقط ورقة من الأرض، وراح يقرأ: أحبكم، الحب مازال ممكناً.

نظرَ إلى الدكتور في حيرة:

- ما هذا؟

نقل شيبيرستوف العصا التي يتكئ عليها إلى يده الأخرى، ودفع ليوشا جانباً بحزم. تأوه، انحسر في شقّ ضيق، حيث كان هناك كرسي بظهر ملتو، وجلس، وسحب مجموعة من كومة الورق، وطفق يقرأ.

وكرر ليوشا، وهو ينظر بارتباك إلى الورقة التي ملأتها العجوز بالشخبطة: - لكن ما هذا؟ يا ترى إنها!

ألقي عليه شيبيرستوف نظرة غاضبة من الأسفل إلى الأعلى:

- هل كنت تعتقد أن الشيطان خلق الروح البشرية؟

وإصلاً حتى الصباح فرز الورق، الذي طلبت السندباد البحري إتلافه، وأخفته حوالي خمسين عاماً، عن العيون الغريبة. كانت كل يوم، واعتباراً من 11 نوفمبر 1945 تعيد كتابة نفس أبيات قصيدة بوشكين: «أحبكم...»، وخلفت وراءها ثمانية عشر ألفاً ومائتين واثنين وخمسين ورقة، من مختلف الأحجام، وكتبت على كل واحدة منها سبعة أبيات من القصيدة الخالدة، التي لم تفقد جمالها حتى من دون علامات التنقيط، لم تستعمل العجوز واحداً من الثلاثة عشر، وعلى ما يبدو أنها كتبت من الذاكرة، فارتكبت الأخطاء. مثلاً في كلمة «ممكن» كتبت حرف واو بعد الميم الأولى بدل الضمة، وعلى خلاف كتابة

العبارات التي كانت مُتَّبعة حينها في الاتحاد السوفياتي، فإنها بدأت كلمة «رب» بحرف كبير، ولم تنسَ أن تضع في أسفل كل صفحة، التاريخ، ونادراً ما كانت تضيف عدّة كلمات على غرار: 5 مارس 1953 «توقّي ستالين»، في 19 إبريل 1960 «توقّي فيودر فيودروفيتش»، 12 إبريل 1961 «تمّت رحلة جاجارين إلى القمر»، 29 أغسطس 1970 «رزق بيتنكا (كان هذا حفيدها) بنت سمّاها كسينيا»... كانت بعض الصفحات محترقة في الزوايا، وبعضها ممزقة، وكان يخمّن فقط الوضع الروحي، الذي كانت عليه في ذلك اليوم، حين كتبت مرة أخرى: أنا أحبك... لقد كتبت هذه العبارة على الورق ثمانية عشر واثنين وخمسين ألف مرة. لماذا؟ ولماذا كتبت هذه الكلمات بالذات؟ وبم كانت تفكر حين كتبت أبيات القصيدة، ودوّنتُ بعناية وفاة ستالين، أو وفاة فيودر فيودروفيتش؟

في الصباح أشعل شيبيرستوف وليوشا الموقد، وشرعا في حرق الورق، وفي غضون ساعة ونصف، ارتفعت حرارة الموقد، وأصبحت الغرفة ساخنة. ولسبب ما، انتاب كليهما الشعور بالحرج، ولكن، وبعد أن تمت ليوننتيف «وما الفرق، بين أن أحرق شخصاً أم هذه الأوراق»؟! تذرّمت الدكتور بغضب وحسب، واحتفظ شيبيرستوف بورقة واحدة، تلك الورقة التي أعطتها له يكاترينا إيفانوفنا، ولم يفهم بنفسه لماذا؟! ولأي غرض، ربما لأن المرأة العجوز، لأول مرة لم تضع عليها التاريخ!

حائط المبكى

إدوارد ليمونوف

اتصفت جادة دي ليون، التي تمتد من محطة ليون للسكك الحديدية إلى ساحة الباستيل، بكونها جادة قذرة ومغبرة وكريهة. إنها واسعة، وكان بميسورها أن تكون ذات تسمية بمنزلة أرفع، على سبيل المثال أفينيو. لكن لن يجروا أي أحد على منحها مثل هذه التسمية، وسيعتري الشعور بالخجل، كل مهندس تصاميم يتجرأ على ذلك. فأى شارع يمكن أن يكون بهذه الحالة البائسة. كان جانب واحد فقط من جادة دي ليون مأهولاً كلياً: إنه جانب المباني ذات الأرقام الفردية. وفي الجانب الآخر حيث الأرقام الزوجية امتدّ سابقاً، وابتداءً من تقاطع شارع دومسنييل، وحتى الباستيل نفسه، كانت هناك نقانق حجرية رتيبة، هي بقايا محطة الباستيل للسكك الحديدية. واحتلت جزء النقانق الذي اتسع، ليكون محطة سكك حديدية، مؤسسة تسمى «هوسبيس 15-20». ويفترض (إذا كان الاسم صادقاً)، أنها تؤوي العجزة من المعمرين، والمرضى المصابين بأمراض مزمنة. والآن يجري في مكان «هوسبيس 15-20» الانتهاء بتكاسل، من بناء أوبرا باريس الجديدة، التي تلوح واجهتها كمكعبات ألعاب حول كرة. أي أن المكان لا يزال غير مأهول.

لقد اكتشفت الجادة القديمة المرصوفة بالزلط بسبب حادث مؤسف، فخلال السنوات الأولى من إقامتي في باريس، كان يجب عليّ الذهاب كل ثلاثة أشهر إلى الجانب الآخر من المدينة، حيث كان هناك، وما زال في شارع ينارد، مركز بوليس تسجيل إقامة الأجانب. وبعد أن أقف في الطابور، لمدة نصف يوم، أتسلّم إشعاراً، (لونه يختلف وفقاً للرمز السري، لموظفي الشرطة البيروقراطيين) إلى إدارة البوليس حيث أسكن، لتمديد إقامتي. كنت أعيش في المنطقة الثالثة من باريس، وأضطرّ

للذهاب إلى المنطقة الثانية عشرة، حيث تقع دائرة البوليس تلك. وكان هذا هو النظام المعمول به، وظلّ سائداً لحدّ الآن. فالبوليس لا يسأل عن المكان المناسب لنا، لاستلام الإشعار. وللوصول إلى هذا المركز كان بوسعي، إما أن «أستقلّ» مترو الأنفاق إلى محطة «ريولي-ديرو»، أو بميسوري الوصول إليه بطريق أقصر، من خلال شارع «فوبورغ سانت أنطوان»، حيث توجد متاجر الموبيليا، التي تضي عليه البهجة، وهو أكثر رونقاً ونظافة وصالح للسكن، ومن ثم أستدير إلى شارع ريي فحسب. لكنني كنت أفضل السير في شارع ريو دي ليون. وتكمن المسألة في وجود مخزن لبيع الأسلحة في هذا الشارع.

توجد لدينا في باريس مخازن أسلحة غير قليلة، ولكنها لا تتبع الأسلحة للأشخاص بلا جوازات سفر، والذين بمعيتهم أوراق مطوية على أربع. والأسلحة غير متاحة تماماً حتى للذين يتمتعون بالمواطنة، ولكن، وبلا أدنى شكّ، إنّ الأشخاص من دون مواطنة شغوفون بها أكثر. وكنت أشعر بحاجة، للاقتراب أكثر من المخزن الكائن في جادة دي ليون، لكي أستجمع قواي قبل أن أتوجّه إلى مركز البوليس، والوقوف في طابور مهين بين أجساد أبناء الأقليات القومية، من الزوج والفيتناميين والعرب من مختلف البلدان غيرهم، (ولكن من دون أي شخص أبيض...، مرة واحدة فقط ووقت بالخطأ عجوز من إحدى الدول الإسكندنافية، كانت قد ضلّت طريقها)، وكنت أتوجّه مباشرة نحو واجهتيّ المخزن ذي الزجاج السميك المُعبر، بالرذاذ الوسخ الذي تقذفه الشاحنات الكبيرة. ووقفت إزاءهما منزوع السلاح، مثل جندي جيش مهزوم، داساً يدي في جيبي، وقد لفحت أذني الريح التي لا يصدّها شيء في جادة ريو دي ليون العريضة. وأنظر بنهم إلى «سميث اند فيسوني»، ومسدسات «كولت» و«والتر» و«براونينغ»، من شركة خريستال، والمسدس الرشاش الإسرائيلي «عوزي»، وقد أُشيرَ في اللصيقة تحت المسدس بتبجح: «المدفع الرشاش». رشقات نارية. فُكّرْتُ، رشقات نارية... ها... وأسرتني القوّة والسلطة المنصهرة في آلات الرمي الفولاذية، التي بلغت الحدّ الأدنى لحجومها، وتزاحمت مع بعضها البعض. وبعد أن أبتعد حوالي عشر خطوات، أعود، لألتصق بالواجهة الزجاجية ثانية، مُعللاً نفسي بأن ذروة تهافت المراجعين على مركز قبول الأجانب، قد حانت الآن، ومن الحكمة الانتظار بعض الوقت. كلا، لم أدخل ولا مرة واحدة المخزن، لقناعتني بأنّي لا أستطيع شراء سوى مديّة. ومع تصريح إقامتي من دون مواطنة، فإنّ صاحب المخزن لن يبيعي حتى بندقية صيد، ولم أكن بحاجة لبندقية صيد، ولا أي مديّة، فلدي مديتان... ولو كانت لدي إمكانية، لاقتنيت المسدس الرشاش «عوزي»، وأشياء أخرى... وأنا لم أسرح بخيالي بعيداً، حينما وقفت إزاء واجهة المخزن، وكنت دائماً ما أوقفُ خيالي بحزم وهو مازال في حالة الجنين. ولم تذهب مخيلتي أبعد من «عوزي». في طفولتي أحاطت بي الأسلحة، ذلك أن أبي كان عسكرياً في الجيش برتبة ملازم أوّل: (لقد اكتشفت بكل سرور أن رتبة أبي تُترجم إلى الألمانية أوبر ليتينانت. وقرأت في سيرتي الذاتية في كاتالوج دار نشر «بي أس» بأنّي ابن أوبر ليتينانت)، وكان في منزلنا مسدس من طراز «تي تي»، وفي وقت لاحق سلّحوا أبي بمسدس «مكاروف»، وبمسدس آلي ورشاش «كالاشنيكوف»، حتى إنني لم أعزها اهتماماً. وحينما كان عمري أحد عشر عاماً تسكعت بالشوارع حاملاً «براوننغ» البلجيكي، فقد أعارني إياه ليوم واحد

جارنا الذي كان برتبة رائد، بعد أن استلّ الخرطوش من مخزنه. أتذكر ذات مرة حينما لم ترجع أمي «رايا» إلى المنزل، حتى الساعة العاشرة ليلاً، إذ تأخرت في الطابور (لشراء موبيليا)، دسّ أبي المسدس في جيبه، وانطلقنا في ظلام بلدة سالتوفسكي للبحث عن أمي. وشعرت بأننا رجّلان يقومان بمهمة جادة. وكنت في تلك الأنحاء الواقعة في الشرق خلال الطفولة فقط، أشعر بكوني جزءاً من السلطة عن طريق الأوبر ليتينانت، أبي فينيامين، ومسدسه من نوع «مكاروف» ذي الرصاص من عيار 9 ملم، الذي كان يهتز بقوة خارقة في بنطلونه العسكري أثناء المشي. سِرنا في شارع «ماتريالستيتشسكايا» في الظلام، وكانت هناك أعمدة إضاءة كهربائية؛ اثنان أو ثلاثة، وتحت كل واحد منها تجمع رجال كبار أشرار، ولكننا لم نخفهم، فقد كانت معنا آلة الرمي!

ضربت الريح أذني بحفنة من التراب، فقطعتُ سيل ذكرياتي، وجعلتني أعود من قرية سالتوفسكي إلى جادة دي ليون. وقف في الجوار مني رجل عربي محدودب الظهر، ذو أنف كبير، اصطبغ بالحمرة بسبب البرد، وكان يعتمر قبعة بالية من جلد الغنم. وحدّق بإمعان في بندقية قصيرة لامعة لونها معتم ضارب للزرقة. وعيناه تطفحان بالحزن. وتبادلنا النظرات لفترة وجيزة دون ابتسام، ولكن بتعاطف، ولم ينبس أحداً للآخر بكلمة، ذهبْتُ إلى الواجهة الأخرى، وتركته بمفرده مع البندقية. على هذا النحو يتركون صديقاً بمفرده مع فتاته المحبوبة.

وبعد ذلك أقف في الطابور المقيت في المركز. وقف المراجعون في المركز محتشدين قفا على قفا، حتى قبل أن تُفتح الأبواب؛ (كل هذه الصفاقة نُظمتُ الآن على نحو أفضل، أما آنذاك فقد كان المراجعون يأتون منذ مطلع الفجر، مذعورين وخائفين من مصائد سلطات الاشتراكيين الجديدة و«أترانجيس»، ويترقبون دورهم في حالة عصبية، ويهرعون لشرب الماء، والتبول، ويأتمنون جيرانهم على مكانهم في الطابور، ويراوحن بأقدامهم تحت المطر وندف الثلج. وحرصتُ على التفكير بالأسلحة، وليس بالبوليس. وإذا لم أفكر بالأسلحة، فدائماً ما يدور في ذهني موضوع عسكري!. وكنت أتلهى بتخيّل جاري في الطابور على هيئة جندي في سرّيتي أو كتيبتي، وحاولت أن أُحدّد بالنظر، أي نمط من الجنود سيكون هذا، أو ذاك من الواقفين بالطابور، بعضهم لا يصلح قطعاً لأي شيء، لا يلتزمون بالنظام، وسيتمّ إعدامهم رمياً بالرصاص، لفرارهم في أول معركة، ولاح آخرون، بأنهم واعدون، ليكونوا جنوداً ممتازين. وعلى كل حال لم أتخيّل نفسي على الإطلاق قائداً، وإنما أكون ضابطاً، وربما ملازماً أوّل على غرار والدي. وسأكون ملازماً واثقاً بنفسه وباستحقاق، لماذا؟ لأنه في المهنة العسكرية، كما هو الحال في المهن المدنية، يحظى بالتقدير الهدوء، والثقة بالنفس، والسلوك اللائق غير الهستيري، وكنت أفكر، لقد حظيت باحترام الرجال في كل البلدان، التي أتيت لي فرصة الإقامة فيها؛ كانوا رجالاً من مختلف الطبقات الاجتماعية، ومن مختلف مستويات التطور، فلماذا أكون فجأة غير لائق، لقيادة البشر الذين يحملون السلاح؟ فأنا لم أرتبك أمام الحرائق (مرتين)، ولم أختلج إبان الكوارث البحرية (مرتين أيضاً)،... تذكرت ما قاله لي المحامي النيويوركي العجوز أيل، أثناء حفل استقبال في بيت رئيسي في العمل المليونير أودارد «أنت تُذكرني بالرجال القدامى الجيدين من جيلي. ويمكن الاعتماد عليك يا رجل». وربّت أيل، عند ذلك، على كتفي. وكان رئيسي يتعامل مع أيل بحكم الضرورة، فأيل يحظى بسمعة سيئة، لأنه كان محامياً للناس الغامضين، الذين يحملون ألقاباً إيطالية، من الذين يقطنون في بروكلين ولينتل إيتاليز. وتغضّن وجه رئيسي، عندما رأى أيل في حفلاته، لكنني مرؤوسه، ولديّ وجهة نظر أخرى في هذا الشأن،

وكنت دائماً أعتقد أن أيل هارد أند ربال، رجلٌ «قوي وأصيل»، في حين أن رئيسي طفلاً أربعيني، مفتونٌ بسياراته من الموديلات الغربية غير المألوفة، وبالأعمال التجارية. وكان رئيسي ستيفن كري إلى حدّ ما على غرار برنار تابي، وقبل أن يظهر برنار تابي بفترة طويلة، دائماً يتضح بين الرجال، مَنْ هو الرجل حقاً، ومن هو غير ذلك؟ لقد حظيت باستحسان أيل الرجل الحقيقي، وكنت فخوراً جداً حينذاك، وفخور بذلك الآن. كان يرتدي جاكيتاً إنجليزي الطراز من الموضة القديمة، وقد سرّح شعره الذي تساقط بعد الخمسين، للخلف. من الواضح أن الرجال القدامى الجيدين من جيله، كانوا أولئك الأشخاص من أصحاب الألقاب الإيطالية الذين دافع عنهم.

كانت زيارتي لواجهة مخزن الأسلحة في جادة ليون كافية، لتحمل مشاق مركز البوليس في شارع إينارد. وفهمت الكثير عن متاجر الأسلحة خلال سنوات زيارتي للمركز، والتي قمت بها كل ثلاثة أشهر، وأدركت أن واجهة متجر الأسلحة هي حائط مبكى الرجل المعاصر، يأتي إليها ليرى مباشرة بعينه، يتفكّر برجولته التي أنتزعت منه بالقوّة. يقف حزيناً، وجبهته على الزجاج، ويصلي بصمت، ويحلم بجبروته المسلوب. يأتي أناس مختلفون جداً إلى واجهة متاجر الأسلحة. بلى، وحتى العجائز الذين شحب لونهم، وغدت وجوههم باهتة، ومضت حياتهم التي عاشوها بلا رجعة، ولكن كان هناك برجوازيون أنيقون يرتدون نظارات طبية، وبمعاطف جيدة، وأنماط ذوو أوداج حمراء بأحذية رياضية، وسراويل جينز، بعيون ساطعة ومتوقدة، على هذا النحو من الناس، الذي يُعبّرون عنه شعرياً في روسيا بالقول: إنّ «السجن يبكي عليهم». ذات مرة، وجدتُ عند الواجهة، وقد تأثرت بذلك، رجلاً أحذب صغير الحجم، لا ينشد العطف، بوجه أصفر مائل إلى الخضرة، وضغطت قبضته المنمشة بمنديل على أنفه. ما الذي كان يفكّر فيه صغير الحجم هذا، الذي لم يكتمل نموه ولا شكله، في سترة رثة يرتديها على الحذبة؟

بدأت في زيارة حوائط المبكى، حينما كنت مقيماً في فيينا. بيد أن أول سلاح غربي اقتنيتُه، كان مدينة ألمانية قوية، مدينة زولينغن، تشبه حربة فيرماخت، أكثر من كونها مدينة، اشتريتها في برودواي في ميدان التايمز من متجر أسلحة كان يقع بين متجر «راكودز» و«ميدان تايمز ايمباير» حيث كانت تُباع الدُمى، ومصنوعات من عظم العاج، وآلات تحميلص الخبز، ومصاييح، وحقائب، ومَحافظ مصنوعة من الجلد الصناعي، وأقنعة كينغ كونغ، ونماذج لمبنى «إمباير ستي»، وفانيلات مكتوب عليها: «أحبك يا نيويورك»، إضافة إلى مئات المسميات الأخرى، لمثل هذه التفاهات التي تُباع للسيّاح. وكان يباع خلف مخزن «راكودز»، تحت مظلة سينما تعرض أفلاماً إباحية، الفشار (حبوب الذرة المشوية). ومنذ ذلك الحين ارتبط مفهوم «المدينة» أو «الحربة» بشكل غير طبيعي في عقلي الباطن برائحة الفشار، وقبل أن أدلف إلى المتجر، كنت أقف بالطبع، إزاء الواجهة لأكثر من ساعة. وكان فريق كامل يراوح في مكانه عند حائط المبكى هذا. كانوا زنجياً مسنّين، ولكنهم وجّلون يتفّرّس بعضهم في مدفع رشاش ماوزر، وآخرون في «وينشستر»، وباختصار، اختار كلٌّ منهم السلاح الذي يرغب فيه، هدفاً لنظراته. أتذكر أن البندقية الإيطالية الشهيرة «كاركانو أم 91» بعيار 6.5 ملم، كانت معروضة على قطعة من المخمل القديم في وسط الواجهة. كان «أن لي هارفي أوزوالد»، قد أطلق النار منها على الرئيس جون كنيدي. لا أعرف لماذا، ولكنني أحصيت عدد الواقفين عند الواجهة. كُنّا سنّةً عند حائط المبكى هذا، وكان هناك شخص آخر، لكن ذلك... لم

يكن واضحاً فيما إذا كان مهتماً ببندقية «كاركانو أم 91»، وكان ينتظر لحظة مناسبة، لدسّ يده في جيب غريب منتفخ، أم نشر بطاقات اللعب على صندوق من الورق المقوى، وسرقة المارة بشكل قانوني... كان باب المتجر مشرعاً، ويفيض بالضيافة، وشعّت منه برودة بكرمٍ مفرط على الطريقة الأمريكية. دلفتُ إلى القاعة المكيفة. كنت في بدلة جينز ظهرت فيها ثقوب من كثرة غسلها، أنا ابتعتها من شارع كانال، البنطلون بقيمة دولار و25 سنتاً، والسترة بـ 3 دولارات. ولم يكن من الصعب على السكان الأصليين، أن يفهموا على الفور أي ضرب من الطيور أنا.

- ماذا بوسعي أن أقدم لك، «يان مين»؟

سألني بائع شبيه للغاية بالعالم النفسي سيجموند فرويد. كان أسود العينين، ومرحاً ومريباً، وتحدث بلغة إنجليزية فظة للغاية، تشهد على أن مكانته الاجتماعية الأدنى بكثير من مكانة صنوه فرويد، لكن، كان واضحاً من عينيه الماكرتين أن التجربة والممارسة جعلته قارئاً ممتازاً لنفوس البشر.

أوضحت له:

- أريد أن أقتني مديّة، أنا بحاجة لها.

وافقني فرويد:

- أرى أيّها الشاب، أنك حقاً بحاجة لمديّة.

يتميّز ممثلو قبيلته عادة بالميل إلى المحادثة والثرثرة. وفي ولاية نيويورك، يُعدّ بيع الأسلحة للسكان، وبناءً على طلب من السلطات، أمراً صعباً للغاية، ولم يكن المتجر مكتظاً بالزوّار على الإطلاق، ويبدو أن المسكين صنو فرويد، عانى من بُكم اضطراري... صحيح، كان بإمكانه تبادل أطراف الحديث مع الباعة الآخرين...

وصاح، وهو يُلقي نظرة عطف علي:

- أوه، أنت بحاجة ماسة إلى مديّة، أيّها الشاب.

ماذا بوسعه أن يقول أكثر من ذلك لزبون على غراري؟ فيمكن للمرء أن يلتقط في سلّة المهملات بدلة مثل بدلتي، وكان حذائي من ذات المجموعة، وعدساتي اللاصقة مغطاة ببقع مجهولة المنشأ، وخدشت عيني، التي راحت تؤلمني منها. وعلى ما أعتقد، وشّت عينايا اللتان احمرّتا، بمظهري المريض. حينها كنت أعاقِر الخمر بكثرة، وظلّ وجهي باستدامة منتفخاً، ودخنت الماريخوانا القوية و...، باختصار، لم أكن في حالة حسنة. وقلت لنفسي، وأنا أنظر في المرآة على النحو التالي: «أيّها الشاب، لم ترأف بك الحياة إلى حدّ كبير». ولم يكن واضحاً ما إذا كنت سأخرج من الوضع الذي وجدت نفسي فيه.

وبادرني سيجموند فرويد بالسؤال:

- كم من المال بميسورك أن تنفق؟

- عشرين دولاراً.

تنهّد قائلاً:

- مؤسف، هناك مدينة عسكرية ألمانية ممتازة، ولكن بسعر اثنين وعشرين دولاراً. إنهم الألمان يعرفون كيف يرسلون شخصاً إلى العالم الآخر بأفضل السبل. هل تريد إلقاء نظرة عليها؟

نعم كنت أرغب بها. فإلى جانب العشرين دولاراً، كان لدي العديد من النقود المعدنية الصغيرة، التي كانت في جميع جيوب بنطالي، لكنني لم أكن متأكداً فيما إذا كانت ستكفي لدولارين. فقد أخذت معي، لكل طارئ، كل ما أملكه من النقود، ولم يكن من المفترض أن يصلني الشيك التالي، بدفعة نقود من مؤسسة الرعاية في غضون خمسة أيام. ولم تزعجني هذه الحالة كثيراً، فقد مددت جنوري في نيويورك، ويمكنني العيش فيها، لمدة خمسمائة وخمسة وخمسين يوماً من دون «نقود». وعرفت كيف أقوم بذلك. الإزعاج الخطير الوحيد من كوني مُفلساً، أنه يحرمني من وحدتي. اكتشفت من خلال خبرتي، أنّ الوحدة تكلف المال في المجتمعات الرأسمالية الأكثر تطوراً. والغريب، يبدو للوهلة الأولى، إنّ الناس يخافون من الشعور بالوحدة، ويبحثون عن التواصل مع الآخرين. لماذا يستحق الشعور بالوحدة غياب «النقود»؟

ردّد هو:

- هل تريد أن تُمتّع نظرك؟

- نعم.

تركني لوحدي بلا مبالاة، وذهب إلى المستودع الخلفي. علماً أن كافة الواجهات كانت مغلقة بالأقفال، وكان في باحة المخزن بائعان آخران وبضعة زبائن. عاد، ووضع أمامي مدينة كانت في غمد من جلد خنزير. سحبها؛ كانت ذات قبضة ثقيلة، وجسم قوي مع أخدودين لتدقق الدم. ولم تكن الآلة معدة للقطع، وليس لإحداث إحدى الشقاوات جرحاً طفيفاً بوجه خصمه، فقد حمل البائع بيده آلة، لشقّ إخدود عميق، لبلوغ الأعضاء الداخلية المعزولة الهادئة، المخفية في عمق الجسم.

وقال سيجموند فرويد:

«هلاً ترى، إنّ هذا بالذات ما تحتاجه أيها الشاب. إنه يحرث عميقاً وبدفعة. فأنت تستعدّ لرحلة صيد حيوانات مفترسة، كما أعتقد، وليس بوسع حيوان مفترس الصمود أمام الضربة المباشرة، التي تسدّها يدٌ واثقة من نفسها».

تلّمست السكين، وقرأت النقش الذي يؤكد أنها ألمانية.

- هل لديكم موسى تندفع من الداخل. بلولب؟

وقال بمرح:

-«كلا يا بني. إن القانون يُحرّم بيع مثل هذه السكاكين. «فوربيدين¹⁵. فوربوتين»، لسبب ما كزّر الكلمة بالألمانية. وأرجو أن تثق يا بني بأن هذه اللّعب ذات اللولب وذات الزر، للطائشين والصعاليك، وليس للرجال الجادين. وأنا أعرض عليك صديقاً مقاتلاً جدياً، يا بني؟ مدية للرجال الأقحاح. خذها، إنّها لا تُخلّصك من كافة مشاكلك، ولكن برفقتها ستبدو غيرها، ليست ذات شأن».

وألقى سيجموند فرويد عليّ نظرة محلّ نفسيّ.

وسألته:

- هل أنت يهودي ألماني؟

- نعم. وهل شعرت بمشاعري القومية؟

- شعرت بهذا، بالإضافة إلى ذلك إنك تشبه سيجموند فرويد. هل قال لك شخص ما في يوم من الأيام ذلك؟ أنت تشبه أبا التحليل النفسي.

وقال:

- من الأفضل لو كنت شبيهاً برئيس بنك تشيز مانهاتن، أيّها الشاب، هل ستشتري المدية؟

- إذا بلغ ما لدي مقدار اثنين وعشرين دولاراً.

أخرجت العشرين دولار، وسحبت قطع النقود الصغيرة، ورخنا نَعْدَها. وظهر أن لدي 21 دولاراً و54 سنتاً.

وقلت:

- أنا آسف.

دفع المدية نحوي قائلاً:

- خذها، أنت بحاجة لها. فنيويورك مدينة خطيرة، أيّها الشاب.

وراح يجرف من على الزجاج المضاد للرصاص النقود المعدنية إلى باطن يده. وكانت خلف الزجاج المضرب الذي نفذت به الأسلاك، أشياء خطيرة للغاية. مسدسات ذات معايير كبيرة.

ولاحظت من بينها «ماوزر- 57». إن الجماجم البشرية تتطاير رذاذاً، بطلقة واحدة من هذه المسدسات مثل قرعٍ يانعٍ، مع خلايا مخ الرأس الرمادية.

ثم تباطأ، وقد اتّكأ على راحة يده. سحب منها عشرة سنتات.

خذ قطعة النقود هذه، تتصل هاتفياً بأحد ما، لتبلغه، بأنك على قيد الحياة.

تقع برودواي على مسافة بعيدة عني، ولهذا أنا أسير في جادة دي ليون. وخلف الواجهة يوجد دائماً «مبيل». يُخيّل لي أنه، وبما أن الجادة مهجورة، يستطيع الرجال الخائفون والكتومون التمتع، حتى الشبع بالتفرج هنا على الرجولة السليبية. وعلى سبيل المثال يقفون عند متجر الأسلحة، في شارع ريشيليه، وهو أكبر، وأكثر ثراءً، لفترة أقصر، بينما في جادة دي ليون يقفون دائماً متجاهلين الرياح أو المطر أو الحرّ، الذي يذيب الإسفلت...، وعيونهم حزينة لدرجة لا تطاق. مثل القطّ المخصي الذي حرمه صاحبه من ذكوريته، حتى لا يسبب له المتاعب بانفعالاته العاطفية.

البريد

إيلدار أبوزياروف

في موسم الخريف المتأخر

أفكر في وحدتي:

«كيف يعيش جاري»؟

باسيو

1

كنت خلال أشهر الخريف تلك، أقيم في شارع «جاوجيلا» في القسم الداخلي للطلبة، الكائن وسط قصور فارهة. ولم ينتهياً لي أبداً أن أسكن سابقاً في مكان هادئ إلى هذا الحد. ولم يحاول تعكير صفو مكان العزلة الملهمة هذا أي شخص، ولا حتى محرك حافلة، نادراً ما تخترق الشارع، فهو يعمل بخفوت مثل تساقط أوراق الأشجار.

ونتيجة لذلك، فإن لغتي اليابانية تقدمت بخطوات، مثل الخطوات القصيرة لفتاة بثوب الكيمونو¹⁶، تذهب إلى سوق السمك في الصباح. وفي تلك الأيام كنت أشعر بتحذير مسبق، فقد بدا لي أن اليابانيين يتغذون بالأوراق اليابسة المتهشمة والقواقع. ولو جلس المرء على مصطبة تحت شجرة الإسفندان طيلة أيام، وهو يسرح بنظره، ويتملى السحب العائمة على ارتفاع منخفض،

وحاول أن يُحدّد باللمس ما يمسّ وجهه: غبار أم مطر أم ريح أم قوس قزح من الأوراق المتساقطة، فإنّ السحب ستُنكّره عاجلاً أم آجلاً بالمشتريين اليابانيين المهتاجين الذين يتدافعون على شراء المأكولات البحرية من زعانف سمك القرش إلى أعطاف الحيتان - السندي.

وجدير بالذكر، أنني في ذلك الوقت قمت بالخطوات الأولى فحسب، للتبحّر في الثقافة اليابانية من خلال دراستي للمصنّفات السمكية. غير أنني بدأت بالتحدّث، وكما يجب، بعبارة يابانية بسيطة مثل «مرحباً» «مع السلامة»، فقد كنت أفكر كعالم مبتدئ، في تأليف عمل علمي مُبسّط عن الثقافة اليابانية.

ونظراً لعدم وجود مساحة فسيحة في غرفة القسم الداخلي الجامعي، فقد قررت أن أغلق المقاطع الهيروغليفية، ذهنياً على الأشجار. إن أشجار الخريف حدّ ذاتها مقاطع هيروغليفية، ولكنها تشبه الناس أيضاً، لذلك سرعان ما بدأت بالتعرّف على جنس تلك الأشجار، من خلال ظلال قمم الشجر، التي يشبه شكلها ملابس الكيمونو اليابانية التقليدية.

ووصل الأمر بي، لحدّ أنني عندما كنت أخرج صباحاً ومساءً، لاستنشاق الهواء النقي، أحفظ على طول الطريق الكلمات الجديدة، وألقي التحية على الأشجار؛ أصدّقائي الجدد؛ أقول لها: مرحباً أيّها المحترم، أيّتها المحترمة، ومرحباً بك أيّها الصديق...

وتخيّلوا كم كانت دهشتي بالغة، حينما رأيت ذات يوم أن القلق، ولسبب ما، يعترني أصدّقائي الجدد. وغدا الجوّ مُشبعاً بقلق غريب.

وسألت:

- ماذا حدث؟

لقد تبين أن الوقت حان، لتخلّي الأشجار عن حلّتها. وبالنسبة لليابانيين، فإن هذا مؤلم على نحو خاص. إن اليابانيين يحترمون للغاية الملابس التقليدية. والأكثر إبلاماً هو أنني غير قادر على فعل شيء لتشجيعها. ولو كانوا فرنسيين، لمسّدت على خدودهم. بيد أن التعامل بهذا الشكل مع اليابانيين أمر غير مقبول، فهم حتى في محطة القطار لا يسمحون لأنفسهم، بلمسة ودية.

وعلى هذا النحو لم ألاحظ، وبسبب انغماسي في الدراسة، أنّ هبوب الرياح أصبح أكثر ضرواً.

وكان بوسعي فقط الانحناء لها، مُقوّساً ظهري، للإعراب عن الاحترام التقليدي، معرباً لها بذلك عن الحزن، والمواساة، والتعاطف مع أوراق أشجار الإسفندان الكبيرة، بيد أن الأوراق تساقطت في هذه الأثناء من مكانها، وأظهرت لي لساناً أحمر منتفخاً، وانزلقت في أقرب كوة في أسفل الرتّاج.

كان هناك شيء ما جديد، فعندما استدرت من تحت الطوق، عثرت بغتة على ورشة لتجليد الكتب. لقد تجولت مرات عديدة في الأزقة الكثيرة المحيطة بمنزلي، بيد أنني لم ألاحظ من قبل أي ورشة، لتجليد الكتب في الجوار...

إنني حتى أرسلت صرخة تعجب، هكذا كانت دهشتني أمام اللوحة، التي تشير للورشة التي ظهرت أمامي. لقد حان الوقت لكي أعدو إلى القسم الداخلي، لجمع الأوراق، وأجلبها للتجليد، لكن ورشة العمل كانت مغلقة، وعلقت فوق باب الورشة الرمادي المبلل، جهاز عين ساهرة، للإنذار من السرقة.

وأوحى لي شيء ما، بأن المبنى المجاور لورشة التجليد، كان مألوفاً لي. وعندما طُفئت حواليه، اقتنعت بهواجسي. كان هذا مكتب البريد، الذي اعتدتُ على زيارته بانتظام.

2

وضعت الفتاة أغسطا منذ عدة أشهر تحت الإشراف الفائق في المستوصف الواقع في شارع «أيام يوليو». وأعتبر هذا المستوصف في السابق نموذجياً، بل الأفضل من بين كافة المؤسسات المماثلة للأمراض العقلية. وأصبحت الممرضات الآن أكثره قسوةً وفضاظةً، وفي زاوية الغرفة التي يتم تجسيصها عادة، يُبقي العمال فراغات في الجدران، وظهرت فيها الشقوق.

وجرى إدخال أغسطا في المستوصف، لتلقي العلاج الإجباري، إذ جاؤوا بها مباشرة من المنتزه، حيث ظهرت هناك عاريةً، كما ولدتها أمها، وروعت أمهات الأطفال الرضع، اللواتي يتنزهن مع أطفالهن هناك.

وكما يردّ في ملفّ أغسطا الشخصي، فإنها في سنّ 28 عاماً، وأطلق عليها الاسم تكريماً، لشهر أغسطس الذي ظهرت فيه في المستشفى. كانت جميلة. ومرضاها لا يتفاقم، ولكن لا يستجيب للعلاج، وحينما أدخلوها المستوصف، حاول الطبيب أن يتحدث معها:

- ما اسمك، يا فتاة؟

- لا أعرف...

- أين تقنينين؟

- لا أتذكر.

ومضى الحديث معها كله على هذا المنوال. وأثارت بعض الأشياء فقط، لدى أغسطا موجة من الانفعالات، فعلى سبيل المثال، حدّقت في قاعة المطعم بالأقداح لفترة طويلة، أو حينما وزّعت الممرضة أيفيلينا التي كانت تعدّ أطروحة للدكتوراه، الرسائل على المرضى، ومضت عينا أغسطا بانتظار مؤلم.

وجرى تكليف مُعدّة أطروحة الدكتوراه المتدربة أيفيلينا للعناية بأغسطا، وتطوير ذاكرتها، وتعليمها الكتابة وجدول الضرب. بيد أن أغسطا تمكنت خلال عدّة أسابيع من التدريس، من تذكر حرفين فقط أ (أغسطا)، وآ (أيضاً أغسطا). ومن إجمالي الأرقام، تذكرت الأرقام الثلاثة الأولى فقط.

واحتجّت أيفيلينا:

- إنها لا تريد حفظ أي شيء.

- أعطيتها المظاريف، وشرحي لها، بأن من الممكن الكتابة عليها أيضاً. وسترين أن شيئاً ما، سيحصل.

3

وجدتُ نفسي أمام نافذة صغيرة بزجاج معتم، وكانت كالعادة تجلس خلفها موظفة بريد، وهي سيدة في متوسط العمر، ذات وجه ضيق مُتعب، وشعر مُجعد أسود منفوش، لا يعرف التعب.

وأديتُ مراسم التحية بجفاف:

- مساء الخير، عفواً، أتعرفون فيما إذا كانت ورشة المطبعة، ومكتب التجليد التي بجواركم، تعمل؟

ردّت المرأة بأنها ليست مكتب استعلامات، على الرغم من أن نافذتها الصغيرة، كانت تشبه إلى حدّ كبير مكتب استعلامات.

لكنني لم أشعر بالضيق، وقررت أنه من الغباء حقاً أن أسألها عن مثل هذه الأشياء، (كيف يمكنها أن تعرف؟)، وأنه من الأفضل أن أحضر بنفسني غداً، إذ من المحتمل أن تكون ورشة العمل مفتوحة.

ومن أجل التخفيف من حدة الموقف المحرج بطريقة ما، بدأت أسألها عن الاشتراك في الدوريات، وعن المحتوى الداخلي لبعض الصحف والمجلات.

دعنتني للاطلاع عليها بنفسني. وفكرتُ، ولم لا؟ لاسيما أنّي لم أرغب في المغادرة. وولجت المبنى، حيث كانت الغرفة العامة تسبح في شبه ظلام؛ ذات سقف منخفض، وطاولات وكراسي خشبية. الطاولات قديمة نوعاً ما، وذكرني كل هذا إلى جانب رائحة الصحف والأدوات المكتبية القديمة المتهاكلة، بمكتب عالم كبير ومُتقّف، وممل ومهمل.

وبينما أخرجت موظفة البريد كتالوجاً سميكاً من الخزانة، تخيلت أنه في يوم من الأيام سأحصل أيضاً، على مسكن مشابه لمبنى البريد.

واقترحت عليّ موظفة البريد:

- بإمكانك الاطلاع عليه في قاعة الزبائن، وأنت تعرف مكان مفتاح بابها.

كنت أعرف جيداً غرفة الزبائن، أو قاعة صناديق البريد، فإني، وكما قلت سابقاً، غالباً ما كنت أزور مكتب البريد، وكان لي أصدقاء كثيرون، وكتبوا لي الرسائل من جميع أنحاء العالم، بما في ذلك اليابان والصين.

ولكي يدخل المرء غرفة صناديق البريد، كان عليه أن يُخرج المفتاح من كيس مُعلّق، على مسمار بجانب الباب الجانبي، ويفتح القفل المُعلّق هناك.

وكما قال موظفو البريد، إنّ القاعة العامة كانت منخفضة أكثر وقاتمة. ووجدت نفسي أفكر في أنني، وخطوة إثر خطوة أغرق في حكاية، يلقها غموض ورموز غير واضحة وكثيفة. فعلى مدى الأشهر الطويلة من دراستي للغة اليابانية، تشبعتُ بالثقافة الشرقيّة، وبدا لي أنني أدمنت أكثر من اللازم على التأمل. وكنت أبحث عن الجمال الأنيق في جميع الأشياء. إذا ما لفت انتباهي شيء واحد على الأقلّ جدير بالاهتمام، لقيمتُهُ بما يستحقه عن جدارة، لا سيما على خلفية هذا المكان عديم الصفات المميّزة. وحدث معي شيء من هذا القبيل، ولكن ليس على الفور...

وضعت القفل في كيس، وبمجرد أن تجاوزنا العتبة، ارتطم القفل بالصندوق المعدني، وتعالى رنينٌ، يمكن مقارنته فقط بصليل السيوف اليابانية. كان قوياً وصاحباً، لدرجة أنني لفترة طويلة، لم أجرؤ على القيام بخطوة أخرى خشية وقوع ضربة تالية، لمقاتل ساموراي كامنة في الغسق ستنهال على رأسي. علماً بأن الضربة الأولى كانت غير مريحة.

وقالت المسؤولة عن القاعة، التي ظهرت بغتة:

- لا بأس، يحسن بك الجلوس خلف إحدى الطاولات.

غير أنه، تمّ دفع جميع الطاولات، لتكون على شكل طاولة كبيرة، ووضعت على حافتها أكوام من الصحف الجديدة. مددت يدي إليها بشكل لا إرادي، وحتى دون أن أطلب الإذن، وأخذت صحيفة في أعلى الحزمة.

وظهر في الأعلى حيث يكتب عادة اسم المرسل إليه، حرفان «بي/أل». وبما أنني من رواد المكتبات الدائمين، فقد كنت أعرف ما يعني هذا، على الرغم من أنني لم أستطع أن أفهم لماذا «بي / أل» بالذات. حينما تنتهي من المطالعة، اجلب المفتاح لي، وبوسعك ترك الكتالوج في مكانه.

بقيت وحيداً في الغرفة الرطبة المنخفضة، ولاحظتُ بأنه تمّ صبغ كل شيء هنا وخاصة الصناديق، على غرار رقعة شطرنج، وأثارت الروائح مخيلتي. يُقال إن الأديب الألماني فريدريك شيلر كان يحتفظ على طاولته بتفاحات متعفنة من أجل أن يأتيه الإلهام، وشم الفرنسي أونوريه دي بلزاك لهذا الغرض، القهوة.

أجلتُ بصري في القاعة. كان على خزانة المشتركين قدحٌ أبيضٌ تُلمت حافته. أبيضٌ تماماً. أمعنت النظر فيه لمدة نصف ساعة تقريباً. في البداية جالساً، ومن ثم مستلقياً على الطاولات، التي

جرت زحزحتها من مكانها. ومن ثم نهضت، وذهبت إلى النافذة، كي أنظر إليه من موضع زاوية حادة، وبعد ذلك اقتربت من القدر، راغباً في إمساكه بيدي.

وما كان بوسعي أن أرى؟ لم يكن القدر على خلفية اللون الأخضر (لون الجدار)، وإنما على خلفية زرقاء. وهذا يعني كان هناك باب آخر خلف الخزائن.

أخذت القدر بعناية، وأدرته في يدي، وفحصته من جميع الجهات. ومن ثم رفعته إلى الأعلى نحو السقف بقدر ما أستطيع، كي أنظر له من الأسفل. كُتِبَ على الجانب الخارجي للقاع بطلاء بني فاتح: «صناعة يدوية، خزف، براتيسلافا». كان القدر تشيكيّ الصنع، وبجدران رقيقة، ولهذا كان خفيفاً للغاية. واتضح أن القدر ليس أبيض تماماً، وإنما مشوبّ بلون وردي رقيق. إنه عملٌ دقيق ورشيق. وبقيت على حافته العلوية آثاراً، لأحمر شفاه بني فاتح. يا ترى لمن تعود؟!!

ما إن أعدتُ القدر إلى مكانه، وأنا في حالة اضطراب، حتى دلفتُ إلى القاعة موظفة البريد. وتظاهرتُ بأني أفحص صندوق بريدي. وفتحته وأنا أصفر.

وقلت، وكأنني قد دهشت:

- أوه، رسالة!

استغربت لعدم وجود توقيع على الرسالة. وكانت على المظروف الأبيض بضعة حروف وأرقام وحسب، وكتبت، وبعناية، وجهد بخطّ طفل: 123321 هذا رقم قسم بريدنا، وص ب 123، وهذا رقم صندوق بريدي.

«يا ترى هل هذه الرسالة من حسناء يابانية غريبة، دارسة، ومثلي تنهجي مقاطع لغة جديدة؟»، وتولّد لدي أمل ساذج؛ إنّ الفتيات يرغبن بالتعرّف على شخص أوروبي، لتعلم لغة أجنبية بمساعدة التواصل معه.

غادرت موظفة البريد القاعة، أو بتعبير أدق انتظرْتُها حتى تختفي وراء الباب. وعندها فقط فتحت الرسالة بتشنج. ولكن لم يوجد داخل المظروف، أو تقريباً لم يوجد، أي شيء. كانت فيه مجرد ورقة شجر؛ ورقة خريفية، كان نصفها بلون بني فاتح مثل أحمر الشفاه على القدر، مثل تلك الشفاه التي لامست حافة القدر الخزفي، والنصف الآخر كان بلون أحمر فاتح، مثل ورقة الإسفندان الحمراء، التي أظهرت لي لسانها قبل ساعة.

4

وضعتُ، وأنا مسحور، الورقة في القدر الأبيض المائل للون الوردي، مكوناً منها ضرباً من «ايكييانا»¹⁷. وشرعت في حفل شرب الشاي (هذا ما أطلقته على عملية الكتابة)، وجاشت في رأسي فقاعات من الخيال، ساكبةً تياراً ساخناً شديداً من الرؤى، على الورقة في قدر الخزف الأبيض كالثلج.

وكنت من وقت لآخر، أرسل نظرة فضولية إلى القدر الذي أصبح مزهرياً إيكيبانا. وبدا لي أن هذا القدر كان اعترافاً عاطفياً مُشَقراً بالحب. ويكفي للمرء فقط أن يغمس هذه الرسالة المُشَقرة في تيار الخيال الملتهب، حتى يتضح له كل شيء.

لقد فكّرت أن تبادل القبل، غير مقبول لدى اليابانيين. فما يمكن القول عن آثار أحمر شفاه.

إن عرض قدح عليه آثار أحمر شفاه على الملاء، أمر مستهجن، وحتى غير لائق. إذن هذا ليس ببساطة اعترافاً بالحب، وإنما بادرة يأس. أجل، على الأصح هذا اعتراف يائس، محفوف بمخاطرة كبيرة، إنه اعتراف، على شفير حاجز حادّ بين الحياة والموت.

وتخيّلْتُ للحظة، أنّ الأمر قد يكون له علاقة، بطريقة أو أخرى، بانتهاك التقاليد اليابانية العريقة، وتصورت أن أحد الآباء فرض على ابنته الزواج من سيّد محترم، من دون إرادتها. وعلى الرغم من إتمام الخطبة، وجدت لها عريساً يميل له قلبها، والآن تلتقي به سرّاً. وحتى ليس عريساً وإنما هو نداء القدر. على سبيل المثال؛ أنها وبالخفية عن والديها، شغفت بقراءة الكتب. وعرفت من الكتب أنه توجد حياة أخرى، مختلفة عن المصير الذي أعدّها.

وقررت الآن، وتحت تأثير العاطفة المتقدّدة، المضي حتى النهاية في شغفها بالكتب. إنّها تقرؤها بنهم، وهي جالسة في الأمسيات بجوار النافذة، وترتشف الشاي من فنجان بلون وردي. وتحلم برحالة انتقل إلى صفحات خيالها من الكتب، بل إنّها تعلن للأسرة أنها ستحصل على التعليم في أوروبا. وحالما سمع بذلك والدها المحارب النبيل، شعر من أعماق روحه بالإهانة، واستلّ بقبضة حديدية سيف الساموراي من غمده، وراح أمام جميع أفراد الأسرة يُمرّق ما عليها من ملابس، كي لا تتمكن بعد الآن من مغادرة المنزل، أوتحتى ليس الملابس، بل الكتاب الذي كان في يدها، حتى لم يعد بوسع الابنة بعد الآن، التنزه في دروب الكتب.

5

أغلق المُجَدُّ مارك منذ عام وَرَشَنَّهُ لتجليد الكتب، التي احتوت على جهاز كبير لتصوير المستندات، وآلة طباعة (مطبعة صغيرة)، وراح عوضاً عن ذلك يمارس سرقة الرسائل من مكتب البريد رقم 321، الذي يفضي إليه باب سري من غرفة فرعية في الورشة.

ولم يتقرّر مارك في يوم من الأيام من مداخل عمارات السكن كثيرة الشقق، واستلّ الرسائل من صناديق البريد الحديدية بعيدان صينية، تماماً كما لو كان يلتقط القواقع. هناك من الناس من يجمع القناني، وآخر يجمع الطوابع أو الأشياء القديمة، التي يُنقّب عنها في حاويات النفايات، أما مارك فقد أطلّ بنظرة حادّة في فتحات صناديق البريد، باحثاً عن المظروف، كما لو كان يبحث عن طعام شهيّ، من لحم حمام أبيض ضارب للزرقة، وكانت الرسائل الحديثة أفضل غذاء له.

قام مارك بتجليد الرسائل في كتاب واحدٍ ضخم. أجل يمكن القول، إن مارك فقد عقله بهدوء، ولكن كان هناك حساب سليم في أعماله. لقد عقد الآمال على نشر كتابه بعدد غير مسبوق

من النسخ، فبعد كل شيء، إنه هو من الفن المفاهيمي، وخلع على مصنفه، لتوسيع انتشاره، عنوان: «رسائل الأقارب والأصدقاء، التي لم تصل لكم». ودبح مقدمة صغيرة له.

6

عند ما رأته أغسطا ورقة الإسفندان الخريفية ذات اللون الأحمر الضارب للبنّي، تتدلّى بسلاسة على حافة نافذتها، أدركت أنها ستغلقها في مطروف، يُشبه إلى حدّ كبير أقذاح الخزف البيضاء، التي يتمّ تقديم القهوة فيها، لتناول الإفطار في المستشفى.

وقامت أغسطا بكل شيء من دون عجلة، كما يليق بامرأة جميلة وأنيقة. وغلّفت الخطاب من دون عجلة، ومن دون عجلة خرجت إلى الحديقة، وأسقطت المطروف في صندوق البريد عند البوابة الحديدية. لم يرغب الصندوق، لفترة طويلة، في قبول الرسالة من يدي أغسطا غير المُجربة، وقد انتفخ تماماً، كموظّف منفوخ الأوداج، ومنفخ البطن، ولم يعد يرغب في رؤية، وسماع، وفهم أي شيء...

ومن ثمّ توجّهت أغسطا لتلقي نظرة على العجائز، اللواتي يلعبن الجولف، واعترضها الطبيب المعالج:

- مرحباً أغسطا

- ردّت أغسطا عليه:

- نهارك طيّب.

- كيف حالك؟ قالت أيفيلينا إنك كتبت اليوم رسالة لشخص ما؟

- نعم، لقد أرسلتها.

- ولمن؟ إذا لم يكن سرّاً؟

- دكتور أنا نفسي لا أعرف لمن. ببساطة أكتب رسائل من القلب. إنّ أول شخص سيردّ على رسالتي الخريفية، فهي مرسلّة له.

- ها! آ! لقد فهمت. ولكن لا بأس، لا بأس، ستتحدث أيفيلينا بنفسها مع سعاة البريد، كي يتمّ إيصال رسالتك من كلّ بُدّ، وأودُّ الآن أن أعرف ما هو الشيء الممتع، الذي كتبتّه هناك؟

- كل ما يخطر على البال. لماذا نكتب إذا كانت الطبيعة قد كتبت كل شيء عوضاً عنّا؟ فالأشجار خطوط هيروغليفية تروي لنا التاريخ. إنّها كتابة سرّية مُشفّرة، تتيح لكل كائن حيّ التغلب على كل ما هو غير مفهوم، وعلى العوائق الثقافية والزمان والمكان.

- نعم نعم، لقد سبق، وأن تحدثتِ عن ذلك. احذري من الوقوع، وأنت في حالة غيبوبة في مقلب، كما حدث لكِ ذات مرة في المنتزه.

- نعم أنت محق يا دكتور، حينها شعرت بنفسي، بأني جزء من الكون، وشعرت بالحب، لكل ما يحيط بنا، وبادلتني الأشجار الحب نفسه. وإنها لم ترغب بأي حال في أن تسمح لي بالذهاب، ولحدّ الآن لا ترغب. كما لو دخلتُ في أحداث حكاية شخص آخر، حكاية الفتاة، التي قررت الهروب من عائلتها...

وقاطع الدكتور المريضة المُكَلَّف بمعالجتها، متسائلاً:

- لحظة يا أغسطا، والطابع؟

وجفلت من شدّة المفاجأة.

- أي طابع؟

- أمل أن تكوني، قد لصقتِ طابعاً على المظروف؟

تذكرت أغسطا فجأة:

- كلا، نسيت تماماً.

وواصل الدكتور كلامه، لتحقيق هدفه:

- وهل وضعت توقيعك عليها. عليك أن تفكري جيداً كيف ستضعين توقيعك في المستقبل، فتصوّري أن شخصاً ما سيستلم رسالتك، وهي من دون توقيع، سيكون غريباً أليس كذلك؟ بوسعك أن توقعي باسمك الحقيقي، أو أن تختاري اسماً مستعاراً. عليك فقط أن تتعلمي كتابته على الورقة. أمامك الآن الكثير مما عليك أن تتعلميه، أو تتذكره. اتفقنا؟

- حسناً. سأوقع باسمٍ مستعار: أكتوبرينا.

7

بالطبع، هذا مجرد خيال أوحى لي به شغفي بالتاريخ، والشعر الياباني في العصور الوسطى، فبينما كنت أنظر في النافذة المتربة، إلى الأغصان التي شخبطت نهاياتها حروفاً على الزجاج، رأيت كما لو من خلال شبكة عنكبوت في الندى، كيف يتكشف الهيروغليف القديم...

ها هو والدها يقف عند النافذة، وقد نشر كتفيه القويتين، وبصرخة حربية شمّر عن ساعديه الضخمتين العاريتين، ومدّ وجهه نحو الغيوم. وجعدت الرياح صفائر شعره. سيعاقب الشرير الذي أغوى ابنته. وهي طأطأت رأسها، وجعدت كتفيتها، وضغطت على شفثتها بأناملها الرقيقة، التي ظهر

من خلالها شريط نزييف دم كشريط الغروب، وتطلعت شاكية نحو والدها المحارب المتوتر. وأدركت أنها غير قادرة على فعل أي شيء، لحماية استقلالها.

بلى، لقد نسيت تقريباً أنني حتى الآن، لم أحاول حتى النظر في الطابع الموجود على المظروف. لأن الطوابع، مثل الأوراق المالية الأخرى، بالطبع، باستثناء الورق نفسه، هي من اختراع الغرب. وفي رأيي أن من غير المرجح، أن يلعب الطابع، لكونه ظاهرة من الثقافة الغربية، دوراً مهماً في هذه الحكاية اليابانية.

بيد أنني كنت مخطئاً للغاية! فقد فحصت الختم البريدي بدقة، كما لو كنت أنظر من خلال منظار الرّحالة ماركو بولو، ورأيت هناك صورة أول طباع للكتب في التاريخ، وقد انحنى على الآلة الطابعة. وتم إصدار الطابع بمناسبة الاحتفال بالذكرى السنوية الجديدة، لطباعة الكتب.

8

انتهى مارك اليوم من تجليد آخر كتاب من الخمسة آلاف نسخة التي أعدها للبيع، وقد نفذ الورق لديه، والنقود أيضاً. وكان قد صرف على هذا المشروع كل المدخرات، التي وقّرها من العمل الشاق الطويل لمُجدِّ كتب. ولم يعد لديه الآن ما يعيش به، ولا غاية له في الحياة! اتصل هاتفياً بصديق كان زميلاً له في المدرسة، وأصبح الآن صاحب شركة لتجارة الكتب بالجملة، ورجاه، واعترافاً بالصدقة القديمة، أن يمرّ عليه غداً، لأخذ نسخ «العمل الذي سيكون الأكثر مبيعاً بشكل غير مسبق».

- أرجوك جداً: أن تقوم بهذا لأجلي، باسم صداقتنا القديمة. ستجد الفاتورة على الطاولة، وبمقدورك أن تأخذ لنفسك كل الربح، الذي سيعود من بيع الكتب...، ولكن أبق لي فقط مبلغاً صغيراً غداً، ستعرف على أي شيء ستنفق هذه النقود....

ومن ثم شرح مارك لصديقه بالتفصيل؛ موضوع السعر المنخفض المحدد لعدد النسخ الكبير. وعن أن الكتاب سيُباع بشكل جيد، ولم يشكّ مارك في أنه سيحقق مبيعات كبرى، وفسّر ذلك بأن عنصر الإثارة سيلعب دوره في ذلك، فمن الممتع للقراء الاطلاع على أسرار حياة غريبة من خلال طرف ثالث. وثانياً؛ أن الناس يحبون كثيراً تلقي الرسائل، وكل واحد يرغب في قراءة الرسالة، التي لم تصل له يوماً ما.

وعلى وجه الخصوص يزداد بحلول الخريف تيار المراسلات. وغطت مجموعته أهالي بلدتهم الصغيرة بالكامل تقريباً. فكَر: «قريباً سأنتقم من المدينة بأسرها، وأبين بالأمثلة الساطعة دناءة سكانها، وإلى أي حدّ هم واغلون بالخطيئة، وإلى أي حدّ كانت لقاءاتي مع «يونان» في حديقة المدينة عبثاً بريئاً، على خلفية نفاقهم».

وضع مارك سماعة الهاتف، ومشى في المطبعة المظمورة بنسخ الكتاب، ووجد الصندوق الذي كانت فيه الرسائل الأصلية، وطفق ينزل الواحدة تلو الأخرى في آلة إتلاف الورق، ومن ثم حمل الصندوق، وفتح باب الورشة، وخرج به للشارع، ليُبعثر فتات الأوراق في الهواء.

وشتنتِ الريح الشرائط الصغيرة الرفيعة مثل سيول المطر في جميع أنحاء الشارع، الذي بدا كما لو أنه كان بانتظار تيار الأوراق هذا.

وحالما عاد مارك إلى المكتب، أخرج مسدساً قديماً من درج الطاولة المتحرك. وأخذ نفساً عميقاً، وهو يجلس على كنبه عميقة، ورفع مرفقه عالياً، لكي يضع المسدس على صدغه ولكن في هذه اللحظة دفعت يده القدح، فهوى على الأرض، وتهشم إلى قطع صغيرة.

كان هذا أحد القدحين، اللذين احتسى مارك منهما، هو و«يونان» الشاي وفق الطقوس اليابانية القديمة، للمرة الأخيرة في هذه المطبعة.

خطر على بال مارك: «ها قد حانت نهايتي»، لأن هذا القدح أصبح منذ زمن بعيد رمزاً لوحده. والآن كما اعتقد، تلقى إشارة من قوى غلّيا، بأن حياته قد تحطمت نهائياً.

وكان قد وضع قبل يومين القدح الثاني في قاعة زبائن البريد، الواقعة خلف حاجز حجري. وتسلسل للقاعة عن طريق باب سري يفتح من وُزنته على مكتب البريد.

وفكر مارك آنذاك.

- «ما حاجتي له الآن؟ ولماذا أحتفظ بهذا القدح بجواري؟ مادمت قد أصبحت وحيداً؟ بعد اختفاء «يونان» من عالمي. وعلى أي شيء أوصل عقد الأمل؟ بهذه الأفكار رفع مارك القدح الثاني إلى وجهه، وشم رائحة أحمر الشفاه الوردية، الذي خلفته «يونان» عليه. وكانت الرائحة، قد تغيرت خلال الأيام الماضية، وغدت الآن رائحة مُرّة مقرونة برائحة الدخان، مثل أوراق محترقة.

9

إن المخطوطات تحترق بصورة سيئة، على خلاف القناعة السائدة بأنها لا تحترق، ويلتهب اللهب لمدة طويلة حزم المخطوطات السمكية، ولا يغطيها السخام الأسود، إنها مثل أوراق الأشجار الخريفية، التي لا تموت فوراً.

وفكرت في دخيلتي: لماذا العاطفة الجامحة؟ ولماذا كل قصص الحب هذه، عندما تكون هناك رفاهية عائلية؟ وحقاً لماذا كابدت ألاماً مبرحة بسبب الأشجار المتهالكة، ففي كل ثانية يموت في العالم أكثر من طفل وشجرة، وفي نهاية المطاف إن الصراع بين «اليين واليانغ»¹⁸ ينتهي باستنزاف متبادل كبير. وعقب فصل تساقط أوراق الشجر، الذي يشبه سقوط رؤوس صفراء من مرض اليرقان، سيحلّ الشتاء بتلجه الأبيض.

وعلى هذا النحو رحت أتأمل: أليس من الأفضل لي الجلوس منذ البداية تحت شجرة، وأستغرق لوحدي بالتأمل مع «العدم»؟! دَع مياه نهر الغانج تتدفق من حولنا في كل مكان، ونحن

جالسان تحت الشجرة، ونسعى إلى بلوغ راحة النفس التامة، ونتوصّل إلى ذروة النيرفانا¹⁹ الداخلية. وفكّرت: بلا شكّ إنّ الطبيعة ذات أصل أنثوي.

وخطر في ذهني: أجل، إن سكرة موت الحب استولت الآن على الورقة التي كانت وارفة الظلال. وعلى الأرجح، إن شاعرة أو شاعراً شبه مجنون، قرّرا كل هذا للتعبير عن حبهما للعالم. وبعد أن توصّلت بتأملاتي إلى ذلك، مسحت أحمر الشفاه من القدح الوردي الباهت، وأعدّته إلى مكانه السابق. وبعد قليل من التفكير، وضعت المظروف تحت القدح ليكون مثل صحن، وغمست فيه ورقة الإسفندان.

في هذه الأثناء هبّت ريح قوية، فتحت الباب قليلاً، وحملت معها إلى مكتب البريد كمية هائلة من الأوراق الممزوجة بشرائط ورق رقيقة، تُماثل إلى حدّ بعيد الخيوط الورقية الشبيهة بسيول المطر، التي تزين شجرة عيد الميلاد، أو الألعاب النارية الصينية. اقتحمت القاعة الآلاف من قصاصات ورق الألعاب النارية هذه. إنّ الورقة؛ كجزءٍ من تشكيلة فنية، وجزءٍ من إيكيبانا؛ تنطوي أيضاً على رمز يروي بداية ونهاية أي حكاية. إنّها كالرموز الهيروغليفية التي تعبّر عن حالة انفعالية، بخطوطها التي رسمتها ريشة خطّاط كالعروق.

10

«مادام لم تبقَ رائحة أحمر شفاه يونا عليه، فلربما سيكون الوعاء الذي يحوي الرفات الخريفية لحبّنا». فكّر مارك، وهو يضع الكوب فوق صناديق البريد، وقرر اليوم، قبل انتحاره المحتوم، أن يرى ما حدث لهذا القدح، ويستنشق ثانية، لآخر مرة، مَرارة الخريف الندي. وانتابته دهشة بالغة، عندما رأى في القدح ورقة شجر خريفية، واعتبرها إشارة ذات مغزى، ووجد تحت القدح مظروفاً بختم، وقرر فوراً أن هذا المظروف مُرسل من مكتب البريد في شارع «أيام يوليو».

وفكّر مارك في دخيلته «أخيراً وصلت منها بعض الأخبار. لقد زال أحمر الشفاه، والورقة الخريفية ترمز إلى نهاية علاقتنا. أو ربما أنّ حبيبتي تطلب الاستغاثة، وتصرخ أن حبنا يمكن أن يستمرّ لفترة قليلة أخرى، وخفق قلبه كالمجنون، وحثّ نفسه اركض... اركض إلى شارع «أيام يوليو»... لتصل في الوقت المناسب، قبل فوات الأوان، مادام القمر لم يختف، بإنهاء دورته. لتجد على شفاه «يونا» بقايا حب الصيف اللاهب، بقايا الاعترافات السابقة. على الأرجح أن الرسالة الرقيقة، ذات الورقة الشفّافة، من دون عنوان المُرسِل، استرعت انتباه ساعي البريد».

11

بمثل هذه الأفكار تقريباً، تبادلت بسرعة بعض الكلمات مع موظّفة البريد، وأسرعت بالخروج إلى الشارع. على كل حال، إن تساقط الأوراق يناسب مزاجي. إنّها تلهمني بشكل غير عادي، مثلما يلهمني عصف الرياح القوي، ودوي الرعد، والمطر الغزير.

إن الخريف موسم جميل، لحدّ كبير!، التقت الأوراق العالقة في الريح، واندفعت نحو السماء. وخُيّل لي أن الفتاة، التي ترتدي الكيمونو كانت عائدة من سوق السمك، وهي تحمل سلّة على أكتافها الهشة مليئة بسمك الهلبوت، الذي لاح مثل سحابة فضية كبيرة.

كانت تمشي، وهي تفرع الأرض بقبقيبها، وتفكّر بأنه بحلول وقت العشاء، سيتمّ طهي كل هذه الأسماك، وتأكلها الأسرة..

سلّمتُ عليها بأدب:

- مرحباً، لي سان.

- مرحباً يا سيدي.

كأنها أحنّت رأسها الجميل، في الوقت الذي كنت أتفحص فيه بعناية فستانها المماثل لشجرة، باحثاً عن علامات جديدة.

بادرتها، في إشارة إلى أمطار الخريف الجميلة:

- الطقس رائع اليوم.

أومأت برأسها بالإيجاب:

- نعم، في مثل هذه الأيام أنا حزينة جداً.

وجب عليّ وفق قواعد آداب السلوك، الاستفسار عن سلامة وصحة أفراد العائلة، فسألتها:

- اسمعي يا لي سان، كيف حال عائلتك؟

أومأت ثانية:

- شكراً، ولكن تقلقني أختي.

وسألتها:

- ما حلّ بأختك؟

- إنّ حالتها سيئة للغاية، لقد تأزمت حالتها مرة أخرى. والآن منعوها حتى من التجوّل في الحديقة، وحجزوها، بشكل دائم، في غرفة مغلقة.

- لماذا؟ ما هو مرضها؟

- يعتبرونها مجنونة، لأنها فضّلت التواصل مع الطبيعة على الدراسة الجامعية، ولأنها تخلّت عن حياتها المهنية من أجل الحب. كما أنهم يعتبرونها مجنونة، بسبب أنها تتحدث مع الأشجار، كما لو أنها من أفراد عائلتها، وبسبب أنها سمّت نفسها بغير ما كانوا يعتقدون. كما اعتبروني في يومٍ ما مجنونة، لأنني قرأتُ الكتب الغريبة.

وسألته مهتمّاً، ومُدركاً بأن هذه الساكورا²⁰ اللطيفة ليست مهتمة بي. ولم أفهم، كيف وبأية طريقة جرى ذلك الاهتمام بي. ولكني أحسست بوضوح بشيء من تعلقها.

- كيف يمكنني مساعدتكم؟

واقترحت ساكورا لي سان:

- ربما بوسعكم التحدث معي بشأن أختي؟

بالطبع، أنا فهمت بأن حكاية الأخت المريضة، كانت مجرد ذريعة لتواصلنا. اجتمع كل شيء؛ قطعة القماش هذه مع الحلة الممتلئة للشجرة الشبيهة بالزخارف. وهذا يعني أن الحادث ليس شيئاً عرضياً بأي حال من الأحوال، وإنما اعتراف سرّي بالحب أيضاً. حتى إنني لم أستغرب بأن الساكورا لي سان في لحظة من اللحظات، مدّت لي قدحاً أبيض مع الشاي. بالضبط القدح ذاته الذي كنت أتفرّس اليوم فيه، عند منتصف النهار في مكتب البريد.

إذن حلّ المساء. بيد أنني لم أستطع أن أرفض مبادلة الفتاة عاطفتها الودية، كما أنني لن أستطيع أن أرفضها مستقبلاً. وهذا يعني، بأننا سنلتقي في كل صباح خلال نزهتي تحت السماء الصافية. لقد التقيتُ قبل ذلك بنساءٍ في منتزه المدينة، وكقاعدة عامة تحت شجرة الدلب أو الزيزفرن.

من الممتع أكثر، أن نتواصل مع «البيين» العظيم تحت ظلّ «اليانغ» العظيم، وفكرتُ: لماذا مُنحت هذه النعمة؟!

12

في الحقيقة بلغ اليوم نهايته؛ تجوّلت بما فيه الكفاية، واستمتعت تماماً بنزهتي، وعدتُ إلى القسم الداخلي بعد منتصف الليل. واستمرت السماء تقطر مطراً طيلة هذه الفترة. وكان ذلك من حسن حظي، فأثناء المطر بميسوري الكتابة بشكل جيد.

ربما، إن الخيال الذي وُلِدَ في داخلي سيلهمني، لإنهاء كتابي عن الثقافة اليابانية في القرون الوسطى. وفي كل الأحوال عرفت بالضبط عن أي شيء سيدور موضوعه. سيكون عن الصراع الغامض الأبدي بين البيين واليانغ. عن التبادل والتداخل بين الأصل الذكوري والأنثوي لهذا العالم، وعن أنه ما دام الإنسان على قيد الحياة فلن يتركه نقيضه أبداً.

- ربما ينبغي عليّ غداً زيارة المطبعة، ابتمسّثُ لأتعرّف على سعر نشر عمل علمي مُبسّط...، وأملُ بأن انفعالات الخريف ستهدأ غداً، أو بعد، وتُفتح المطبعة.

وسوف أقتبس كلمات الفيلسوف العظيم شوانج تزو، لتتصدّر كتابي: «كم هو تافه: أن تعرف فقط، ما هو معروف».

شقيق كاسبار الأبيض

اوليج زوبرن

ربما إنّي تحدثت بصوت خافت، أو ربما، إن المرأة في شبّاك التذاكر لم ترغب في أن تفهم أنني بحاجة إلى تذكرتي سفر في القطار الكهربائي، حتى محطة «لوس». حينها أريتها إصبعين من خلال النافذة، ومن ثم رفعت يدي، وصوّرت على رأسي قرنين...، وعلى كل حال اشتريت تذكرتي سفر، ولكن منذ تلك اللحظة حدث شيء ما لكاتيا، فقد استاءت تماماً، أو بتعبير أدق، إنها راحت تردّ بتهكّم على كل ما أقوله. كنت أعرف أن كاتيا تعرّضت في طفولتها لضربة برأسها، لذلك لديها مختلف النزوات والمشاكل، وعلى سبيل المثال، ما يتعلّق بتناسق حركاتها. ففي بعض الأحيان تمدّ يدها إلى قدح، فتخطئ الهدف. وعرفت أيضاً أنها تذكرت جميع أصدقائها السابقين بشيء من الضجر... هناك نمط تعيس من الفتيات الذكيات اللواتي على غرار كاتيا. إنهنّ يكابدن باستمرار. يعتريهن السأم خلال رحلتهم بالطائرة، ويتعذبن عند رؤية انطفاء سيجارة، وينخرطن في البكاء عند رؤية حيوان يعرج. إذا سكر امرء، ودخّن الحشيش، فإنه لا يلاحظ كل هذه الشناعة لفترة من الوقت، لهذا، فإنني بعد شراء التذكرتين، قررت أن أذهب إلى المخزن لشراء قنينة جعة، أو كوكتيل. وأدركت أن من الأفضل شراء قنينة نبيذ، إذ إنّ هذا سيكون لانقاً أكثر، واحتساؤها في منزل كاتيا، ولكني اشتريت صفيحة جعة، لشربها في الطريق.

لماذا لم يعجبها أنني صوّرت قرنين لبائعة التذاكر؟ إنّها ألقت نظرات مُعيبية علي، وقالت إن كل ما أفعله شنيع، وإن حذائي الرياضي مثير للاشمئزاز في الشتاء، وإن معطفي القديم من فرو الضأن مقرف، وكذلك حياتي بشكل عام.

كان علينا أن نذهب ليس إلى محطة «لوس»، بل أبعد، لأنني أردتُ التوفير، فحسب في ثمن التذكرتين.

كانت كاتيا عابسة طوال الطريق...، وهذه هي المرة الأولى التي أذهب معها لزيارة منزلها. سابقاً كانت دائماً تأتي هي إلى منزلي... كاتيا جميلة جداً، حتى حينما تكون عكرة المزاج، وشعرها رائع بامتياز، وطويل، والأكثر من ذلك أنها، وكقاعدة، لا تستخدم المكياج.

وكنت، خلال سفرتنا، جالساً بجانب النافذة في اتجاه حركة القطار، وجلست كاتيا في الجهة المقابلة لي، ومن المحزن أن يكون زجاج نافذة القطار متسخاً، وليس بوسع المرء رؤية ما في الخارج. ولكن على أي حال إنها ضواحي موسكو المألوفة لي.

حينما وصلنا، اشتريت من كشك بجوار رصيف المحطة، قنينة نبيذ حلو.

ومررنا، ونحن في الطريق من المحطة إلى المنزل، بمحاذاة عنبرين «باراكين»²¹ حقيقيين أسودين وامتداعيين، وتسكن في كل واحد منهما عدّة عوائل. من حسن الحظ، لم يتعيّن عليّ أن أعيش في «باراك» مثل هذا، لأصبحت مجرماً، أو لانتحرت خنقاً...، ومن ثم لاحت لنا المنازل الخاصة، كان أحدها بيت كاتيا، وهو خشبي، وتحيطه حديقة مستودع. إنه ليس على هيئة شقة. وتوجد في الحديقة أشجار التفاح، وشجرة صنوبر باسقة.

كانت كاتيا تعمل في مكتبة المنطقة التي تسكن فيها. وقررت المكتبة خلال أعمال ترميم جرت في الصيف، التخلّص من بعض مجلدات المجالات الأدبية الرصينة، التي يعود تاريخها إلى حوالي 15 عاماً. وجلبتها كاتيا على عدّة دفعات صغيرة إلى منزلها، واحتفظت بها في المستودع، فطلبتُ منها أن تستضيفني، لانتقاء بعض الأعداد للقراءة، ومن المفهوم أنني حملت ليس فقط بالحصول على المجالات.

عبرنا مدخل المنزل، توقّفنا تحت السقيفة. انطبعت آثار أقدام كلب بكثافة على الثلج الطازج في الفناء.

وسألتها:

- أين كلبك؟

- كانت كلبة سائبة، ولذت بالفرار من خلال فجوة في السور، بينما اختفى أثر كلبتي «ريكس» قبل أسبوعين.

ألقت كاتيا نظرة حزينة على بيت الكلب الفارغ، وقالت: - إنه عجوز تماماً، من نوع «لايكا». أمر مؤسف، وعلى الأرجح لن يعود.

فكرت بأني يجب أن أهديها جرواً صغيراً من نوع «لايكا». سأنتقي كلباً لطيفاً بعينين زرقاوين. وستأخذه كاتيا بين ذراعيها، وتتنظر بعينيها الخضراوين في عيني الكلب الزرقاوين.

وسألتني:

- هل سندخل البيت، أم تذهب مباشرة للمستودع؟ فإنك جئت من أجل المجلات.

أنا لست بحاجة لشيء غيرها؟

فأجبتها بأن ما يجذبني ليست المجلات وحدها، فأنا لست وغداً لهذه الدرجة...، ودلفنا إلى المنزل، واحتسينا الشاي مع العسل والنيذ.

ومن ثم وقفنا في الحديقة تحت شجرة التفاح، ورحنا ندخن، وقررت أن أقرأ لكاتيا بداية قصيدتي الجديدة موضحاً لها: - إنها عن شخص مبتدئ بالتدخين، تمكن من التغلب على الانغماس في السكر والعريضة: اجتاز فيودور آخر المعابر

وأوقف حافلة في القرية،

وفتح قنينة بيرة قوية،

أخذ منها جرعة، وأحسنّ بلذة. لاحت طلائع الغسق..

عَبَّرَ إوْرَّ الطريق على مهل،

وعلى جانب الطريق جلست عجوز مع دلو البطاطس المغبر،

واعتقد فيودور أنها ميتة.

حينما تستمع كاتيا تصمت بجدّ، وفي الوقت نفسه تبدو لطيفة.

قلت بفخر: قبل فترة نظمت قصيدة أخرى، رواقية تقريباً.

وقرأت بصوت عالٍ:

ركبت امرأة في منتصف العمر في أوتوبيس

بجوار القصر الأبيض

فكرت، في مرحلة الشباب

كان بالإمكان تجاهل كل شيء تماماً

وحينما مرّ الأوتوبيس بمحاذاة مقبرة لم تُعد تشعر بالخوف.

تنهّدت كاتيا قائلة:

لماذا كل شيء لديك مباشر، ومقرون بالموت، تفتقر للسمة الفنية.

قرأت لكاتيا بعض القصائد الأخرى، وأخذتني إلى المستودع؛ إنه خشبي، سقفه من لوحة خشبية واحدة، فاحت في الداخل رائحة البطاطس والعفن والورق الندي، وعند الجدار تكوّمت حزم المجلات العتيقة تلك. وطفقت أتصفح عدداً تلو آخر. ونادراً ما صادفتني مواد مثيرة للاهتمام...، فكرت بأن أبدأ القراءة في القطار الكهربائي في طريق العودة.

وغشيت الكأبة كاتيا مرة أخرى، فذهبتُ إلى داخل الدار. أتكون قد شعرت بالغيرة عليّ من المجلات القديمة؟

بدأ الظلام يزحف تدريجياً، ولا يوجد هناك نور في المستودع، وبالتدريج لم أعد أُميّز الحروف والمضامين. بعثت شاشة التليفون ضوءاً أزرق. وضعت حوالي عشرة أعداد مثيرة للاهتمام، في حقيبتني.

عادت كاتيا، وقالت:

لا تأخذ الكثير من المجلات، ستأتي مرة أخرى.

أردتُ أن أجيبها بأني سأتي على أي حال، ليس للمجلات علاقة بذلك، بيد أنني، ولسبب ما لم أجبها. وقفت هي عند الباب، ولزمت الصمت أيضاً.

خرجت من المستودع وأنا أحمل الحقيبة بيدي اليسرى، وأحتضن كاتيا باليد اليمنى.. أضاءت أمامنا عبر الحديقة الأنوار، في نوافذ البيت المجاور الكبيرة.

وسألتني مشغولة البال:

- لماذا تكتب كل هذا الهراء؟

وضعتُ الحقيبة عند العتبة. لا أستطيع القول بأني شعرت بالاستياء منها، ولكن انحرف مزاجي. لأن كاتكا لم تشعر بهذا الجمال والهدوء الآن، حينما خيم الظلام تقريباً، ونحن نقف بجوار بعضنا...

وقلت لها:

- نعم. أنت لا تفكرين إلا في كيفية إنجاب الأطفال، ولا تشعرين بالحاجة إلى الشعر.

وضحكت:

- أوه بلى!... عبثاً حملت لك المجلات من المكتبة، لقد كنت في حالة ذهنية مشوشة.

وطلبت منها:

- إذن قبليني.

تبادلنا قبلة. استولت عليّ فجأة رغبة، في أن أشاطر كاتيا فكرة جدية فعلاً: - لو توخّيت الصراحة ما قرأته لك اليوم هراء حقاً، لدي فكرة أصيلة، تمعني فيها...

شربت ثمالة النبيذ، وبعد أن رميت القنينة الفارغة في كومة القمامة، قلت بهدوء واضعاً يدي على كتف كاتيا: - أريد أن أكتب ملحمة، عن كيف توجّه حكيمنا في الماضي السحيق من الغابة السلافية إلى بيت لحم، للسجود قبالة الوليد المسيح. إنه حكيم سلافي بمعنى من المجوس...، في البداية بالطبع رأى شارة. تخيلي: خرج ليلاً من منزله الكائن تحت الأرض، ورأى في السماء نجماً مذنباً، وراح يُلوّح بيديه، ويصرخ، ويبتهج. وتطلع له أسلافنا من بيوتهم الكائنة تحت الأرض...، وفي اليوم التالي، ومن دون أن يعرف بالدقة إلى أين عليه أن يذهب، توادع الحكيم مع ذويه...، ويمكنني القول إنّه كان الشقيق الأبيض للمجوس²²، كان اسم أحدهم وهو زنجي كاسبار²³، ولا أتذكر اسم الأخوين الآخرين.

وسألت كاتيا بشيء من الريبة، ويظهر أن فكرتي لم تبعث الإلهام لديها: - يعني أن هذه النجمة أضاءت للجميع؟

- نعم للجميع.

ابتسمت كاتكا:

- إذن كان بوسع بظلك التوجّه بإصرار وعناد إلى مكان ما في بحر بارنتسوفو. إذا كان المجوس الحقيقيون جاؤوا مثلاً من جزيرة العرب، فوجب عليهم إذن، إنه كان يتبع النجمة بالسير في الاتجاه الآخر.

رمقتُ كاتكا بوجَلٍ، وخشيت من أنها لا تفهم: - لا يجب عليه القيام بأي شيء. ولاسيما السير نحو البحر. إن الناس الحكماء دائماً... لا يعاندون، وإنما يوافقون.

بيد أن كاتيا أمعنت الفكر، وسألتنني باهتمام:

- وأي نهاية تريد أن تضع للملحمة؟

قلت لها بأني لن أصف كيف وصل الحكيم - المجوسي إلى بيت لحم، وأن على كل شخص روسي أن يتخيّل هذا بنفسه. لأن القضية شخصية محضة، وشرحتُ لها أيضاً أنه سافر على ظهر

جواد ياقوتي. فقد عرفت بالعشية، من فيلم علمي مُبسّط أن الجواد الياقوتي هو من أقدم الخيول، وأكثرها تماسكاً. وبوسعها في حالة الصقيع الشديد أن تحفر تحت الثلج، بحوافرها وبسهولة، لتجدَ الطعام لنفسها.

وهنا أربكتني كاتيا بعض الشيء، بقولها: لا يجوز على هذا النحو توظيف المعطيات الواردة من التلفزيون، في الإبداع، فإن هذا سيوحي بأن العمل ذو طابع صحفي، وواقعية بليدة. ولذلك قررتُ أن أرسل المجوسي سيراً على الأقدام، سيصل، فقد كان لدى الرجال في الماضي قدرة على التحمل... كاتكا²⁴ ذكية، تعلمت الكثير في معهد اللغة وآدابها.

تحدثنا طويلاً عن الطريق الشائك للمجوسي، وتجوّلنا في حديقة الدار وبجوار المستودع، وتناولنا الشاي مع العسل، ولكن قريباً ستعود والدتها من العمل، وعليّ مغادرة المنزل.

ارتديت سترتي، وحملت حقيبتي. رافقتني كاتيا مودعة حتى الشارع. فكّرت بأنه ليس من دون جدوى رويت لها ملحمتي المقبلة، حتى إنّ مزاج كاتيا تحسّن، ولم توبخني... لم تقل بعد ذلك إن كل هذا هراء. ربما أنها فقط تتظاهر، بأنها لم تُحزْ على إعجابها الشديد، حتى أوصل الإبداع بإصرار.

وبعد أن ابتعدت قليلاً عن بوابة الحديقة، استدرت: - كاتكا لقد سار بشجاعة، حتى من دون خارطة، هكذا! إن هذا ليس مجرد تاريخ، وحسب، إنه عموماً اقتحام!

وصرخت كاتكا:

- الهدايا! الهدايا... هل ستكون لديه هدايا للرضيع المسيح.

ابتعدت أكثر، وصرخت لها بأنني سأفكّر، وفوراً رحت أفكّر... لمعت في ذهني أكواز شجرة الصنوبر وجذور أعشاب تستعمل كدواء، وأشياء خشنة، ولكنها ضرورية للغاية، ومن ثم خُيل لي وشاح غجري، وقنينة بلسم من مدينة «ريجا»، وفهمت: أن مثل هذه الأشياء لا تقرر على عجل.

وبينما نظمت الأبيات الأولى للملحمة الشعرية، لم أتوجّه نحو محطة القطار، وإنما إلى الجانب الآخر، كي أتنزّه بعض الوقت. وخرجت عبر الأزقة إلى أرض قاحلة، وفكّرت كيف أني أحب كاتيا حباً حقيقياً إنسانياً، وإلى أية درجة هي عزيزة عليّ ولطيفة، أما أنها تنفعل أحياناً، فهذا شيء غير ذي بال، تقريباً طبيعي...، ومن ثم انتهى الطريق إلى سور من الأسمنت، كانت قربه سيارة محروقة اسودّ بدنّها. وكان جسر السكك الحديدية قريباً مني.

ووصلت إلى الطريق العام من خلال منحدر ثلجي. وفي اليسار أضاءت فوق القضبان شارتان بلون أزرق/فاتح، وخلفهما بحوالي كيلو متر ونصف، لاحت المصابيح الصفراء لرصيف المحطة. ومضيت نحوها... مرّت القطارات بسرعة شديدة، وهي تثير غبار الثلج، حينها وقفت على

حافة الطريق، وقد أعماني ضوء القطار الكاشف، ولوّحْتُ بالحقيبة المليئة بالمجلات، وردّت
القطارات عليّ بصفيها، مُرْحَبَةً.

عبر البراري والبحار

يانا فيشنيفسكايا

وضعت الحرب أوزارها، بالرغم من كل شيء، وليكن ذلك حتى وفق صيغة تروثسكي²⁵ «لا حرب ولا سلم»، حيث يعارض ليف دافيدوفتش بحذر وجهة نظر ليف نيكولايفيتش تولستوي²⁶. انتهت الحرب مثلما يزوي الشباب الذي يواصل الانحلال تحت نقاب الشيوخة الرث.

ومن ثم بدؤوا بالعودة من الحرب.

عُثر على جندي قوات الإنزال الجوي سوفوروف منتحراً، حيث شنق نفسه في غرفة مشغل جهاز السينما الكائنة في وسط الوحدة العسكرية المرابطة في ضواحي إقليم بيتروزافودسك (على الجبهة الفنلندية). «سيكون كل شيء على مايرام»، هذا ما جاء في رسالة عُثر عليها فوق كومة من علب شرائط الأفلام السينمائية. وكتب عليها توقيع وتاريخ. وكشفت التشريح وجود ورم خبيث تحت غشاء جمجمة الجندي، سبب له ألماً مبرحة في الرأس. وكان سوفوروف يعتزم في يوم انتحاره، عرض فيلم لمنتسبي وحدته العسكرية، بعنوان «سيكون كل شيء على مايرام». لكن جرى إلغاء عرض الفيلم.

أغلق جندي البحرية أوشكوف الباب على نفسه، في أحد أقسام الغواصة النووية المرابطة قرب ميناء ناخودكا (على الجبهة اليابانية)، هدد من خلال الاتصال بالتليفون الداخلي، بأنه سيضغط على زر إطلاق صاروخ مُزوّد برأس نووي، إذا حاولوا إلقاء القبض عليه. ولم يطرح أوشكوف أي مطالب، وقال إنه يريد أخذ قسط من الراحة. وأبلغ زملاء جندي القوات البحرية عميل دائرة الأمن

الفيدرالية (في. اس. بي)، إنَّ أوشكوف استلم رسالة من فتاته، أكدت له فيها حبها غير المتناهي، ورسمت خطط مستقبلهما السعيد المشترك، وطلبت منه العودة سريعاً. ولم يتَّقْ أوشكوف بأيّة كلمة من كلماتها، وراح يمشي مغتاضاً. وفي اليوم الثالث فقط، أفلح عناصر جهاز الأمن بالخدعة، في إغراء أوشكوف بالخروج. وما إن تكوّنت فتحة صغيرة بين الجدار، وباب الكوة السميكة الذي أُطلِّ منه رأس أوشكوف، حتى أُطلق عميل الأمن، النار عليه، فأصابه بين العينين بالضبط.

قرر كورنيولوف؛ جندي قوات الأمن الداخلي، قبل التقاعد لإصابته بجروح، (وهي تشكيلة من الأنصار تخفّت بأمان في غابة بإقليم بريانسك)، قرر الذهاب إلى المدينة لرؤية الشقة التي صدر الأمر بتخليتها له، واستلمها في احتفال، أُقيم بمناسبة عيد الجيش في 23 فبراير، ليتأكد من إمكانية نقل الأسرة للشقة. ووجد كورنيولوف، بحلول نهاية النهار، وعينه مُسمّرتان في ورقة كتب فيها العنوان، وبصعوبة، العمارة السكنية الجديدة ذات الطوابق التسعة، في أطراف المدينة.

وقد أضيئت الأنوار في العمارة السكنية، في اثنتين أو ثلاث نوافذ فحسب، ومن الغريب أن إحدى النوافذ المضاءة التي أفرزها كورنيولوف، ومن دون خطأ، كانت نافذة شقته. وكان المدخل في المبنى مغلقاً بباب حديدي. نقر كورنيولوف بأصابعه على أزرار التليفون الداخلي للعمارة، واتصل برقم شقته. وردّوا من الطرف الآخر للخط، على أسئلة كورنيولوف الحائرة والمهذبة، بفضافة: «أذهب إلى الشيطان، أيها الأحمق، لاتفسد على الناس الاحتفال، لقد اشترينا هذه الشقة بالأمس». ومن دون أن يتمعن كورنيولوف بأفعاله بما فيه الكفاية، أخرج كلبشة من حقيبته، وقبّد نفسه إلى مقبض الباب الحديدي، ورمى مفتاح الكلبشة بعيداً عنه في الثلج. وفي اليوم التالي عثروا عليه جثة هامدة لاهياة فيها. وتوصّل التحقيق إلى الاستنتاجات التالية: فارق كورنيولوف الحياة في حوالي الرابعة صباحاً، نتيجة انخفاض حرارة الجسم، ووجد الطبيب الشرعي على معصم اليد المقيدة بالكلبشة، آثار عض، وحدّد بأن آثار الأسنان تخصّ المتوفى. ولم تطرأ على خاطر الطبيب فكرة أن كورنيولوف حاول قضم يده، لتحرير نفسه من الكلبشة بطريقة ما.

اختنق يودينتش ومالينكوف الجنديان من فوج الدبابات، وكذلك الرقيب فلاسوف في الدبابة في أثناء إجراء المناورات. عبّر رتل الدبابات نهر أمور (على الجبهة الصينية)، وحدث عطبٌ ما في المحرّك، وبقي طاقم الدبابة بكامله في قاع النهر. ولم يعثر على الخسارة إلا في اليوم التالي.

لكن الحرب انتهت عموماً. ودققت القيادة قوائم الأسماء، ووجد في كل قائمة فرد أخير. وكان آخر مَنْ عاد، جندي فوج المهام الخاصة جوكوف. وقبل فترة قليلة من عودته، عُثر عليه في مستشفى مهمل على الحدود مع إيران، وهو في غيبوبة، بعد أن تناول جرعة زائدة من المخدرات. وكان المسحوق الأبيض أفغاني المنشأ، وقد تناثر على مدى متر ونصف، أي ما يطابق سعة الحفرة التي نشأت عند انفجار لغم مضاد للدبابات، حول جوكوف المستلقي أرضاً بين الأسرّة. وكان الجندي بكامل زيّه العسكري، ولكن ولسبب ما كان حافي القدمين. وبأشر الطبيب والمرضة اللذان عثرا على جوكوف، حالاً بعمليات الإنعاش. وحدث لجوكوف على وجه التقريب ما يلي:

قبل أن يعرف أنه آخر جندي، انطلق جوكوف، في مدرّعه للهجوم على العدو، قانعاً نفسه، بأنه يقود هجوماً أخذاً بالاتساع. وكان الماء في الزمزية، والوقود في الخزانة، قد نفدا في آن واحد.

توقفت المدرعة. وأسقط جوكوف الصفيحة المعدنية من يده، وارتطمت بالأرض بصوت أجوف لا طائل منه. فتح جوكوف باب المدرعة، ونظر إلى الخارج.

توقفت العربة المدرعة الثقيلة بالضبط هناك، حيث تحوّل الرمل المنعش المائل للأصفر، إلى غبار رمادي، وقمامة جافة ومفتتة في المدينة. وانتابت جوكوف نوبة سعال، بسبب استنشاقه غباراً حاراً ناجماً عن توقّف المدرعة بحدّة. وأحرق الغبار رثته، مثل الفلفل، ولكنه شعر بأن مذاقه كان أقرب إلى مذاق القرفة. وبانت من خلال الغبار المتطاير، شقوق الأسفلت. وحجب الغبار المتصاعد، معالم المنطقة السكنية.

وبغته أدرك جوكوف، آخر جندي (شفرة النداء له بالراديو «أوميجا»)، مع ضحكة داخلية خانقة، أنه توقّف عند إشارة مرور ضوئية، وخمّن أنّه تغلغل في قلب صحراء القفقاز، وفي عاصمة محرّمة.

عاد جوكوف إلى داخل المدرعة الساخن، وراح يفتش تحت المقعد، ورفع مكبّر الصوت، وتصاعد مرة أخرى من المدرعة جو أكثر سخونة. وصاح عبّر مكبّر الصوت:

- انتباه!

فَسَمِعَ صدىً فظيغ، ارتطم بجدران المباني، مثل رجع صدى يتلاشى، أثّره سقوط حجر في بئر لاقاع له. فكّر جوكوف هكذا يدوي الصوت البشري في الفراغ التام. وردّد بصوت خافت مضاعف:

- انتباه!، على الجميع أن يستسلموا. المدينة محاصرة، ولا جدوى من المقاومة.

بدأت الأرض تتحرّك حول جوكوف، وزحفت من الحفر، آلاف الأفاعي، والعقارب، والسحليات. وكان جوكوف قد عرف من مجموعة سلسلة طوابع «أفاعي البحار والبراري»، التي حسده عليها في يوم ما زملاؤه تلاميذ الصف الثالث (باء): أفاعي الحفر، الأفعى الحرارية، وأفعى المشرق، هي من فئة واحدة، لثلاث فصائل فرعية من صنف الأفاعي، وهي الأفعى ذات الجرس، وأفعى حنش، والثعبان ميديانكا. أخاف صوت جوكوف الذي تضاعف عشرات المرات، الزواحف. ولم يظهر أي إنسان مسلّح أم أعزل.

واستقرّ نسرٌ على عامود إشارة المرور الضوئية، التي لم تتغيّر إشاراتها. ولم تُحل هيبته، التي دلّت على أنه مُتخم، دون أن يرمق جوكوف بنظرة شرهة.

وتمتم جوكوف:

- لن تحصل على غابتك.

وأراد جوكوف أن يرمي حجراً على الصقر، ولكنه لم يعثر على شيء مناسب أكثر من فردة حدائه اليسرى، التي رماها، فطارت على بُعد حوالي سنتمتر منه، وطأطأ النسر رأسه، وعوّل

نحو الشمس، وحلق مبتعداً من هناك. طار بغتة مرفرفاً بجناحيه بخفة، وكأنه طائر من حلم، ورصد جوكون في البداية رأس الطائر العاري المتجدد، ومن ثم الريش الطويل والمستقيم النامي في أطراف الأجنحة السوداء، وأخيراً الذيل الحادّ المعقوف. ولامتست جوكون رائحة ننتنة، انبعثت من منخريه، كما لو أن الصقر حاول تقبيله.

كانت المدينة رائعة. تغص بالمعابد ذات القباب الذهبية والجدران المسننة، وأشجار نخيل مترامية السعف، والسواقي الاصطناعية والأقواس... والمقاهي والمطاعم، ومحلات تعاطي الأفيون والحشيشة... إنها أسطورة عربية حقيقية، لا تكفي حتى ألف ليلة وليلة لتوصيفها. وليس هناك كائن حي واحد.

وافترض جوكون:

- لا بد أن سكانها قد ذهبوا للاحتفال بشهر رمضان.

وبذل محاولة جديدة لتشغيل جهاز اللاسلكي، وردد في السماعة:

- «ألفا»: أنا «أوميجا»، أود أن أبلغكم بالوضع، استقبل، التقاط.

وجاء الردّ بشكل صوت عذب، لمزار حاو أخذ ينساب في سماعة الأذن. ولم يعرف جوكون بنفسه كيف راح يتميل على إيقاع النغم، مثل أفعى كوبرا فنتية. وأعاد ضجيج التشويش المفاجئ إلى الواقع. وسأل جوكون جهاز اللاسلكي:

- أي شيطان هذا؟

فصمتت الموسيقى حالاً.

ألقى جوكون حزام جهاز مكبر الصوت على رقبته، وخرج من المدرعة، وسار على الإسفلت الحامي الذي لسع قدميه الحافيتين، وهو يعرج على كلا قدميه. واحتمى بالظلّ في أول باب مفتوح. كان هذا مطعماً للوجبات الخفيفة، وظهر في وقته المناسب جداً، لأن جوكون شعر بالجوع. لم يكن هناك غير الذباب، ولا زبائن ولا صاحب المطعم. وجد جوكون في مقلاة كبيرة من الألمنيوم نقانق حلال بوزنية، أعدت من الصويا، وبودا وحده يعرف من أي شيء آخر محرّم.

أغمض جوكون عينيه، والتقط واحداً منها، وكانت النقانق باردة، ومتراخية كالغصن الذابل. جلس في وسط المطعم على سجادة، جلسة التربيعة على الطريقة التركية، ورش من قنينة بلورية صغيرة، مادة ما تشبه ملح كلورات البوتاسيوم على النقانق، ووضعها بين قطعتي خبز يابس، والتهمها بعجلة. وكرر العملية، ومهما قيل عن الهزاريين، فإنهم يتقنون طبخ الطعام.

وكان جوكون سيجد متعة كبيرة، باحتساء قدح، أو قدحين من الكحول، ولكن يحظر شرب الكحول في العاصمة المحرّمة. وردد في دخيلته:

- كلا، ضع جانباً كل الآمال.

حسناً، لقد أخفى جوكوف في جيب الصدر لقميصه العسكري، شيئاً ما لتكريم ذكرى أرواح رفاقه، الذين لقوا حتفهم. مزّق الكيس المغلق بإحكام، وذرّ محتواه على أنفه، وخلافاً لمسحوق صابون «التايد»، أو «أربيل» كان هذا عادياً جداً.

استلقى جوكوف على الأرض، وسَمّر عينيه في السقف. وتحركت بقع الشمس على السقف، بفعل هبوب ريح خفيفة، لقد جاءت الريح بروائح شتّى...، بشذى صنوبر مثلوج من أرجانجسك (حيث وُلد جوكوف)، ورائحة بذور البطيخ المُحمّصة (حيث درس في المدرسة المتوسطة)، وعبق الخبز الرقيق، ورائحة عرق العمل الشاق، ورائحة الوقود والزيت في المدرسة الحربية في ضواحي مدينة (ريازان)، حيث أصبح جوكوف عسكرياً، وشخصاً حراً ومستقلاً بذاته، وتذكر رائحة صيف قاتظ، وصيد الأسماك، وصيد الحيوانات والطيور، وجمع الفطر وقطف الثمار، كانت تلك مشاغل بسيطة ومفيدة. وهنا في الصحراء عثر جوكوف على ربيع متفجر ومبهرج، ويتدفق ببطء.

وهنا تُغيّرُ السحب في السماء والشقوق في الأرض زخرفتها في كل لحظة، وتعكسها على بعضها البعض. وتأخذ النوات في أغاني هذه المناطق أسماءً جديدة، في الإيقاع التالي. وتزهّر أشجار البرتقال هنا، بزهور كبيرة بيضاء، وتسقط ثمارها حالاً على الأرض، وتتعفن في رمشة عين، ويتناول رواد مطاعم الوجبات الخفيفة، الطعام الرخيص بأوانٍ من الذهب والفضة، ومقياس الماء في هذه الأرجاء يعادل منّي مرة مقياس سعر البنزين.

ولمّ كل هذا؟ وبالتالي إلى أين ذهب البشر؟

أراد جوكوف أن يحتفظ في ذاكرته بتفاصيل مصرع اثنين من رفاقه في الطاقم، ولكن بقيت في سطح ذاكرته، أحداث طفيفة، وحسب عملية دفنهما. يتذكر جوكوف أنه سحب الجثتين على الرمل. وكانت الشمس قد جففتها، ولم تترك لمواراة المتوقّين في الأرض غير مجموعة من الخرق البالية. غطّى جوكوف ما تبقى منهما بكومة صغيرة من الرمل، على شكل هرم، ولكن الرمل لم يحفل بجهوده، فذهب أدراج الريح في تموجات صغيرة، وتلاشى الهرم الصغير، وأراد أن يضغط على الرمل بحجر، وربما بكتابة شيء بسيط على الحجر، كمواساة مثل «دم ب-96». ولكن أين بميسوره إيجاد الحجر هنا؟ لقد صنّع قلب الصحراء وأعضاؤها الأخرى من الرمل. اعتري الخوف جوكوف. وتعيّن عليه استعمال فرده حذائه اليمنى في المسألة.

كان الأمر في البداية على هذا النحو. ومن ثم، وبعد أن دسّ جوكوف أنفه في الكيس مرتين أخريين، وتحت تأثير المسحوق، تلاشت لديه غريزة صيانة الذات، ودخل في غيبوبة.

عندما ضلّ طاقم العربة المدرعة طريقه في الصحراء، كان قائد الطاقم أوّل مَنْ انتابه الذعر، واتهم ضابط الملاحة بالمسؤولية عن كل شيء. ونفّذ جوكوف أوامر القائد، لاغير، حينما

أحرق الخارطة المزيفة، وقطع لسان ضابط الملاحاة الكذاب. بيد أن الهلع انتقل إليه. وكان جوكوف بكامل قواه العقلية، حينما حول رأس الحربة نحو قلب القائد، وعلى هذا النحو بقي وحيداً.

كلا. حاول جوكوف أن يهدئ نفسه بالقول: لم يكن بوسعي فعل ذلك.

انغرز الألم في دماغه، وقلبه، وكبدته. ومثل أفعى، التفتت حول رقبتة، وتمددت على صدره، أفعى شريرة، من ذلك النوع، الذي اختبأ منذ زمن طويل جداً في جمجمة الفرس المحبوب لدى الأمير أوليغ المتنبئ²⁷.

أرغم جوكوف نفسه بجهد استثنائي على النهوض، ولكنه فقد توازنه وسقط على الأرض، على أربع، وخرج من المطعم إلى الشارع، مترنحاً، وشعر بالاختناق، وجرّ خلفه مكبر الصوت، مثلما يجر حيواناً أليفاً.

هذا سراب، إنه سراب عادي جداً، تأوّه في رأسه المزمار الماكر للهاوي العجوز. بيد أنه سعل، وشخر، وصمت.

رفع جوكوف مكبر الصوت إلى فمه.

أراد مخاطبة مركز القيادة، ولكنه شعر بثقل لسانه وصعوبة في الحديث، وتحدرت شفثاه، مثلما يحدث بعد جرعة تخدير عند طبيب الأسنان. ولم يتحمل جوكوف دائماً مادة النوفوكيين المخدرة.

وقال هامساً بكلام غير مفهوم، يمكن أن تسمعه الثعابين والعقارب وحسب:

- «ألفا»، «أوميغا» يتكلم... نهاية الاتصال... أكرر... نهاية الاتصال... النهاية.

كان وجه الطبيب طيباً، ولكنه مخفي تماماً خلف كمّامة، ونظّارات.

وقال الطبيب بصوت مبحوح من شدة التعب، ويدها ملوّثتان بالدم حتى المرفقين، بعد قيامه بتدليك مفتوح للقلب:

- يبدو لي أنه سيعود للحياة... أنا متأكد من أننا أعدناه للحياة.

تحولّ جهاز رسم القلب الكهربائي، من نظام «مشغول» إلى سلسلة من التشويش، وأصبح أخيراً إشارة خطّ حرّ.

غسل الطبيب يديه، وراحت الممرضة تنتحب من دون صوت.

عيوب الذاكرة

جريجوري سلوجيتيل

ودّع كوستيا وتونيا إحدى أمسيات شهر أغسطس، فوق جسر كوستوماروفسكي. وكان يحوم في السماء فوقهما، سربٌ من الطيور الصغيرة الصارخة. لقد طارت من مكان إلى آخر في سحابة مظلمة نابضة. واندفعت الطيور تارة إلى الأعلى، وتارة إلى اليمين، ثم هَوَتْ بسرعة حتى سطح الماء تقريباً، لكنها بعد ذلك ارتفعت مرة أخرى، وتجمدت في العلو، في انتظار وصول الطيور المتأخرة عنها. لكن السرب لم يُحلّق بعيداً. وقد بدأ، وكأنه كرة عقلانية يرميها مخلوق غير مرئي بلا هدف، من يدٍ إلى يد.

سألت تونيا.

- هل يوجد لديها قائد؟

أجاب كوستيا متجهماً، وهو يرشف النبيذ: - جميعاً لدينا قائد.

- إذن، إن قائدها بليد.

- لماذا بليد؟

- ولكن، من المفترض أن تتجه جنوباً، أليس كذلك؟

- إنَّها لم تبلغني عن خطتها، ربما أن لديها حفلة وداع قبل الرحيل.

- أعطني المزيد من النبيذ.

مدّ كوستيا الفئينة لتونيا، وتعمّد نشر أصابعه على نطاق أوسع على رقبة الزجاجاة، حتى تلمسه تونيا بالصدفة. لكنها أمسكت زجاجة النبيذ من دون أن تلمس كوستيا.

- أوه، يا لرائحته النتنة، اللعنة عليه من نبيذ!

زفرت تونيا بحدّة، كما لو كانت ستشرب كحولاً طيباً، وليس نبيذاً، وأخذت رشفة عميقة، وأردفت: أه، يا لها من حموضة شنيعة!

- لا تعجلي في الشرب، إنه نبيذ عادي. هل لديك التزامات غداً؟

- سنذهب إلى ضواحي موسكو، لنلقي نظرة على موقع العمل. دعاني رفاق من معارفي لتصوير فيديو معاً، وعلى هذا النحو ليس لدي أي شيء، حتى 1 سبتمبر.

ضغطت تونيا بيدها على بطنها، وأصدرت صوتاً خامداً صادراً من الأحشاء: - آسفة.

- ليست هناك حاجة للاعتذار. كلنا بشر.

- ولكنني بعد كل شيء فتاة.

- أنا حتى لم أسمع شيئاً.

- أوه كوستيا أنت الفتى الأكثر تهذيباً، لدينا في معهد السينما!

تطلّعا إلى النهر، الذي أنارته المصابيح الكهربائية ببطء. وخلف سلسلة الغيوم المظلمة، ظهر قمر أغبش داكن. وانعكس في النهر نصب تذكاري لبطل من الأبطال السوفييت، وارتعش مثيله في الماء، كما لو كان شبحاً رعيداً. كان كوستيا قد اتصل بتونيا في فترة ما بعد الظهر، وعرض عليها القيام بنزهة في موسكو، فخلال شهر ونصف الشهر الذي لم يرَ فيه تونيا، لم يتضاءل شعوره تجاهها، بل على العكس، ازداد، وتعمق بشكل غير معقول. ومن المستحيل ألا تكون تونيا قد خمنت ذلك الشعور تجاهها، مما يعني أنها وافقت عن قصد، على تمضية المساء معاً. ومن ناحية أخرى، ربما يبالغ هو في تقدير حساسية تونيا ولطفها، فبعد كل شيء، لم يتحدثا أبداً عن أي موضوع لا علاقة له بالسينما، أو المعهد السينمائي الذي يدرسان فيه، أو الأدب والموسيقا. وفي النهاية، أعياه التخبط في مجموعة لا نهاية لها من التخمينات والافتراضات، وذهب إلى الالتقاء بها، وهو على أهبة الاستعداد لكل شيء.

قالت تونيا، وهي تمدد حروف كلامها طويلاً: - الغسق هو الفاصل بين عالمين.

- هل هذه العبارة تعود لتشيخوف؟

- تقريباً. قالها كارلوس كاستانيدا. بالليشيطان! كيف انقضى الصيف بسرعة. مرة أخرى لم أعمل أي شيء. لم أكتب سطرًا واحدًا.

- كوفاليوفا، هل تريدين أن نكتب سيناريو معاً؟

- عن ماذا؟

- عنا.

- ليس لدينا ما نكتب عنه، أو نصوره. ليس لدينا ما نعيش من أجله. نحن فارغان، ولا يوحدنا أي شيء سوى راديو «هيد» و«جارموش».

- إذن هيا لنكتب قصة عن ذلك.

- هذا ليس موضوعاً للإبداع.

- هل التحقت بالمعهد السينمائي بنفس الأفكار؟

- كلا، أعتقد أنني عبقرية قالت تونيا، وأشعلت سيجارة، وأضافت أعجبنى فتى منذ أن كنت في الصف الأول الابتدائي، وقررت أن أتبعه إلى المعهد السينمائي. وبشكل عام يا كوليبيين أنت منتج سينمائي، وليس بميسورك الكتابة.

- لكن بوسعي أن أحاول.

- لا يستحق الأمر هذا، فحولنا الكثير من الذين يحاولون. ها قد تجمع عدد غفير في قسمنا. أنت فتى من أهالي موسكو؛ لطيف جذاب. ومن عائلة رائعة، ذكي وخجول. فأهدني بمناسبة عيد ميلادي جهاز تلفون «نوكيا»، مثل الذي لديك مع بوليفونية، وإلا، فإن جهازي «إريكسون» بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وقف كوستيا وتونيا على الجسر فترة أخرى، ثم هبطا إلى الأسفل حيث مسارات الترامواي إلى ممر أندرونييفسكي. وسلخا في نزهتهما أكثر من أربع ساعات. في البداية زارا مطعم «أوجي» في زقاق بوتابوفسكي، ومن ثم زارا مطعمي «جاو نعم» و«البشر كبشر». وعقب ذلك اشترى كوستيا زجاجة نبيذ، وراحا يتجولان في منطقة «روجوسكايا زاستافا». إنهما يتنزهان، كما لو أن لديهما حاجة متبادلة لبعضهما بعضاً، هناك حاجة لديهما بأن يكونا معاً، مما يؤكد حياتهما، ويميزهما عن الآخرين، ويملؤهما بالثقة والبهجة، والتي بدونها تصبح الأيام مملة للغاية. أدرك كوستيا أن الأمر لم يكن على هذا النحو، لكنه الآن لم يهتم، فالأمر سواء لديه.

كادت زجاجة النبيذ أن تفرغ. ووجدا ذاتيهما في مبنى قديم مهجور، أدّى بابه إلى سلّم نصف منهار. قال كوستيا: - في يوم ما، كان نادٍ للمثليين هنا.

- ماذا تقول؟

- عن جدّ.

- سمعت أسطورة مفادها؛ إنه في التسعينيات لم يُسمح لمراهقين مثليين محبين لبعضهما البعض، بالدخول للنادي. قيل لهما إنهما لا يُسايران الموضة بدرجة كافية، فانتحرا. صعدا من خلال أنبوب المجاري إلى سطح النادي، وقفزا من هناك إلى الأرض.

- إذن سقطا هنا بجوارنا تماماً؟

- يبدو نعم. والآن هما غالباً ما يظهران في الليل. في طماق لامعة²⁸، ووشاح من الفراء، ووجهاهما مطليان بالأصباغ، وفي أحذية ذات كعوب عالية.

- وماذا يريدان؟

- أن يستمع أحد المارة إلى كيف أنهما يؤديان أغنية «أمطار الصيف كفت عن الضجيج».

- فظيع. وإذا رفض أحد المارة ذلك؟

- حينها يغتصبونه، ثم يحولونه إلى طماق آخر على طماقهم.

- اوووو. دعنا نستلقي على الأرض مثلهما؟

- عن جدّ؟

- لِمَ لا؟

استلقى كوستيا وتونيا على ظهريهما على طريق وسائل النقل، مباشرة، وشبكا أيديهما. ظلّا هناك لفترة طويلة، وهما في صمت تام. لم تكن هناك سيارات أو مارة. وأخيراً أدار كوستيا رأسه إلى تونيا. نظرت إليه بعيون زجاجية «ميتة».

قالت له تونيا بلسان متلعثم:

- لقد هلكتُ تماماً.

وأخرجت لسانها، وتمتمت مازحة: - بيبيبي.

وضع كوستيا يده على خدّها بلطف. لم تدفعها جانباً. شعر بالإحراج، فلم يكن يعرف ماذا يفعل بعد ذلك: إنه لم يرغب في إبعاد يده، ولم يتجرأ على مداعبة تونيا، ومع ذلك، اقترب منها، وحاول تقبيلها، فقالت تونيا بحزم، دون أن تفتح عينيها: - كلا.

- أنا لا أعجبك على الإطلاق؟

- لا يعجبني أحد، ولا أحب أحداً، باستثناء جوني ديب... وتوم يورك...، وكذلك كورت كوبين. لكن فرص التواصل معه قليلة جداً.

- بلى، إنه يرقد في القبر منذ عشر سنوات، وهذه فترة كبيرة. صمت، وأضاف لم يكن يعلم بوجودك، وفي مكان ما في العالم. وإلا لكان قد غير رأيه بصدد إطلاق النار على نفسه.

- كنت لا أزال صغيرة آنذاك.

- كان سينتظر.

- كوستيا، ليس هناك أكثر ما يسيء المرأة، من المجاملات اللجوجة المضجرة.

مرّ انعكاسان ضوئيان على طول منحنى السكة، وتخلّف أحدهما قليلاً عن الآخر. تصاعد هدير، وخرج الترامواي من وراء المنعطف. انتقلت تونيا وكوستيا إلى درجات السلم القديم. وعندما أصبح الترامواي بمحاذاتهما، أظهر لهما مرأهقان بوجهين حجريين، إشارة الأصبع الأوسط، كانا قد أخرجاهما سلفاً. وكانت تونيا على وشك أن تردّ عليهما برفع قميصها، لكنها غيرت رأيها.

- ليذهبا إلى الجحيم.

قالت تونيا بجهد لكوستيا:

- كوليبين، أخبرني، هل لدي موهبة، ها؟ ولو ضئيلة جداً؟

وضعت تونيا كفّ يدها ضد عمود المصباح، ونظرت من فجوة صغيرة بين أصابعها، وتابعت القول: - حسناً، بقدر هذه الفجوة، قليل جداً من الموهبة؟ - وكادت أن تطوي أصابعها تماماً. موهبة قليلة جداً متناهية في الصغر مثل تقنية النانو؟

- كوفاليوفا، ما هذا السخف؟! بالطبع لديك موهبة.

كذب كوستيا، الذي لم يهتم فيما إذا كان لدى تونيا موهبة أم لا. نعم إنّها جيدة. لا، لم يحبها لذلك. لقد راقته له؛ كونها تخاطبه بكنيته.

- شكراً لك يا كوليبين. ومن ثم لدي شعور؛ بأنني لا أعدو غير الخط 1 في الحرف «Б» (بييري) الصلب، وبإزالتة أتحوّل إلى حرف «Б» اللين. ليس لدي ما أكتب عنه. أنا فارغة. افتح قنينة النبيذ.

فتح كوستيا قنينة النبيذ، وسلّمها إلى تونيا. شربت نصف القنينة في جرعة واحدة.

فالتفت كوستيا نحوها:

- كوفاليوفا، كم أنت مذهلة؟!!

- أجل. يبدو أنني في أزمة.

عائق كوستيا تونيا. ومسدها على ظهرها. بدت الحركات محرجة ومُقيّدة، وبعد لأيّ سألتها:
- تونيا... هل يمكنني تقبيلك.

فردت عليه بحزم:

- كوستيا عندما تدرك أن أحداً لا يسأل عن هذا، فسأعرض عليك بنفسني أن تقبلي. ولكن
حسناً، على الرغم من ذلك. قبّلتني.

في لحظة أخرى، كان من الممكن أن يشعر كوستيا بالإهانة بسبب هذه التسوية، ولكن ليس
الآن. قبّلت تونيا، وأجهد ذاكرته بكل قوته، حتى لا ينسى تفصيلاً واحداً، حتى يكون بميسوره بعد
سنوات عديدة، جمع هذه اللحظة بشكل لا لبس فيه، مثلما يجمع تصميماً معقداً ضخماً. ويظهر
الشعور الذي قبّلته فيه تونيا، أنها تتصوّر في مكان كوستيا شخصاً مختلفاً عنه تماماً. لكنه الآن، حتى
لم يهتم تماماً، بهذا.

- طيب. هذا كل شيء. أنت فقط لا تظني من خيالك معنىً فائضاً على هذه القبلة، حسناً؟
دعنا نذهب، وأوقف لي سيارة تاكسي.

خرجا إلى الميدان. أوقف كوستيا سيارة تاكسي.

- هل يجوز لي مرافقتك؟

- كلا.

- عندما تصلين لمنزلك، أرسلني لي رسالة قصيرة من هاتفك الجوال.

- نعم. وأيضاً. أنت فعلاً رجل رائع، دعنا يا كوستيا نستمر في أن نواصل علاقتنا
كأصدقاء. لا أعرف، ربما في المستقبل سنتدبر، وإياك شيئاً ما. لنكن مستقبليين قليلاً، أليس كذلك؟

- سنكون، يا كوفالويفا.

بدأت السيارة في التحرك. تطلّعت تونيا إليه من النافذة، وصاحت: - امسح شفّيتك إنهما
زرقاوان بفعل النبيذ.

انصرمت فترة ستة عشر عاماً. تمكن كوستيا خلال هذا الوقت، من أن يصبح المدير العام
لشركة أفلام «كولبين اندي»، وفازت الأفلام والمسلسلات من إنتاجه بشكل دوري بجوائز في
المسابقات الروسية والدولية. ولكن الوضع في البلاد تغيّر، وفي منتصف السنوات العشر من الألفية
الثانية، اتخذ كوستيا قراراً صعباً ببيع الشركة إلى الدولة. وبدأ العمل كمسؤول في قسم التصوير
السينمائي. وكان مسؤولاً عن تخصيص الأموال للمشروع، وتوزيعها على من يطلب ذلك، وبأي

مبلغ. ورأى من حوله في الغالب أشخاصاً مبتسمين ويخطبون ودّة. وكانوا يسعون لصداقته. لديه طفلان من زوجة ممثلة، عاش معها تسع سنوات. وكان كوستيا غير سعيد للغاية. لقد ضاق ذرعاً بالسينما، وأثاره الوضع في البلاد. لم تكن لديه هواية، لذلك لم يتمكن من الارتياح تماماً في عمل آخر. لم يعد كوستيا منذ فترة طويلة، يحب زوجته، ونظر بحزن إلى كيف يشب أطفاله. كان يزور امرأة من معارفه مرة كل أسبوعين، في غضون أربعين دقيقة، ثم يغادر شقتها، وهو يشعر بالارتياح، ولكنه يجر جر قدميه إلى منزله بضمير مثقل.

ذات مرة، أثناء التجوّل في صفحات الفيسبوك، لاحظ اسماً مألوفاً لديه في أحد الروابط: تونيا كوفاليفوفا. لم تكن على قائمة أصدقائه. إنهما لم يلتقيا منذ سنوات عديدة. عرف أنّ حياة تونيا المهنية لم تسرّ لحدّ ما، على ما يرام. منذ حوالي عشر سنوات، كتبت سيناريو عن تلميذين يحب أحدهما الآخر. إنهما عاشا في بلدة صغيرة، وخفقهما الجوّ المتعفن للمقاطعة. ولعجزهما عن مواجهة عدوانية المجتمع وبلادته، تماسكا بأيديهما، وألقيا بنفسيهما من أعلى قمة لمضخة صدئة. فاز الفيلم بأحد الأوسمة في أحد المهرجانات المجرية، لكن تمّ عرضه في روسيا من دون أن يلاحظه أحد. هذا كل ما سمعه عن تونيا. كانت صفحتها مليئة بعبارات # ألمي # سآحي # No more abuse وكانت مكرسة لحدث من الماضي من حياة تونيا. كتبت تونيا عن خوف أسودّ لزج، تعيش فيه منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. إن أحد معارفها الطيّبين، (شخص لطيف، مثقف، وذكي، وكلكم تعرفونه جيداً. ما زال شاباً، ولكنه رجل مؤثّر بالفعل)، دعا تونيا ذات مرة للتنزه معه في إحدى أمسيات الربيع. في الوقت الذي بدأت الطيور توّأ في العودة إلى المدينة، وتنزّها. وكان الصديق يتحدث كثيراً عن فرقة أوكستيون، وعن كارلوس كاستانيدا وراينر ماريا ريلكه، وعن كيف يرى السينما الروسية في المستقبل؟ وعلى هذا النحو تنزّها، شربا الكونياك الرخيص، من عنق الزجاج، ثم افترشا العشب، وراحا يعدان النجوم، وبعد ذلك استغلّ الصديق ضعف قدرتها على الإدراك، عانقها فجأة، وبدأ يلاطفها بيديه (لا، ولكن، وماذا؟) وحاول تقبيلها، لكنها رفضته مرة، ومرتين، ثم صرخت به. لقد أعجبه هذا، وراح يتحرش بها، لاختراق حرمة جسدها، ثم يمسكها من وجهها، ومن رقبتها، و.... إلخ. وفي نهاية المطاف، كان مستعداً للقيام بالأشوأ، لكن لحسن الحظ، مرّ ترامواي بجوارهما، ورأى شابان من النوافذ، ما كان يحاول صديقها الطيّب أن يعمل بها. حينها أوقفا الترامواي، ووثبا منه، وانهالا عليه بالضرب كما ينبغي عدّة مرات، وساعدها في ركوب الترامواي...

أغلق كوستيا شاشة الكمبيوتر المحمول، ونظر من النافذة. كانت السماء مخططة بخطوط بيضاء، خلفتها الطائرات النفاثة. ارتفعت صفارات الحافلات المزدحمة في شارع تفيرسكوي. كان أحدهم يُصفرّ بنغمة أغنية Creep لفرقة Radiohead بشكل مزيف بفضاعة. صقرّ أعلى فأعلى، حتى فطن كوستيا، بأن الذي صقرّ هو نفسه. دَعَتْهُ زوجته لتناول الفطور في المطبخ. فَرَكَ أرنبة أنفه، رغم أنه لم يرتدِ نظارة قط، وضغط على صدغه، رغم أن رأسه لم يؤلمه. بحث عن رقم هاتف تونيا في التلفون، وعثر عليه بشكل مفاجئ. أدار التلفون بيده، ونظر جانباً في مكان ما. فتح

الكمبيوتر المحمول مرة أخرى، ونظر في التعليقات: «ما مدى قوتك يا تونكا» «تونيو سكا، نحن معك» «يجب إخصاء الحيوانات»، «ما مدى أهمية الحديث عن هذا». العديد من الصور على شكل كَفّ مطوية بإيماءة صلاة، وقلوب، وقلبات. نقر كوستيا على صورة الملف الشخصي لتونيا، نظرت إليه منه صورة امرأة صلعاء تماماً، متوسطة العمر، ذات نظرات توشي بالتعب والنفور واللامبالاة. ونقر على صور أخرى، كانت في كل واحدة منها تقريباً، بصحبة امرأة بتسريحة شعر قصير، ترتدي سروالاً مموهاً. لم يكن اسمه وارداً في أي مكان من صفحاتها. ولم يجد في أي مكان في النصّ أي إشارات خفية أو صريحة إلى هوية المغتصب. لكن شيئاً ما أوحى له أن القضية برمتها لا تقتصر على هذا النصّ. نظر إلى الهاتف. مدّ إصبعه لإجراء المكالمة، لكنه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة. أدرك فجأة أنه كان مرتبكاً، وأنه لم يُعد يفهم ما كان، وما لم يكن في حياته في الواقع. لم يعرف يسأل مَنْ، ومِنْ مَنْ يطلب المساعدة، وبِمَنْ يمكنه الآن الوثوق. رأى انعكاس وجهه في شاشة الهاتف. لو التقى بمثل هذا الشخص بمكان ما في الشارع، فعلى الأرجح كان سيضحك ساخراً منه: كما لو أذابوه، كما لو كان شمعة. كأن هذا هو التعبير الذي يرسمه وجه مهرج حزين، في كل مرة، قبل دخوله الحلبة. بدا الأمر على هذا النحو ميؤوساً منه، ومثيراً للشفقة. مطّ شفتيه قسراً واغتصب ابتسامة، وذهب إلى المطبخ، لتناول الإفطار. وهو على استعداد لأي شيء.

مستشفى علاج السل أندريه روبانوف

استبدّ بي في الليالي في بداية مايو سعالً شديد. وبعد مرور شهر استسلمت للأطباء.
فحصوني بالكشف الإشعاعي طويلاً وعرضاً، شخّصوا أنّي مصاب بالسل، وفرحتُ جداً.

لأنني اعتقدت بأنني مصاب بسرطان الرئتين، وكنت مستعداً للأسوأ.

نحن نصاب بأمراض خطيرة، حتى نتجنّب التعرض لأمراض أخطر منها.

وتداهمنا المتاعب والمشاكل والجوائح، بما في ذلك الحروب، لنتفادى مشاكل وجوائح
وحروباً أخطر.

قبل عامين تقريباً، بدأ كل شيء معي. توجستُ شراً.

وفجأة، صرت أتخوف من العدوى.

لم تكن تراودني أبداً في السابق مثل هذه الهواجس، فطيلة حياتي، شربت من أقداح قدرة،
وأتممت تدخين سجائر أناس غرباء، وتصافحت مع مرضى الإيدز. كان نصف دائرة أصدقائي
دائماً، ولحدّ اليوم، من الأشقياء والقتلة تجار المخدرات والمدمنين عليها، والكثير منهم كانوا من
نزلاء السجون والمعتقلات، والكثير منهم مصابون بعدوى التهاب الكبد المُعدي، والتهاب السحايا
والتدرن، والشيطان يعرف بأية أمراض أخرى.

ومن الحماسة الخوف من العدوى، وأنت تعيش بين شرائح المجتمع الدنيا.

ولكن، بدأت بغتة بالخوف.

وجدت نفسي، عندما أكون ركباً في مترو الأنفاق، أحاول الابتعاد عن الناس، ولا سيما عن الآسيويين الذين يرتدون ملابس رثة، وأشيح بوجهي بعيداً عنهم. ولم أخلع القفاز من يدي، لا شتاءً، ولا خريفاً. أخذتُ أعير الاهتمام إلى وجود عدد كبير من الناس حولي يسعلون، وببساطة تتبعث منهم الروائح الكريهة.

إن هذا الرهاب (الخوف) من العدوى يظهر مرة، ويختفي أخرى، ولم يزعجني أبداً، لم يكن خوفاً، بلا وساوس، كمن فجأة في داخلي، ولم يكن هو المهم بالنسبة لي، المهم أنه لم يكن موجوداً لدي أبداً، وها هو يداهمني.

الآن يتعين عليّ حزم حاجياتي، والاستسلام لقسم استقبال المرضى في المستشفى.

حذرنى الطبيب:

- ستمكث في المستشفى شهرين.

انتابني الرعب، وأردف قائلاً:

- هذا كحدٍ أدنى.

لقد دار بيننا هذا الحديث عشية دخولي المستشفى، إذ تطلّب الأمر مني أن أنتظر عدة أيام، حتى يتم إخلاء سرير هناك. عرضوا عليّ أن أختار بين مستشفى جديد في أطراف المدينة، أو مستشفى قديم في مركز موسكو، اخترت المركز، ولم أخطئ في التقدير.

كان المستشفى مؤلفاً من طابقين، وجرى بناؤه من الأجر الأحمر السميك، قبل مئة عام. كان في البداية يستخدم كمأوى للعجزة، وتجوّل في أروقه شيوخ وعجائز ما قبل الثورة، بأقدامهم المصابة بالروماتزم، والآن لم يبق منهم أي أثر، الآن يتمشى تحت السقوف العالية رواحاً وجيئة، في مختلف الاتجاهات أشخاصٌ بسرّاويل رياضية، أشخاصٌ ذابلون، بوجوه لها لون إسفلت قديم، مرضى بالسل. لم يكن هناك ما يُذكر في المبنى بالأزمان القديمة، سوى الهندسة المعمارية، والنوافذ نصف الدائرية، فضلاً عن مصلّى صغير في الطابق الثاني مقابل المدخل الرئيسي، حوّله الآن إلى مطعم. خلال تناولي عصيدة الصباح، التي يقدمونها من دون ملح، ولا سكر، أتحت لي الفرصة لرفع نظري، لأقرأ بعض العبارات على الحائط بالحروف الكنسية السلافية، على سبيل المثال «أنفذ أرواحنا».

كان الوضع في المستشفى مضجراً، بيد أن هذا لم يشكّل مأساة كبيرة بالنسبة لي، على العكس من ذلك، إن وجود المرء في سرير حكومي يعني الحضيض، ونهاية مرحلة هامة، وبداية مرحلة أخرى.

فمن أجل الصعود إلى الأعلى، ينبغي الانحدار إلى الحضيض، والانطلاق بالاعتماد على الخبرة الحياتية.

كنت في حينها قد بلغت سنّ 47 عاماً، ولدي ما يكفي من الخبرة. لقد عرفتُ، بأنه عندما يتعرض الإنسان للتدهور، فإنه لا يستطيع التغلّب عليه بجهد بسيط من إرادته.

إن الإنهيار سيتوقّف بحدّ ذاته.

سينزلق الإنسان إلى الحضيض، وحتى يبلغ أدنى نقطة.

بالطبع، لم أكن أنوي فقدان شهرين من الحياة سريعة التدقّق، داخل أربعة جدران، كانت خططي هي البقاء لمدة أسبوعين، أو كحد أقصى، وعلى سبيل المثال، لمدة ثلاثة أسابيع، حتى تتضح نتيجة التشخيص الدقيق، ويمكنني بعد ذلك مواصلة العلاج في المنزل.

أجرت النساء المتحزّيات، وبالجلابيب البيضاء، على الفور، الشكليات الرسمية، لاستقبال نزيل المستشفى الجديد، واقتدنه إلى الطابق الثاني، وأشرن بأصابعهنّ: هذا هو جناحك، وهذا هو سريرك.

نحن بالطبع نفهم أن النزيل الجديد اتّخذ سلفاً هيئة المتعجرف (التحدث بقوة ووقاحة، وفي نبرة مرتفعة)، فقد كان يعتقد أن مستشفى السل مكان يشبه فرعاً من فروع السجن، أو مركز احتجاز مشتبه بهم، فأين يمكن أن يصاب الشخص المعاصر بالعدوى، إن لم يكن في السجن!؟

للأسف، إن النزيل الجديد، ليس نزياً جديداً في قضايا المعايضة الاضطرارية مع الآخرين، فقد يقضي خمس سنوات من حياته، نصف شبابه، في الجيش وفي سجن الموقف، ويستعدّ الآن للجدل بشأن مكانه في المقعد، وفي الصوان، وفي الحمّام، وهل سيكون سريره بالقرب، من نافذة مفتوحة أم بالقرب من بطارية التدفئة المركزية!؟

لكن كان هناك ثلاثة أشخاص وحسب في الردهة، وكانوا جميعهم يغطّون في النوم.

استلقيتُ أنا أيضاً على سريرتي، وغرقت في النوم، حتى لا أتخلّف عن الجماعة.

لقد كانت الردهة تتسع لأربعة أشخاص ومقسمة بحواجز، ويرقد مريضان في كل نصف منها. يمضي الجميع معظم اليوم في النوم، وأنا كذلك.

يبدو أنهم يعطوننا ضرباً من الحبوب المنومة أو المهدئة، فنحن ننام عشرين ساعة، وعندما لا ننام، نمشي ببطء مترنحين. ويرتسم استياء متشابه على وجوهنا الشاحبة. إن وضعنا كغير أصحاب لا يعجبنا، ومرضنا يجعلنا مغتاظين، ونودّ أن نكون على الجانب الآخر من سور المستشفى، لكن لا يجوز لنا ذلك. فقد نقل العدوى إلى الآخرين.

نحن ننام، وهذا يجعلنا نتصالح مع الواقع.

وحتى ليونيا، أقدم نزيل في ردهتنا، ينام، واعتاد على كل شيء. إنه يتلقى العلاج خلال ثلاث سنوات، ولكن بلا نجاح يُذكر. إنّ الأدوية التي يحقنونها في أجسادنا ثلاث مرات في اليوم تؤثر في الجميع بطرق مختلفة، ولكن ليونيا يتسم بصمود فردي. بتعبير أدق، ليس لدى ليونيا نفسه، ولكن في البكتيريا التي استقرت في أنسجة رتته. من ناحية أخرى، عانى ليونيا، غير المحفوظ، من آثار جانبية للعلاج: فقد تضرر سمعه من تناول جرعات كبيرة من المضادات الحيوية، والآن صار طوال الوقت يسمع صغيراً في أذنيه. وفي المنام أيضاً.

يرقد مقابل ليونيا المريض جريجوريتش، ووفقاً للشائعات، فإنه سيخرج قريباً من المستشفى. لقد تحمّل مرضه بسهولة، إذ أمضى في المستشفى ثمانية أشهر فقط. إنه يتنفس بصخب وبحرية، وهو رجل قوي البنية، مهيب، ذو صوت منخفض. وشكله يطابق اسمه. إن هذا النمط الفظّ القوي من أمثال «جريجوريتش»، دائماً نراهم بجوارنا في حياتنا اليومية. إنه من نمط الذين يديرون شؤون المواطنين والشؤون الإدارية في المؤسسات، ويتمّ انتخابهم للإدارة الوسطى، وهم يتدبرون الأمور في جميع مجالات الحياة، ويعتمدون دائماً على أنفسهم، وهم على استعداد دائماً لتقديم المشورة، أو يوجهون صفة إلى قذال أي شخص.

هذان الاثنان هما أقدم نزليين في الردهة، ونحن وراء الحاجز، أنا وماكس، هو يرقد للشهر الثاني وبالمعايير المحلية، هذه فترة قصيرة جداً.

ماكس جار مثالي: على صدره جهاز كمبيوتر محمول، وفي أذنيه أسلاك، وبيده هاتف. لم يبلغ ماكس بعد الثلاثين من عمره، وهو ملتفّ بأسلاك، إذا لا، فهو متصل بالإنترنت.

في بعض الأحيان تظهر أيضاً شاشة على صدري، وعلى الأرجح أنا وماكس، في عيون الممرضات والأطباء نؤلف زوجاً مضحكاً، صامتين، وفي أذنيننا أسلاك متشابهة.

غرزت الإبر فينا نحن النزلاء الأربع. تدفقت في أوردتنا ببطء، من خلال الأنابيب، سوائل بألوان كيميائية، لا يمكن تصديقها. ألوانٌ شاحبة رمادية مائلة للأصفر، تُذكر بكيروسين الطائرات، أو على سبيل المثال، داكنة مائلة للبرتقالي.

إذا لم نكن مستقلقين تحت القطار، فإننا مع ذلك نضطجع، لتهدئة الغثيان أو دوار الرأس.. نستيقظ فقط، لقضاء الحاجة، أو لتناول الطعام. ويجب علينا ثلاث مرات في اليوم الخروج إلى الممرّ، واستلام حفنة من الحبوب، لنبتلعها على الفور، تحت أنظار الممرضة. هناك الكثير من الحبوب كبيرة الحجم، ليس بميسور المرء ابتلاعها على الفور، ولكني بعد مرور ثلاثة أيام من نزولي في المستشفى، استطعت الاعتياد على ابتلاعها.

نحن جنث متحركة مسالمة، بدون أصوات، ولا نمتلك حتى القوّة للتحدث بملء صوتنا.

دفعوا لنا بالأمس السرير الخامس، وجاؤوا إلى ردهتنا بنزيل جديد، كان رجلاً بسيط المظهر للغاية، بأذنين منتصبين، غائر الخدين، ومتغضّن السحنة، كانت حالته سيئة تماماً، بالكاد كان يمشي، وسعل بقوة لدرجة أن زجاج النوافذ، اهترّ من سعاله.

وما إن دفع ملبسه وحاجاته في الصوان، حتى أغلق الباب على نفسه في المرحاض، وأنشأ يدخن سيجارة هناك. اشتّمت الممرضة على الفور رائحة الدخان، فهرعت لنا. أثارت الممرضة، وهي فتاة كازاخستانية صغيرة ونشيطة ووقحة، ضجة. فالإدارة تعاقب من يدخن، بالطرد الفوري من المستشفى. اعتذر النزير الجديد، وتحشّج صوته.

كان طويل الذراعين، محدودب الظهر، غائر الصدر، قررت أنه بروليتاري، ولم أكن مخطئاً في توقعاتي. جاء الطبيب، وسجل معطياته، وسأله عن مهنته.

- سائق.

- ماذا كنتم تنقلون في شاحنتكم؟

ففكّر قليلاً، وقال:

- علب كارتون.

- قلت إنك فقدت الوزن، ما وزنك الآن؟

- سبعون.

- وقبل أن تمرض؟

- مائة وعشرون.

- فقدت ضعف وزنك، ولم تعلق على ذلك أي أهمية؟

فكّر السائق مرة أخرى، واحمرّت التجاعيد على جبهته، وأجاب.

- كلا، مجرد فقدان وزن.

لكن، استجوابه لم يستمرّ طويلاً، فقد كان كل شيء واضحاً عن السائق. بعد نصف ساعة، قامت الممرضة غوليا بربط القطار في وريده، وكان هادئاً.

استيقظت في الليل على شخيرهِ.

كان ذلك شخير شخص مدمن على الكحول، مرةً يصعد عالياً وأخرى يخفت، مقروناً بأهات طويلة كالعواء، وصرير أسنان. ربما أن السائق كان يحلم، بأنه قد تعرض للضرب، أو انتزعوا منه راتبه الذي يستلمه بعرق جبينه. ارتدبت سروالي، وخرجت إلى ما وراء الحاجز.

كان السائق راقداً في عرض السرير، وتدلت قدماه على الأرض، ووجهه لأعلى. رأيت ما يعنيه نقص الوزن مرتين. كانت فخذه أنحف من كاحليه، وتهدّل جلده متغضناً ومتجعداً.

لم يَنَمَ ليونيا، ولا جريجوريتش أيضاً.

هزرت السائق من كتفه.

قال ليونيا:

- لافائدة من ذلك.

وأردف جريجوريتش:

- لقد جرّبنا، ولم يستيقظ.

استمرّ السائق في الشخير. طفقتُ أهزّه بشدّة، وقررت بحزم أن أوقظه، فحتى في السجن، ووفقاً لعادات السجن الصارمة، يمكن هزّ النائم إذا كان يشخر بشدّة. فمن هذه الناحية، كنت في إطار حقي القانوني. لكن السائق زحر فقط، ثم ألقى رأسه للخلف تماماً، وأظهر تفاحة آدم الحادة، وامتدّ عواءً أجش من حلقه.

- عبي عبي عبي

جلس جريجوريتش على السرير.

وهتف منفعلًا:

- يلعن أمك، هذه صدمة سكري. إنه مصاب بمرض السكري، سمعت أنه أخبر الطبيب بذلك، انخفض السكر لديه في الدم. هذا يحدث لي أيضاً.

هرعت الممرضة المناوبة التي كانت تغفو في الممرّ، على الضوضاء في جناحنا.

قال جريجوريتش: «ربما سيموت».

بعد خمس دقائق، اكتظ جناحنا بالناس، إذ جاء الطبيب المناوب، وآخر من وحدة العناية المركزة، وممرضة مع محاقن وأمبولات.

كان السائق يرتجف في تشنجات. أمسكت أنا قدميه، فيما أمسك الطبيب من وحدة العناية المركزة، يديه. ثم حلّ ليونيا محلي. حقنّت الممرضة السائق، بإبرة تلو الأخرى.

أنا شخصياً، اعتقدت أن السائق كان يعاني من هذيان رعاشي، فقد بدأ للتو اليوم الثاني، لامتناعه القسري عن شرب الخمر، وقد حان الوقت لكي تنتابه الهلوسة، وربما الهذيان، وهذا يعتمد على الكمية التي اعتاد تناولها يومياً.

لكن اتضح، وكما هو الحال دائماً، أنّ الطب الحديث في الحقيقة، أكثر ثراءً من تخميناتي كشخص عديم الخبرة: إذ استعاد المريض رشده بسرعة، بعد حقنه في الوريد وفي المؤخرة بالعديد من الأدوية المختلفة.

في لحظة ما، تبوّل تحته، لكن هذا كان جزءاً من منطق الموقف. فلماذا لا يتبوّل المرء تحته من شدة الفرح، بعد أن صار على شفا الموت؟

عندما استيقظ، طفق بالاعتذار للجميع، كان هناك ستة أشخاص ينظرون إليه من فوق إلى تحت، وأنشأ يتوسّل لمنحه الفرصة، لتغيير ملابسه الداخلية. حاول النهوض لكن لا يجوز له النهوض، وبذل محاولة ثانية، لكن الطبيب من وحدة العناية المركزة، منعه من ذلك.

حينما انصرف الأطباء، رفعتُ أنا وليونيا وجريجوريتش، السائق من السرير، من ذراعيه وساقيه، وقامت الممرضة بتغيير البياضات.

اعترض السائق بشدة، لكن جريجوريتش أمره بالصمت، ووبّخه، لعدم الاعتناء بصحته.

أظن أنني قلت له شيئاً ما: «توقّف عن الشرب يا صديقي» أو شيء من هذا القبيل. ربما لم أقل، لكنني فكّرت بذلك. كان رأسي يعمل بشكل سيئ، فقد كانوا يحقنوني يومياً، بلتر من أكثر المضادات الحيوية الموجودة في الطبيعة شراً. وأغاضني موضوع السائق، فقط. وعلى أي حال لن يبقى السائق طويلاً في هذه الدنيا، فهو من أترابي في العمر، فيما لاح في الستين. من الواضح أنه حصل بمشقة على قوته اليومي، وانتظره مستقبل قاتم، وقد كتّبت عليه أن يموت في السنوات الثلاث أو الأربع القادمة بسبب الفودكا أو الأمراض، غير المرئية في البداية بسبب الإدمان على الخمر. لا يجوز لأي شخص أن ينحط جسدياً، لقد ولدنا منتصبين القامة، ولا ينبغي أبداً أن نُطأطيّ رؤوسنا، وأكتافنا إلى الأرض.

على الأرجح أنني لم أنبس بكلمة، لكنني ابتعدت بصمت، واستغرقت في النوم.

أما جاري ماكس فلم يسمع ما كان يحدث. لقد كان يتحمل بصعوبة الدواء، وبشكل عام كان بطيء الفهم.

ومع ذلك استيقظ السائق صباحاً. وسمعت كيف أنه خفق بنعله، ولهث خلف الحاجز، ورتّنت الملعقة في كوب الشاي، لقد تحسنت حالته بشكل عام، ونقلوه في نفس اليوم إلى وحدة العناية المركزة. وبقيت بعده في المرحاض رائحة دخان نتن، وأكياس شاي تسبح في دورة المياه. ولم يعودوا به إلينا من وحدة العناية المركزة لم يمّت، بالطبع، على الأرجح نقلوه إلى الطابق الأوّل. لم أراه بعد ذلك.

في نفس اليوم حلّ في مكانه شخص جديد، فتى له عشرون عاماً. لم يأت بمفرده، بل جاءت معه زوجته، أيضاً شابة، وردية السحنة وممتلئة الجسم، ترتدي زي «الإيمو» وردي وأسود، وهي عملية جداً. فقامت بفحص الحشوية، ورتّبت الفراش الخاصّ به، كما جاء معها بالبياضات. تكلمنا معاً مع الطبيب، وبشكل أساسي ردّت على الأسئلة الزوجة الممتلئة والنشيطة. ظهر أن الزوج ابن

العشرين عاماً، مصاب بالصرع، ويعاني من انحرافات في الجهاز العصبي، لم أسمع حديثهما مع الطبيب تماماً. وذهبت الفتاة الوردية الممتلئة، بعد أن أطعمت زوجها بشيء مشوي من التيرمس. لقد أعجبتني. وخرجتُ إلى الممرّ على الخصوص، لكي أراها. لم تكن الفتاة جميلة، ولكنها رائعة، لقد أمسكت الشاب بقبضتها بقوة.

حلّ يوم الجمعة، في أيام العطل، سمحوا بشكل غير رسمي للكثير من المرضى، بمغادرة المستشفى، والذهاب إلى منازلهم. ذهب ليونيا وجريجوريتش. هذان الاثنان كانا مشبعان بالأدوية، ولا يُستَكلان خطراً على المجتمع. لم يذهب ماكس إلى أي مكان، لم يسمحوا له حتى بالخروج إلى الشارع. ومنعوه من التدخين. لقد كان نصيبه من الأدوية والتداعيات السلبية أكثر من الآخرين، حقنوه أكثر من ثلاث مرات بعقاقير مختلفة الألوان. تمّ إحضاره مع نفث الدم، واستعدوا، لإجراء عملية جراحية له، لإزالة جزء من الرئتين مصاب بالبكتريا، في حال تدهور صحته. وأبلغ الأطباء ماكس، بأنهم لن يخلوا سبيله قبل عام. ولولا الكمبيوتر والشبكة العنكبوتية، فقد يكون ماكس قد فقد عقله.

كما أنّهم لم يسمحوا لي أيضاً بالذهاب، علاوة على أنه لم يكن بميسوري مغادرة المستشفى.

لقد تمتعت، بالهدوء، من دون أن أكفّ عن الاستلقاء بصورة أفقية.

كنت دوماً أحب عطلات نهاية الأسبوع، وإن كنت أعمل سبعة أيام في الأسبوع من الصباح إلى المساء، فهذا اليوم يوم ابتهاج عام، واسترخاء، وجو عيد شرعي: حقاً إنه قصير، ولكن لا يمكن التخلي عنه. ففيه يصبح الأشخاص الأكثر نشاطاً، وحباً للعمل؛ كسالي في أيام السبت والأحد، ولا يتعجلون في الردّ على المكالمات الهاتفية الواردة. وفي المستشفى أيضاً: لا تتحدث العاملات المُنظّفات بصوت عالٍ، ولا تدخل ممرضة عصبية، وتطلب إعطاء الدم على الفور لتحليله.

عشت طوال اليوم في حالة غير مألوفة، كحالة النبات، غفوت، أو تناولت الطعام، أو شاهدت فيلماً في قاعة سينما المستشفى.

كانت صديقة ماكس تجيء في فترة ما بعد الظهر، فأغادر الغرفة، لمنحهم الفرصة ليكونوا معاً على انفراد، وكما فهمت أنّ الفتاة أحببت بشدة ماكس الفارع القامة والوسيم، وإلا، فلماذا كانت تزوره يومياً، معرضةً نفسها لخطر عدوى المرض؟! بالطبع، إنّها بهذه الطريقة حاولت إثبات مشاعرها. بيد أنها لم تكن تمكث طويلاً. ربما نصف ساعة. وعندما كنت أعود إلى سريري، أجد أن عيني ماكس مشرقتان. كنت سعيداً من أجله.

كان صوت الفتى المصاب بالصرع يتناهي أحياناً من خلف الحاجز: لقد اتصل بزوجته، وأخبرها بالتفصيل عن شيء ما. يعرف الأشخاص العاديون كيف يروون لبعضهم البعض، بتفصيل كبير عن الأشياء الصغيرة المختلفة، مثل هل تهب الريح عليه من النافذة، وفيما إذا كانت الأسنان تؤلمه، وخاصة الحديث عن، مَنْ، ولِمَنْ، وماذا قال هذا أو ذلك، ولماذا أساء فلان من الناس، وماذا كان يعني بقوله كذا وكذا. ولحسن الحظ، إنّ الفتى يهدأ مع اقتراب منتصف الليل.

أصيب أثناء الليل، بنوبة صرع. استيقظت من النوم على صوت تشنجات، وقرقرة لعاب. لقد رأيت عدداً كافياً من المصابين بالصرع، وكنت أفهم ما يحدث لهم. كان من الضروري النهوض والذهاب إليه، وإدارته على جنبه، وبشكل مثالي إدخال شيء صلب بين أسنانه، حتى لا يبتلع الرجل البائس لسانه. كان يجب استدعاء الممرضة. لكنني لم أنهض، ولم أذهب إلى أي مكان، ولم أستدع أي شخص. استلقيت، واستمعت بلا مبالاة كيف كان يشخر، ويرتجف.

قررت أن أنهض فقط إذا اختنق بجدّ، بدا لي أنني سوف أفهم إذا بدأ الفتى يحتضر بالكامل، وإذا بدأ الرجل المسكين في الاختناق بلعابه، سأشعر بالحالة، وحينها سأساعده.

لكن إذا كنت مخطئاً، وثوّقي، فلن أشعر بأي ذنب.

في المرة الماضية نهضت وساعدت السائق، ونجا السائق من غيبوبة السكري ومن الموت. لكن الخلاص العجيب لم يغير شيئاً. إنّ الناس الذين أصبحوا أشقاء لشخص على شفا الموت، تنهّدوا فقط، وتفرّقوا على الفور كل في طريقه.

في هذه المرة لم أستيقظ، ولم أساعد، لأن ذلك لن يُغيّر من الأمر شيئاً أيضاً.

مريض آخر، شخص آخر، تمّ إنقاذه.

وإذا مات هذا الفتى، فلن يتهمني أحد بالتعاس. ولن يُوجّه باتجاهي، حتى نظرة شررة.

إنني مسؤول أمام الربّ فقط، لكن إذا ظهر الربّ الآن، أو ملائكته، ولاموني على القسوة، فسأومئ برأسي بصمت: حسناً، أجل، أنا قاسي القلب.

لكن الخالق نفسه لم يرحمنا، وحشدنا هنا في مكان واحد، نحن الهزيلين وشاحبي الوجوه، الذين يسعلون بصوت مبوح، وجعلنا نتعفن، ونحن ما زلنا على قيد الحياة.

ولماذا «أنعم» الربّ على شخص في شبابه، بحزمة كاملة من الأمراض الشديدة؟

وبالطبع، كانت تدور في رأسي طوال الوقت إحدى الأفكار، إنّها فكرة معروفة لكثير من الناس. ربما ليست هناك حاجة إلى علاج أي شخص على الإطلاق؟ ربما سيكون من الأحسن أن يموت الضعيف في سنّ الرضاعة، بحيث لن يتمكن من العيش على الكوكب سوى الأشخاص الأقوياء، الأصحاء، ذوي الأوداج الحمراء!

سمعت الشخير خلف الحاجز قد بدأ يخفت، ثم توقّف تماماً. وراح الفتى يتنفس بشكل منتظم. اعتقدت أنه بخير. إنه ليس بحاجة للمساعدة، لقد ساعده أحدهم.

في يوم الأحد، عاد ليونيا وجريجوريتش، وكلاهما يتمتعان بالنشاط والحيوية. جاء بأكياس من المأكولات، وأقاما وليمة، ودعّواني وماكس، لكننا رفضنا بأدب. شعرنا فقط بالغثيان من الروائح. وروى لنا جريجوريتش مغامراته، وفمه مملوء بالطعام. لقد حطم السيارة. كانت حياة

جريجوريتش مرتبة ومدروسة من جميع الجوانب، كان ابنه بالسيارة في أيام الجُمع، ويقضي جريجوريتش عطلة نهاية الأسبوع وراء مقود السيارة. والآن؛ ها هو قد تعرض لحادث سير.

وقال، لِيُبَرر تعرّضه للحادث:

- لقد أعمت الشمس عيني، واندفعت نحو الحافلة المتوقّفة.

أجاب ليونيا بلطف:

- المصائب لا تأتي فرادى.

- لا بأس. سوف يخرجونني من المستشفى، وسأحلّ جميع المشاكل على الفور.

بعد ساعة، ساءت حالة جريجوريتش، وراح يتقيأ. جاء الطبيب المناوب مرة أخرى، وبعد خمسة أو سبعة أسئلة شخّص أنّ المريض مصاب بارتجاج حادّ في الدماغ. اتضح أن جريجوريتش لم يصدّم حافلة الركّاب فحسب، ولكن ضرب رأسه بشدّة أيضاً. اعترض جريجوريتش، وقال إنّ رأسه قوي، حتى إنّّه لم يلاحظ أية ضربة، لكن عندما أمروه بالاستلقاء على السرير النقال، لم يجد بدأً من الإذعان لمشيئتهم على الفور. نُقل إلى العناية المركزة.

استغرقت في النوم مرة أخرى.

لقد غدا واضحاً أنّني الشخص الأكثر عافية في هذه الردهة.

الغريب

يفجيني شكلوفسكي

الجميع عرفوا أنه يؤوي شخصاً ما.

وما هي هوية هذا الشخص؟

إنه مجرد شخص عادي، وحسب. وكل ما عرفوه أنه من إحدى الدول المجاورة، التي كانت ضمن الاتحاد السوفياتي، ربما هو طاجيكي. اسمه إلياس، وصل مؤخراً إلى موسكو، ولم يتمكن من العثور على عمل، لذلك كان في حيرة من أمره. وخدمه في أحد الأماكن، حيث لم يدفعوا له أجرته، وفي مكان آخر كانت الظروف مروعة، وغير قانونية تماماً، فلم يرغب بالعمل هناك.

التقيا في الشارع، بالصدفة، سارا عدّة دقائق جنباً إلى جنب، وقد أحنى إلياس رأسه بنصف التفاتة. ومن ثم تجرأ أخيراً، وطلب منه شيئاً من النقود. ومن شدة حرجه أبعد ناظريه جانباً. ليس بوقاحة. وسأله «ن»: ما هو العمل الذي يجيده؟ أما الآخر فحتى لم يندهش، وردّ عليه: أنا أمارس مختلف الأعمال. وتحديداً أكثر؟ صقل الأخشاب، وقطعها بالمنشار، وبعض المهارات الكهربائية، يجيد القليل من كل حرفة، ولكن ليس بمهارة مهنية. لم يكن «ن» بحاجة إلى عامل، كلا، لقد راق له وجه الطاجيكي، وحسب. مُحَيّاه ينم عن الشعور بالضياع. فأخذه إلى منزله، وأطعمه، وسقاه، وتركه لقضاء الليل في شقته، وبعد ذلك وجد له عملاً؛ ينحصر في ترتيب الشقة، لم يدفع له أجراً تقريباً، باستثناء مصروفات الجيب، اشترى الطعام. وقام إلياس بطهيته، وعندما عاد «ن» إلى المنزل وجد

العشاء جاهزاً. مفهوم أنه ليس كما في مطعم، ولكن يمكن تناوله. فلم يكن يتوفر مثله، حتى عندما كانت زوجته السابقة تعيش معه.

ينبغي القول إنه، وإلياس تناولوا طعاماً على طريقة الطلاب: مختلف المأكولات الجاهزة الرخيصة، والمعكرونة مع النقانق، والبيض، والبيلميني والعصيدة...، وبطبيعة الحال الشاي.

احتسى إلياس الشاي (الشاي الأخضر) بكثرة، وكان يعده في إبريق شاي صغير من الخزف، كان قد أحضره معه، تناوله في الفطور، وفي الغداء والعشاء، وفي الفترة ما بينهما. كان يسكبه في قذح، ثم يرشفه على رشفات صغيرة، وهو غارق في التفكير. كما لو أنه قام تلقائياً بطقوس إعداد الشاي: كان هذا تقليد في عائلته: احتساء الشاي قبل الفطور، وبعد الغداء، وفي الفترة التي بينهما.

وبخلافه كان «ن» يقنع بالشاي الأسود من باكيت بخيط (متاعب أقل)، وليس بنفس الكمية. ولكن كان يقدم له الشاي الأسود أيضاً من الغلاية الحمراء المحبوبة.

وكقاعدة، تناولوا طعامهما، في صمت، فقط كان «ن» يرغب أحياناً في التثرثرة، فيسأل إلياس عن قرينته وأسرته... وهلمّ جرّاً. وكان إلياس يجيب بشكل مقتضب، ولكن خلال الفترة التي عاش فيها عنده، تمكن «ن» من معرفة بعض الأشياء عنه: في العائلة ستة أطفال (إلياس أكبرهم)، والعمل بالسخرة في مزارع القطن، والفقر...

وفي الواقع، لم يوجد شيء متميز.

عاش «ن» بعد الطلاق بضع سنوات لوحده. انفصل عن زوجته بسلام عموماً، لكن رغم ذلك ألحق الطلاق به الأذى، ولكنه حتى الآن مستعد، لتقديم المساعدة لزوجته السابقة. فشلت حياته الزوجية، ولكنه من حيث المبدأ رجل طيّب القلب. إنه طيّب، ولكن صعب الطبع. هناك أناس طيّبون، ولكنهم صعبون. مجدّالٌ لحدّ لا يُطاق. يجعل المرء يفقد صوابه، إذا لم يأخذ برأيه.

بالمناسبة إن إلياس ليس الشخص الأوّل الذي يعمل لديه. كان قبله رجل آخر، سيّير عمل في مكتبه القديم، وأواه أيضاً. اسمه جريشا، من أصول روسية. عاش جريشا لديه على مدى عام أو عامين، فرش أرضية الشقة بأكملها، وبنى حماماً في منزله الريفي، الذي يعود اليوم عملياً لزوجته «ن» السابقة. وجعل جريشا يقلع عن شرب الكحول، وذهب به إلى مختص بعلاج الإدمان، ولكن جريشا على كل حال، خرق الالتزام بترك الخمر نهائياً. الحمد لله، كان هادئاً، حتى عندما يتناول الخمر، بيد أنه كان مستعداً للقيام بأي شيء من أجل الحصول على المشروبات الكحولية، وتناولها، والأسوأ من ذلك كله؛ لم يتذكر أي شيء. ولكن بلا ريب، إن «ن» ساعده.

والآن لديه إلياس. وهو بالذات صار منذ فترة يردّ بنفسه على الهاتف، بدلاً من «ن». غير أن لكمة قوية، تشوب رده باللغة الروسية، ولكن يمكن للمرء أن يفهمه.

من الصعب تحديد كيف عاشا معاً، وعن ماذا تبادلوا الحديث. كان إلياس يردّ على الهاتف باقتضاب، على نحو: «إنه غير موجود، سيعود قريباً». ويضع سماعة الهاتف بعناية.

عمل إلياس ببطء، غير أنه قام بكل شيء في إتقان بالغ، وسوّى كل بلاطة في الحمام، وكل قطعة في الشقة، لتكون على أحسن وجه. على عكس «ن»، الذي كان دائماً في عجلة من أمره، وليس لديه الوقت الكافي لإنهاء ما يقوم به. بينما لم يستعجل إلياس أبداً، كان بوسعه أن يجلس القرفصاء لفترة طويلة، وهو يقوم بشيء ما، أو حتى عند عدم القيام بأي شيء، كما أنه أحب التسلق إلى عتبة النافذة العريضة بقدميه، والجلوس هناك، والتطلع إلى الشارع، تماماً مثل القطّ السيبيري الذي سماه «فاسيلي». وكان «ن» قد التقط ذات مرة القط من على مدرجات السلم، وهو نصف ميت.

و غالباً ما كان «ن» يداهما وهما جالسان على عتبة النافذة، حتى في بعض الأحيان تكون النافذة مفتوحة على مصراعيها، وبما أن الشقة كانت في الطابق الأول، ورغم ارتفاعه، فلم يكن جلوسهما هناك مرّوعاً. وأحب القطّ، في سنواته الأولى التسكّع بحرية، فيقفز من هناك إلى الشارع، ومن ثم يعود من خلال باب المدخل، كما لو أنه شخص وقور.

وشمله إلياس أيضاً برعايته، فأظهر له «فاسيلي» العجوز، الأبيض الوجه، لا الولاء وحسب، وإنما المودة، وليس بأقلّ من المودة إلى «ن». وكان القطّ، قد اتخذ في البداية موقفاً حذراً من إلياس، إن لم يكن عدوانياً. ولا عجب بانجذاب فاسيلي نحوه: فإلياس قام بتدليله، وتارة يشتري له الأسماك، وتارة أخرى يشتري طعاماً خاصاً بالقطط، ويمشطه كل يوم بفرشاة، لدرجة أن القطّ أصبح يسير وراءه كظله. وكان فاسيلي يذهب حيثما يذهب إلياس. يستلقي القطّ، أو يجلس في مكان قريب من إلياس، ويبدو أنه نائم، على الرغم من أن عينه الخضراء أحياناً، تلمع من خلال نصف فتحة داكنة. وراقب إلياس، وهو على استعداد للقفز، وملاحفته.

حقاً ليس لدى إلياس ما يسرع إليه. ونادراً ما كان يغادر المنزل. وإذا غادره فلفترة قصيرة، لأنه يخاف من البوليس، ويخشى أن يسوقوه إلى القسم، ومن ثم يرحلوه إلى بلده. فقط يذهب إلى أقرب متجر ليشتري لنفسه - آيس كريم، الذي اتضح أنه مولع به، ويشتري لـ «فاسيلي» شريحة لحم، أو أي شيء آخر. ويمكن للمرء أن يقرأ عدم التسرع، حتى في عينيه السوداوين بشيء من الحول، نظرة طويلة جداً، يكمن في عمقهما شيء غامض، شيء آسيوي.

اعتقد البعض أن براجماتية مبتذلة تكمن وراء غرابة «ن» مع نزلائه الطارئين، الذين وقرّ لهم المأوى في شفته التي عمّتها الفوضى بشكل رهيب. إذ رأوا أن الأشخاص الذين آواهم، قاموا بما لا يستطيع هو إجبار نفسه على القيام به، بما في ذلك التغلب على الفوضى، التي تسود منزله. إن الرجل لا يجيد شيئاً، كما يجب، على صعيد الحياة اليومية. ولم يهتم بنفسه، ولا بالمكان المحيط به.

ربما أن الأمر كان جزئياً على هذا النحو، ولكن ذلك لا يلغي طبيئته.

اكتسب المنزل، ولو ببطء، صورة إنسانية، فقد جرى ترميمه، بغض النظر عن نوعية ذلك الترميم، وأصبح من الممكن الجلوس في مطبخ طبيعي، واحتساء الشاي هناك، بأفداح كبيرة من الطراز القديم، وتناول الفودكا في كؤوس مزلعة.

وعندما يأتي شخص ما لزيارة «ن»، كان إلياس يتوارى، لا يراه، ولا يسمعه أحد. لا يعني هذا أنه يختبئ، فهذا مستبعد، على الأرجح أنه أظهر لطفاً، بمعنى أنه لا يريد إزعاج أحد، ناهيك عن فرض نفسه على الضيوف. ولكن إذا طلب منه «ن» إعداد الشاي، كان يقوم بذلك بكل سرور، وَيُحوِّلُهُ إلى طقس حقيقي فعلاً: يسخن إبريق الشاي الخزفي خصيصاً، قبل أن يضع فيه حفنة من أوراق الشاي، ويشطف الأقداح بماء ساخن، وبشكل عام، إنه يبذل جهداً.

كلا، لم يلاحظ أحد أنه يتزلف، فقد كان يقوم بكل شيء بتواضع، تقريباً بخجل، وفي نفس الوقت بشكل مستقل تماماً. حتى إن هذا الوضع أخرج «ن» في بعض الأحيان. إضافة إلى النظرة الثاقبة الطويلة، التي اصطادها «ن» أحياناً فجأة مُسلطاً عليه، كما لو كان إلياس يحاول أن يرى شيئاً فيه. في مثل هذه اللحظات يشعر «ن» بالارتباك، وعدم الارتياح، لكن «ن» لم يستغل إلياس، وحسب، بل عاملاً كرفيق أكبر سناً منه. حتى إنه صحبه ذات مرة معه إلى كاتدرائية «المسيح المخلص، لمشاهدة معرض الصور الفوتوغرافية للوحات، الجدارية، التي أبدعتها ريشة ديونيس الحكيم، وتجوّلاً معاً في جميع أنحاء قاعة المعرض، أمعنا النظر في وجوه القديسين، والألوان المدهشة العتيقة، التي جعلها المصورون الفنيون، أكثر كثافةً.

وكما قال: «ن» فيما بعد : إن إلياس بدا من شدة تأثره، وكأنه طفل مرتبك، واتضح أنه لم يشاهد أبداً مثل هذا المعرض في حياته، على الرغم من أنه كان يرى مراراً شروق الشمس، وغروبها في السهوب، والسماء فوق السهب، مرة زرقاء، وأخرى فيروزية، أو قرمزية، ومرصعة في الليالي بكثافة بالنجوم. إنَّ الفنان يمكن أن يرسمها بهذه الطريقة، ولكن أن يتمكن المصور الفوتوغرافي من التقاط مثل هذه الصور الرائعة، فهذا ما أدهشه، حتى أعماق روحه.

قال إلياس بمجرد مغادرتهما القاعة:

- سأذهب حتماً إلى هناك في يوم ما.

سأله «ن»:

- إلى أين؟

- إلى هناك...

كما، رشح «ن» إلياس ليعمل لدى أصدقائه، الذين هم في حاجة إلى إصلاح أو ترميم شيء ما، (ففي نهاية المطاف إنَّها فرصة، ليكسب الرجل المزيد من النقود)، واتفق معهم بنفسه، وأعطى إلياس العنوان، موضحاً كيفية الوصول للمكان، والعتور عليه. وأحياناً كان يصطحبه بنفسه، حتى لا يضلَّ الطريق بشكل عرضي. ولم يرفض إلياس، رغم أنه كان يخاف من الشرطة. كان واضحاً بأنه لن يبقى تحت رعاية الآخرين كل يوم، سيتعين عليه في يوم ما، تخليص نفسه بنفسه.

سأله «ن» ذات مرة، في إشارة إلى قراره بالسفر إلى موسكو:

- كيف تجرأت؟

فهزّ ذاك كتفيه:

- كيف؟ حزمْتُ حقيبتِي، وسافرت.

- هكذا ببساطة؟ وهنا؟

قال إلياس:

- ها أنا التقيت بك.

وسأله «ن»:

- وإذا لم تلتق بي؟

أجاب إلياس بعد تفكير:

- لا أعرف، بطريقة أو بأخرى، كنت سأدير أمري، ربما وجدت أحد معارفي.

حقاً، كانت لديه عدّة أرقام هواتف خلوية لأبناء بلده، الذين يبدو أنهم عملوا منذ فترة طويلة في موسكو، ولكن لم يتمكن من الاتصال بهم حتى الآن، لسبب ما.

وحينما لم يكن هناك ما يقوم به، كان إلياس يجلس، إما على رفّ النافذة، أو على الأرضية الخشبية، وهو يثني قدميه تحت فخذيه، وأحياناً يستلقي على الأريكة، ويديه كتاب. وكان يأخذ الكتاب من الرفّ بطريقة غريبة، لا يختاره، وإنما يمدّ يده، ويسحب ما تقع اليد عليه.

ومن ثمّ سأله «ن»:

- حسناً، وما رأيك؟

ضيقَ إلياس عينيه، اللتين كانتا أصلاً ضيّقتين، ثم أجاب بتردد:

- لا أستطيع أن أصدّق الرواية. تبدو مشابهة للواقع، ولكن مع ذلك، وعلى العموم إنّها

ممتعة.

اتضح أنه قرأ بالفعل.

كان يداهمه في فصل الشتاء، في الصباح، التعطش للقيام بعمل ما، وفي ذروة تساقط الثلوج يرتدي سترة خفيفة، ويخرج في الصباح الباكر، في العتمة، إلى الفناء، لمساعدة منظّف الشوارع المُلدّافي، الذي لم يُرحب في البداية بمبادرة إلياس، ونصحَه، بصوت مشحون بالتهديد الجدّي، بعدم مضايقته. ولكن خلال هبوط الثلوج من جديد، ظهر أن إلياس جاء في الوقت المناسب، فعَيَّرَ المنظّف رأيه، ومن ثم وثقت العلاقة به.

في ذلك الشتاء تساقطت الثلوج بكثافة، غمرت موسكو بالكامل، وتراكت الكثبان الثلجية، ليصل ارتفاعها إلى حدّ ركلة إنسان، لهذا، فإن المساعدة جاءت في وقتها المناسب. لا سيما أنّ إلياس عمل بحماسة وشغف. ولم ينخرط في محادثات جانبية مع المُدافي، وردّ على أسئلته باقتضاب: نعم. لا. لم أكن. لم يكن. وذات مرة سأله المُدافي عما إذا كان يرغب في الحصول على وظيفة منظّف شوارع، هزّ كتفيه، وأوماً برأسه بالرفض.

وفجأة كاد المُدافي أن يستاء منه، وقال له:

- عبتاً ترفض، الأجرة فعلاً قليلة، ولكنها مستقرة، وهو عمل مفيد للصحة. وإضافة إلى ذلك يمكن أن يخصصوا لك مكان سكنٍ في القسم الداخلي، إنه على كل حال سكن. فُكِّرْ! بوسعي أن أسعى لك.

عندما أبلغ إلياس «ن» عن هذا العرض، لوى هذا وجهه، وأوضح له:

- لا تكن ساذجاً. ربما كان يتحقق فقط، لرؤية ما إذا كنت تريد أن تحلّ مكانه. إنّ وظيفة منظّف الشوارع نادرة، ويدفع الناس الرشاوي، لكي يحصلوا عليها. علاوة على أن المنظّف يستلم أجراً غير كبير، نظراً لأن أرباب العمل يفتنعون لأنفسهم جزءاً منه. وإذا تطالب بحقك فسيتمّ فصلك. كلا، لن تكسب كثيراً هناك. من الأفضل لك العمل في فريق تصليح، أو بناء، أنت صاحب يدٍ ماهرة..

ذات مرة ظهرت في شقة «ن»، بجانب إلياس امرأة. ليست شابة، ولكنها لا تزال جذّابة. والآن هي التي تنظف الشقة، وترتيبها، وتعدّ الطعام، وتنتظر عودة «ن»، ومعها حزمة مفاتيح خاصة بها، وتنام أيضاً هنا. أحياناً يتناول ثلاثتهم العشاء معاً، ولكن إلياس عادة ما يتردّد، يحول نظره، ويمتنع عن الانضمام إليهما. من الواضح أنه يشعر بالحرج، وكان «ن» مع صديقه الجديدة، في وضع حرج أيضاً، وخاصة صديقه التي تصطاد أحياناً إلياس، وهو يسترق النظر إليها.

أبلغت بطريقة ما «ن» عن نظرة إلياس لها، وشفاتها تفتّران عن ابتسامه «الجوكندا» المراوغة، وهي تمطّ الكلمات بغموض، وخمّن «ن» أن ليس من المستبعد، أنّ تلك النظرة تعجبها. ولم يرَ الآن، وجود ضرورةٍ لتغيير شيء، والتخلّي عن إلياس، علاوة على أن إلياس لم ينته بعد من إصلاح الغرفة. إنّ ابتسامه «الجوكندا» المراوغة تؤثر على «ن»، ولكن ربما، ليس على النحو الذي أرادته صديقه.

أحياناً تستيقظ في الليل، وتتنصّت، وهي مستلقية، وعيناها مفتوحتان، إلى السعال وراء الجدار، حيث ينام إلياس، أو إلى الصرير الخافت للسرير الذي ينام عليه. وهمست لـ«ن» «النعسان، وهي تلامس بشفتيها الرطبتين شحمة أذنه:

- لم أعتقد أنني سأعيش مرة أخرى في قسم داخلي للطلبة، كما في أعوام الدراسة.

وانهالت، على «ن»، حتى وهو نائم، برواية ماضيها، الذي على العموم، لم يعرف منه إلا القليل، والآن اتضح أن صديقه من أيام الدراسة، كانت تعيش في قسم داخلي، وكان هذا في مدينة

بيرم. ولكن «ن» ليس بذلك العمر، ليغار عليها من ماضيها، وليس بميسوره أن يبقى غير مبال، نظراً لأن الأخلاق في دُور الطلبة معروفة.

كان إلياس أيضاً كثيراً ما يتقلب، ويتنهد، ويبدو أن نومه كان مضطرباً، على الرغم، من أن ظروف مكان إقامته الحالي مقبولة تماماً. لا يعني أن المرأة تعجبه، وإنما هناك شيء ما في داخله يتحرك، ويستجيب لحضورها، حتى ولو كانت خلف الجدار (بالمناسبة، كان الجدار الفاصل رقيقاً جداً). كانت تتراءى للشباب الغافي ذي البدن القوي، رؤى تطفو، وهذا لم يُثِرْ قلقه، وحسب، بل أيضاً قلق القطّ «فاسيلي» النائم بجواره. كانت الحياة سهلة، حينما كانت الشقة من دون المرأة.

عمل إلياس كالسابق، ببطء، وأصبحت الغرفة التي شغلها، ويقوم بترميمها، جاهزة تقريباً: فقد لصق ورق الحائط، وصبغ السقف، وركّب المقابس الكهربائية. وفي بعض الأحيان، تعيّن عليه التوقّف عن العمل، عندما يكون أحد أصدقاء «ن» بحاجة إلى مساعدة عاجلة. استمر «ن» كالسابق بالسماح له بالعمل لدى معارفه، لكن هذا لم يعجب المرأة، فهي منتعضة، لأن العمل في الشقة متوقّف، وإلياس غائب في مكان ما، وأحياناً يعود في وقت متأخر جداً.

إنه حقاً ليس في عجلة من أمره للعودة، ولهذا أسبابه: لم يرغب في الالتقاء بالمرأة مرة أخرى، أو على العكس يرغب في ذلك، ولكن هذا يشكّل عبئاً عليه، نظراً لأنه يمتّ بصلة بـ«ن».

و ذات مرة لم يأت إلياس للمبيت، ولم يأت القطّ «فاسيلي» ذو الأصل السيبيري، الذي كان القفز من النافذة، بالنسبة له مسألة سهلة للغاية. لم يعودا ليلة وثانية وثالثة. أليس هذا مدعاةً للقلق: ربما أُلقت الشرطة القبض عليه، أو تعرض له قطاع طرق، مَنْ يدري؟ وربما عذّبه الحنين والعودة إلى الوطن؟ ولكن كان بإمكانه في هذه الحالة أن يُبلّغ عن ذلك... المهم ألا يكون قد تعرض للأسوأ، فموسكو مدينة العسف السافر والعنف...، الشفقة على إلياس ليست أقلّ من الشفقة على القطّ، رغم أنه سيتعيّن، على كل حال، عاجلاً أم آجلاً، الافتراق معه. وصديقه تنذمر، حتى لو كان يقيم في الغرفة المجاورة، ولكنه على كل حال شخص غريب. غريب.

لم يحدث دينيس دراجونسكي

1. الخجل

ذات مرة دعوتُ فتاةً إلى منزلنا الريفي. كنت قد بلغت العشرين عاماً، وكانت تكبرني بقليل، كنت أدرس في الصف الثالث، وهي في الخامس. كانت من مدينة أخرى. وسكنت في دار الطلبة. استقلنا حافلة الركاب من محطة مترو الأنفاق «كالوجيسكايا، وحتى» محطة شكولا». سيرنا بعدها مشياً على الأقدام حوالي خمس عشرة دقيقة. كان الطقس في أواخر الخريف جافاً. وتناهى إلى سمعنا خرير نهيرٍ، يجري تحت جسر صغير. توقّفنا على الجسر، ودخّنا، ونظرنا كيف كانت الأغصان تنعكس مرتعشة في المياه السريعة الملتوية كالأفعى، ومن ثم رمينا أعقاب السجائر في النهر. في النهر أي أي أي! ومضينا قدماً. أصبح المنزل على مسافة قريبة جداً.

فتحتُ بوّابة الحديقة، ودرنا حول المنزل: الذي أطلّ على الطريق بشرفة، فيما كانت سقيفة المدخل في الخلف.

فتحتُ الباب، وأشعلتُ النور، وفسحت لها الطريق في غرفة المدخل.

- هيّا لنشرب الشاي قلت لها ذلك، وذهبت إلى المطبخ.

فردت علي:

- انتظر، دعني أعتاد على المكان، إنه منزل دافئ.

فأوضحت لها:

- إنَّ مرَّجَل التدفئة يعمل طيلة الوقت، لنذهب، سأريك المنزل كله.

أمسكت يدها، وقَدَّتها إلى غرفة الضيوف. كانت خلف غرفة الضيوف شرفة، صيفية ندخلها من خلال باب زجاجي. ثم عرضتُ عليها غرفتي. وبعد ذلك غرفة الحمَّام والمرحاض. وعقب ذلك صعدنا إلى الطابق الثاني. كانت هناك غرفة صغيرة لأختي، وغرفة أخرى كبيرة، إنَّها مكتب والدي، وفي نفس الوقت غرفة النوم، لُصق على الجدران ورق الحائط. وصُبغت الأرضية، ثم هبطنا إلى الأسفل.

وكررتُ القول:

- لكن، دعينا نشرب الشاي.

أخذتُ الغلاية، وسكبْتُ فيها الماء، ووضعتها على موقد الطبخ الغازي، لكن توارت علبة أعواد الثقاب في مكان ما.

خرجت إلى غرفة المدخل، دسست يدي في جيب جاكيتي، كانت هناك علبة فارغة.

- لقد نفذتُ أعواد الثقاب، هل لديك بعضها؟

فسألتني:

- لكن قل لي هل جميع المنازل الريفية على هذه الشاكلة؟

- كلا بالطبع، لوحت بيدي ماذا تقولين؟!

ضحكتُ بصوت عالٍ.

شرحتُ لها بمصداقية:

- هل تعرفين إذا جاز التعبير، نحن أكثر الناس فقراً هنا. سيأتي لنا صديقي أندريوشا مساءً، ليصحبنا إلى منزله، وسترين هناك: جدران منزلهم من شجر الصنوبر، وهناك المدفأة، وما شابه ذلك. ثمة منازل مثل المتحف. مؤثثة بمobiliات من الطراز القديم، وعامرة باللوحات الفنية، والثريات...، فيما لا يوجد لدينا حتى هاتف. إننا نهرع عند الحاجة إلى غرفة الحراسة، للاتصال تليفونياً. لا يوجد لدينا أيضاً ماء ساخن. فقط توجد تدفئة، وعلى كل حال، فإن وجود مرحاض دافئ لدينا، أمر جيد..

توقفت عن الضحك، ورشقتني بنظرة تنمُّ عن الاهتمام البالغ.

وسألته:

- ماذا حدث؟

وردت:

- لا شيء

وطلبتُ منها ثانية:

- أعطني عود ثقاب، سنشرب الشاي.

مدتُ لي علبة عود الثقاب، وأخذت الجاكييت عن المشجب.

- سأذهب، حسناً؟

وألقت عليّ نظرة بعيون غريبة، شريفة.

فكيف ضحكنا، وحتى تعانقنا قليلاً: حينما كنّا في حافلة الركّاب.

وأعدت القول:

- أنا ذاهبة.

وأصبح من الواضح أنه ليست هناك حاجة، لإقناعها.

وقلت:

- هل أرافك؟

- كلا.

- هل تتذكرين الطريق؟

- نعم

- هل ستتركين عود الثقاب؟

قالت:

- خذ عشرة.

أخذت ثمانية أعواد، أتذكر هذا بدقة، أعدتُ لها العلبة:

- شكراً.

- لا داعي للشكر.

خرجتُ من السقيفة، وأغلقتُ خلفها الباب، هرعْتُ إلى غرفتي، لكي أرى كيف ستسير بجانب النافذة، ومن ثم دخلتُ غرفة الضيافة، ومنها إلى الشرفة الصيفية. سارت نحو بوابة الحديقة. بينما فتحتُ باب الشرفة الزجاجي بصوت عالٍ.

إنها لم تستدر.

أدخلتُ يدها، وأغلقتُ المزلاج خلفها.

أردتُ لبضع دقائق أن أتخلّى بجدّ، عن كل شيء، والذهاب جوّاً في روسيا.

ولكن خلال عدّة دقائق وحسب.

2. لمسة خفيفة

بعد حوالي عشر سنوات، في 1980، كنت أتحدث بالهاتف مع إحدى الفتيات.

إنها اشتكت لي من الحياة.

أنا لا أذكر، لماذا شكّكت لي.

ولكن في الهاتف، إذ لم يرَ أحدنا الآخر قط.

حديثنا تعلق حصرياً بشؤون العمل، حول النشر.

وحدث مرة أن تبادلنا أطراف الحديث.

حدّثتني الفتاة عن أنها من بلدة صغيرة، ومن عائلة عمّالية. التحقت بالجامعة بصعوبة، بعد ثلاث محاولات، ودرست جيداً، وحصلت على دبلوم بدرجة امتياز. ولكنها لم تحصل، من خلال توزيع الخريجين على المؤسسات، على فرصة العمل التي كانت ترغب التوظيف فيها، في أحد معاهد البحث الشهيرة، فقد ذهبت الوظيفة إلى ابنة إحدى الشخصيات المتنفذة، كان أمراً حسناً لو أنها ابنة أكاديمي، لكنها كانت ابنة أحد المُخرجين.

وأضافت بمصداقية:

- حقاً أنّ هذه «الحورية» حاصلة أيضاً مثلي على دبلوم بدرجة «امتياز».

تنهّدتُ وقلت: حسناً، هذا يعني أن لديكما حقوقاً وفرصاً متساوية.

وتساءلت بامتعاض:

- كيف متساوية؟ إنّ دولتنا هي دولة العمّال والفلاحين.

فقلت لها:

- مع الأسف، كلا.

وردّت، وهي تكاد تصرخ:

- كيف كلا؟

الأمر بسيط للغاية شرحْتُ لها افتحوا الدستور. نحن، وإياكم نعيش منذ عام 1977 في دولة الشعب الاشتراكية.

تفو قالت، وألقت سمّاعة الهاتف.

3. في الجانب الآخر

ولكن، أودّ أن أروي الحادث الأوّل، كما وقع فعلاً.

وهكذا:

وصلنا للمنزل الريفي، وكنا ثلاثة أشخاص: صديقي أندريوشا، وتلك الفتاة، وأنا.

ذهبنا إلى منزلنا، لأن والداي لم يكونا في المنزل الريفي في هذه الأيام، بينما كان منزله دائماً مكتظّاً بالناس.

كنت من دون فتاتي، فقد كان لدي امتحان بعد غد، وعلى العموم لم أكن أرغب في الذهاب إلى المنزل الريفي على الإطلاق، كان عليّ أن أذاكر درسي. بيد أن أندريوشا أقنعني قائلاً: - سنذهب، ونعود بسيارة تاكسي، والمذاكرة في الهواء الطلق، حتى أفضل لك.

وافقتُ لأنني أدين له بالكثير من الحالات المماثلة، ولكن في موسكو. كان والداي في أغلب الأحيان يمكنان في منزلنا بالمدينة، ووالدا أندريوشا في المنزل الريفي، وهذا وفر لنا مساحة للمناورة.

في البدء، بالطبع، عرضتُ عليه:

- خذ المفاتيح، واذهبا.

بيد أنه اعترض موضحاً:

- سيرى الحارس أن النور مضاء في المنزل. سيتصل بأمك في موسكو، ويقول لها: «ألا فاسيليفنا، هناك شخص ما في منزلكم، أو حتى أكثر من ذلك:» «رأيت من خلال النافذة، هناك رجل مع امرأة في المنزل!»، ستقول له: «اتصل بالشرطة!». بلى، أو أنها تسرع بنفسها للاتصال بالشرطة؟ هل سيكون شيئاً جميلاً؟

وتابع أندريوشا:

- إذا كنت في هذه اللحظة في شقتكم، فستتمكن من شرح كل شيء لأمك. وإذا لم تكن موجوداً هناك؟ فماذا سيحدث؟

كان كلامه معقولاً.

باختصار، وصلنا.

وذهب إلى منزله، ليبلغ والديه بحضوره.

عندئذ وقع ما يثير الضحك.. كان في هذه الحالات يشرح لوالديه: - جاء دينيس، يقصدني، أيضاً إلى منزلهم الريفى، ويخشى المبيت بمفرده، سأقضى الليلة معه، حسناً؟

بالطبع فهمت أمه، وأبوه دوافعه الحقيقية. ولكن لم يظهر ذلك. حتى أرسل لي معه بعض الهدايا، من البسكويت والحلويات.

ها هو قد ذهب إلى منزله. وبقية أنا والفتاة، وطلبت مني:

- حسناً، على الأقل أرني المنزل.

أريتها المنزل، وجرى بعد ذلك نفس الحوار، الذي كان في القصة الأولى. فقط من دون الوعد بالذهاب معها إلى منزل أندريوشا.

إنها صاحت بغضب، وانزعاج شديد:

- ولكن، أيها الفتيان، أنتم غريبو الأطوار. لديكم مثل هذا المنزل الكبير، وبعد ذلك تدعون أنكم أفقر الناس! أين أنا إذن، يا لتعاستي!

عبّرت عن استيائها بصوت عالٍ، لفترة طويلة.

بيد أن أندريوشا عاد بعد حوالي عشر دقائق. جلسنا نشرب الشاي، ومن ثم اقتدتهما إلى غرفة أختي كسيوشا، أما أنا فقد جلست في غرفة الضيوف، لقراءة محاورات أفلاطون باللغة اليونانية. أو على العكس اقتدتهم إلى غرفتي، وذهبت إلى مكتب والدي، لا أتذكر بالضبط.

ولكنني أتذكر أنني افترقتُ عنهما، ليكونا في الجانب الآخر من المنزل. حتى لا أسمعهم، لكي لا يشوشا عليَّ قراءة أفلاطون، والبحث في القاموس عن كل كلمة غير معروفة لي.

إضافة لذلك، إن هذا لم يحدث في الخريف، ولكن في يناير (فترة الامتحانات). لذلك، لم يكن هناك جسر، ولا أغصان مرتجفة تنعكس في الماء، لا سيما، ونحن سافرنا في سيارة تاكسي.

أفهم أن هذا كله شيء تافه لدرجة ما، ولاسيما أنه ليس ظاهرة اجتماعية، وتقريباً ليس ذا بعد نفسي. إنها الحياة!

4. الأفق العلوي

والآن إليكم الحقيقة كلها.

وهكذا، وصلنا إلى منزلنا الريفي.

كنت بلا صديقتي، نظراً لأنني سأؤدّي الامتحان بعد غد. وعلى العموم لم أردُ الذهاب، لكن أندريوشا أقنعني، قائلاً: «سنذهب في سيارة تاكسي ذهاباً وإياباً، وستُذكر درسك في الهواء الطلق، هذا حتى أفضل لك».

بالرغم من أني قلت له في البداية: خذ المفاتيح، واذهبا.

غير أنه خشي أن يرى الحارس، فجأة، النور في المنزل، ويتصل بموسكو، وتطلب منه والدتي استدعاء الشرطة، وتهرع بنفسها إليهم.

كلامه معقول!

باختصار وصلنا.

وذهب إلى منزل والديه، ليعلن عن حضوره.

وفي هذه الحالة يقول لوالديه: «إن دينيس جاء أيضاً إلى منزلهم الريفي، ويخاف المبيت بمفرده، وسأبيت عنده، حسناً؟» بالطبع، إن والديه فهما كل شيء. ولكن لم يظهر عليهما أنهما فهما.

وها هو قد ذهب إلى منزله.

ونحن بقينا، ودار بيني وبين الفتاة الحوار ذاته. طفقت هذه الفتاة بالمناسبة اسمها ميلينا تدمدم لحدّ ما بحقد: - أنتم أيّها الشبان. لديكم مثل هذا المنزل الفخم، وتدعون أنكم أفقر الناس! أين أنا، يا لتعاستي!

لقد سئمتُ من الاستماع إليها، وذهبتُ إلى أندريوشا، لأنه أمضى فترة طويلة في منزلهم. بوسعي قطع المسافة سيراً على الأقدام إلى هناك في دقيقتين.

دخلت في منزلهم الريفى. كان المكان دافئاً ومضيئاً، كان هناك الأب والأم، وثلاثة كلاب، والمدفأة متقدة. شربت على الأقل رشفة شاي، إنه شاي لذيذ.

وفيما يتعلّق بالهدايا، فهذه هي الحكاية. عندما جاء أندريوشا إلى منزله، استبدل ملابسه؛ خلع البدلة التي يرتديها في المدينة، وارتدى بلوزة، وسروالاً من دون جيوب. والجيوب هي بيت القصيد. لأنى كنت في سترة بنفسجية. وبسروال عادي. وحالما ذهبته والدته إلى المطبخ، قال لي: «هسس». وفجأة أخذ من المزهريّة قبضة من قطع الحلوى، ودسّها في جيبي، وثم في الجيب الثاني.

خرجنا إلى غرفة المدخل لارتداء معاطفنا، وبغطة سقطت قطعنا حلوى من جيبي؛ قطعتان من نوع حلويات «الطاقيّة الحمراء». من حسن الحظ أن أمّه لم تكن بجوارنا، وخرجت في اللحظة المناسبة من المطبخ، لتوديعنا.

وعندما كنّا نسير في الطريق، قلت له:

ولكن، أيّها الشاطر، لو أن نوتّا سيرجيفينا لاحظت ذلك؟ إننى كنت سأفارق الحياة على الفور من شدّة الخجل!

- ماذا تقول، ماذا تقول! كنت شرحتّ لها كل شيء! وأقول لا توجد لديّ جيوب!

- ها. مع ذلك، لفكرت في كل الأحوال بأنك تتستر على صديقك اللص.

- حسبك، يكفي، قال هو: لقد مرّ كل شيء بسلام!

- لو لم يمرّ؟ إننى كنت لا أستطيع زيارتك بعد هذا.

- يكفي، يكفي اعذرني، لن أكرر ذلك أكثر.

حسناً، طيب.

وصلنا لمنزلي، احتسينا الشاي في المطبخ، ومن ثم أخذتّ أندريوشا وميلينا إلى غرفتي في الطابق الأول، وجلستُ أذاكر في الطابق الثاني، في مكتب والدي، لكي لا أسمعهما. حتى لا يشوشان عليّ قراءة أفلاطون، والبحث في القاموس عن كلمة غير معروفة.

ومن ثم في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، عندما أصبحت الحروف اليونانية تتراقص أمام عيني، اغتسلتُ، وذهبت إلى الغرفة المجاورة، غرفة أختي كسيوشيا.

كانت تنام هناك فتاة اسمها لادا.

لقد قلت أنا، كنت من دون صديقتي.

أما لادا فهي صديقة ميلينا. تخيلوا، ميلينا ولادا، يا لها من أسماء!

5. سنفترق على الجسر

لاح ثلج أبيض خلف النافذة، وظهر القمر في السماء، وهناك مصباح يضيء عند السور، وقد أزيحت الستارة حتى النصف، لذلك رأيت كيف تلمع عينا الفتاة المفتوحتان. وكانت قد استلقت على ظهرها، وتغطت حتى الذقن بالبطانية.

وقلت لها هامساً:

هل أيقظتك؟

وهل ممكن النوم هنا؟

سحبت يدها العارية من تحت البطانية، وأشارت بالإبهام إلى الأرض، مثل رومانية في الكوليزيه: - الآن فقط هدأ.

ضحكت، وبرزت أسنانها البيضاء.

جلست على السرير بجوارها، ولكنها لم تتزحزح، أخذت يدها، فانتزعتها مني. وحاولت أن أمسدها من فوق البطانية، فرفعت يدي بإصبعين، وأبعدتها.

بحثت عن كرسي في العتمة، وجلست على انفراد.

وقالت لي:

- من الأفضل أن تذهب، لتنام.

امتعضت:

- قل لي الآن، يا لادا، من دون امتعاض: لماذا جئت؟

سألتنى:

- بصدق؟

- بصدق.

فقلت:

- حتى لا أعطيك، لأنك وغد.

وقلت لها مندهشاً:

- ولماذا هذا التعقيد، كان بميسورك ألا تأتي، فحسب.

قالت:

- وغد، مغرور بنفسك، بلحية ماعز، لتفهم في كل الأحوال لن أعطيك. وليس بميسورك أن تأخذني بالقوة. حتى لو طلبت يدي، لن أعطيك.

وسألتها:

- حتى بعد الزواج؟

وردت:

- لن أتزوجك.

نهضت من الكرسي، وقلت لها:

- لادا ارتدي ملابسك، وغادري المنزل.

- تطردني في الزمهرير؟

رأيت في الظلام كيف أنها كشرت عن أسنانها بغضب.

- سأرافك حتى الطريق العام، وأركبك في سيارة. لدي نقود.

بعد خمس دقائق هبطنا السلالم إلى الطابق الأول.

خرجنا. أثار قرب سور منزلنا آخر مصباح في القرية. بعد ذلك ساد الظلام. كنا نمشي على طريق جليدية. انزلت، وكادت أن تسقط، وأطلقت شتيمة بصوت خافت. تراكضت السحب، وحجبت القمر. فجأة هطل الثلج. انزلت مرة أخرى كانت في حذاء ذي كعب عالٍ سقطت على كومة الثلج. ساعدتها على النهوض. تفرست في، فأشحت بوجهي عنها. وصلنا إلى الجسر، فاقترحت هي: - هيا، لندخل.

وقلت لها:

- دخني.

- أعطني من فضلك الثقاب.

كان هناك عدد قليل من أعواد الثقاب في العلبة. هبت الريح، فأشعلت لها عدة أعواد، حتى تمكنت من التدخين. هطل الثلج بقوة متزايدة.

أوضحت لها:

- الطريق العام صار قريباً، أقلّ من كيلو متر.

فقلت:

- لا تُسمع أصوات السيارات تماماً.

- لا بأس، سنجلس في المحطة، وننتظر أوّل حافلة ركّاب. الساعة الرابعة إلا ربعاً. بقي علينا أن ننتظر حوالي ساعة ونصف.

وسألّنتني فجأة:

- أنت لن تتركني لوحدتي؟

- لقد قلت لك: أركبك في سيارة، أو في حافلة الركّاب.

- لقد تجمدت، وراحت تبكي أريد أن أنام، هل يمكن أن نرجع؟

قلت لها:

- ممكن.

خلعتُ سترتها وحذاءها في غرفة المدخل، ونفختُ في أصابعها الحمراء، وبعثتُ قبضت على يدي، وسحبّنتي، وصعدنا بالدرج إلى الطابق الثاني.

6. بلا أثر

سحبّنتني إلى الغرفة.

خلعت البلوزة والصدريّة، وفكّتُ أزرار سروالها، جلستُ على السرير، وخلعتُها تماماً، ودفعّتها بقدميها جانباً، ومن ثمّ خلعتُ جواربها السميكّة. تساقط الثلج بشدّة، ولكن المصباح كان يضيء عند السياج، ويمكن رؤية كل شيء، وقالت: - تعال إلى هنا.

قلت لها.

- استلقي.

و انسَلّت تحت البطانية. وجلستُ أنا على حافة السرير، وسألّتها: - ما حدث لك؟

فقلت:

- أحبك.

واحتضنتني بقوة، وقبلتني. كانت شفاتها باردتين، ولسانها حاراً، وتخلّصت منها بصعوبة.

قلت لها:

- لا يمكن.

نعم، كنت أرغب بها، ولكنها لم تعجبني، ورددت عبارتي القديمة، وأنا أضحك: - لماذا هذا التعقيد؟

- يا لك من وغدا! همست - أحبك منذ عام، حينما رأيتك في عيد ميلاد ماشا، ومن ثم عندما جنّت أنت وأندريه إلى ميلينا في تلك الأعياد، لقد نظرتُ إليك، لكنك لم ترني، وها قد جنّت الآن، إنهما في الطابق الأسفل، كل شيء مسموع، ولم أستطع النوم، وأنت، أيها الوغد، تقرأ أفلاطون باليونانية، ثم أتيت لي في الساعة الثالثة، كما لو كنت مفرساً لك.

قلت لها:

- أنتِ على حق، أنا أشعر بالخجل. اغفري لي.

وهمست:

- أشعر بالبرد، احتضني، دقني.

وبغثة شعرتُ، بأن عليّ ألا أتورط في هذه الحكاية. بالرغم من أنني كنت أرغب جداً. ولكنني تنهّدت، وأوضحت لها: - لاداء، عزيزتي، إن الوقت هو الخامسة والنصف. وأنا متعب. أريد أن أنام. ليلة هادئة يا جميلتي.

طبعْتُ قبلة على خدها، وخرجت بسرعة، ورقدتُ في مكتب والدي.

استيقظت بعد فترة قصيرة جداً. كانت الدنيا مضيئة، نظرتُ في ساعتِي: الثامنة صباحاً. توقّف الثلج عن التساقط. نظرت في النافذة. كل شيء أبيض، منبسط، منفوش، وبغثة تناهى لسمعي، من خلف الجدار أن لادا تنهض، وتخطو في الغرفة، وتفتح الطاقة، ومن ثم تغلقها. تُحرّك الكرسي. إنها تأخذ شيئاً ما من على الطاولة. وترتدي ملابسها. وتهبط إلى الأسفل بالسلام. وتسقط زلاج المرحاض.

استلقيت مرة أخرى في السرير، وغرقت ثانية في النوم.

استيقظت تماماً حينما دغدغني أندريوشا وميلينا، كانا قد ارتديا ملابسهما. دفعا بالساعة إلى عيني: كانت تشير إلى الثانية عشرة والنصف.

تناولنا الفطور. بالطبع، سمعنا أيضاً، كيف غادرت لادا. على الأرجح أنّ ميلينا ودّعناها. لم أرغب في التحدّث عن ذلك.

كنا على استعداد للرحيل عند حوالي الساعة الثالثة. ارتدينا ملابسنا. فحصنا الغاز في المرآة، والحنفيات، والتلفزيون؟

فتحتُ الباب، كان كل ما يحيط بنا.. أبيض، أبيض.

- ما أروع هذا! إنه الشتاء الروسي. ضحكنا، وفجأةً هتفت:

- قفا!

كانت طبقة سميكة من الثلج الطازج تغطّي السقيفة والممرّ. ولا توجد هناك آثار أقدام، فنشئت في جميع أنحاء المنزل، ونظرت من خلال جميع النوافذ، وحتى هرعت إلى الشرفة الصيفية المتجمدة. لم تكن هناك أي آثار في أي مكان. ولكنني سمعت، كيف أنها غادرت المنزل، ولم يتساقط الثلج عندئذ.

كنت في حيرة من أمري:

- كيف غادرت؟

وسألت ميلينا ضاحكة:

- مَنْ؟

وقهقه أندريوشا.

- المسألة الرئيسية.. اقرأ أكثر أفلاطون ليلاً! وإلزاماً النص الأصلي! ربما رأيت في الحلم الغانية الأثينية؟

سافرنا إلى موسكو.

وقررت في المساء أن أرقد مبكراً عشية امتحان الغد.

وبعد أن اغتسلت، وارتديتُ بيجامتي، رنّ التليفون، كانت الساعة الحادية بالضبط.

سمعتُ صوت حارس القرية:

- هذا الحارس كوبيلين، لقد رأيت أن الضوء ينير في منزلكم.

7. المصباح

بالطبع، في البداية قررت أن أرتدي ملابس، وأذهب. تتحرك آخر حافلة ركاب من محطة مترو «كالوجيسكيا» في الساعة الثانية وأربعين دقيقة. سألحق. ولا سيما سألحق صباحاً إلى الامتحان، فأول حافلة ركاب تذهب إلى موسكو في الساعة الخامسة والنصف صباحاً.

بيد أن الهدوء شملني فجأة. حسناً، هناك ضوء. حسناً، سأذهب مساءً لإطفائه. وشكرت الأقدار على أنني أسرع، ورفعت سماعة التليفون، للحؤول دون اتصال الحارس كوبيلين بوالدي أو بوالدي.

في الساعة التاسعة صباحاً من اليوم التالي بسطت أمامنا البرفيسورة عزة عليبيكوف الأوراق، على هيئة مروحة يد.

التقطت محاوره «فيدرا» ص 253-254. فتحت المجلد، الذي كان تالفاً من شدة الاستعمال، وغرقت في مقطوعة الوصف المشهور للروح، التي تتألف من جوادين وسائق عربية.

أيها الرفاق قالت عزة عليبيكوفنا : أنا ذاهبة إلى مدير الكلية، وستواصل الامتحان المتدريه الجديدة؛ طالبة الدراسات العليا، من جامعة لينينجراد.

سمعت صوتاً فوق رأسي:

- هل أنت جاهز؟

- جاهز، جاهز.

وبدأت أترجم بسرعة.

- قف قالت طالبة الدراسات العليا : إن أي شاب مثقف، يحفظ عن ظهر قلب محاوره «فيدرا» من ترجمة يجونوف، ولا سيما هذا المقطع.

- نعم قلت لها مثقفاً معها؛ وخاصة وصف الفرسين، قرأت ذلك عند لوسيف...

ونظرت إليها، وأنا أفكر: إنها ترتبك. فسّر لوسيف ما معنى هذين الفرسين: واحد ممشوق ذو رقبة طويلة، والآخر دحاح.

كانت فتاة عادية تماماً. ترتدي بلوزة وسروالاً شتائياً دافئاً.

- نعم، بالطبع قالت، وهي تستل من حقيبتها علبة أعواد الثقاب، وسحبت عوداً، ووضعت على كلمة: - ما هذه؟

قلت:

- هائج.

- اذهب، سأضع لك درجة 2 «غير مرضية».

- اغفروا لي، أقصد اشتعل غضباً. هائج.

- الصيغة؟

- اسم مفعول غير معرف. من الفعل.

- هكذا. ولو أن الكلمة هي نفسها، ولكن في اللهجة الأيونية أو الهوميرية؟

لذت بالصمت.

- إنها ستكون، وحسب الشخص الثاني المفرد، غير المحدد النشاط رفعت إصبعها، وقالت بلطف: - غير محدد! لذلك δια ليس Iε δ، مفهوماً؟

كانت أصابعها حمراء، كما لو أنها كانت في الصقيع من دون قفازين. أهالت بقايا أعواد الثقاب من العلبة. كان عددها ثمانية.

ارتكبتُ خمسة أخطاء، من الأخطاء غير الفطرية جداً. رَمَتْ أعواد الثقاب الخمسة المكسورة في سلة المهملات. وأعدت ثلاثة إلى العلبة. وقالت لي: - أضع لك علامة 3، لا داعي للاستياء. علامة ثلاث «مرضية»²⁹، وهذا يعني أن المعلم راض عنك، ويجب على الطالب أن يكون راضياً أيضاً! وابتسمتُ.

كان الظلام قد خيم عندما وصلت إلى المنزل الريفي. أنارت نافذة واحدة في غرفة كسيوشا، كفو بالطبع، إنها أبقت الإنارة. وحينما فحصت عما إذا كان كل شيء مغلقاً، أنا نسيبتُ أن أذهب إلى هناك.

فتحتُ الباب، رميت الجاكيت، صعدت إلى الطابق الثاني، من دون أن أخلع حذائي.

كان مصباح الطاولة على منضدة صغيرة، ينير في غرفة كسيوشا، أضاء القاموس اليوناني الروسي. ما الذي جاء به إلى هنا؟ لقد تركته في مكتب والدي، حيث رقدت، وذاكرت!

جلستُ على الكرسي، وأخذت أفكر. أتذكر، وأتأمل.

دوى في الطابق الأول مزلاج باب المرحاض.

نهضتُ بصوتٍ عالٍ من الكرسي.

وجاء صوت نسائي غريب متسائلاً:

- أوي، مَنْ هنا؟

8. النطاق الصحي

أجبتُ بصوت حازم، وحتى جهوري، وأنا أقترّب من الباب، ولكن من دون أن أختلس النظر في الخارج.

- كلا، أنا أسأل، مَنْ هنا؟

ردّت هي، دون أن أراها:

- الآن سأشرح كل شيء.

- يعيش في لينينجراد أخ غير شقيق لوالدك.

سألتها:

- العم ميشا؟

- نعم بالذات قامت بخطوة على الدرج، ولكنها توقّفت لديه ابنة ماشا، أليس كذلك؟ أنا صديقة ماشا. يُخَيّل لي أننا حتى تقابلنا، حينما جئت إلى لينينجراد، كنت في ضيافتهم، وأنا كنت هناك عند ماشا. كنت مع صديق اسمه أندريه، فضلاً عن فتاة معه، لها اسم فظيع. على غرار ميلينا.

- بالضبط قلتُ، وما اسمك؟

- ليوكاديا لفوفنا، ولكن من الأفضل أن نتحدث بصيغة «أنت». فقط بحق الربّ لا تسميني بلادا، ولا ميلينا، أي كابوس هذا!

قولي لي يا ليوكاديا، ألم تقعي آنذاك بالصدفة في حبي؟

ضحكت:

- لو كنت فتىً طيباً، فليس من المستبعد أن أكون قد أحببتك لمدة خمس دقائق، لا أذكر.

سألتها:

- وبكلمة شرف؟ كيف سيكون غير المعرف $\delta\alpha$ من $\delta I \epsilon$ ؟

- أي!

أطلقت صرخة، سمعت صوت سقوطها على السلاّم:

- آخ، اللعنة على الشيطان. أوي... أتصوّر أنني كسرت ساقي...

سحبتهإلى غرفة الضيوف. وأرقدتها على الأريكة. بالطبع لم يكن هذا كسراً، إما التواء أو كدمة شديدة قرب الكعب. كسرتُ قطعة من الجليد من السقيفة، ولففتها في منشفة صوفية، ووضعتها على قدمها.

تطلعتُ لها باهتمام شديد. كانت فتاة عادية ذات شعر أشقر، وأنف حاد، وبالنسبة لقوامها، فهو غير واضح، إذ غطت البلوزة الضخمة التي تشبه الكيس، كل شيء. وقالت:

- ساعدني؟ انزع عني السروال والجوارب.

حينما خلعت جواربها بصعوبة، ندت عنها بغتة آهة، وهتفت:

- اللعنة على الشيطان... تشبثت بأظفري. اعذرنى. نحن الآن لسنا بفتى وفتاة، وإنما ممرض وجريحة. هل لديك مقص؟ قلم أظفري من فضلك.

جلبت حقيبة أدوات زينة والدتي من الطابق العلوي. كان الإبهامان بظفرين طويلين بشكل لافت للنظر، ومهما حاولت بالمقص والملاقط، بقي وسط أحدهما، لسبب ما حاداً. أخذتُ مقص الأظافر، ورحت أشحذه. كانت بقدمين جميلتين ذواتي زغب رقيق، ذهبي على بطني الساقين. نطتُ ركبتيها المضغوطة. وكلما شحذت أظافرها بقوة أكبر، أصابها بقوة أكبر ارتعاش خفيف، وبغتة تنهدت، وقالت: - شكراً، يكفي. كل شيء على ما يرام، الآن لن تعلق بشيء.

أمسكتها من قدمها، ورفعتها.

هتفت:

- ماذا تفعل، إنَّ قدمي تؤلمني!

- اعذرنى أخذت القدم الأخرى، وحاولت أن أقبل ظهر قدمها.

ضحكت:

- لن يكون بيننا شيء. أنت الآن بالنسبة لي، لا تكون سوى ممرض.

وفجأة، استكفنتُ أنا أيضاً منها. لفتتُ الجليد على قدمها بمنشفة ثانية.

- الساعة التاسعة والنصف قلت لها: استلقي، ونامى. سأعود غداً. ماذا تودين أن أجلب

لك؟

- علبة عود ثقاب، لقد بقيت لدي ثمانية أعواد.

- ومن الأكل؟

- ناولني الحقيقية، سحبت محفظة النقود، واستلّت منها عشرة روبلات من فضلك، اذهب إلى السوق، واشتر دجاجة طازجة. غير مجمدة. حسناً؟

- حسناً، ليوكاديا لفوفنا، قلت لها وداعاً، إلى غد. والآن قل لي، كيف تيسّر لك أن تدخل المنزل، ولم تتركي أثراً لأقدميك، كيف تسنّى لك مَحْوُها؟

كانت لها عينان صفراوان، وشعر يميل إلى اللون الأشقر، وأنفها حاد.

وقالت:

بالذيل!

9. لماذا لا يطير الناس؟

ولكني مع هذا ذهبت إلى الكلية للاتفاق على إعادة الامتحان. وكنت صباحاً هناك.

كانت رئيسة قسمنا تسيّر في الدهليز.

انحنيت، وأنا أبتسم لها:

- مرحباً عزة عليبيكوفنا!

بدت عابسة، وبالكاد هزّت رأسها لي.

تراجعت عدّة خطوات للوراء، واصطدمت بيورا تساريوف، الطالب من السنة الرابعة. قبض على كُمّي، وسحبني إلى السلم.

- هل سمعت ما حدث بالأمس؟ بالمناسبة، بسببك!

لم أفهم شيئاً.

- ماذا؟

- أعطني سيجارة قال يورا. لقد حصلت أمس على درجة «ثلاثة» وغادرت الكلية مسرعاً،

أليس كذلك؟ وفي هذه الأثناء دخلت عزة عليبيكوفنا قاعة الامتحان. ربما سمعت كل مدار بينك وبين المتدربة، التي وضعت لك علامة «3»، وقالت لها: أما بالنسبة للصيغة الهومرية، فهناك النبرة على مقطع لفظي مختلف عن اسم المفعول! لماذا أربكتم الطالب؟ أم أنكم أنفسكم لا تعرفون ما يكفي عن الموضوع؟

دَخَنَ يوراء، وأخذ نفساً من سيجارته.

سألته:

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك ذهبت مختلة العقل هذه إلى النافذة، ودفعت مزهرية الصبّار، وفتحت درفة النافذة...، واختفت عن الأنظار.

- وماذا؟

- هذا كل شيء قال يوراء، الطابق العاشر بعد كل شيء. الثلج الأبيض، والدم، والرعب.

- يا إلهي!

لسبب غير معروف، رسمتُ شارة الصليب. حدّق بي يوراء، وتابع كلامه: - راح الجميع يصرخون، وينظرون للأسفل، ويتصلون بسيارة الإسعاف، ويركضون إلى تحت، لا شيء. كان العشب سلساً، والثلج صافياً ونظيفاً، ولا أثر لسقوط شخص، الناس يتجوّلون في المكان. وسألوهم: هل رأيتم امرأة أُلقت بنفسها من النافذة؟ إنهم يجيبون: لا، هل أصابكم مسٌّ من الجنون؟ جاءت الشرطة، وراحت تستجوب. والمثير للاهتمام يا شيخ: إنّ كل مَنْ كان في الطابق العلوي رأى كيف اختفت من النافذة. وكل مَنْ كان يتجوّل تحت لم يرَ شيئاً.

سألته:

- هل رأيت ذلك بنفسك؟

قال بصدق:

- كلا، لقد نقلوا لي الخبر.

سألته:

- مَنْ؟

امتعض من السؤال، وردّ:

- الجميع.

- ولكن أين المتدربة هذه، طالبة الدراسات العليا من لينينجراد؟

- غير معروف! لقد اختفت جميع وثائقها من وحدة التدريب. تحققت الشرطة. لا شيء، سوى علبة عود ثقاب على الطاولة، فارغة تقريباً، وستضحك يا شيخ، لا أحد يتذكر حتى اسمها.

على سبيل المثال، هل تتذكره؟

أنا أتذكره. وفهمتُ أن الوقت قد حان، لوضع حدّ لما يجري معي. ولكن من الأفضل من دون عيادة طبيب نفسي، وسألته: - يورا، لدي سؤال لك. مهم جداً، قل الحقيقة، هل تؤمن بالربّ؟

لاذ بالصمت للحظة، ومن ثم قال، وسألته بتحدّي:

- نعم.

- يورا، كلمة شرف كمسؤولية، لن أخبر أحداً. هل تذهب إلى الكنيسة؟ على الأقلّ في بعض الأحيان؟ وهل تعرف قسّاً؟

قال:

- نعم، حقاً لم ألتقه منذ نصف عام بالتمام...

- لنذهب إليه. ضروري جداً. عاجل.

- الآن، وحالاً؟

- بعد ساعة سنلتقي، إذ يجب عليّ الذهاب بسرعة إلى السوق.

كانت شمس يناير تميل نحو الغسق. ووقفت، ويورا قرب كنيسة صغيرة في ضواحي موسكو.

أوضح القسّ لنا:

- **كلا، كلا، كلا، يا شباب، لقد قيل في الإنجيل: «أَمَّا هَذَا النَّوْعُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَلَا يُطْرَدُ إِلَّا بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ»، ولا شيء غير ذلك.**

فاعترضتُ عليه:

- ولكن، في مُصنّفات حياة القديسين مكتوب...

قال:

- بميسور القديسين الأبرار أن يطردوا شيطاناً أو جنية، لكنني كإنسان، مثقل بالخطيئة الأولى، وغير مدعو...

وهتف فجأة بصوت دنيوي تماماً: «فو! كش! ألقوا القبض عليه! - ولوّح يديه.

التفتُ إلى الخلف.

كانت حقيبتني مُلقاةً على مقعد بجانب السياج. أو بالأحرى، كانت ملقاة تحت المقعد.
- ابن عرس قال القسّ، هناك الكثير منه هنا. لقد سرقت الدجاجة من حقيبتكم.

10. السجن والإرادة

لم أرغب في الذهاب إلى المنزل الريفي في المساء.
لكنني على أي حال ذهبت.

عندما اقتربت من المنزل حوالي الساعة السابعة، كان الظلام دامساً. تطلعت لكل
الاحتمالات، إلى نافذة غرفة الضيوف، حيث تركت الفتاة بالأمس وساقها المكدومة، كان الضوء
ينير.

لم يكن أحد على الأريكة. بينما وجدت على الطاولة دجاجة مقلية، محاطة بالأرز. وإناء مع
سلطة البنجر وشرائح تفاح. وصحنين، وكأسين. وزجاجة من نبيذ «تسيناندالي».
ذهبتُ إلى الشرفة المضاءة. فُتح الباب.

- مرحبا! قالت، لقد عثرت على زلاجات في العلية، وتزحلق عبر السدّ إلى منطقة
تروثسكويه، واشتريتُ بعض الأشياء للعشاء، وقمت بإعداده.

قالت ذلك، كما تقول زوجة لزوجها، وراح قلبي ينبض بالخفقان.
وقالت، وكأنها تردّ على أفكاري:

- لكن لا بأس! إنني سأرحل اليوم، ولا تحاول أن تنسج حكاية عن أن الدجاجة سُرقت منك.
سنفترض أنك أنفقت هذه النقود على أجرة سيارة.

ها قد بقيت ثلاثة روبلات قلت لها : سأعطيك الباقي.

- بالطبع ستعطيها قالت، هيّا، لا تقف على العتبة.

ثم جلسنا عند طرفي الأريكة.

وسألتها:

- هل يجب أن تغادري اليوم؟

- نعم.

كدت أصيح بها:

- لماذا؟

انتهت من مضغ لحم الدجاج، ومسحت يديها بمنديل، وسكبت بعض النبيذ، وشربته، ووضعت الكأس على الطاولة، وقالت: يمكن أن تستمر القصة من دون نهاية؛ قصة حب بوليسية غامضة طويلة. بوسعك أن تبحث عن طارد الأرواح الشريرة. بوسعك الذهاب إلى لينينجراد إلى العم ميشا والأخت ماشا، ويمكنك أن تستوضح أين أعيش، وأدرس وما شابه ذلك. وتحاول أن تفهم أين يكمن الفرق بين الثعلب وابن عرس. المهم أن يكون لديك ما تمارسه! ولكن لماذا؟ ستنتهي دورة الامتحانات، وتبدأ العطلة. أنا أرغب بالتزلج بالزحافات في جمهورية كاريليا، وربما، سيرسلك والداك إلى بنسيون. لقد حان وقت افتراقنا.

لكن القضية لا تكمن في هذا. إن كل شيء أكثر جدية.

أنا حريتك. وأنت سجنى.

لا تمتعض! فعلى العكس، تكون النتيجة ذاتها، أي إذا كانت حالتى حسنة معك، فستكون حالتك سيئة.

ما حدث لنا فى حقيقة الأمر؟ يا عزيزى، يمكن إيجاد، لكل حدث مليون سبب حقيقى، ومعقول تماماً.

ويمكن تفسير حتى سقوطى من النافذة فى الكلية: أنا ببساطة ذهبتُ إلى الغرفة المجاورة، وكان فى الطابق الأسفل معطفي القديم مع الوشاح الأحمر، الذى اقتربت منه فى ذلك الوقت الموظفة. وبينما كان الجميع يصرخون، ويتخبّطون، دخلت فى قسم التدريب، وأخذتُ الإضبارة التى تضمّ وثائقى. وخرجتُ إلى الدهليز، ونزلت فى المصعد. لديّ وجه غير مميز، وفى زيّ عادى للغاية.

وما حدث فى تلك الليلة؟ هل أنا التى هربت؟ أم بنفسك طردتني، وبنفسك، ثم أرجعتني؟

يمكن وصف كل ما جرى، وتفسيره، وتأويله...، ولكن كم هو ممل يا عزيزى؟ كم هو تافه؟ مقارنة بالشىء الضخم الذى جرى فى حياتنا، أنا وإياك.

إننا لن نكون معاً أبداً. لقد شعر كلانا على الفور بهذا. لم أكن أرغب فى السماح لك بدخول عالمى، وأنت بنفسك لم ترغب بالدخول. لن نصبح زوجاً وزوجةً، ولن نصبح عشيقين، ومن أجل المبدأ لن نتواصل - أوه، يقال إن هذا لم يكن من دون جدوى! وحتى لن نتعاقق عند الوداع.

لا مثيل لهذا يا عزيزى، لا أحد لديه مثل ذلك. سمحنا لأنفسنا بأكثر ترف: أن نكون أذكىاء؛ هذا ترف الفهم.

وثمة ترف أكثر: هو التصرف وفقاً للفهم. لقد تعالينا على أجسادنا، وحتى على أرواحنا. هذا رائع. يبقى لدينا شيء أتمن من حلاوة الحب، الذى له دائماً مذاق شيء ما متعفن. يبقى لدينا عقل

في غاية الصفاء؛ العقل الذي هو الشكل الأعلى، والأرفع رقة وروعة، للحساسية.
وباسم العقل، سنأتي الآن على الدجاج للنهاية، ونشرب النبيذ حتى الثمالة، ونغسل الأطباق،
وسوف ترافقني حتى البوابة.

وصلنا إلى السياج. رفعت رأسها إلى أشجار التنوب الشاهقة.
قالت لي:

- بالمناسبة، أعطني علبة لعود الثقاب، التي كنت قد أخذتها في قاعة الدرس، أليس كذلك؟

قلت وأنا أعصر علبة الثقاب في جيبي:

- لن أعطيها، أسرع، سوف تتأخرين.

لوّحت بكتفيها، وخرجت من البوابة.

بعد ربع دقيقة نظرت، لم يوجد أحد في الطريق. كانت هناك فقط ذروات شجر الشوح،
تتمايل. بفعل الريح، بالطبع.

الذئاب

إيليا كوتشيرجين

يشعر المرء بالوحدة في فترة الصيد الشتوي، وبالحوار الداخلي المستديم مع الذات في مراحل التنقل، وعلى مسار التزحلق الرتيب الذي يُعَمِّي البصر، وممارسة العمل البدني اليومي، وتناول اللحوم البرية في العشاء. إن غابات التايغا المكسوة بالثلج الأبيض ترنو إليك، وترصد باهتمام أفعالك، غير مبالية بما إذا كنت تتمرغ في الثلج، أو تستريح عند موقد النار. وتكشف عن حضورها فقط من خلال قرقرة غصن مكسور، أو صوت بعيد لانهيال الثلوج. ويدقُّ الدم في أذني في بعض الأحيان لدرجة، لا أسمع إطلاقي النار، وأحياناً كما لو يغدو كثيفاً من العطش والزمهير، مُخلفاً مذاقاً حامضاً في الفم في نهاية يوم شاق. وتكون المنحدرات الجبلية الساكنة، منخفضة وناعمة في الطقس السيئ، والسماء زرقاء صلبة من شدة البرد.

وتراودني أحلام بلهاء، تطلُّ فيها نساء وديعات، يشعرون بكل أفكارني، وأنا لا أعرف حتى أسمائهنّ. ويغادرن في تلك اللحظة التي يُخرج فيها كولينكا³⁰ رأسه الأشعث من كيس النوم، في الجانب الآخر من الموقد، ويوقظني بصوت أجش. تغادرنني النساء إلى الأبد، بيد أن أماكن المبيت القديمة تحتفظ بآثارهنّ الناعمة. ويبقى مجدداً خلفي رماد مرتعش في الموقد، والشعور بأنني قد فقدت شخصاً ما. ومن ثم أحرّك الزحافات برتابة، وأضع تحت لساني قطع ثلج عذبة جافة.

لم تتجمد مياه النهر الضحلة، وتتجمّع المياه هناك على هيئة سيول، تنزلق، تتحرك، وتحيا على أحجار متعددة الألوان. يتصاعد البخار منها، ويستقرّ على غصون الصفصاف الأرجواني،

وعلى عناقيد شجيرة الغبيراء. تبعث الشمس الحادة، البهجة في الماء البارد، وتنعكس في كل ثنية تيار، مثل أرانب تلعب في أكوام الجليد.

تقسم الشمس الوادي الصاعد للأعلى، إلى جزء ساطع بضوء يعمي البصر، ظلّ قاتم. ولا وجود للريح، ولهذا، فكل شيء جامد من دون حراك، ما عدا الماء. وترتجف الشجيرات المنفوشة المكسوة بالجليد، وحينما يقطعها كولكا بالسكين، لِيُمَهِّدَ لنا الطريق، يتناثر منها غبار جليدي. ونشق طريقنا بمحاذاة النهر، متفادين أقسام الشاطئ غير المتجمدة.

نتحرّك في مسار التزلج إلى منحدرات «أوبيوك». ندخن تحت أشعة الشمس، وننظر من خلال المنظار إلى المنحدرات الجنوبية العارية، وإلى «سيفير» التي تكسوها الغابات. يحكُّ يوركنا بالقفايز البقع البيضاء على أنفه ووجنتيه.

وفي أثناء ذلك، تمكّنت كلبتي بيلكا من السباحة في النهر، والآن تجري، وهي ترنّ بقطع جليدية صغيرة، وأحياناً تتحني على المسار، وتعض بقوة الجليد المتجمد بين مخالبها. يضغط ديسمبر بهدوئه على الأذنين، حيث تُسمع فقط كدكة طفيفة من الجليد تحت الكلبة، وحفيف الزلاجات على الثلج الجاف، وأحياناً خريير المياه تحت الجليد.

إن تمهيد طريق التزلج عملٌ شاق. تدور في رأسي أغنية بسيطة، يتمُّ ضبط لحنها على إيقاع خطواتنا، ويستحق العمل والهدوء والصقيع، باقي الأفكار. على الأرجح، إنّ لدى بيلكا أغنية مختلفة تماماً عن أغنيتي، فهي أكثر مرحاً، الكلبة تنقل أقدامها، أكثر مما ننقل نحن زلاجاتنا الثقيلة. آثار أقدامها صغيرة، عشوائية بعض الشيء، ربما بسبب أنها مازالت كلبة فتية.

نحن غالباً ما نتقاطع مع طريق الذئاب؛ بصمات مخالب بعضها، طبق الأصل للأخرى، ولا نعرف عدد الحيوانات التي مرّت من هنا، وتمتد آثارها في خطّ مستقيم. نسمع فيها الإيقاع المتوتر والجاف والواضح، لحن القوّة الممرّات البعيدة، والمعارك الضارية، وحمية رحلات الصيد.

مرّ من هنا في الخريف إلى أعلى النهر، حوالي خمسة عشر ذنباً. يتغذى أحد القطعان الآن بالقرب من منطقة أوبيوك، ويصعد أحياناً إلى منحدرات كاراجير. وصعد القطيع الثاني إلى منحدرات تاشتوكول. وأجبرت الثلوج الباكرا العميقة، الغزلان على الخروج من الغابة إلى المنحدرات الجنوبية، التي تعصف بها الرياح، حيث من السهل الحصول على العشب، فتطارد الذئاب الغزلان، وأحياناً الثيران إلى الأسفل إلى الجليد، أو إلى الماء، وتقتربها بسهولة.

التقطنا في طريق العودة، زوجين من القرون الجيدة، من بقايا وجبات الذئاب، علّقها كولكا على الأشجار، بحيث يمكن رؤيتها من مسار التزلج، ووجدنا على بعد كيلو متر من كوخنا في أوبيوك، ذنبة مطروحة، مرّقتها الغربان، وتجمد نصفها في الجليد.

طلع البدر. أرى النهر الأبيض بوضوح حتى انعطافه. أجلس فوق الثلج، مختفياً وراء حجر، وأنتظر. بقي كولكا قرب الكوخ، وسيحاول أن يعوي لإغواء الذئاب، فيما ذهبت أنا مع

يورتشكا³¹ في اتجاهين مختلفين على طول النهر. وفي حالة نجاح كولكا، يمكن أن تأتي الذئاب، وسأصرع، ولو ذئباً واحداً، أو سيقته يورتشكا.

وأخيراً تعالي من الخلف عواء كولكا. بالأحرى، ليس عواء، وإنما هو على الأرجح زئيرٌ عزّزه بالعواء من خلال زجاج اللمبة الكيروسينية. إذ قرأنا في مكان ما، إن صيادي الذئاب من ذوي الخبرة يستخدمون زجاجة اللمبة، لهذا الغرض. من الواضح أن النجاح لم يحالف كولكا، على الرغم من الشعور، بأنه بذل جهده في مهمته. لقد استعمل كل قوته لإطلاق هذا العواء. إنه رجل قوي. بلغ من العمر أربعين عاماً، ويركض في التايغا بحماس شديد، حتى إنه يتفوق علينا. لا يسمح لنا بأن نخاطبه، باسمه، واسم أبيه «نيكولاي مخائيلوفيتش» وإنما الاكتفاء باسم التحبب كولكا، وحسب.

وتناهى إلى سمعنا من بعيد صوت ذئب حقيقي. وفوراً ساد التوتر في الهدوء. ومزّقه كولكا مرة أخرى، بعوائه.

ولكن لم يأت ردٌّ آخر. أجلسُ بصبر عشرين دقيقة أخرى، ومن ثم أقفل راجعاً، ونحن نتمرّن ثلاثتنا بمختلف الطرق على العواء، ونملأ وادي النهر بأصوات ممطوطة، ومن ثم ندخل الكوخ. لقد شعر الرجال بالملل، وأطلقوا العواء من أعماق القلب، وسخر الواحد من الآخر، ومن نفسه، والآن حان الوقت، كي يستلقي كل منا في كيس النوم، والسيجارة في فمه. في الدفء. وانتظرت حتى يرتفع القمر أكثر، وحتى ينسى سكان الليل صراخنا. أنا أحتسي الشاي، وأتحدث عن فتاة صينية لطيفة، أعجبتني في يوم ما، وأعلم كولكا كيفية نطق اسمها. ومن ثم أجهّز نفسي للخروج.

- ما حاجتك للذهاب يا رجل؟ الطقس في الشارع بارد لدرجة، أنه يجمد اللعاب في الفم.

لم يعد كولكا يؤمن بالقدرة على إغراء الحيوان المفترس، ويلوح حقاً بعض التردد على يورتشكا، وربما يفكر بالذهاب معي، ربما يحالفني الحظ فجأة، بيد أنه يبقى بدافع الكبرياء.

مضيت لوحدي، مشيت بعيداً عن الكوخ بحوالي كيلومترين. وكان القمر فوق رأسي تقريباً ساطعاً، كما لو أنه مُضاء من داخله بيروجيكتور، يرى فيه ظلّ شيء ما. يمرّ الليل فوق هذه الأصقاع، مثل سفينة شبح، ضخمة سوداء، ويُرّيز الزمهرير جميع الأصوات من الهواء، وتتضح فيه المعالم المطموسة في النهار. الجبال الفضية بلا حياة، إنها تقف، فحسب باردة وغير مبالية، وليس بوسعي أن أميّز أي شيء في ظلال الأشجار. لا يمكنني رؤية أي شيء، سوى مساحة صغيرة من النهر المُغطى بالثلوج من منعطف إلى آخر.

ينبغي على المرء أن يرفع عينيه في ليل التايغا، ليلاحظ على الفور مدى السرعة التي يطير بها عبر الفضاء. ربما إن الشعوب التي اعتبرت السماء طبقة صلبة، عاشت في مناخ دافئ للغاية، وعندما تقف بمفردك على جليد نهر متجمد، بين جبال باردة يضيئها القمر، يمكنك رؤية المسافات الشاسعة التي تقطعها الأرض، لتسقط في فراغ أسود، ويحملك ليل الشتاء على أجنحته البيضاء إلى السماء المظلمة. أرفع رأسي، بحيث يخرج الهواء بصورة حرة من حلقي، وأصرخ عالياً أكثر، فأكثر.

أتوقّف عن الصراخ في أعلى نقطة يبلغها صوتي. وأبدأ بالعواء، حتى يخرج من صدري آخر، ما تبقى من الهواء، ثم أصغي.

يستدير رأسي قليلاً لليسار، وتترامى لي من المنحدر الجنوبي، أغنية ذئب. بالأحرى، أرصد كيف ترتفع الأغنية من المنحدر إلى السماء، ويبدو لي أن هذا هو صوت المنحدر. ليس من الواضح ما إذا كان هذا الصوت، قد انبعث من مكان بعيد أم قريب. سرّث في جسدي قشعريرة برد، لو كان لدي صوف على مؤخرة رقبتني، لشببت كفرس، من شدة الإثارة.

أنتظر حتى تهدأ الاصوت تماماً، وأنحني قليلاً. أستنشق الهواء، ومن ثم أمزق السكون الهشّ. أنا أعرف، إنّ كل من لا أراه في هذا الليلة، يسمعي بانتباه. هنا فقط بيلكا التي ترقد عند قدمي، لا تعبرني اهتماماً، وبالكاد تدير رأسها وحسب، لكي تجلس بارتياح، لتسمع الصوت بشكل أفضل؛ جمّد جسدها.

منحت كل جوارحي إلى ما أقوم به. نعم، أريد أن أقتل ذئباً، وبلاريب، سأطلق النار عليه إذا ظهر في مجال بصري، بيد أنني لا أفكر الآن بذلك. نزعث البندقية، وغرزت عقبها في الثلج، كي لا تعرقلني. التقطت رداً من المنحدر البعيد، حبست أنفاسي بالكامل.

الذئب ينتظر ما دمت أعوي. فترة سكون. ومن ثم يبدأ بالعواء بنفسه. أشعر بأنه حالما ينتهي من أغنيته، يصيح السمع، وينظر باتجاهي. وكيف أنه يبدو جدياً للغاية، لأن كل ما نقوم به ليلاً، نقوم به بكل قوانا بصورة جدية، وإلا، فإنه لن ينجح.

تصايحت مع الذئب خلال فترة طويلة، أنا أتعلّم العواء بجديّ وبمثابرة. أشعر بالحرارة، وكانت الفقافيز والقبة مرمية فوق الثلج. أصابع يدي متوترة، ملتوية مثل المخالب، وعند رؤيتي لها، استبدّ بي الخوف، ربما توحّشت بعض الشيء: أعيش في كوردون منفرداً، وألتقي كل يوم بنفس الوجوه. فقط بكولكا ويورتشكا، يورتشكا وكولكا. يمكن أن يتوحّش المرء خلال فترة قصيرة.

لاحظت في طريق العودة أنّ مسار ترحلتي يقاطع آثار أقدام ذئبتين، توجّهتا إلى الشاطئ الآخر. أتلّمس الآثار، فتظهر لي أنها طازجة تماماً، ولم تتجمد بعد حافة الحفر الصغيرة التي تركتها أقدامهما في الصقيع. إذن، على الرغم من كل شيء، جاءنا لإلقاء نظرة علي. إنّها حيوانات مفترسة سريعة الحركة، ذات قوائم طويلة. وأنا مسرور، لأنني تلقيت رداً من ذلك المنحدر، وكونهما تحدثتا معي بلغة قديمة غير مفهومة، ورمقتاني من الظلمة، بعيون ثاقبة. نشأ لدي شعور، بأنني شاركت في فعل ما، في نشاط ما سرّي، ويخيل لي في بعض الأحيان، أنني فهمت، ما عبّرت عنه تلك الأغنية.

وسألني كولكا بعد عودتي منهكماً، وهو يصب لي الشاي، فيما كان يوركا يبتسم.

- حسناً، هل فرّجت عن همّك؟ نحن هنا، كئنا نسمع غناءك، وفكرنا: هل ستقف لنا راجعاً على أربع أم لا. سيكون من المروع قضاء الليل وحدنا معك في الكوخ.

وأنا أسأل، هل سمعاً، كيف ردّت عليّ الذئبة، من ناحية تاشوميس.

زرّ كولكا عينيه، وسألني:

- وهل أنت مقتنع تماماً بأنها كانت ذئبة، وليست ذئباً؟ هل سألت عن جنسيتها؟ ربما هي أيضاً صينية؟ ما اسمها كما قلت «يو...مي»؟

انتهى الأمر، إنه سيجادل، حتى يبْحّ صوته. يؤكد يورثسكا أن عيون الذئاب عيون ضيقة، لأنه بنفسه رأى في جمهورية ياقوتيا كلاباً بعيون ضيقة، والكلاب من سلالة الذئاب. يدحض كولكا هذه النظرية. الذئاب؛ هي ذئاب، والبشر؛ هم البشر.

يطيب للمرء أن يدرك، بأن أحداً ما ينتظره في البيت، حتى ولو كانت «لاستوتشكا»، تلك البقرة العادية غير العاقلة بعينيها الجاحظتين، والعجل الذي يمتص سترتي باستمرار. في الشتاء يعجبني أن أشعل فانوس الكيروسين، وأنير الطريق لنفسي، وأذهب إليهما في المعلف. هناك تفوح الرائحة الطيبة للحليب، والحيوانات الأليفة والتبن. أضع أمام البقرة الدلو، وفيه قشور بطاطا مملحة، وقطع اليقطين، وأشعر بالمتعة لكونها تقضم العلف بقطعة. أجلس على المصطبة الصغيرة. وعندما وضعت «لاستوتشكا» جنبها الدافئ نحوي، راحت تيارات الحليب الرقيقة تنددن، وهي ترتطم بقاع المِحلاب. وحينما تنفذ قشور البطاطا وقطع اليقطين، أبدأ بالغناء. وتدير البقرة نحوي رأسها الضخم، وتشم كتفي، وتتسّمّر. لا يمكنني أن أفهم، فيما إذا أعجبتها غنائي أم لا. يمكن فهم الخيول بسهولة أكثر، فحينما قاد فحلّ الخيل إنائه إلى القرية، لكي تلعق الملح، رميت لها عدة حزم من القش، وجلست في الجوار، ورحت أغني رومانس «هكذا هي تحبني...»، وردّتها عدة مرات، لأن الجياد توقفت على الفور عن المضغ، ونصبت آذانها بشكل عمودي واستدارت نحوي.

ثم أبدأ بسقي العجل، إنه لم يتعلّم بعد كيف يشرب من الدلو، وحينما يحتاج أحياناً، ينطح الدلو. نحن على حدّ سواء نغدو ملطخين بالحليب، الذي يتجمد بسرعة على الملابس.

أعود للمنزل. كان القمر يسبح في السماء، وهو محاط بهالة مضيئة. أثقل الشتاء وادينا بمنحدرات ممتدة مكسوة بالثلج. يصرّ الثلج تحت الأقدام بأصوات عالية جداً، لا تتناسب مع هذا المنظر غير الواقعي.

بعد عودتي من رحلة الصيد، أجد دائماً صعوبة في تدفئة الشقة، واضطرت في الليلة الأولى للنوم بملابسي، المطبخ مريح للغاية. وأضاء مصباح الكيروسين بخفوت الطاولة المليئة بالكتب والأكواب المتسخة، وأعقاب السجائر.

وبدأت صفيحة السخانة تبرد تدريجياً، وتغيّر لونها الأحمر الساطع، إلى لون داكن ضارب إلى اللون البنفسجي، ومن ثم تحوّل إلى لون رمادي. وغلاية الماء تنزّ في الفرن، فيما يُنقَع شاي أعشاب الراتينج الثقيل في قرح معدني. وينبغي عليّ الانتظار، حتى يحترق الخشب كلياً، لكي يتسنى لي فتح باب الفرن.

يلوح من النوافذ فراغٌ قائمٌ. أسدلت الستائر، لكي لا يتسلل الظلام إلى داخل المنزل، ولا يُخيفني، فأنا في نهاية المطاف أعيش بمفردي، ويجب أن أحمي نفسي بنفسي من المخاوف البدائية،

ومن النوافذ التي تنظر إلى المجهول.

أنا اعتدت على واقع؛ أن الشمس تشرق كل صباح من وراء جبل ألتيكول. وفي أشهر الشتاء تشق الشمس طريقها إلى قمم الأشجار، فوق المنحدر الشمالي، وبعد فترة وجيزة من منتصف النهار، تختفي وراء الأفق المرتفع، وتغرب في الصيف، عقب أن تطلي المنزل، وحافة السقف بلون ذهبي، وتغيب بشكل رائع إلى ما وراء قزل باجي الذروة الحمراء. في البداية لم أتمكن من التعود على ذلك، فقد كنت أشعر أن الواقع، الذي أعيشه كان غير واقعي. وبعد أن عشتُ في موسكو بأحلامها المثقلة بالمال والجنس والاستقلال والحب، وجدت نفسي في قرية صغيرة، تتكوّن من أربعة بيوت وسط جبال ألطاي، وكأنه ضرب من الخيال. وتوحي كلمة «حارس الغابة» (وظيفتي) نفسها، بالرجل الملتحي والمطحلب.

وبشكل عام أعدتُ ترتيب أسلوب حياتي بسرعة فائقة، فالهواء النقي، والشعور المنسي بالجوع في الصباح، والمشي الشاق لمسافات طويلة، فعلت فعلها، ولكن بقي يخالجنني الشعور بأنني محاط بحكاية أسطورية. الجوّ هنا في الليل هادئ جداً، والظلمة في النوافذ دامسة للغاية، والذئاب من منحدرات أويوك تتحدث بسهولة مع البشر. لذلك علّقت الستائر في البيت. في الربيع الماضي حينما بدأت الرياح تهبّ.

في فصل الربيع، تهبّ رياح عاتية، ويذهب الشتاء بصخب، صاعداً إلى الوديان والأنهار، وتبدأ الأشجار بالتأوّه، وهي تنحني من تيارات الهواء، الباردة والكثيفة. في مثل تلك الأماسي، لا أجد رغبة في إطفاء المصباح. وتروح أسلاك تجفيف البياضات، المعلقة في الفناء تهترّ، وترنّ، ويصطفق الباب بالجدار في مدخل البيت، وتضغط الريح على الزجاج المؤطر، وتتجوّل في العلية.

إنّ الخوف يبعث البرودة في أخمص القدمين، ويتعيّن على المرء عند الاستلقاء في السرير، أن يسحب ركبتيه إلى البطن، ويلتفّ بإحكام في البطانية. إنّ دفويوكوف، الذي عاش قبلي بوقت طويل في هذا البيت، غرق، ولم يُعثَر على جثته، ولا يعرف أحد إلى أين حملتها مياه النهر. ويُشاع أنه يأتي إلى بيته السابق، ويبحث عن شخص ما، ينحني على النائم، ويتفرّس في وجهه. إنّ زميلي كولكا، الذي عاش هنا سابقاً، فرّ بسرعة من هنا إلى شقة جديدة.

إنّ الرياح الليلية تبدّد قوة الإنسان، وتجعله يُركّز نظره على فتحة النافذة أو الباب، حتى لا تفوّت عيناه اللحظة التي ستكون فيها الغرفة مشغولة به، وتسود المنزل عتمة مشوشة مرتعشة، فيما يكبر إطار فتحة النافذة الفاتحة اللون، تارة، ويصغر تارة أخرى، فتصاب العيون بالتعب من شدة التوتر.

ويمكن تمييز مختلف ألوان الخشخشة في البيت أثناء هبوب الريح! فالأصوات تأتي من جميع الجهات، مُقسّمة حسب درجة الخطر، وأتذكرها للحظة، وتقاطعها أصوات أخرى جديدة. إنّها تقترب أكثر فأكثر، وفي لحظة ما أدركُ أن المطبخ، لم يعد ملكي. ويضيق في بيتي الفضاء غير المشغول بالأثاث، ولم يعد يثير قلقي اصطفاق باب غرفة المدخل في الشارع، إذ تمّ تسليم هذه التخوم للريح، ومن ثم يخرج جزء كبير من الغرفة عن السيطرة، ويغدو من الصعوبة الوصول إلى علية الثقب، المُلقاة فوق رأس السرير. إنّها تكاد تكون مهزلة؛ بجواري المصباح والسجائر مع أعواد

ثقاب، ولكن ليس بميسوري التقاطها، وإشعال الفانوس. ويبقى لي فقط مكان تحت البطانية، ينفذ له ببطء هواء بارد. إلى أين هو ذاهب؟ إلى ما وراء عنقي، أم حولها؟

تولمني ساقاي من عدم الحركة، ومن الوضعية الحرجة الذي كنت فيها، وكانت عضلات ظهري، وبطني متوترة بفضاعة، وليس هناك ما أحتمي به من هذا الخوف، لقد تلاشت مشاكلي التي كان يمكن أن تكون بمثابة طوق نجاة في حياتي؛ المشاحنات مع زوجتي السابقة، والتوق إلى الحرية، وتأنيب الضمير والعوز المزمّن إلى المال، أي كل ما يُعذّب المرء، ويحميه من صفير رياح الربيع بشكل موثوق. علاوة على عدم وجود امرأة في الجوار.

عندئذ أدسّ يدي بعناية في سروالي الداخلي، سنتمتراً بعد سنتمتر، لكيلا أفصح عن نيتي، وأضغط على مَنْ يدعوني أحياناً إلى الأماسي الصاخبة، حيث حشد الناس جوار الأكشاك في محطات مترو الأنفاق، وإلى رائحة التبغ الخفيفة، الذي تنفثه السيّدات من سجائرهنّ، في مطابخ الغرباء، والإسفلت المتعرج، حيث تلتوي كعوب أحذية النساء العالية. وأحاول أن أتخيّل أنه لا تزال في الدنيا أشياء مثل المساحيق السائلة، والسهام المرسومة على الجوارب النسائية الرقيقة، وآثار أحمر الشفاه على القمصان.

أستحث مخيلتي، وذاكرتي، وأحاول الدفاع عن نفسي، لطرد الأصوات، التي تجمّعت في ملاذي الأخير. أودُّ أن أنام، لأجعل الصباح يقترب، كي أعيش هذه الليلة، وأجتازها. وتدرجياً أمدد ساقَي اللتين ساد فيهما الخدر، وهكذا، أجمع في راحة يدي كل ما يربطني بأضواء موسكو، بشوارعها الزرقاء، وأعطُ في النوم.

هل أنت نائم؟ هيّا اطرّد نساءك اللواتي تحلم بهنّ، لنذهب إلى المكتب، للاتصال هاتفياً بالإدارة المركزية. اسمع يا فتى، حتى سرّب السنونو يصرخ عندك طوال ساعة كاملة.

كان كوكا واقفاً عند مدخل الغرفة، وهو يعتصر بأصابعه سيجارة. وكان يتلمّس براحته جدار الموقد. على الرغم من الرعب الليلي، فأنا لا أغلق الباب أبداً بالمزلاج.

شقتك باردة. اسمع، لقد وصل توليك كريفونوف أمس. وكما يقول إنّ الإدارة المركزية تدفع لنا الرواتب، لنذهب إلى المكتب، نتحدث مع المسؤولين حول المسألة. وسيعود هو غداً إلى هناك، وينبغي أن يذهب أحد منّا معه، لاستلام الرواتب.

أرمني الحطب الذي جئت به مساءً في الموقد، وأشعل اللحاء، وأضع غلاية الشاي والطعام في الفرن، أذهب إلى المكتب. لقد وصلت لي رسالة من أليسا، ولهذا عندما سألني كوكا مَنْ سيذهب غداً، لاستلام الرواتب، أخفيت الرسالة في جيبي، وقلت له، أنا سأذهب بكل سرور.

أخذتُ لأليسا هدايا من التايغا: لحم ماعز برّيّ، وكبدٌ تجمد من الزمهرير، كالحجر. سيتعيّن عليّ أن أقطع حتى البلدة، مشياً على الأقدام خمسة وسبعين كيلومتراً مغطاة بالثلوج البيض، ثم أقطع في الحافلة 11 ساعة إلى المدينة.

تربطني بأليسا، وتدفعني إليها رسالتان وصلتاني منها، وواحدة أرسلتها لها، كما لو أن الريح الباردة تدفعني من الخلف لها. وقبل تبادل الرسائل بيننا، التقينا في شهر أغسطس، عند البحيرة، حيث انداح مرج أخضر أصيل بحق، مع نساء وخيول ترعى، كما في مجموعة إسحق بابل القصصية «جيش الفرسان الأحمر».

إن الربّ وحده يعرف طول المسافة، التي يجب عليّ أن أقطعها من المدينة إلى الإدارة المركزية. ومرة أخرى سيتعين عليّ الجلوس في حافلة ركّاب، ومن هناك لا أعرف بأية وسيلة نقل سأذهب. على الأرجح إنّ البحيرة تجمدت لمسافة عشر كيلومترات فقط، لا يمكن الإبحار، ولا المرور عبرها مشياً على الأقدام، ومن ثم العودة لقد بقي أقلّ من أسبوعين حتى حلول العام الجديد، وينبغي عليّ استحثاث السفر، لاستلام رواتب الجميع، وشراء المواد الغذائية والمشروبات والحلوى والعودة إلى الكرودون.

انطلقنا في الصباح الباكر، وأصبح السير شاقاً. أوقفت توليك عندما قطعنا 55 كم، وهتفت

به:

- أخرج الفطائر، فقد خارت قواي تماماً.

- أية فطائر؟

- لقد أعطتك تاتينا زوجة كولكا الفطائر، لكي تتناولها في الطريق؟

- لكني، لم أخذها.

لو كنت أعرف أنه لم يأخذ الفطائر، لكنت سأستسلم عندما قطعنا خمسين كيلومتراً، وعندما فكّرت في أن لحم الماعز في حقيبة الظهر، يزن ما لا يقل عن حقيقتين. كان توليك يمشي، وكان شيئاً لم يحدث، شبكّ يديه خلف ظهره، وصار يذرع الطريق بساقيه الطويلتين. كان يعمل في السابق رئيساً لكرودون عملنا، ومن ثم انتقل إلى الإدارة المركزية ليقترّب من الحضارة، حيث ينبغي عليه إرسال الأطفال للمدرسة، وهو شخص حيويّ، مَحَتَّ رحلاته الدائمة سيراً على الأقدام لمسافات طويلة، العادات اليومية لديه، وكان قد قطع أول أمس ليلاً، مشياً على الأقدام، سبعين كيلومتراً حتى يصل لنا، ومن شدّة شعوره بالملل، راح يحصي الأعمدة المنتصبة على طول الطريق، وها هو يسير في طريق عودته.

وسألته:

- ماذا، لا يوجد على الإطلاق أي طعام لدينا؟

راح توليك ينبش في الكيس، وأخرج علبة طعام أطفال صغيرة، كان في داخلها سُكَّر. أنا أكشط قطعة الكبد. إنَّها تبعث برودة ممتعة بلساني، تجمدت أسناني، وشعرت في فمي، بطعم الدم الحلو. أكلتُ السكر، ودَحَنَّا. تناولت قليلاً من الطعام، إلا أنه أعاد قواي بسرعة. غير أن الجلوس هنا

طويلاً غير ممكن، لقد تسرّب الزمهرير إلى القميص المتعرق على الظهر، وتحت البلوزة وتحت السترة الممزّقة، وهذه ملابسي الأكثر أناقةً.

في الناحية..

بتنا الليلة عند عائلة ساشكا توربوكوف. كان ابنه فيتالك، ابن الخمسة عشر عاماً، يتفرّس بي باهتمام، وبشيء من التعالي. إنه يروم في العام المقبل الالتحاق بمدرسة عسكرية في بطرسبورج، وراح ساشكا توربوكوف يدخل اللفائف عند الموقد. إنه إنسان لا يمكن الاعتماد عليه، ولكن دائماً يمكن الرهان عليه. إنّ مشاعر ساشكا آنية؛ فهو مستعد للقيام بكل شيء من أجلك، ما دمت متواجداً في مجال نظره، ولكن ما إن تختفي حتى ينسأك تماماً. من هنا السرور عند اللقاءات، كما لو أنه تعرف على شخصك بعد أن نسيك. كان مسروراً بي مع توليك.

هل تعرف ماذا وجدت لدى فيتاليك أوّل أمس؟ وجدت سكيناً في جيبه، هل فهمت. كلا؟ إنه شيطان، يترأس عصابة في الحي. إذا أساء له أحد ما، فإنه يصفى معه الحساب بسرعة. إنه قاطع طريق،...حسناً، صبّ المزيد من الشاي. هل ستشرب الشاي أم لا؟ لا تريد الشاي إذن، اذهب إلى الشيطان. اجلس بسرعة، لقد صببت لك. هل تعرف ما يقول فيتالك عنك، وعن يورك؟ إنكما من الأغبياء، وجئتما من بطرسبورج، وموسكو للإقامة هنا، هل فهمت، كلا؟

واستغرق تولك بالضحك. هذا الموقف يتخذه منّي غالبية الناس. إنّ فيتاليك عبّر عنه، فحسب بصوت عالٍ.

المدينة...

قال لي تولك، ونحن نقف في المدينة أمام منزل أليسا:

هيا، اذهب. إذا سمحوا لك بالمبيت، فاهتف لي بصوت عالٍ. وإلا سنذهب للمبيت عند أصدقائي، إنّ منزلهم يقع عبر الشارع.

وقف توليك على درجتين أسفل مني، وأنا أصعد السلم، وأضغط على الجرس في الباب. أليسا تفتح الباب، وتصرخ «واي!». وانحنيت عبر الدابزون، وقلت لتوليك بصوت عالٍ، إن كل شيء على ما يرام.

تسكن أليسا عند صديقتها، وفي المساء جلست على الأريكة في هيئة حرجة، ورحت أصغي إلى الفتيات اللواتي يتناوبن العزف على القيثارة، ويؤدين لي الأغاني. وفي الليل كنت أهدق في السقف، الذي أضاءه مصباح الشارع. وفي صباح اليوم التالي، ألتقي مع توليك كريفونوف في محطة الحافلات في العاشرة والنصف. اشتريت في الطريق علبة جعة. الطعم المنسي، والرائحة المنسية. إنّها ممتعة.

ظهر توليك قبل خمس دقائق من مغادرة الحافلة. كان يجرّه شخص في معطف قصير، ويبيده قنينة «فيرموت». جلسنا على المصطبة، وأخذنا نشرب الفيرموت، ونجرع بعده الجعة. الآن

أصبح توليك في عهدي، وأكبح فورته العدوانية، وأحشر جسمه الذي يُبدي المقاومة، في الحافلة. لهذا نسيت التوجه إلى التواليت، والآن يتعين عليّ أن أصبر حتى بلدة تشوي... محطاتنا القادمة.

تشوي...

توليك مسرور برحلتنا الموفقة. كانت ذراعه تتحركان طوال الوقت، بحثاً في عبّ عن المسدس الذي أبقاه بحكمة في المنزل، ويتلمّس أعناق الفنانين: هل ما زالت في مكانها، أم فقدتها مع الأشياء التي تومض أمام عينيه. يريد أحياناً إنزال جميع الركّاب من الحافلة، أو أخذهم كرهائن.

أنا يعجبني السفر أيضاً. كانت الحافلة تهتز باستمرار على المطبات، وتجمعت في مقاعدنا الخلفية شلّة جيدة من الركّاب، سحبنا قنيتين أخريين. فتح كريفونوف إحداهما بمهارة، بحيث بلّل ملابسي بالشراب. ساد مرحٌ بالغ. سكب لنا الرجل الذي يجلس بجوارنا شراباً مرّاً من صنّع محليّ. ما هي المحطة التالية؟ قرية سانكي آيل؟ لسنا بحاجة لها! كلا، لا بدّ من الذهاب إلى متجر في إحدى محطات توقّف الحافلة.

يسرع الوقت خطاه تدريجياً، وها نحن بالفعل نستدير نحو بلدة توراشيبيت، ولسبب ما ننتقل إلى حافلة من طراز «وآز»، ومن ثم أتمشّي في بلدة «أيرتاش». وتملّصت من الناس الذين أرادوا الإمساك بي، وتركتهم ورائي. ما زالت الدنيا مضيئة. وحلّ الظلام، حينما وصلت إلى منزل صديقي سانكا.

أيرتاش...

يشبه اندريوخا سانكو، أما النبي إبراهيم كما وصفه الكتاب المقدّس، أو فيديل كاسترو. يدعو زوجته سفيتلانا بلطف «ما ما»، ويشرح لها، وهو يشير لي:

انظري إلى هذا القرد: جاؤوا به لنا أمس مخموراً حتى الثمالة. ماما انظري إلى هذا النذل، مع أنه ذكي قال لأهل القرية، إنه ذاهب إلى سانكا. لو لم يخبرهم بهذا، لضربوه حتى الموت في مكان ما. يقول أهالي القرية إنك شتمت بكلمات بذيئة البلدة بأسرها، وفي منزل عائلة باداشيف نثرت النقود على الأرض. كيف وصلت لهم؟ لا تعرف. ومنّ الذي ذهب حافي القدمين في الصباح الباكر، لشرب الخمرة عند البحيرة؟ استيقظت، وإذا بي أرى آثار أقدام على الثلج... ماما صبّي له مزيداً من الشاي. لقد أحسنت، بإخبارهم أنك ذاهب إلي. إن أيّ ابن كلب سيقودك فوراً إلى منزلي. فكل أيرتاش بقبضتي، فأنا الرئيس عليهم هنا. إنّ الماما شاهدة على صدق ما أقول: جاء في الخريف من المدينة شخص برتبة عقيد، قمتّ معه بصيد السمك على مدى أسبوع، وقال لي: «أندريه سيرجيفيتش؛ إنّ البلدة بأسرها تعتمد عليك». سأعرفك لاحقاً على هذا العقيد. ولكن قل لي: متى سنتنقل للعمل في بلدتنا، ها؟ ألم يصبك الملل من التنقل والتجوال بين الجبال؟ انظر في الموضوع، إذ إنني سأبأشر الآن ببعض الأعمال. السنة الأولى للتطوير والتوسع، ومن ثم سأفتح حساباً بالعملة الصعبة. حقاً لدي الآن عملة صعبة، والخير يكفي الآن. هل سبق لك أن رأيت الين الياباني، كلا؟ سأريك إياه لاحقاً. ودّع الحديث عن الدولار الأمريكي. أنا أدفع ثمن الطحين بالمارك الألماني.

تسند سفيتلانا رأسها بيدها، وتُحملك في زوجها. دعا انديروخا سانكو قبل العام الماضي الجميع، للانضمام إلى طائفة «مجيئيو اليوم السابع» (كان يستعد لبناء كنيسة لهم في القرية)، ومن بعد ذلك دعاهم إلى الالتحاق بجيش القوقاز، ووعدهم؛ بمجرد التحاقك، يعطونك كيساً من الدقيق، كيساً من السكر، وثلاثة أكياس من الأعلاف. غير أنه تخلى عن دعوته، لأنه تبين أن قائد القوقاز «أهيل». ثم أعلن عن مشروع جمع الأعشاب الطبية، لزوار المنطقة. والآن يريد مزاوله بزنيس السياحة. ولكن تصرفه عن المشروع مشاكل طفيفة، مثل؛ لا يوجد لديه المال لاستكمال بناء البيت، ويتعين عليه العيش في البيت الخشبي القديم ذي الجدران المتداعية، وإنزال الضيوف الكثيرين في العلية. ويتعين عليه العمل لكسب المال، من مزاوله تصليح أحذية الجيران، وصنع الصناديق، وعلى العموم مزاوله الأعمال الوضيعة للحصول على القوت اليومي. ولكن من الممتع أن تكون في ضيافته!

أغادر بيت سانكا، وأذهب للبحث عن تولىك. وجدته جالساً القرفصاء محتضناً رأسه بيديه، ولا يريد كسر «الخمارية». حشرناه بمساعدة عدة أشخاص في سيارة متّجة إلى الإدارة المركزية. ولسوء الحظ، كان في الحافلة مكان واحد فقط، وسيتعين عليّ الذهاب إلى هناك بنفسى: ولا توجد واسطة نقل أخرى، وحتى الأسبوع القادم: إن الإدارة المركزية غير بعيدة، تبعد من هنا ثلاثين كيلومتراً، وحسب. سأنتقل بالسير على جليد البحيرة، في خطّ مستقيم، وحتى حافة الجليد، ومن ثم أمشي على طريق حجرية بمحاذاة الشاطئ.

كوردون ياغازان....

في منتصف الطريق من أيرتاش وحتى الإدارة المركزية، قررت العروج على أصدقائي فالكا مانيفيتش وزوجته ميلا، ولكنني وجدت في الكوردون ميشا بورودين فقط، لست أعرف من أين جاء، فهو رسّام من بطرسبورج. كان مانيفيتش وميلا قد تركاه لمراقبة المزرعة، وحلب البقرة، بينما ذهبا إلى مكان ما. أمضيت الليل هناك.

في المساء اشتعل الحطب وتطاير الشرر في الموقد، وطافت من الظلام على ضوء مصباح الكيروسين الخافت، قطع الحاجيات الشفافة الناعسة، وتجمدت مثل أسماك الليل. في هذا الضوء الخافت عرض عليّ ميشا لوحاته: مناظر البحيرة الذهبية. نسي أن يُقدم العلف للبقرة، وترك تقشير البطاطس لتناول العشاء، وداس القشور على الجريدة بحذائه العالي، ونقل اللوحات إلى الخلف، وإلى الأمام، ورسم بالكلام آفاقاً مدهشة لمستقبله. تحدّث عن عدد اللوحات التي سيبيعها للسياح بسعر لا يصدق، وكم لوحة منها سيهدي للنساء؟ من دون مقابل. وكيف سيشتري سفينة شراعية، أعتقد سفينة شراعية، أو شيء من هذا القبيل. انسدل شعره الأشيب على جبهته، ودفعه بيده بفارغ الصبر، وجرى كل ذلك بمصاحبة موسيقى «بينك فلويد» و«الجانب الآخر للقمر». وكان في هذا شيء من عدم الواقعية، تفوق عدم واقعية الحديث مع الذئب. على الأقل يبدو له، هو «الهيبي» الذي يدلّف إلى الشيخوخة، أنّ العديد من أهالي المنطقة الشيوخ مثله، يبدون بهيئة كائنات ليست أقلّ غموضاً من نمر الثلوج. وقيل النوم أراني رأس فأس متصدع، صنّع قبل الثورة، وفي مؤخرته بصمة، خمن أنها شعار الإمبراطورية الروسية:النسر ذو الرأسين. وعلى ما يبدو أنه قدّرها

بثمن أكبر من تقديره لأعماله، فترك عرضها لي فيما بعد، كما تُقدم الفاكهة والحلويات في نهاية المأدبة.

لا توجد طريق من يانغزان إلى الإدارة المركزية على شاطئ البحيرة. ويجب على المرء الصعود إلى التايغا. ليس لدي زحافات تزلج. وأنا أسير ببطء في الثلج، حتى ركبتني، محاولاً ألا أفقد رؤية شارات الطريق على الأشجار، التي بالكاد يمكن رؤيتها. ومن حسن الحظ أنّ الثلج هنا ليس عميقاً جداً. في الأعلى يصبح المكان أكثر استواءً، والأشجار الباسقة تحجب الأفق، ولا يمكن تخمين مكان الشمس في السماء الملبدة بالغيوم.

تنتهي شارات الطريق بالقرب من المخيم، حيث يجمع فالكا مانيفيتش أكواز الصنوبر في الخريف، وتحسباً لكل الاحتمالات أخذت من هناك غلاية صغيرة، ورحت أجوب المكان متثاقلاً، وأنا أحمّن الطريق. وفي المساء استدرت نحو البحيرة، وفي الفجوة المضئية بين الأشجار لاح الشاطئ المقابل البعيد. ولا يفهم أين كنت أسير طوال هذه الساعات الخمس، والآن فقط تجاوزت منطقة أرجانامي أي أنني أصبحت في منتصف الطريق، وانتابني هاجس كئيب، من أنني سأضطرّ لقضاء الليل في الغابة. النهار قصير، وقطعت، وأنا أخوض في الثلج المرتفع حتى خصري، إحدوداً ماء، وطفقت أبحث عن مكان، لأشعال موقد.

إن ملابس غير مناسبة تماماً للتايغا، ولم يكن لدي كيس النوم، ولا فأس، ولكن الآن لدي غلاية. واستخرجت أوراق بيرجينيا مسودة من تحت الثلج، هذا سيكون بمثابة شاي لي. وفي الحقيبة علبتان من سجائر «بيلومور»، إذن يمكن أن أبقى على قيد الحياة. أسرع بإلقاء جذوع أشجار الصنوبر المتعفنة، وأسحبها إلى مكان مناسب، تحت صخرة متدلّية، حيث لا تهبّ الرياح، أقوم بقطع شجرة التنوب بالسكين، لكي تكون فراشاً للنوم. من المؤسف أنني لم أتناول الفطور، فقد اعتقدت أنني سأصل إلى الإدارة المركزية في غضون ثلاث أو أربع ساعات. المهمّ ألا يكون هناك صقيع شديد جداً.

تبعث السخونة التي تشعّ بهدوء من الموقد الدفء، في جانب واحد من جسمي، والآخر يبرد قليلاً. وتتجه أغصان أشجار الشوح الحادة نحو السماء، ومرة أخرى أُحلق للقاء النجوم، التي تبدو كمنازل بحريّة وامضة. والأرض كالعادة، ومن دون ضجة تستكمل طريقها، وهي محاطة بالبرد. إنّ مثل هذه الصورة البسيطة لا تسمح بالشعور بالخوف أو القلق، وأنا أستريح. لقد ضللت الطريق تماماً خلال النهار، والآن لدي تصوّر ضعيف، في أيّ اتجاه سأسير غداً، بيد أن هذا لا يقلقني. أنا أستلقي على الأرض، وأنظر إلى الأعلى. ها هي كوكبة الخانات السبع؛ دلو «الدب الأكبر»، وهي تستدير ببطء، حول نجمة الشمال. ويتكون لدي انطباع، بأنني أُحلق في السماء مثل رصاصة بندقية. يالها من سرعة فظيعة! وترتعش قمم الأشجار قليلاً من التوتّر، وينهال الثلج منها، فيوخز وجهي.

استلمت الرواتب في الإدارة المركزية، ولكن يجب عليّ انتظار الحافلة ثلاثة أيام، لأعود إلى آيرتاش. ومن ثم أستقلّ مرة أخرى حافلة الركاب الذاهبة إلى المدينة. وسأستري في المدينة المواد الغذائية، وفق القائمة، وسألتقي بأليسا مرة أخرى، وسأقضي المساء بضيافتها كذلك بتوتّر

وبفراخ، وأودعها بحرج، وأتجه قدماً للأمام مهتراً في المسار المنغولي. وستبقى أليسا لتعيش شتاءها الخامس عشر في هذه البلدة...

كان مفهوماً منذ البداية، أنّ هذه الرحلة لن تسفر عن نتيجة طيبة، لكنني لم أستطع حبس نفسي في المنزل. لذلك سأمشي غداً في مجاري الجداول المغطاة بالثلوج، وأبحث عن شارات طرق جديدة، وأمضي للأمام بصعوبة.

كاراتاش

في مساء الثلاثين من ديسمبر، تعطلت حافلة الركاب المتجهة من المدينة إلى الناحية، في قرية كاراتاش، وذلك قبل ساعتين من وصولها إلى محطتها الأخيرة. وأعلن السائق في الساعة الحادية عشرة ليلاً أنّ الحافلة لن تسير إلى أبعد من ذلك، ووجدت نفسي منعزلاً في قرية غير مألوفة مع صندوق قناني الفودكا، وحقبية ظهر ثقيلة، وحقبيتين وثلاثة ملايين روبل في جيبتي. كان معظم الركاب من أهالي جمهورية ألطاي، فهرعوا إلى معارفهم في القرية، أو ارتحلوا في سيارات عابرة إلى مركز المنطقة. لم تلتقني أية سيارة عابرة، ولم يكن هناك سوى القليل منها. طلبتُ سريراً في الفندق، وأعطوني غرفة مع اثنين من التجار الأرمن، ومجموعة من الطلاب الذين يسافرون إلى منازلهم، لقضاء عطلة السنة الجديدة. كنت الروسي الوحيد بينهم. تأكدت في كل دقيقة مما إذا كانت النقود في مكانها، أو فيما إذا كان قد فتح أحد ما حقبية الظهر، وانتظرت بقلق لحظة إبداء الناس اهتمامهم بصندوقتي، حيث قناني المشروبات الروحية. كان لدى الجميع مزاج الاستعداد للعيد، وصدحت الأغاني في القرية، وبدأ العراك بين الناس.

جلبوا لي قذح بلاستيك مملوءاً بالفودكا، ومن ثم جاؤوا بالثاني. قررت التبرع بقنينة كونياك للجمهور، وجلست خلف المائدة. قطع الأرمن البطاطا المسلوقة، والجبن، ورووا النكات، وجلس الطلاب على رُكَب بعضهم البعض، وهم يراقبون بابتهاج، كيف أحتسي الفودكا. كانت بصحبتهم ثلاث فتيات. فتحتُ الصندوق، وسحبت أول قنينة منه. وبحلول الساعة الواحدة أتاح البعض لأنفسهم الاستلقاء بملابسهم على الأسرة. وطاف أمامي، وجه إحدى الطالبات، فسألتها:

- هل نخرج في نزهة؟

- ما بك؟ الجو بارد جداً كانت تبتسم، ويبدو، أنّ الفتى الذي بجوارها أيضاً.

- أدعو هذه الفتاة، ربما لديها رغبة.

- أنا أريد الذهاب معك. لنذهب.

بيد أن الفتاة اختفت في نهاية المطاف في مكان ما.

كنت مستلقياً على السرير، ووجهي إلى الأسفل، وراح الأرمني يهزني. كانت الشمس تغمر

الشارع.

- أوه، يا أخي، لنذهب، إن آخر حافلة تغادر المدينة.

مساء 31 ديسمبر، مرة أخرى أستقل حافلة ركّاب متجهة إلى المدينة. وأخذنا في محطة الحافلات قارورة شمبانيا لكسر «الخمارة»، وتوادعتُ مع الأرمن. في كل الأحوال لم يكن بوسعي العودة إلى الكوردون في ليلة رأس السنة.

فتحت أليسا الباب لي مرة ثانية، ولم أعرف ما إذا كانت سعيدةً، بظهوري أم لا؟

تجري في الشقة الاستعدادات على قدم وساق، للاحتفال بالعام الجديد، كانت على طاولة المطبخ سلطات غير مقطعة، وتعالى ضجيج الماء في الحمام. وتساءلني: هل يمكنك تصليح المكواة، لقد حدث فيها شيء، وتترددّ الولولة، والضحك من غرفة مغلقة، وهناك وعاء كبير مع بكر تصفيف الشعر على الموقد. تندفع الفتيات باستمرار عبر المطبخ، حيث أجلس، وأقشر البطاطس، وهن يمسكن بملابسهنّ على صدورهنّ، ثم يركضن إلى الشرفة، لمعرفة ما إذا كان الجوّ بارداً في الخارج أم لا. ينبغي إرسالني إلى المتجر مرة أخرى لشراء المايونيز، والاتصال هاتفياً بعشرة أماكن مختلفة، وارتدت إحداهنّ فستاناً مكويماً، ووجدت عليه بقعة فظيعة. لا بدّ من تشغيل الموسيقى بصوت عالٍ في جميع أنحاء الشقة، وكان التلفزيون قيد التشغيل. ويجب القيام بكل شيء في أن واحد؛ الجري في جميع الغرف، وفقدان النعال أثناء التنقل، والنظر في المطبخ لمعرفة الوقت، وستشعر في كل مرة بالرعب. ثم فجأة يجلسن على الأريكة، ويجمعن رؤوسهنّ معاً، وعلى مدى عشرين دقيقة يتهامسن بصدد شيء ما، ويقفزن، ويختنقن بالضحك.

أصبح كل شيء جاهزاً، مع حلول الحادية عشرة. نحن نذهب إلى أقارب أليسا، وأشرب مع الجميع نخب السعادة في العام الجديد. وبينما كانت الساعة تدق معلنة حلول العام الجديد، كانت الفتيات يُخمنن أمنية ما بينهنّ، وبين أنفسهنّ. كانت أليسا بفتنان قصير. أوصلتني الفتيات في الثانية عشرة والنصف، إلى المنزل، وذهبن لتهنئة بعض الأصدقاء، الذين كان ليس بالضرورة أن أصطحبهنّ إليهم. وسحبْتُ قنينة أخرى من صندوقي، ورحتُ أشاهد التلفزيون. وفجأة عادت أليسا. يستدير المفتاح بالقفل، وتترددّ أربع أو خمس قرععات لكعب الحذاء، يُصفق الباب. يطلّ في المطبخ وجهٌ نضراً من الصقيع والركض، وصارم جداً، أو ربما، غير مبالي، أو غير مهتم بشيء، من المستحيل الاحتفاظ بتعبير واحد لفترة طويلة، والعيون تشي بمشاعر عيد. إنّ الوقت قصير في هذه الليلة، ويتعيّن القيام بالكثير. لا بدّ أن يتسنّى لها أن تشرح لي، بأنها هرعت للمنزل فقط، لأنها تنتظر اتصالاً هاتفياً. وإنها ستنتظر خمس عشرة دقيقة، وإذا لم يتصلوا بها، فإنها ستقفل راجعة. لدي أيضاً وقت قصير؛ يجب إخفاء القنينة، وأكلُ ملعقتين من السلطة، كلاً، من الأفضل أن أمضغ علكة، بينما تلخع أليسا حذاءها في ردهة المدخل. ويبدو لي أن وجهي أحمرٌ للغاية من الشراب.

كنا نجلس أهدنا قبالة الآخر؛ هي على الديوان، وأنا على الأرض. وكانت أليسا تشكو بين الفينة والأخرى من عدم ورود المكالمات، ولايرن التليفون. ويجب عليها الذهاب. أنا أيضاً وجدت أن الوقت يمضي بينما ألتزم الصمت لسبب ما.

ولكن الشيء الأكثر إزعاجاً، هو أنني أعرف ما يجب أن أفعل. أعرف كل شيء حتى أدق التفاصيل. ينبغي أن أقوم بمجموعة معينة من الأفعال والكلمات والنبرات، التي تم اختبارها بمرور الزمن. إنها صيغة خوارزمية (الغورثمية) بسيطة وواضحة لا يمكن الخروج عليها. ستتابع الفتاة بعناية ترتيب تنفيذها، وتحقق مما إذا كنت قد أخطأت في تعاقبها. وإذا كانت معجبة بي، وهي معجبة، يمكنها أن تصح هفواتي الطفيفة. ثم تعترف لنفسها ولصديقاتها، بأن كل شيء كان غير متوقع.

يجب ترك القصص عن الذئاب والأشياء الطفيفة الأخرى لوقت لاحق، على سبيل المثال، عندما تحضر زميلاتنا في الفصل المدرسي، للتعرف معي، وشرب الشاي.

لكنني أفهم أن الصيغة الألوثرثمية يجب أن تتم بالهيام، يجب أن تكون مشحونة بالانفعال. وأنا أمطط الوقت، وأسكب لنفسني شراب «فيتياسكا»، والأسوأ من ذلك كله، أنني أحقق في عينيها.

وعندئذ تنهض، وترتدي معطف الفرو.

غادرت الحافلة إلى المنطقة في اليوم الثالث فقط. أخذت مرة أخرى أنطلع من النافذة المكسوة بالجليد، لمدة عشر ساعات متتالية، شعرت بالانزعاج عندما تذكرت كيف سكرت بشدة، بعد أن بارحت أليسا الشقة. لقد أنفقت الكثير من المال على الرحلة، لكنني لم أشتري منظر تصوير مزود بخاصية القدرة على الرؤية الليلية، شيء جيد جداً استخدامه عند استدعاء الذئاب.

لم يصدق كولكا أن الحافلة تعطلت، إنني قضيت الليل في كرتاش، وتخاصمنا، ولم يبق أحداً منّا بزيارة الآخر لمدة أسبوع أو أكثر، ثم ذهبنا إلى التايغا. وتواصلنا هكذا في الذهاب معاً، حتى حلول الربيع.

أنا أشعر بالارتياح معه، مع كولكا، لقد اعتدنا على بعضنا، وببساطة نحن نلائم أحداً الآخر. غالباً ما نلوذ بالصمت، كل واحد يعرف ما يجب القيام به؛ واحد يعد الحطب في الليل، والآخر يجلب المياه، أو يضرم النار. بالنسبة لي مثلاً، أحب القيام بالطهي في المساء، وهو في الصباح، على أي حال اعتاد هو على اليقظة مبكراً. يسوي الثلج، ويحضّر الشاي، ومن ثم يوقظني. حتى إن هذا الثعبان يوقظني بنوع من الشماتة في الشتاء، ويذكرني حتماً بالنساء، اللواتي أحلم بهنّ لكوني شاباً. على الأرجح أنه يحلم بنساء لا يقللنّ جمالاً عن نسائي.

بلى، نحن هنا كلنا بهذا الحال، نتسم بشيء من الغرابة. وجاء الجميع من المدن الكبيرة، وهرب الجميع من شيء ما، وتعلق الجميع بهذا العالم الصغير، نحن نحافظ على أسرارنا، وأحلامنا العذبة ومخاوفنا.

والأحلام تكفي: بعد أن يعيش المرء في التايغا، ويتجول وحيداً في الغابات يظهر لديه ما لا يمكن أن يتحدث عنه بأي ثمن للأخرين، ربما فقط لأقرب شخص له، وحتى في هذه الحالة سيفكر عشرات المرات قبل أن يبوح بما في ذاته. يسخر الجميع هنا من بعضهم البعض، يلغنون صخب

المدن، أو الأنظمة الجديدة. وعندما يتنامى نبات القنب في الكردون بشكل مفرط، نقوم معاً بحشّه من حول المرحاض مرتين خلال الصيف، ولا أحد يتدلّع. هناك ما يكفي من الانطباعات عن الحياة.

أمضينا الليلة في مارس، ونحن في طريق العودة إلى بيوتنا، في الكوخ الموجود في منطقة كاراجير، وفي وقت متأخر من المساء جأر أيلٌ قرب الكوخ، وفوراً راحت الذئاب تعوي. باحتفالية، وبشكل مروع. خرج كولكا إلى الشارع، لينظر، أمّا أنا فقد ارتديت بيد مرتعشة البلوزة، وسروالاً دافئاً. استحثتني الذئاب، أمسكت بي، جذبتني الأغنية، لاح لي أن القطيع هنا، بالجوار تماماً، تصوّرتة في وضوح تام، كنت أخشى من التأخر، ولم أبال بأن الهلال القديم، سيطلُّ فقط في الصباح، وأنا لا حول ولا قوة لي في الظلام، حيث الثلج فقط بالكاد يعكس ضوء النجوم.

- فكّر إلى أين أنت ذاهب، ومن ستري هناك؟

لم يستطع كولكا أن يثنيني عن عزمي، وصار يُلوّح بيده:

- على الأقل خُدْ بندقيتي، إذ لا توجد طلقات في بندقيتك، ما الذي يمكنك عمله هناك بطلقتين؟

ما الذي يجرنني على هذا النحو إلى هناك؟ لم أفكّر في ذلك. البندقية، هي البندقية. الأمر سواء، فليس من غير الممكن رؤية شعيرة التصوير في هذا الظلام، وإنما بالكاد يمكن رؤية سبطانة البندقية.

تغوص زحافتي في الثلج الذي يشبه السكر الرطب، لأن قشرة الثلج المتجمد هشّة، لا تدعمها. تركتها، وسرّتُ على مهل في الثلج العميق باتجاه العواء، ولكنه لم يغد قريباً. إنه يتعالى، ويصبح أكثر قوةً، ووضوحاً. وتحافظ الأصوات المنخفضة، والمرتفعة بشدّة على درجة موسيقية واحدة. يلتقطها البعض من البعض الآخر، وتتصل ببعضها وعلى هذا النحو يبدأ الصوت بالاهتزاز، يملأ الفضاء المحيط بأسره، وجسدي الساخن، والعالم المحيط البارد، بأكمله، وانطلقت الذئاب الفتية في وعوة، وهي تعوي بأصوات منقطعة، ساعية للانتظام في الجوقة العامة، ولكنها لم تتمكن من الالتزام بالتناغم المتوتر.

أنا أتصيب عرقاً، أتوقّف كثيراً، أختنق، أريد أن أجري، يبدو أن أغنية الذئاب تطفو بعيداً عني. أخشى إثارة مخاوفها بخطواتي، بقرعة قشرة الثلج المتجمدة. وفي الوقت نفسه أعرف أنها بانتظاري، من هذا تزداد شدّة انفعالي، وتسري قشعريرة في ظهري.

يترامى من الكوخ صوت إطلاق نار. تلوذ الذئاب بالصمت، وأسمع كولكا، وهو يشتم، ويطرق بشيءٍ ما في الغلاية الفارغة. انتظرت قليلاً، ومن ثم رجعت مقتفياً آثار طريقي. وسألته بغضب:

- لماذا أردت أن تحبط صيدي؟

- أيُّ صيد؟ في البندقية طلقة واحدة. ظننت أن هناك خمس طلقات، ومن ثم تذكرت أنني نظّفت البندقية، وأفرغت المخزن كلياً. وحينما أدركت هذا، أطلقت النار، وطرقت على الغلاية. وعلى العموم، أي شيطان دفعك إلى تلك الظلمة الدامسة؟ وكما يُقال، لتصبح شهيداً أحرق.

لا تزال يداي ترتجفان، ولا أعرف بنفسني، لماذا هرعْتُ إلى هناك، تقطعت أنفاسي، وسرْتُ قشعريرة في أنحاء جسدي. أجلس على السرير، وأسحب سيجارة.

كلا، لو كان القمر ساطعاً، لكان الوضع طبيعياً، ربما سارت الأمور على ما يرام. فكّر بنفسك! ما كان بوسعك أن تعمل هناك، وبمعينتك طلقة واحدة، إذن لقطعت الذئب أوصالك كذباة.

فتح كوكا ترباس البندقية، وأراني الطلقة الوحيدة، التي كانت في البندقية.

- لو كان هناك قمر، كما قلت، لكان الوضع مختلفاً. ولا سيما أنه لا يمكن رؤية شيء في الليل. وهذا الأحرق يذهب إلى هناك! والأهم من ذلك، أنه لا يخاف الذئب، بينما يخاف أن يلمس فتاة!

بلى، لقد أخبرتك، لم أكن خائفاً، لكنني لم أرغب بذلك فحسب.

- لم يرغب، لم يرغب. كيف يمكن للمرء ألا يرغب؟ رغبت، ولكنك كنت خائفاً، وحسب.

تفرّس كوكا في الطلقة الصفراء ذات الرأس الفضي، وهي بين أصابعه الثخينة، التي بانّت عليها آثار التدخين. وواصل القول:

- على العموم أنا شخصياً أخاف، على سبيل المثال؛ أخاف العيش في المدينة، وأخاف من شيء ما آخر. هل تذكر في العام الماضي عندما راوحنا في مكاننا، على منحدرات أويوك، وتدحرجت مع الانهيار الجليدي؟ ولم يبق إلا القليل، لتحلّ نهايتي. ولكن لم ينتبني الرعب، بينما لا أستطيع عبور الشارع، حينما أكون في المدينة. أخاف!

لم يلتحق ابنه الأكبر بالمدرسة، وتولّت زوجته بنفسها في المساء، تعليمه بموجب الكتب المدرسية بالمنزل. إنهما يذهبان مرتين في العام إلى البلدة، لكي يؤدي الامتحانات الرسمية. لكن الزوجة ترفض تعليم الابنة، ربما سيتعيّن على كوكا التحلي بالشجاعة، والذهاب للسكن في المدينة. وأنا؟

وقال لي:

- تقول أحببتُ الصيد عليك! أنا أحببت الصيد على الذئب، وليس عليك.

كان كوكا طيلة الوقت يهز رأسه باستنكار، وأضاف:

- فيما يتعلّق بأليسا أقول لك على الفور: لا ينبغي الارتباط بالمراهقات.

دار عرض الأزياء ألكسندر غاباكوف

كنتُ آنذاك شاباً، أو بدقة أكثر على مشارف الثلاثين. وهذه السنّ تعتبر في الوقت الحالي هي سنّ النضوج المناسب جداً لثري شهير، أو نجم تلفزيوني، ولكن في زمن اللامبالاة³² لم ينقل ذلك كاهلي، ولا أولئك الحمقى الذين كانوا في مثل عمري أو الأكبر سنّاً. كنّا عاطلين، وأحدنا سجّل نفسه في سلك المهندسين، والآخر في سلك الباحثين العلميين الأدنى مرتبة، ورفقنا عن أنفسنا بمختلف الأمور التافهة، مثل المشاركة في البرنامج التلفزيوني «نادي المرحين والفطنين»، أو في مسرح الهواة. لم نبذل أقلّ جهد في أي عمل، متصوّرين أن الحياة تسير في طريقها المرسوم. كنّا جميعاً من أصحاب الشعر الطويل، رغم أن الكثيرين أصابهم الصلع، أو أصبحوا يشربون أصناف النبيذ الفظيعة الرخيصة والقوية، وعندما يسكرون، يردّدون الأغاني النابعة من القلب بمصاحبة القيثارة. كانت علاقاتنا بالنساء مشوشة، وانفعالية وكلّ علاقاتنا الإنسانية الطبيعية المعقّدة معهنّ، أسفرت عن الخيانات الزوجية التي لا حصر لها، والطلاق، والزيجات الجديدة السريعة. فما الذي يمكن مزاولته، حينما كانت جميع الأعمال، على حد سواء، تبعث على اليأس؟! كنّا نبرر عدم مبالاتنا، باليأس حصراً. بالطبع لم نفكّر حينها، بمثل بهذه الأمور، ولكن، ربما شعرنا بها في الجدران حولنا. في أي جانب كان هناك جدار، الذي يبعد عنّا بمسافة يد ممدودة. ولم يبق إلا المراوحة في المكان على أطراف الأقدام، سوية مع الجميع كنّا نشعر بالضيق والاختناق، ولكن كان هناك دفء، ربما لذلك كانت الأجواء مريحة.

أنا أفتخر بأثر رجعي، بكوني أحد أولئك القلائل، الذي حاول، إن لم يكن الإفلات من هذه الحظيرة، فعلى الأقل شقّ طريقه في مكان فيه فسحة من الحرية بهذا القدر أو ذلك، فتركت معهد البحوث العلمية، والتحقت بصحيفة الشبيبة المحلية كمُصوّر صحفي خارج الملاك. وبطبيعة الحال كنت أصوّر حينها بلا احتراف، وكيفما اتفق. غرقت في الديون، واشترت من متجر لبيع المنتجات المستعملة آلة تصوير من طراز «زينيت»، وزوجاً من العدسات، واشترت في مجلة «التصوير الفوتوغرافي السوفيتي»، وباشرت بتقليد نماذج صور المصوّرين من دول البلطيق وبولندا الذين لا يمكن بلوغ مستواهم. إن الجريدة التي تنشر عدداً قليلاً من الصور المعتمة، الملوثة بصبغ المطبعة للشباب الطليعيين في المنافسة الاشتراكية، لم تكن بحاجة لذلك المستوى من الاحتراف. ولكن منحوني هوية الصحيفة، احتراماً لطموحي الفني، وكنت سعيداً بها، ومزهداً. وساعدني نمط الحياة الفني، على الطلاق أخيراً من زوجتي، والتخلّص من المشاجرات اليومية، ولم يكن لدي أطفال لدفع النفقة لهم، لذلك أصبح بميسوري العيش بأجرتي الضئيلة، حتى إنني شاركت بانتظام مع الآخرين، بشراء قارورة نبيذ أبيض قوي لتناولها بعد أن تتمّ الموافقة على دفع عدد الجريدة للمطبعة...

ولكن تكفّل والداي بمعيشتي، أنا الرجل الراشد، فبعد أن طلقْتُ زوجتي، عدت إلى الشقة الصغيرة المُكوّنة من غرفتين، التي حصل عليها والدي من المصنع، وكان والدي، الذي أمضى وقتاً طويلاً بشكل مؤلم للوصول إلى منصب نائب رئيس الورشة، الشاق، ينظر لي بتعجب مقرون بالقرف إلى حدّ ما، وأمّي بالشفقة، لكنني لم ألاحظ ذلك، لانشغالي بأمرٍ أخرى.

تكيفت مع الحياة في تلك المدينة الكبيرة الجنوبية الصناعية، والمركز العلمي للمنطقة، كما يتكيف المرء مع الجوّ في مطبخ مهمل.

كان لدي معارف كثيرون في المدينة، حتى إنّي كنت أبادل التحية مع أحد المارة، بعد كل متر أقطعه في الشارع الرئيسي، وألتقط بارتياح النظرات الفضولية، التي تستهدف حقبة معدّات التصوير، التي تهرأت حتى احمرار الجلد الخشن، من كثرة استعمالها لفترة طويلة.

هبّت ريح دافئة، وأنا في طريقي إلى مكتب الصحيفة، وارتعشت ظلال أوراق الشجر على الإسفلت، وتعالى صوت جرس الترمواي القادم من جهة الجبل، ولم تمتد برامجي إلى أبعد من المساء القادم.

لقد اختفى الآن ذلك الزمن، وبقيت فقط أسماء الأشخاص التي تطفو أحياناً في ذاكرتي، من ذلك الغسق إلى الزمن الحالي الساطع عديم الشفقة، كالضوء الذي يكون في الصباحات، فأتذكر الأسماء، أما الأشخاص فأتعرّف عليهم بصعوبة.

بعد اجتماع قصير لهيئة التحرير، اعترضني في الممرّ السكرتير التنفيذي للجريدة. وأنا لم أستلم في ذلك اليوم مهمّةً للتصوير لصالح الصحيفة، وكنت أعتزم التملّص، والتوجّه إلى قصر تسجيل الزيجات لتصوير الأعراس، وهو عمل إضافي لزيادة دخلي. ولكن فيتيا مانتسيفتش، المسؤول عن كل شيء في الجريدة، بما يتفق وتسمية منصبه، أمسك كتفي بيده القصيرة التي تشبه يد القرد. كان يعيش وحيداً، وبالنسبة للشباب كان عجوزاً. عاش، بكل معنى الكلمة، أياماً بكاملها في

مقرّ الصحيفة، مادام رئيس التحرير في الاجتماعات العامة، واجتماعات اللجنة الحزبية للمدينة. وفاحت من فيتيا دائماً رائحة شخص، لم يستحم بعد مبيت ليلة، لهذا السبب كانت فتيات التحرير، ولاسيما الأرستقراطيات من القسم الثقافي، يحولن أنوفهنّ عنه، على الرغم من شعورهنّ بالشفقة على الكهل الأربعيني. بيد أنه لم يكن غير مؤذٍ إلى هذا الحدّ. فكان يصرخ بوجه الصحفي بأعلى صوته، عند عدم تسليمه المادة الصحفية في موعدها المحدد، وكان يحب ترويح القيل والقال والشائعات، وفي عمود «حياة الكسمول»³³، حيث يجتمع شباب، يعرفون الحياة، وليس حياة الكسمول وحدها، وكانوا وقحين، يقولون إن مانتسيفتش يتلاعب في أجور العاملين في الجريدة.

دفعني مانتسيفتش هذا إلى الحائط قائلاً:

انتظر يا شيخ، هناك عمل إبداعي، قم بعمل تحقيق صحفي من دار الأزياء، أنت تعرفها، الواقعة في شارع فوروشيلوف؟ أرسلوا من موسكو إلى هناك مديراً فنياً جديداً، أو كما يسمونه رئيساً، من الشباب... يقولون إنه عبقرى. إنه من مدينتنا، ولكنه خدم في الأسطول البحري، ثم درس في تالين، وشارك كما يقولون في مؤتمر للموضة في صوفيا، هل يمكنك أن تتصوّر يا شيخ؟ اذهب إلى هناك، والتقط أكبر عدد ممكن من الصور، وهناك فتيات عارضات أزياء، وما إلى ذلك، وعلى العموم... من ثم سأرسل صحفياً من القسم الثقافي لإجراء مقابلة، سنكرّس لهذا صفحة في عدد يوم السبت. سيكون موضوعاً عصرياً، أليس كذلك؟ لا سيما، وأنه من مدينتنا، عبقرى منا، ها؟

لقد تمّ القضاء على مشروع قيامي بعمل إضافي، لكن كان من المستحيل عليّ الرفض، وبنفسي لم أرغب في ذلك، فمهما كان، إنّها مادة مثيرة للاهتمام، وبعد فترة يمكن أن أرسل بعض الصور إلى المجلة. تصوير الموضة بالفعل يتطلب مستوى رفيعاً، عملاً جاداً...

كنت أعرف القصر الكائن في شارع فوروشيلوف. في مثل هذه القصور الصفراء والخضراء ذات الأفاريز البلاستيكية المتداعية، والشرفات المربّعات الكبيرة، التي التوت على درابزوناتها الصدئة أفاع، وأزهار معدنية، يوجد نصف إدارات المؤسسات الصغيرة للمدينة، ومختلف المكاتب كتسجيل عقود الزواج والأرشيفات. ولكن قبل ستة أشهر جرى استبدال تسمية «مشغل الخياطة ايديفشيا رقم 1» السابق في شارع فوروشيلوف بـ«دار عرض الأزياء الإقليمي، لإدارة الصناعات الخفيفة، واللجنة المحليّة للصناعات المحليّة، التابعة للجنة التنفيذية الإقليمية»، واحتلّت الدار أجمل مبنى من مباني تجار العصر القيصري. وكانت شرفته مدعومة بتمثالي «عذارى كارواي» اللذين احتفظا بشكلهما الأصلي، وسلّم من الدمار أيضاً الباب الأصلي الأمامي المصنوع من خشب البلوط الداكن المحفور، القائم بينهما.. ربما هناك أيضاً شيء من هذا القبيل باقٍ في داخل القصر...

وهتف مانتسيفتش في إثري قائلاً:

- سأتصل هاتفياً، بالمدير، نسيت الآن اسمه، ها، بستومين، حتى ينتظرك، ويستعدّ!

وعلى هذا النحو سمعت لأول مرة بهذا اللقب.

بعد مضي نصف عام تقريباً، كنت في وقت متأخر من مساء نوفمبر، في حالة سكر شديد، بعد مشاركتي في مأدبة شرب جماعية بمكتب التحرير، رحلت أخرج قدمي في مركز المدينة تحت وابل مطر جليدي. لقد حان الوقت منذ فترة طويلة، لأركن للهدوء، وأنتظر الترموي والعودة إلى المنزل، لكنني لم أرغب في ذلك. وليس ثمة مكان أذهب إليه، ومن سوء الحظ، أن شلة معارفي الدائمة التي اعتدتُ السهر معها، أعلنت فترة استراحة من جلسات السكر، أما صديقتي الطيببة تانيا، التي أحببتي حباً جَمّاً، وكنت أبقى لديها حتى الصباح في مثل هذه الأحوال، فقد كانت في المناوبة بمستشفى المدينة، وجلستُ في غرفة الانتظار هناك، تستقبل التعساء ليلاً.

انعطفت إلى شارع فوروشيلوف، لسبب غامض. لم يكن لدي أي عمل أقوم به هناك على الإطلاق، كان بميسوري في النهار أن أذهب من دون موعد، إلى يوركا إستومين للثرثرة معه، وتصوير مشاهد من سلسلة «في دار الأزياء»، التي استعدتُ لإرسالها، ليس لهذه أو تلك من المجالات البسيطة، وإنما إلى مجلة «الاتحاد السوفياتي». كان يوركا عادةً يغلق باب مكتبه الصغير، الذي شغلته بالكامل تقريباً طاولة الكتابة، التي بقيت من مالك المبنى الأصلي، وفُرشت عليها قطعة جوخ خضراء رتّة، وأخرج من الخزانة زجاجة كونياك، فقد كان يعيش في بحبوحة...، ولكن الآن بالطبع لم يكن هناك أحد في القصر، غير الحارس.

لقد أصبحت وإستومين خلال هذه الأشهر من الرفاق الطيبين. أصبحنا رفاقاً طيبين بالذات، فلم تنشأ بيننا الصداقة الحقيقية، التي تقتضي الصراحة التامة والحرية التامة، وعدم الشعور بوجود شخص غريب أمامك. فلم يحدث ذلك. وعزوت ذلك إلى ماضيه في تالين المدينة الأوروبية، وحاضره المتألق؛ فمهما كان، هو مدير فني! ولو كان على مستوى المحافظة، ولكنها دار عرض الأزياء...، وذهب إلى صوفيا... وكتبْتُ عنه مجلة «فن الديكور» بأنه: «أمل المدرسة السوفيتية لتصميم الأزياء»... وظهر يوركا شاباً وسيماً، عندما نُشرت مجلة منتوجات دار عرض الأزياء صورته، يشعر مجعد أشقر، ووشاح على الكتف، ومعطف ضيق طويل، وينطلون من طراز بيل بوتومز تقريباً، وحذاء بلون الخشب الأحمر ذو رقبة طويلة، تصل للركبة، وعندما كان على منصة العروض، سار بسرعة، كما لو لم يلاحظ نظرات الإعجاب، لقد اعتاد على الشهرة، واهتمام الجمهور به، كفنان كبير...، لذلك أدركت المسافة بيننا، التي جعلني هو فجأة، أشعر بها، وكأنها طبيعية ومبررة تماماً. ففي نهاية المطاف مَنْ أنا، سوى مُصوّر مبتدئ في مدينة صغيرة، مَنْ يكون هو؟!!

وإذا توخيتُ الدقة في الحديث، لم تكن هناك مسافة بيننا، وإنما بعض التوتر. وبدا لي أحياناً أنه كان يخجل من شيء ما، ويخشى أن يقول كلمة نافلة، ويخاف ألا يكون محمياً، وكأنه يشعر بتهديد مُستدام. على هذا النحو يتصرّف المراهقون، فقط. إنهم يصبحون عدوانيين، ووقحين، أما هو فقد يصبح فجأة متكبراً ورسمياً، وبشكل عام: هو يوري بيتروفتش إستومين، المدير الفني. وهذا لم يمنع من مخاطبته بعد مرور دقيقة بـ«يوركا»³⁴، إنه شاب منّا تماماً، مستعد في أي لحظة لأن

يصبّ، ويشرب قدحاً، ويروي مزحات غير لائقة، ويضحك بملء شذقيه... كان يبدو أصغر مني عمراً، رغم أنه كان يكبرني بثلاث سنوات.

لم أفكر بالطبع في ذلك الوقت بهذا الشكل السايكولوجي لأنني، كما سبق ذكره، لم أمعن التفكير بأي شيء على الإطلاق. في الواقع كنا جميعاً مثقفي ذلك الزمن، من مُدخني الغليون على طريقة همنغواي، ومستمعي موسيقى الجاز من أجهزة التسجيل، شبّه نبات. لذلك بقينا على قيد الحياة، ولم نفقد عقولنا.

لكن المسافة بيننا بقيت طبعاً، وفي غضون ذلك تكشّفت أمام عيني بكل تفاصيلها، كما تهيأ لي، قصة غرام بين الفنان مصمم الأزياء يوري إستومين، وجالينا كونونينكو، التي التحقت بالعمل كمُنظّفة في دار عرض الأزياء قبل شهرين، وتعمل الآن بموجب عقد رسمي كعارضة أزياء. وما عداي لاحظ هذه القصة جميع الحياطين، ومفصّلات الأزياء، وجميع السيّدات رفيفات المستوى، اللواتي فصلن الفساتين عند إستومين بشكل رسمي من خلال إدارة المحاسبة، أو سرّاً باتّفاق خاص، فضلاً عن جميع سكان المدينة، الذين يميلون بشكل طبيعي إلى متابعة الأحداث من هذا النوع. لذلك لم يكن هناك ما يثير الدهشة في أن بطل القصة الغرامية تصرّف بحذر، ومن وقت لآخر انعزل عن العالم أجمع. والشيء الوحيد الذي جرحني بعض الشيء، أنه نسّبتني إلى هذا العالم المعادي، ومن ناحية أخرى، من أكون أنا بالنسبة له؟ لقد تعارفنا منذ فترة قصيرة، ولم نلتق كثيراً.

وكانت قصة جالكا³⁵ كونونينكو الغرامية مدهشة، بمعنى أنها تشبه إلى حدّ بعيد قصص بعض الأفلام السينمائية الفرنسية أو الإيطالية، التي ترتقي بها البطلة السلم الوظيفي، وتشقّ طريقها في الحياة من الفقر إلى الإثراء.

لقد جاءت من مركز منطقة نائية، بهدف محدّد للغاية؛ أن تصبح عارضة أزياء. كانت قد رأت على غلاف مجلة «اوجونيوك» صورةً لفتاة جذّابة، وقرأت في المجلة عن حياتها، وقفت لفترة طويلة أمام مرآة متهالكة، واتخذت قراراً حازماً. كانت تشعر بكره عنيف لذلك المكان الذي وُلدت فيه، للشوارع المتربة التي يتجول فيها الدجاج القذر، والرقص الكئيب في النادي الكائن تحت قبة كنيسة ذات ثقب، وغرس الشتلات في الربيع، وحفر البطاطس في الخريف، والعمل الزراعي الطوعي الذي ينتظرها في المزرعة، بعد انتهاء الدوام في المدرسة، لقد عذبت هذه الكراهية، منذ بلوغها سنّ الخامسة عشرة. وبعد حصولها على شهادة المدرسة الثانوية، أخبرتها والدتها، التي انعقد لسانها من النبا، بأنها ستسافر إلى موسكو للدراسة لتصبح عارضة أزياء، وكانت قد كذبت على أمّها بوعي، حتى تقبل الوالدة برحيلها إلى مكان لا عودة منه. بيد أنها قررت عدم السفر إلى موسكو، فضلاً عن أنه لم يكن لديها ثمن تذكرة إلى هناك. فذهبت إلى مركز المقاطعة بعد أن سمعت من صديقاتها اللواتي زرن المدينة، عن أن هناك داراً لعرض الأزياء، تقوم بعض الأحيان بتقديم عروض أزياء، إذن هناك عارضات أزياء. وخرجت هناك في الصباح من حافلة الركاب، وتوسّلت من موظفة مكتب المعلومات في المدينة، لإعطائها العنوان، وبعد ساعة كانت تقف عند باب دار عرض الأزياء. ومن حسن حظ جالكا، كانت عاملة التنظيف قد اعتزلت العمل، قبل فترة قصيرة.

كانت تنام كما هو مقرر، تحت الدرج، مع المماسح. لم تشغل مثل هذه الأمور بال إستومين، لكنها استمالت عطف مديرة الشؤون الاقتصادية للدار، ووعدها بأنها ستذهب إلى الحمام كل ثالث يوم، ومن حسن الحظ، أنّ مبنى الحمام كان قريباً، في شارع فوروشيلوف نفسه. إنّ الخيّاطات مُفصّلات الثياب، نساء عصبيات، وميّالات للمشاحنة، وقد اعتدن بالتدريج على وجودها، ولم يعاكسها، فقد كانت تنظّف، وترتّب بمثابرة.

بعد شهرين أصبحت شاهداً على ترقيتها الأسطورية.

حدث هذا عندما احتفلنا في مكتب يوركا بمناسبة نجاحي الباهر، فقد نشرت مجلة «التصوير الفوتوغرافي الروسي» في قسم بريد القراء صورة عارضة أزياء تقف أمام مرآة، ومُفصّلة الثياب تزحف على ركبتها، لتسوّي ذيل الثوب. صوّرت طالبة كئيبة اللسانيات لينكا نادوتشي من الخلف، وكانت أجمل عارضاتنا، ولاح وجهها بشكل غامض، لكن التعب بدا واضحاً تماماً من خلال انعكاسات المرآة. ووضعتُ عنواناً بسيطاً على الصورة، وأنا أضع اللمسات الأولى للسلسل الذي أنوي القيام به: «دار عرض الأزياء». هتّاني زملائي عند التقائهم بي في المدينة، وأكدوا بشكل خاصّ على شجاعتني. يا شيخ، أنت مقدّم، لقد شققت طريقك بهذا العمل، الفتاة مُتعبّة، هذا ظاهر، كيف سمحوا لك هناك، بالتقاط مثل هذه الصورة، الموهبة دائماً تشقّ طريقها، هذا صحيح يا شيخ؟ تلقيت التهاني، وشعرت بالنشوة من شدّة السعادة، ولم ألق بالآ إلى أن المسؤولين في قسم التصوير في الجريدة كادوا أن يتوقّفوا عن تكليفي بالواجبات، أما في إدارة المحاسبة للجريدة، فقد كانت مقابل اسمي في كشوفات المحاسبة، أجور مخزية.

بدأ يوركا احتفالنا بصبّ الكونياك المولدافي، فلم يكن يشرب أي شيء غيره، وكنا على وشك قرع الأقداح، عندما انفتح الباب، وضربني من الخلف، سكبت الكونياك، وكدت أسقط من على المقعد الذي جلست عليه. وعندما استدرتُ رأيت بالتحديد لينكا نادوتشي، التي هرعت إلى المدير، مباشرة في الشكل الذي تقف فيه عارضات الأزياء، لساعات وهن يشمرن أذرعهن مثل الصليب، أثناء أخذ القياسات بملايس داخلية فقط، وأحذية ذات كعب عالٍ. وفي الواقع في هذا تنحصر وطيفتهنّ الرئيسية: الوقوف ساعات شبه عاريات للقياس، حتى يكون مقياس الفستان مناسباً بشكل أفضل، وفي أحذية ذات كعوب عالية. في الوقت نفسه تعناد الفتيات، وغيرهنّ من الأشخاص في دار عرض الأزياء، تماماً على العري، ولا يلاحظ أحد ذلك، وقد كنت، أنا الغريب لحدّ ما، أشعر بعدم الارتياح.. لكن هذه المرة فوجئت، ليس من منظر مفاتن لينكا المتواضعة، وإنما من شرر الغضب الشديد، الذي تطاير من عينيها. وهتفت الفتاة الجميلة من خلال التهنّات، وضربت بقبضتها على الطاولة حتى قفزت الزجاجة، وبالكاد استقرّت فوقها:

- يوري بتروفيتش إما أنا أو هذه الكلبة! هي عن قصد، عن قصد... أنا مصابة بالتهاب القصبات! وأقف عارية! وهي تفتح النافذة... الكلبة! أو أنا...

في كل الأحوال أيامذاك، لم تستعمل الفتيات عادةً، كلمات بذينة في حضور الرجال، ولم يظهرن عاريات في المكاتب الإدارية من دون ضرورة. تضرّجت سحنة يوركا بالحمرة، إما من الحرج، أو من الغضب، باعتباره مديراً.

ضرب هو أيضاً الطاولة بقبضته، ولكن بحذر، وحالاً أخذ الزجاجاة من المنضدة، ووضعها على الأرض، وبادرها:

- نادوتوشي، أنت... أوقفي هذا على الفور!، ما الأمر... مَنْ هي؟ على الأقلّ غطي نفسك، يجلس معي شخص من الجريدة...

لوحث لينكا يدها باستخفاف، لم تعترزم تماماً، أن تستر نفسها أمام شخص من الجريدة.

- نعم أعرف، يوري بتروفيتش، أقول لك، إنها عن قصد تريد أن أصاب بنزلة برد! ووخزتي عمداً بالدبابيس! سأقدم طلباً باستقالتي!

عندئذ ارتكبت خطأ، حتى أنا، الذي تعرّفت على إستومين منذ فترة قصيرة نسبياً، أدركت أنه لا يطبق تماماً تذكيره بأي شكل من الأشكال بوظائفه الإدارية. ذات مرة مزّق أمامي إلى قطع صغيرة، ورقة هامة من رئاسة اللجنة التنفيذية، فقط لأنه جرى تسميته فيها ليس بالمدير الفني، بل المدير. ومن ثم راح ينتشل من سلة المهملات القصاصات، ويُعيدُ ترتيبها، ولكنه في البداية مزّقها.. والآن انفجر غضباً...، وفجأةً أطلق صرخة تصم الأذان، بصوت رئيس عرفاء أسطول بحري:

- الطلب! سأريك الطلب! ربما يمكننا عقد اجتماع نقابي يُكرّس لشكواك؟ اغربي عن وجهي حالاً؟

نظرتُ إلى وجه لينكا، وأشحت بوجهي بعيداً عنها. فكّرت في دخيلتي: إذا تشبّثت بشعره، فسيتعيّن عليّ سحبها بعيداً، ولكن كيف أسحب الفتاة العارية؟! في تلك السنوات كُنّا جميعاً نميل إلى رؤية الجانب المضحك فقط في أي موقف.

ولكنها لم تشبّث به، وبدل ذلك تأملت هنيهة، وركلت بطرف حذاءها القنينة الموجودة على الأرض بكل قوتها، فطارت، وتحطّمت إرباً إرباً على الجدار، وغمرت الجدار بأكمله بسائل بلون البول. بعد ذلك بصقت لنا نادوتوشي، أجمل فتاة في المنطقة، بين قدميها بصقة كثيفة، واستدارت، وخرجت، وصدفت، الباب لدرجة أن الجص المتساقط من العتبة، خشخش في الهدوء المفاجئ.

وفكّرتُ، في نفس الروح الساخرة، لم يعد ما يمكن شربه.

إنها تشاحنت مع المُعلّمة... مُفصّلة الملابس أوضح لي يوركا، وهو ينظر جانباً باشمئزاز إلى السيول الصفراء، إنها قصة معتادة... تكتب عريضة، الحمقاء...

وفي هذه الأثناء فُتح الباب من دون ضجة، ولاذ يوركا بالصمت.

ولكن لم يحدث أي شيء فظيع، فقد تسلل من خلال الفتحة كائن في بدلة رياضية زرقاء عتيقة، وبلوزة خضراء محبوكة، ومنديل وردي انزلق حتى العينين، مع خرقة ومغرفة، ودلو في اليد باختصار، عاملة تنظيف، لا يمكن رؤية شيء في هذا الكائن.

سأل الكائن:

هل سأقوم بالتنظيف؟

وبدون انتظار الجواب، طُفقت بجمع الشظايا، وغسل سيول الكونياك من على الحائط.

تزرح يوركا مع الكرسي، حتى لا يعيق المُنظِّفة. لم يعد هناك ما يمكن النظر إليه، فنظر كلانا إلى عاملة التنظيف. انتظرت بفارغ الصبر متى ستبارح المكتب، لأقرر مع يوركا، هل ينبغي عليّ أن أذهب لجلب قنينة جديدة، أم نغادر الدار معاً، ونذهب إلى مطعم «الجنوبي» في الشارع الرئيسي في المدينة، كي نواصل الاحتفال الذي كانت بدايته فاشلة. مازلتُ لدي نقود من أجور تصوير حفل العرس الأخير...

بيدو أنني فقدتُ يوركا للحظات من مجال النظر. وفاجأني سؤاله:

- ما القياس.. ستة وأربعون؟

وكان واضحاً أن السؤال لم يُوجّه لي.

اعتدلت عاملة التنظيف، وأومات بصمت. الآن فقط رأيت وجهها.

وتابع إستومين:

- كم عمرك؟

- سبعة عشر عاماً ونصف.

حرّكت المنديل بمعصم يدها المبلّلة، وفكرتُ بقناعة: إنّ لينكا نادوتشي وظيفتها فقدت بالتأكد.

ما اسمك؟

أجابت بلهجة محلّية، حيث قلبت الجيم إلى هاء:

- هالا.

وبعد أسبوع استأجرت جالا غرفة في منزل خاصّ، يقع في أطراف الضفة اليسرى الأخرى للمدينة، وأخذت تأتي لدار عرض الأزياء بالترمواي ويستغرق طريقها ساعة في اتجاه واحد.

... أنا لا أعرف ما الذي دفعني في شارع فوروشيلوف إلى القصر المألوف لي، وأنا أجر جر قدمي تحت المطر، أنا مبلّل، ومتجمد، وكما توقعت، كانت جميع نوافذه مظلمة، أضاءت

فقط فجوة تحت الباب المنقوش، يبدو أن الحارس كان مستيقظاً، ويعاني من الأرق. بحق الجحيم، قلت لنفسي، عليّ أن أجد سيارة، وأعود إلى المنزل، وأنام، وإلا سوف أصاب بنزلة برد.

وفي تلك الأثناء لاحظت، بقعة ضوء عند الزاوية تسقط على الإسفلت المبلل. وهناك في الفناء غير المُسوّر تطلّ نافذة مكتب يوركا. هناك احتمال كبير، بأن يكون الفنان جالساً أمام الرسوم التخطيطية، وقنينة الشراب المولدافي على منضدته...، وبعد أن قمت بالدوران خلف الزاوية، ابتعدت أكثر للوراء، لكي أقتنع، إنّ الضوء كان بالفعل ينبعث من مكتب يوركا، وتسَلّقت على بكرة الكابل التي كانت دائماً مطروحة هناك.

لم يخطر لي حينها، إنّ من غير اللائق اختلاس النظر على الآخرين. كنّا جميعاً وقحين، لأننا كنّا بسطاء، وحتى التجارب المختلفة للغاية التي عاشها الكثيرون منّا، لم تجعلنا ناضجين. إنّها كانت بلاد طفولتنا الأبدية.

رأيت يوركا جالساً خلف الطاولة، وكانت هناك بالفعل قنينة كونياك أمامه. لكن لم تكن هناك رسوم تخطيطية على الطاولة، بيد أنني استطعت أن ألمح كأسين. جلس وظهره إلى النافذة، وكان من الواضح أن إستومين يتحدث مع شخص ما، لم يكن بميسوري رؤيته، فقد جلس إما في مدخل المكتب، أو في الزاوية عند الباب، ولكن لم أشعر بالحاجة إلى رؤية مُحاور يوركا، إذ لا يمكن أن يكون هذا الشخص غير جالكا، وفكّرت، من الممكن أنها تأخرت عن موعد آخر ترمواي. ولكن كيف يبقيان هناك مع وجود الحارس؟ وعمّ يتحدث الفنان الأوروبي مع فتاة «من مركز المقاطعة»؟ على الأرجح إنه يشرح لها، كيف عليها أن تسير بشكل صحيح على منصة عرض الأزياء، وعلى العموم ما ينبغي عليها أن تعرف، وكيف تتصرّف عند كل حالة.

وفي لحظة ما ساورتني رغبة شديدة في أن أطرق زجاج النافذة، ففي نهاية المطاف، نحن لسنا غرباء تماماً، وما في ذلك، إنّ علاقتهما ليست بسرّ فطيع... ففي نهاية المطاف إنه أعزب، وهي فتاة راشدة... وفي نهاية المطاف، سنجلس ثلاثتنا، ونشرب...

لم أكن أرغب في شرب الكونياك، بقدر رغبة الدخول في هذه الحياة، في هذه السعادة، في هذه المشاكل، في الدفاء، واللون الأصفر خلف النافذة المبلّلة.

ولكنني عدت إلى رشدي، فإستومين ليس ذلك الشخص، الذي سيفرح بمثل هذا الضيف. نزلتُ إلى الأرض، وفجأة شعرت بالارتباك، خشيت من أن يداهموني وأنا في حالة التلصُّص، فخرجت إلى الشارع. وظهرت من زخات المطر سيارة تاكسي بضوء أخضر خافت، كما لو أنها كانت تنتظرني، وعقب عشرين دقيقة فتحت قفل باب بيتنا، من دون ضجيج، وذهبت إلى غرفتي على أطراف أصابعي، وتحققت فيما إذا كانت المعدات مبلّلة في الحقيبة، ونشرتُ الملابس المبلّلة على الكراسي. وتحوّلت السكرة الثقيلة من النبيذ إلى صداع رأس، وكان من الأولى تسخين شاي، ولكنني لم أرد الذهاب إلى المطبخ، وإيقاظ والديّ العجوزين. استمرّ المطر يطرق في الشارع. دخنتُ عند النافذة، واستلقيت، وتألّمت، وتعذّبت طيلة الليل، من دون نوم ولا أفكار.

ربما بالرغم من ذلك، كان يجب عليّ أن أطرق النافذة حينها.

أصبح يوركا وجالا يظهران معاً في المدينة. في أغلب الأحيان يمكن رؤيتهما في مقهى «الجنوبي»، حيث كانت نخبة المدينة بأسرها تجتمع هناك اعتباراً من بداية فترة الغداء. كانت أسعار هذا المقهى متهاودة، على عكس، مطعم «لوكس»، مثلاً، لهذا يمكن أن يرى الزبون هنا الموسيقيين من فلهارمونيا المحافظة، وممثلي مسرح الدراما، وزوجات مسؤولي المدينة متوسطي الدرجة، اللواتي يعانين من الفراغ، وزوجات أولئك الذين لم يبلغوا مقام موزع أموال ميزانية مؤسسة، ولكن من دون هذا عاشوا حياة رغبة...

يأتي العاشقان عادة في الساعة الخامسة. وكان يوركا قد سمح لجالا بارتداء الفستان الرسمي، وعلى العموم لم يكن هذا جائزاً، ولم يُسمح به، لأي عارضة أزياء ارتداء الزي الرسمي. كانا رائعين، وكنت على قناعة، بأنّ مثلهما يلفت نظر الناس حتى في موسكو. وأحياناً كنت أنضمّ إليهما مرتين في الأسبوع، إن قدراتي المالية لا تسمح لي بتناول الغداء يومياً حتى في «الجنوبي»، وليس بميسوري أن أسمح ليوركا دفع حساب الجميع. كنّا نشرب كمية لا بأس بها من الشراب، أقصد أنا ويوركا، فجالا لا تستطيع أخذ أكثر من رشفة، ومع ذلك كانت تُضيق عينيها بالأم، ونثرثر عن لا شيء. كان كل شيء رائعاً، وكنت سعيداً للشابين، وسارت الحياة بشكلها المعتاد، وكأنها لا تسير.

نسي المسؤولون في الصحيفة، حيث أعمل، تدريجياً ما نشرته في المجلة، وتغاضوا عنه، وتحسنت أجوري مرة أخرى. قال لي مانتسيفيتش ذات مرة بصورة خاطئة شيئاً ما، عن إمكانية الالتحاق للعمل في ملاك الصحيفة؛ إذ من المحتمل أن ينتقل شخص من قسم التصوير إلى صحيفة الحزب الإقليمية، وسيكون مكانه شاغراً، وأنت المرشح الأول.

بعد أسبوعين من هذا الوعد أمسك بكّم قميصي، وانتحى بي كالعادة في الدهليز، وبدأ معي محادثة جادة:

- اسمع يا شيخ، أنت شخص مقرب هناك، في دار عرض الأزياء؟

وجزني إلى غرفة متعفنة بشكل لا يطاق، وأجلسني، بينما جلس هو وراء الطاولة، وبدأ يفتش في الأضابير، كما لو أن موضوع المحادثة لا يثير اهتمامه.

- هل حقاً، إن إستومين هذا شخص موهوب؟ لقد التقطت عنده تلك الصورة الشهيرة، وأصبحت مشهوراً... هل لديه حقاً فتيات فانتات، هل اقتربت منهنّ أنت، كلا؟ أم يجوز للمدير الفني فقط؟ وأنت تتجول معهما، مع إستومين، وصغيرته القروية اللعوب؟

لم أصدق إذنيّ على الإطلاق، أن تجري مثل هذه المحادثة بالفعل. لم يتحدث معي أحد من قبل بهذه الطريقة، كما لو أنني كنت تافهاً تماماً. بالطبع، مانتسيفيتش رجل بغيض، رائحته وحدها تثير النفور... وعلى الأرجح إن الشائعات حول تلاعبه بمرتبّات الموظفين، ليست من دون أساس. لكن تفوّهه يمثل هذه المجموعة الصريحة من القيل والقال شيء آخر، علاوة على ذلك لم أكن أتوقع من شيطان هيئة التحرير، الشائعات الموجهة بوضوح ضد يوركا. ما

غايته منها؟ وماذا فعل يوركا له؟ أم هو... نيابة عن طرف ما؟ لِمَنْ؟ مَنْ الذي يحتاج لمعرفة ما إذا كانت عاملة التنظيف السابقة، هي عشيقة مدير دار عرض أزياء، المؤسسة غير المهمة، حتى وفقاً لمعايير مدينتنا، كمنزل الموديلات؟

- تصمت؟ تصمت...، سألني مانتسيفيتش من دون معنى وأجاب بنفسه - عبثاً أنت صامت يا شيخ، وماذا بوسعي أن أقول - لقد بذلتُ مجهوداً، لكي أتلفظ اسمه - فيتيا، إذا كان الجميع يعرفون كل شيء بالفعل؟ إنهما يتجولان معاً، ولا يختبئان.. فما الأمر؟

- لا يختبئان- كرر - لا يختبئان...صحيح، ولماذا عليهما الاختباء؟.. حسناً، اذهب، يا شيخ، اذهب أيضاً إلى مصنع الأنابيب، التقط صورة هناك لرئيس الوردية، من أجل التحقيق الصحفي، مفهوم؟

خرجتُ مسرعاً من الغرفة التي تفوح منها رائحة نتنة، كما لو كان فيها فعلاً رُفات شخص ميت. لقد حان فعلاً وقت الذهاب، إذا أخذتُ بالاعتبار الوسيلة التي سأصل بها إلى هناك، وكم سأسلك من الوقت. وصلت إلى موقف حافلات الركاب لمدة خمس دقائق، وحشرت نفسي في الترمواي، وأنا أمسك بحقيبة معدّات التصوير فوق رأسي، ومع ركلات النازلين والصاعدين، طفقت أفكر بما سمعته. بالطبع إن القصة مع جالا لن تعود بالمنفعة إلى إستومين. وعلى كل حال، هو واحد من المدراء على مستوى المقاطعة، وعلى الرغم من أن هذا أمرٌ مثير للسخرية، لكن الوضع بالفعل على هذا النحو. وفي الوقت نفسه هو غير حزبي، تلقى لمدة عامين تعليماً مشكوكاً فيه، من وجهة نظر السلطات في البلطيق، وأعزب، رغم أنه في الثاني والثلاثين من عمره هذا غير لائق أيضاً. والفتاة، ريفية، مع تصريح إقامة مؤقتة...؛ جميلة جداً، هذا أمر مؤكد. وهذا من جانبه ليس مجرد استغلال المنصب الرسمي، لمصلحة شخصية، وإنما غير أخلاقي بشكل مفضوح تماماً.

جيد. أعني بالطبع على العكس، ليس هناك ما هو جيد!

بهذه الأفكار وصلت، من دون أن ألحظ، إلى المحطة التي يجب عليّ تبديل واسطة النقل فيها، وركبت حافلة غاصّة بالركاب، ليس بأقلّ من الترمواي، وسارت بي نصف ساعة أخرى، ثم مشيت على الأقدام عبر أرض خالية، إلى مدخل مصنع الأنابيب...

اندفعت ننف الثلج المؤذية في الأرض الخالية مثل ثعابين، تعيّن عليّ الاستدارة مرة أخرى في مواجهة الريح. ها أنذا رجل شابٌ يحمل حقيبة جلدية ثقيلة عبر الأرض الخالية، ويسير، وينحني، ويستدير في مواجهة الريح. أين هذا كله؟ لقد ضاع، وذاب. عشنا بغرابة! كُنّا أطفالاً، نعم كُنّا أطفالاً، ولكن ما إن تصل الأمور إلى الفعل، حتى نحسب، ونقيس ليس أسوأ من أعضاء المكتب السياسي. كانت حياة...، يا ترى هل كانت هي حياتنا؟!

وبعد مرور بعض الوقت، لا أتذكر بالدقة مداه، باختصار حلّ الربيع. وزال الثلج القذر من الشوارع، وجفت الطرق، وأثارت الريح أول غبار فاتح، أُرّف موعد الاستعداد للذهاب مع اثنين من زملائي، في مهمة عمل غير رسمي مدفوعة الأجر، لنلتقط في المدارس الريفية صوراً للألبومات

تخرُج التلاميذ، فتبان يبدو على وجوههم حَبُّ شباب أحمر أزرق، وفتيات ذوات صدور ناهدة بشكل غير طبيعي. أخذنا إجازات، واستقلنا سيارة من طراز «زابوروجيتس» تعود لأحدنا، هو العجوز ناوميتش من جريدة «المساء»، وانطلقنا من أجل الحصول على أجور بمشقة بالغة، ولكنها أجور كبيرة. وكان الشخص الثالث الذي سافر معنا المُصوّر الماهر المشهور في المدينة، كولا أندرييف، وكان مُستخدمًا في استديو التصوير المركزي الواقع في الشارع الرئيسي، بيد أنه، وباعتباره فناناً ماهراً، كان يتلقّى من مختلف الجهات طلبات للتصوير، تبعث على الحسد؛ من مسرح الدراما والكوميديا الموسيقية، لالتقاط صور الممثلين لعرضها في صالة المسرح، ومن دار نشر المقاطعة، لألبومات المناظر الطبيعية للمدينة. بيد أن كل ذلك لم يكفيه، فقد كان كولا يتشبّب بأيّ عمل إضافي، لأنه كان بخيلاً بشكل فطيع، وحتى الآن يذهب معنا للكسب، في سيارة ناوميتش «المتهالكة»، وليس بسيارته «الفولجا» الفارحة، ويحرصُ على ما كسبه. من دون شكّ إنني سافرت معهما كمساعد، وقد قبلت بهذا الوضع، وكنت مستعداً، للذهاب إلى المتجر العام لشراء المشروبات لهما، واسترضاء رؤساء لجان الوالدين في المدارس، وحمل معدات ناوميتش الأعرج... على أي حال، إن أصحاب العمل، وكقاعدة، وفّروا لنا بالطبع الفودكا والمأكولات الخفيفة ومكان المنام.

في طريقنا إلى الضواحي، كان أسفل السيارة يحتك من وقت لآخر بالأرض، ويرتفع فوق مسار المرور العميق المتصلب، الذي حفرته إطارات السيارات، وكنا نبتلع الغبار، وننعطف بالخطأ في طريق آخر، من دون أن نلاحظ الجمال الريفي، أي نحرف في الطريق التي تمتد إلى حقول الذرة، الفارغة المشوبة باللونين الأسود والرمادي، وكذلك بالأحراش التي تمتد إلى حافة السماء، ونُساوم القرويين البخلاء الذين يعرضون منتوجاتهم الزراعية على الطريق، ونلتقط مرتين أو ثلاث مرات صوراً للتلاميذ، فضلاً عن مباني المدارس خلال فترة النهار، محاولين أن نصل قبل حلول الظلام إلى المحطة التالية في طريقنا، حتى نمضي الليل هناك، وفي الصباح نذهب إلى العمل، ونشرب قبل النوم قنينة فودكا رخيصة فظيعة، مع البطاطس المسلوقة ذات اللون البرتقالي، ولحم خنزير كثير الشحم، ونذهب للنوم، أحياناً نستلقي على حصائر في قاعات الألعاب الرياضية في المدارس، وأحياناً في مستودع مع خشخشة فئران القشّ على هذا النحو جمعنا محصولنا الربيعي. كتب كولا الإيصالات على استمارات الاستديو الذي يعمل فيه، وأخذ لنا سلفاً مالية، وأعطى مقابل ذلك قسماً غليظاً للمسؤولين، بأننا في أقلّ من شهر، سنأتي بالألبومات جاهزة، ومُزيّنة بنقوش مذهبة بارزة، ومغلّفة بغطاء جلدي. وكان علينا أن نلصق الصور معاً، في عطلات نهاية الأسبوع، وقام صديق لناوميتش، لقاء أجرة بسيطة، بالنقش عليها في ورشة التجليد الوحيدة في المدينة، ووافق كولا أندرييف بحزن، على توزيع البضاعة كبيرة الحجم والثقيلة، على الزبائن، واستحصال النقود المتبقية منهم. بالطبع أسف على استخدام سيارته «الفولجا»، لهذه العملية، ولكن زادت حصته، بما يتفق وقسطه الكبير في العمل الذي أدّاه. والشيء الرئيسي كان علينا عدم الخلط بين الشرائط، ولا خلط الصور المطبوعة، ويجب لصق الصور بشكل صحيح في الألبوم، ووضع رقم المدرسة والفصل بصورة صحيحة.

كان تجمّعنا الثلاثي يعتبر من حيث الجوهر تعاونيةً ممتازة، لخدمة سكان الريف، بيد أنها مخالفة تماماً للقانون. ولو أن المعلومات عن الأجور التي حصلنا عليها بالعمل الشاق، وصلت إلى الجهات المعنية، مثلاً عن طريق وشاية أحد أصحاب العمل، بدافع من الجشع الذي لا معنى له، فيمكن أن يتمّ فصل ناوميتش من الحزب، ولقدّمنا جميعاً عملنا الرئيسي، إذا لم نُسجن لعام أو عامين،

ولا ريب في هذا. في الوقت نفسه إن الجميع يعرفون جيداً بشكل غير رسمي، لماذا نأخذ إجازة، نظراً لأن مُصوِّري المدينة الآخرين قاموا بنفس الشيء، ولكن ما دامت الوشاية لم تتم، فلن يلجأ أحد إلى التكييل بنا. تكوّنت في مدينتنا الجنوبية، طباعٌ دَمَثَة، وتقاليدهم غير متشددة نسبياً. لم تلاحق السلطات الحاكمة، ولا حتى رؤساء الحزب، أكثر من اللازم سَعْيَ المواطنين نحو الرخاء، ومن المناسب أن تتم كتابة الشعار الشعبي في ذلك الوقت «تريد أن تعيش؛ تعلّم كيف تراوغ» عند مدخل المدينة، حيث لاح هناك للأنظار بفخر شعار التنبؤ القاتم «انتصار الشيوعية أمر لا مفرّ منه» مخطوطاً على جدار من الإسمنت. لقد سرق العاملون في المصانع كل ما يمكنهم إخفاؤه تحت ملابسهم، وتردّدت شائعات بأنهم أخرجوا، ليلاً شاحنات من مصنع إنتاج المروحيات السري، محملة بكاملها بسبائك الألمنيوم، لاستعمالها في الشؤون المنزلية. وفي ضواحي المدينة كانت هناك المنازل الجميلة للقطاع الخاص، المبنية من طوب السيليكات النادر. وتزايد عدد السيارات، التي تدفقت في الشوارع الضيقة، من الشارع الكبير، إلى النهر...، وبعد عشر سنوات من ذلك الوقت فقط، بدأت المحاكمات المغلقة لرؤساء المدينة والمقاطعة، وصدور قرارات بالإعدام رمياً بالرصاص.

... عدنا في نهاية الأسبوع إلى المدينة، ونحن قذرون بشكل مريع، وفي حالة سُكْرٍ لم نتغلب عليها، ومتعبون بشكل مميت من التنقل والتقاط الصور، ولكننا راضون تماماً، فالمكافآت المالية التي حصلنا عليها ملأت وحدها حقيبة كوليا، ولا يزال على صاحب العمل دفع ما تبقى لنا من الحساب النهائي.

خرجت في المساء، وكان لدي هدف محدّد تماماً؛ هو الالتقاء بأحد أصدقائي، وتمضية الوقت معه حتى حلول الليل، حول طاولة طعام وشراب، ثم أذهب ليلاً إلى منزل الطبيبة تانيا التي اتصلت بها. خرجت للتجوّل في الشارع. وحتى لم أنظر في احتمال عدم الالتقاء بأي أحد من معارفي وبالتالي لن أمضي سهرة ليلية معه. كان ذلك مساء يوم جمعة، واقتربت أعياد مايو، سيرتّب شيء ما.

لم يحدث أي شيء. كان الشارع الرئيسي خاوياً بشكل غريب، حتى لم يكن هناك أي أحد تقريباً في زاوية شارع «ليرمنتوف»، عند مبنى سينما «النصر»، حيث يتجمع الموسيقيون في بورصاتهم، وهم يوزعون الطلبات للقيام بخدمات موسيقية، لإحياء حفلات زفاف اليهود الغنية، ومراسم الدفن. لم يكن هناك أحد من معارفي. وانتابنتي الحيرة، حتى أدركت تفسيراً لخواء الشارع، فالיום كان يوم جمعة، والفصل ربيع، وقد حشدت العوائل جميع أصدقائي للعمل الزراعي، وذهبوا إلى مزارعهم الصغيرة، حيث سيمضون يومين كاملين واقفين في حقولهم في أوضاع غير لائقة، وفي المساء يتناولون على عجل كأس شراب، ويسقطون من شدة التعب في كرى طيب، خالٍ من الأحلام.

لم يكن هناك مكانٌ أذهب إليه على الإطلاق، فتانيا لن تعود من المناوبة قبل الساعة الثامنة، وتحتاج ساعة للراحة، وترتيب نفسها. وبقيّ أمامي فقط مطعم «الجنوبي»، بيد أنني رفضت هذه الفكرة من دون تردّد، فعلى الأرجح لن يكون أي من معارفي هناك، ولم أرغب في دفع ثمن عشاء بمفردي، فقد كنت أخطط، لصرف الأجور الكبيرة من مهمة تصوير المدارس الريفية التي قمنا بها، على مشتريات أخرى تماماً، هامة وجديّة.

بقي أمامي خيار واحد، وبأشرت في تنفيذه. عبّرت الشارع، ودلفت إلى مخزن لبيع المشروبات، وابتعت قنينتي كونياك مولدافي، إحداهما مخصّصة للجلسة الشاعرية في صحبة موظفة الخدمات الصحية، وقمت بدسّها في حقيبة معدات التصوير، التي لم تفارقني في ذلك الوقت، ومسكت عنق الزجاجاة الثانية بين أصابعي، كما هو مُعتادٌ في دائرتنا من الأشخاص المرحين الباحثين عن ملذات الحياة فقط، وحملتها بزهو على مرأى من الجميع، وبعد أن قطعت أحد الأحياء، استدرت نحو شارع فوروشيلوف، ومضيت إلى الأعلى، إلى القصر، الذي لم أزره منذ فترة طويلة. سأجد يوركا، وسنجلس بروعة، ونشرب، ونحدث... لقد كنت أنوي، ومنذ فترة طويلة أن أخبر يوركا عن الاهتمام المثير للقرف، الذي أبداه مانسيفيتش بدار عرض الأزياء، ولكنني لسبب ما، أجلّته طيلة الوقت. حتى عقلي الذي لم يلمّ بالشؤون الحياتية اليومية، أدرك أن حديثي لن يعود بالمنفعة على أحد، فيوريكا لن يُغيّر أي شيء في سلوكه، بسبب أنه يحب ذاته، وليس لأنه يحب جالكا لحدّ الجنون، فارتباطه بها غير جدّي، فهي ليست غير فتاة حسناء، وفاتنة ساذجة، ولذا، فكل شيء سيبقى كما هو... ومن جانب آخر، إذا كان اهتمام مانسيفيتش لم يكن اهتماماً شخصياً، بل بناءً على تكليف من جهة ما، حينها ينبغي تحذير يوركا، فربما أن هناك من يترصد له، ويريد الإساءة له بشدّة، فعليه في هذه الحالة أن يكون مستعداً، ولكن من غير الواضح، لمن يستعد، وكيف؟ هذا غير مفهوم...

وفكرت، وأنا أتوجّه من الشارع الرئيسي إلى شارع فوروشيلوف، الآن سأخبره، وسنخمن، ونزن الأمور سوياً. وإذا لم أجد إستمين سأذهب إلى تانيا، ففي نهاية المطاف لدي مفتاح الشقة ذات الغرفة الواحدة، وأنتظرها في المطبخ بصحبة قنينة الكونياك، وسوف تعذرن لي لوصولي المُبكر.

كان القصر غارقاً في العتمة، ما عدا ضوءاً تسرّب من شقّ أسفل باب المدخل، كما في المرة السابقة. لا أعرف ماذا خطر على بالي، فبدلاً من الالتفاف حول جانب المبنى والنظر، فيما إذا كان هناك نور ينبعث من نافذة مكتب يوركا، كما فعلت في مثل هذه الحالة في المرة الماضية، سحبت مقبض الباب البرونزي الأخضر.

فتحت الباب بصعوبة، ووجدت نفسي في بهوٍ مُضاء بئرياً عالية. كانت على جانب الباب طاولة صغيرة، عليها تليفون أسود قديم، وجلس بجانب الطاولة على الكرسي حارس، وضع قدميه الواحدة على الأخرى، ونظر قليلاً من الأسفل بإمعان إلى وجهي. لم يسبق لي على الإطلاق أن رأيت هذا الشخص، خمنتُ فقط أنه حارس، فمن يكون؟

وخلال ردّي على نظراته، تمعّنت به خلال عدّة لحظات، وكان هذا الوقت كافياً، ليُولد لدي انطباعاً شديداً.

الأهم من ذلك، كان الحارس شبيهاً بتمثال من الحضارات القديمة، ولسبب ما كان زيّه على نمط الزيّ الحزبي في الزمن القديم، سترة عسكرية رمادية، أزراها حتى الرقبة، ومثلها بنطلون رمادي مدسوس، في حذاء ضباط عالٍ من جلد مدبوغ بأملاح الكروم، يلمع تماماً، وفوق هذا الجسم، لاح وجه سكرتير حزبي، من أعوام الثلاثينيات، وجه رخامي أبيض ذكّرني بالعصور القديمة كان

خدّاه من دون أي صبغ، أبيضين،، وشفّاه بيضاوين كذلك، وثمة غضون عميقة، تبدأ من جناحي الأنف إلى الذقن، وتسريحة شعر أبيض قصير مجعد، أبيض تماماً، بدون لمعان...، سيكون من الطبيعي تماماً لو كانت تبدو في مثل هذا الوجه، عينا تمثال رخاميتان بيضاوان، والانحراف الوحيد عن قانون فنّ النحت الكلاسيكي في هذا؛ أن نظرة العينين لي كانت قاتمة، تقريباً سوداء، ونظرت لي بإمعان.

وفكّرت في دخيلتي، عجباً له من حارس! منظره يشبه اللوحات الفنية.

وبادرتة بالقول:

- أرجو المعذرة، لقد مررت بجوار...

ظلّ الوجه الرخامي رخامياً بلا حراك، وحدّقت العينان السوداوان بي بإمعان وهدوء. وسألت، وبدا صوتي مرتفعاً للغاية في البهو الخاوي:

- إذا لم يكن هناك أحد، فسأتي في مرة أخرى...

وقال الحارس، من دون أن يفتح فمه تقريباً، مما جعل شبّه بالتمثال مريعاً للغاية. وكانت نبرة صوته عالية جداً، وفي الوقت نفسه مبسوطة بصورة غريبة:

- تفضّل، تفضّل، إنه في مكتبه.

وسألته بغباء:

- مَنْ هو؟

- يورا.

أجاب الحارس مكتفياً بذكر الاسم دون الأب، كما العادة بين رئيس ومرؤوسه، وفجأة افتقرت شفّاه عن ابتسامة؛ بمعنى فتح شفّتيه الشاحبتين، ومدّ غضون الأنف المتصلة بالشفاه التي أصبحت أعمق، وهو ينظر كذلك في عيني مباشرة، وبإمعان.

يا له من حارس، كررت بيني وبين نفسي! وأنا أمضي في عمق جناح القصر الأيسر، في ممرّ مغطّى بألواح من الخشب الأحمر مخدّشة ومتهالكة، ياله من حارس!

فتحت باب مكتب يوركا، وبدأت بالقول، قبل أن أرى بوضوح، ما يجري في الغرفة:

- يا له من حارس! أنت بالنسبة له يورا وحسب، وليس يوري بتروفتش، كما بين الرئيس والمرؤوس، وهو يشبه تمثال ستالين، فقط بلا شوارب...من أين أتيت به؟

وحالما أنهيت كلامي، أدركت أن أمامي يجلس شخص مخمور تماماً، يتأرجح في الكرسي. وكانت على الطاولة حتماً زجاجة كونيأك فارغة، وأخرى شبه فارغة، وما لم ألاحظه على الفور أن هناك قدحين، نظر يوركا لي عابساً، وقال وهو يفتح شفتيه، وتفوه بكلماته بصعوبة:

راقص... من مسرح الأوبريت... سابق... إنهم يتقاعدون في سنّ مُبكرة، شخص مثقف، أفهمت؟

قلت بفعل الاستمرارية، وأنا أضع القنينة التي أتيت بها إلى جانب الفارغة:

- كان عليه أن يؤدي دور «الضيف الحجري» في مسرحية بوشكين، لا أن يرقص الكانكان في الأوبريت، انظر، إنني جنّت في الوقت المناسب، فالوقود ينفد...

انحنى يوركا، وهو يكاد يسقط من الكرسي، وأخرج قدحاً نظيفاً، ودسّ أحد القدحين اللذين كانا على الطاولة - ولاحظت عندئذ فقط أنهما كانا اثنين - بعيداً في درج الخزانة. وسكبت، شربنا بسرعة، عقب نصف دقيقة صار يوركا أكثر حيوية، وحتى إنه بدأ يسألني عن المهمة، التي قمنا بها بتصوير المدارس الريفية، ولكني لغبائي الدائم، وكما يحدث لي غالباً، حوّلت المحادثة إلى ما كنت أفكر فيه من قبل:

- اسمع يا يوركا، هناك قضية - وهل كان من الضروري أن أبدأ بمثل هذا الحديث مع مخمور القضية- إن مانتسيفيتش المسؤول لدينا، رجل القيل والقال العجوز، أبدى اهتماماً بك وبجالكا...

ونقلت له في بضع جمل مضمون المحادثة بيني وبين مانتسيفيتش، وما أفكر فيه بهذا الشأن، وبينما كنت أتحدث، راح يوركا في البداية يتململ في الكرسي، لاتخاذ وضع مريح أكثر، كما لو أنه يعتزم النوم جالساً، ومن ثم بدأ، وكأنه يغفو فعلاً. ولكن اتضح أنه سمع كل شيء، ولكنه تلقى الخبر بشكل غريب.

ضحك ضحكة ساخرة من دون أن يفتح عينيه:

- جالكا، إنها طيبة، جالكا... كل شيء صحيح... يقولون؟ دعهم يقولون... ابصق على ما يقولونه... لا بأس... دعهم يقولون...

«دعهم يقولون»، كان هذا عنوان فيلم موسيقي شهير في ذلك الموسم، قام ببطولته ممثل إسباني رشيق، وجميل بصورة خرافية، تردّدت عنه شائعات غامضة، عن أنه مشهور في إسبانيا، وبصورة رسمية تماماً بصفته مثلي الجنس؛ هكذا كان حينها يُسمى لدينا، قبل إطلاق كلمة «الأزرق» على هذا النمط من الأشخاص، ولم أفهم هل ذكر يوركا عنوان الفيلم بصورة مقصودة، أم جاءت العبارة على لسانه بالصدفة. وبحكم أنه كرر هذه الكلمة، طويلاً، وضحك بسخرية، وردّها، وهو يغطّ في النوم. فقد انطوى هذا على معنى ما، بيد أنني لم أستطع أن أفهمه، وكان من المستحيل أن أسأل يوركا، لأنه غطّ في نوم عميق، وقد وضع يديه على الطاولة، ورأسه معتمداً

على يده. أبعثُ القناني والأقداح، حتى لا يسقطها، وهو نائم، وسكبت لنفسي الكونياك، وشربت، ولسبب ما أطفأت النور العلوي، وأبقيت المصباح على الطاولة مضيئاً، وخرجت.

لم يكن الحارس في البهو. دفعت الباب، وخرجت إلى الشارع، وأغلقت خلفي بإحكام، وخُيل لي في تلك الأثناء عندما أغلقتُ الباب، أنني سمعت وقع خطوات في البهو. بعد عشر دقائق كنت جالساً في حافلة الترمواي الفارغة تقريباً، محاولاً ألا أغفو، حتى لا تفوتني المحطة المطلوبة، وفكرت أن اللقاء مع تانيا، على الأرجح، لن يكون موفقاً، وستأخذني عندها سنة النوم على الفور، وسيتعين إرجاء جزء من اللقاء إلى الصباح. لم تكن هناك أفكار أخرى، كما لو أنني أنجزت واجبي، وحررت نفسي، بعد أن أبلغت يوركا عن المحادثة المقيتة.

يا إلهي، أي أحمق كنتُ في ذلك الزمن! يا إلهي أرجع لي الغباء، إذا كنت لا تنوي إعادة الشباب!

بعد انتظار شهر، استلمت أجرة العمل الريفي، فأخذت إجازة، أو بالأحرى، اكتفيت بإبلاغ مدير قسم التصوير بالجريدة إيجور بيلياكوف، بأني سأغيب عشرة أيام، لأنني كنت أعمل خارج الملاك، وغادرت إلى موسكو. كان هدف الرحلة ضخماً؛ سأشتري بأجور العمل الإضافي الموقَّ، آلة تصوير من طراز «نيكون» في حالة جيدة، وعلى الأقلّ مع عدستين، من أحد متاجر البضائع المستعملة، التي اشتهرت في عموم البلاد، والواقعة بموسكو في منطقة «نوفوسلوبودسكايا» أو بالقرب من مركز «بلانيتاريا». اعتقدت أن الوقت قد حان، بالنسبة لي كمُصوِّر متمرِّس، الانتقال إلى استعمال آلة تصوير لائقة. وبعثُ لكوليا أندرييف، قبل السفر آلة التصوير «زينيت»، ومعها كافة البصريات، ولم يكن هو بحاجة لهذه الخردة أبداً، ولكنه ساومني بسرعة، واشتراها بنصف السعر، وراح يصفر من شدة ارتياحه لجشعه، وحمل ما اقتناه من كنوز إلى داره قائلاً: «دعها تنتطح هناك، لن تطلب غداء». وشكَّلت النقود التي استلمتها من كوليا، إلى جانب الأجرة من العمل الإضافي، بتصوير أطفال المدارس الريفية، مبلغاً محترماً، والذي كان وفقاً لتوقعاتي، وتوقعات كوليا، كافياً لشراء كاميرا من نوع «نيكون» والعدسات، وللإقامة في موسكو، بما في ذلك أجرة الفندق، والترفيه المعتدل.

تأرجح القطار على محولات الخروج، وقعَّع على الجسر، واندفع في السهوب التي كانت تفيض بسرعة بالشفق الإرجواني. وعندما نظرت من النافذة دون معنى، فكرت بالشؤون التي تنتظرني في موسكو، وتشوّشت الأفكار، واشتبكت، وغفوتُ إثر شرب قنينة جعة في محطة القطار، وحدقت مرة أخرى في الظلام...

احتشد الناس عند المتجر بالقرب من محطة مترو نوفوسلوبودسكايا، وعرض بالقرب منه أشخاص مضاربون، بصوت خفيض شراء أجهزة تصوير جديدة تماماً، ابتداءً من نوع «براكتيك» رخيصة الثمن إلى «هاسيلبلاد» بعيدة المنال، وذهب من أغرتهم العروض مع الباعة إلى الفناءات المجاورة، بعيداً عن عيون الشرطة. واستمرّ الباقون في التدافع، واستراق السمع والنظر. وتجوّل بالقرب من محطة مترو الأنفاق شرطي، ومن وقت لآخر كان يقطع الطريق، ويقترّب من متجر السلع المستعملة، فينفرق الحشد على الفور، ثم يعود للتجمع بعد دقائق. كان المتجر مزدحماً، وثمة

عدد من الرجال كبار السنّ بملابس باهظة الثمن، يعاينون في واجهات العرض أدوات حلّاقة كهربائية من طراز «فيليبس» و«براون»، وحاول عشاق تصوير بمظاهر رثة للغاية، التطلع إلى الكاميرات والعدسات الملقاة على الرفوف خلف الباعة. ولم أفهم كيف يمكن اختيار شيء ما هنا، وبالتدريج خالجي اليأس بمشروعي، وأخيراً، شققت طريقي بحزم إلى منصة المتجر، كي أسأل البائع، الذي بدا لي أنه شخص حسن النية، هل يوجد شيء ما بوسعي أن أشتريه بنقودي، ولكن في هذه اللحظة شعرت أنّ يداً سقطت على كتفي؛ جفلتُ، نظراً لأنّ في جيب سترتي الداخلي المشبوك بدبوس إنجليزي، نقوداً غير قليلة، خشيت بشدّة من اللصوص، واستدرت بحدّة.

كان الشخص الذي رأيته سيبدو في مقاطعتنا مجنوناً، أما هنا في موسكو، فلم يُعزّه أحد الاهتمام، وقام الحشد بدفعه، ولّفه من دون أي اكتراث. كان هذا شخصاً، كما يبدو من مظهره بعمر تقريبا، يعتمر قبعة سوداء واسعة الحواف، كان من غير الممكن الحصول عليها في تلك السنوات إلا في غرفة الملابس بمسرح، حمراء داكنة ذات زخرفة تركية، ووشاح تحت طوق قميص، مفتوح الأزرار للأسفل، وجاكيت بلون بني من جلد غزال رقيق، مع هذب على طراز خياطة ملابس رعاة البقر، ولاح كل هذا عليه، كما لو أنه لا يفترض أن من الممكن ارتداء زيّ بطراز مختلف. وزيّنت نصف الابتسامة الوديدة، وجهه الوسيم جداً، الذي يشبه وجه ممثّل. ولم يُعكّر حسنه الحاجب الكثيف للغاية، والمرتفع على هيئة «منزل»، مثلما لدى مهرّج حزين... باختصار، كان شخصاً من حفلة تنكرية.

- أنت، كما أفهم، مُصوّر فني كان يتكلّم بلهجة غير معروفة بالنسبة لي، ليست مثل لهجتنا الجنوبية، وليست لهجة موسكو، التي لا تميّز فيها بين حرفيّ العلة / a / و / o / في المقاطع التي ليس عليها نبرة، وابتلاع نهاية الكلمات من أين أنت؟

ذكرت اسم مدينتنا.

- لقد زرتها، إنّها مكان رائع، قال متأملاً، ونطق «رائع» بوضوح، وحدّدته في دخيلتي على الفور، بأنه من «الحرس الأبيض»، لذا اسمح لي أن أكون في خدمتك، علينا نحن المُصوّرين أن نساعد بعضنا البعض، وسأكون سعيداً...

بعد أقلّ من ساعة، خرجنا من الحشد، ومن شدّة السعادة شعرت بنشوة خفيفة، لقد اشتريت آلة تصوير رائعة، وعدستين واسعتين، ودفعت مقابلهما أقلّ بمرة ونصف مما توقعت أن أدفعه، وتعامل البائع مع صديقي الجديد فاليري، قدم لي نفسه باسمه الكامل كتعامله مع أحد المعارف المقربين، ولكن باحترام، وتبادل الكثيرون في الحشد، التحية معه، وردّ عليهم برفع حافة القبعة بحركة طبيعية تماماً، كما لو أن من المعتاد اليوم الردّ بهذه الطريقة على التحية. باختصار، حالفتي الحظ، فبدون أي جهد من جانبي، لم أشتري وحسب آلة تصوير، بل تعرّفت على شخص من الواضح، أنه غير عادي.

... حينها لم أكن أعرف بعد ما هو الشعور بالوحدة، ومن ثم، بعد سنوات، كُنّا أحياناً نلتقي، في معظم الأحيان عن طريق الصدفة، وفي كل مرة نتذكر كيف تعاطف السيّد الذي يعاني من كآبة

غير مبررة، مع القروي الوجل، وكنت أنحني له على طريقة المهرجين: «أنا مدين لسعادتكم إلى الأبد، أيها المحسن إليّ أنا الأحمق...»، ونغرق معاً في الضحك، ونتعانق، ونفترق ثانية لفترة طويلة. لم يكن هناك شيء يمكن الحديث عنه، ولا يوجد شيء مشترك بيننا، سوى تذكر اللقاء، والودّ المتبادل الذي لا يمكن تفسيره...

مدّ لي، ونحن في مترو الأنفاق، بطاقة صغيرة مستطيلة؛ كانت البطاقة موضوع أحلامي، فقد منحت إدارة المجلة بطاقات الزيارة للموظّفين الدائمين فقط، ولم تمنحها للعاملين خارج الملاك، مثلي... وكتب في البطاقة بخطّ مائل أنيق «فاليري أركاديفيتش بيريفورتشيكوف، مُصوّر»، وفي الأسفل أرقام لهاتفين، زدّ على ذلك سجّل بالقرب من أحدهما «موسكو» والثاني، لم أستطع أن أصدّق عيني! - «سانكت - بطرسبورج»، ولم أدهش من كون الشخص يمتلك مكانة إقامة، وبالتالي رقمي الهاتف. وبما أنه كتب على البطاقة مدينة «سانكت بطرسبورج» بدلاً من «لينينجراد»، فقد كان هذا تحدياً غير مفهوم بالنسبة لي، أنا الذي ترعرعت على الانصياع للقانون في مدينة نائية، لقد جفلت، وأنا أقرأ هذه التسمية، مثلما كنت أجفل في كل مرة أسمع فيها إذاعة «صوت أمريكا»، وصوت ألمانيا وغيرها من الأصوات، من مخاطبة المذيع للمستمعين بـ«السادة»، إنّ فاليري هذا من «الحرس الأبيض»³⁶، فعلاً من «الحرس الأبيض...».

في الحقيقة إن لقب بيريفورتشيكوف كان مألوفاً لدي من خلال مجلة «الصورة الفوتوجرافية السوفيتية»، التي كانت تنشر له في كل عدد تقريباً، صور مناظر المدينة بالأبيض والأسود، من دون ظلال، لذلك ترك لدي انطباعاً أقلّ مما ورد في الكروت.

ذهبنا في البداية إلى الفندق الذي أقيمت فيه، وكنت أنوي الاحتفال معاً بمناسبة المشتريات الجديدة، ولذلك قررت نقلها، وتركها في غرفتي... أنا لا أعرف كيف ستنتهي الأمسية. كانت إقامتي تحدياً، في فندق «روسيا» المميّز، الذي تمّ بناؤه مؤخراً، وهذا ما أثار استغراب حتى فاليري، لكن هناك تفسير بسيط لذلك: كانت عمّة زوجتي السابقة، وهي من أهالي موسكو، تعمل في هذا القصر الذي يميّز بتوفير الراحة الفائقة، مديرة غير رفيعة المستوى، وساعدتني في الحصول على غرفة حوّث سريراً واحداً. لم تضمّر هذه المديرة الضغينة لقريبها السابق، بعد طلاقها من ابنة أخيها. كانت امرأة بسيطة، حضرت حفلة زواجنا، وسكرت بشدّة قبل بداية الحفل، وانعقدت بيننا بطريقة أو بأخرى أوامر صداقة، على الرغم من أن والديّ تذكرها بسخرية متحفّظة، وذكرنا عملها الحالي، بتحفظ كبير.

بحثت وفاليري طويلاً في الدهليز الذي لا نهاية له، حتى عثرنا على غرفتي، وهناك قمت بدسّ المشتريات في الحقيبة شبه الفارغة، وقمت بلقها بقميص احتياطي، وقررنا لكافة الاحتمالات إيداع الحقيبة في مستودع حفظ العفش الكائن في الفندق. وشرعنا في الاحتفال بمخالفة الحظ لي، مباشرة في غرفتي المتواضعة الرائعة ذات السرير الواحد، حيث فتحت القفينة التي جلبتها معي لكافة الاحتمالات، من مشروبنا الروحي التقليدي -«العسلية القوية»، الذي تبلغ فيه نسبة الكحول 30 درجة. بعد أن شرب كل منا نصف قدح، قررت سحب المجلة التي نُشرت الصورة التي أفتخر بها،

صورة لينكا نادوتوشي ذات الحظ التعيس، ومصممة الأزياء الراكعة عند قدميها، التي من المحتمل أن تكون هي التي حاولت إصابة الفاتنة بالبرد، وبصمتٍ وضعت المجلة أمام فاليري.

ألقي نظرة على الصورة بعدم اهتمام، ثم قرّبتها من عينيه، على الرغم من أنه من غير الممكن رؤية صور إضافية، ومن ثم وضع المجلة جانباً، وصافحني بالضغط على يدي، قائلاً:

- عمل ممتاز، يا زميل، يشعر المرء أن المكان مألوف لديكم، والعلاقة بين السيدات مفهومة...

ولم تُفاجئني مخاطبته لي بالإسلوب القديم «أنتم» بدلاً من «الشيخ» المعتادة، فضلاً عن أنه لم يخطر ببالي على ما يبدو أن يتحوّل لمخاطبتي بصيغة «أنت»، واستمرّ يخاطبني بصيغة «أنتم».

كما اتضح لي أنّ فاليري لم يلتقط صوراً لأزياء الموضة والحياة التي تجري حولها، ولم يكن ولو مرة في دور عرض الأزياء. وطفقتُ فوراً أروي له حكاية سقوط عارضة الأزياء لينكا نادوتوشي وصعود جالكا، ووصفت بكلمات منمقة ظهور لينكا الفاضح، عندما كنت في مكتب يوركا، في هيئة طبيعية، وصراخها. ابتسم فاليري، وهزّ رأسه، وحينما اختتمت الحكاية، توصل فاليري إلى الاستنتاج الذي كنت أميل إليه، بيد أنني خشيت تنفيذ الفكرة.

- هذا ما ينبغي تصويره، يا صديقي - قال بحزم وثقة - إنّ هؤلاء الفتيات مستعدّات عند استيضاح العلاقات المرتبطة بالعمل، للظهور كما ولدتهن أمهاتهنّ، غير مباليات بأجسادهن، وإذا ما تمسكن بهذه اللحظة... هل تطالع مجلة «الصور الفوتوجرافية التشيكية»؟ من المؤكد أنهم كانوا سيأخذون مسلسلاً من مثل هذه الأعمال.

في ذلك الوقت، كان المصوّرون الفوتوجرافيون يستخدمون كلمة «عمل» بدلاً من «نيو» الأوروبية الحالية التي تشير إلى العري، وعابنوا الصور الأجنبية بوجل، وبيع بعض الحرج، ولم يجرؤ أحدٌ تقريباً على التقاط صورة لجسدٍ عارٍ... كانت حياة مدهشة! لقد دخلوا حقاً وفي الوقت نفسه، قاموا في الأسر غير الزوجية بممارسات عجيبة، لا يمكن وصفها بالكلمات حتى يومنا هذا...، بيد أنّي لم أقرر التقاط صورة عارية لصديقتي الطيببة تانيا، على الرغم من أنّها كانت مستعدّة لأي شيء من هذا القبيل، وليس على ما يبدو أن الأمر كان مخجلاً، بل كان مُخيفاً لحدّ ما، كما لو كان بميسور شخص ثالث، متسلّط وصارم أن ينظر من خلال عدستي.

ولدى مناقشتنا لإمكانيات التقاط صور مختلفة تماماً عما فكّرت منذ فترة طويلة، لمسلسلات «دار الأزياء»، وأفاق إرسالها إلى الرفاق التشيكوسلوفاكيين لمعرفة رأيهم فيها، انتقلنا من فندق «روسيا» إلى حدّثة أخرى، للعمارة الهندسية الجديدة في موسكو الكائنة في شارع كالينين. هنا، في إحدى ناطحات السحاب، تمّ افتتاح مطعم «بينشورا»، ووفقاً للشائعات التي وصلت إلى مدينتنا، عزف فيها الموسيقار العظيم كوزلوف وعابرة الجاز الآخرون، وكان الجوّ حسب الشائعات مذهلاً للغاية...

هناك انتهت الأمسية. توادعت لفترة طويلة، مع فاليري في مكان ما بالقرب من المترو، ثم ذهبت إلى الفندق مشياً على الأقدام لفترة طويلة، ووقفت في الساحة الحمراء وسط الرياح الباردة، لكن ذلك لم يساعد في استعادة صحتي، ووجدت الغرفة في الفندق بمعجزة. سقطت على الملاءات النظيفة دون خلع ملابسني.

وفي صباح اليوم التالي، اكتشفت برعب عدم وجود صندوق معدات التصوير، ثم تذكرت بأننا سلّمناه إلى مستودع حفظ العفش. وفيما كنت أتصعب عرقاً بارداً، ذهبت للبحث عن مقصف. قدموا هناك - ويا للعجب! - جعة تشيكية... نعم، إنّ موسكو هي موسكو. جلستُ إلى الطاولة، صببتُ القنينة بأكملها في قرح طويل، وشربت نصفها بدفعة واحدة.

تألفت، «كاتدرائية فاسيلي بلاجيني» خارج النافذة الضخمة، وسبحت في السماء غيوم منفوخة، والجوّ مفعم بضوء ساطع، يؤذن ببداية يوم خريفي دافئ.

لم يكن بوسعي تذكر هذه الرحلة، لو لم تسفر فكرة تصوير عارضات الأزياء نصف عاريات، عن عواقب شنيعة، غالباً ما أتذكرها الآن، بعد مرور أربعين عاماً تقريباً.

في ذلك الوقت وأنا جالس في بوفيه الفندق، سبحت الحياة بسهولة، مثل غيمة، وكذلك مثل غيمة غيرت خطوطها بصورة غير محسوسة، بيد أنني لم ألاحظ هذا، واحتسيّت الجعة.

مضى التصوير في دار عرض الأزياء، بأسهل مما توقعت.

توقّفت الفتيات على الفور تقريباً عن الالتفات لي، وأصبحت كجزء حتمي من بيئة العمل. وبينما كنّ ينشرن أذرعهنّ على هيئة صليب، ويقفن ساعات على المنصة، حيث يعملن على وجه الدقة كعارضات أزياء، أي دُمى حيّة (مانكين) لعرض الأزياء، قامت مصمّمات الأزياء بقياس وتعديل الملابس عليهنّ. ولم تكن صالة العرض في الأوقات العادية، مجرد مستودع للفساتين والمعاطف الجاهزة «مُخيطة»، كما تُسمّى بلغة أهل الصنّاع الملابس التي تمّت خياطتها، ولكن أيضاً غرفة قياس. والمنصة عبارة عن ممشى خشبي، سُمّي بلغة أهل الصنّاع «لسان»، مؤلّف بطريقة أو أخرى من عدّة ألواح متصلة ببعضها، ومُغطّى بقطعة قماش جوخ رمادي سميكة، يمتد من باب منخفض في أحد الجدران، إلى الجهة المقابلة تقريباً، وتعلّق في نهايته على فراغ، وبهذا الشكل كان بالفعل يشبه اللسان. وكانت القاعة ذات يوم غرفة ضيوف كبيرة، بسقف مزخرف بالجص، وبصورة يوكيبيد، وخلف القاعة باب منخفض لغرفة ضيوف صغيرة، حيث قامت عارضات الأزياء، وهنّ يتدافعن، بتغيير ملابسهنّ أثناء العروض، وفي أيام العمل حُزنتُ فيها الأقمشة وغيرها من الأشياء التي لا شكّ في قيمتها، وأغلقت بالأقفال المختومة بالشمع.

لم يعترض يوركا أيضاً على قيامي بالتقاط الصور لعارضات الأزياء، وعلى العموم لم يستمع إلي باهتمام شديد، وغمغم بأنه، على ما يبدو، قد التقى في موسكو بشكل عابر مع بيريفوز تشيكوف، وتشتت انتباهه على الفور، وسارع إلى غرز الدبابيس وتثبيتها في تحفة جديدة.

استقبلتني جالكا أثناء تصويرها، بتوتر أكثر، اقشعرّ جسدها، وسترت نفسها. ربما أن علاقات الصداقة عقدت الوضع، فوقوف صديق عارٍ أمام المُصوّر، أصعب من وقوفه أمام الغريب. وبنفسي شعرت بالإحراج ليس لأنني خجلت، وإنما خشيت من الشعور بأن عملي غير مقبول. لقد استقرّ الرعب السوفيتي من التعري عميقاً في داخلي....

زحفتُ بين الأقدام منتقلاً من كعب إلى كعب، لمُعذّبةٍ أخرى، وصعدت تقريباً إلى ارتفاع الثريا بحثاً عن أعلى نقطة، وبدا أن عارضة الأزياء بدأت تغفو أثناء وقوفها، وكانت المصممة تضع الدبابيس في الحواف لتثبيتها وتطوي الأخرى، غير منتبهة لي، هؤلاء النساء لايهتمن بأي شيء على الإطلاق، باستثناء عملهنّ المدفوع على القطعة، واحتساء الشاي مع الكعك في كل ساعة. ورحت ألتقط بلا نهاية، مئات الصور، حتى يبتابني الشعور بالإغماء...

احتفظتُ عند صديقتي الطبية تانيا، بالصور الجاهزة المطبوعة على ورق مقوى كبير الحجم، كما لو كنت أستعدّ لمعرض، رغم أنني واثق من أنه لن يُقام أبداً. إنّ تانيا فتاة غير اجتماعية، لهذا فإن الاحتفاظ بإنتاجي هناك يوفّر الأمن له، ولا يوجد أحد في المنزل سواي، ونادراً جداً ما يزورنا أصدقاؤنا المقربون جداً، وبشكل غريب لم يبق لدي خلال الأشهر الأخيرة غير قليل من الأصدقاء. ولم يزرننا أحد غير يورا وجالكا، فضلاً عن العجوز ناوميتش، الذي توثقت علاقتي به بعد الرحلة إلى المدارس الريفية، على الرغم من فارق العمر بيننا بـ 15 عاماً، وربما أكثر. تطّعت ناوميتش باهتمام إلى الصور الموضوعّة على الأرض، وعلى امتداد الجدار، وجلس القرفصاء أمام كل واحدة منها، ومن ثم صبّ لنفسه قدحاً، وتنهّد قائلاً: «يا شباب، ما زلتتم تتمتعون بالقوّة والرغبة في ممارسة الفن...»، وفيما يتعلّق بيوركا وجالكا، فقد نظرا إلى الصور، إلى حدّ ما، من دون مبالاة، على الرغم من أن يوركا كان في كل مرة يرى أعمالاً جديدة، يرفعها من الأرض، ويتفرّس فيها، يبعدها عن عينيه لمسافة طول ذراعه. وفي نهاية المطاف لم أتمكن من ضبط نفسي، وتمتمتُ له: «قل، ولو شيئاً ما...» رنا لي بدهشة، ومن ثم هزّ كتفيه: «أنت فنان ناضج، ما حاجتك إلى إطرائي؟ بميسوري أن أقول شيئاً واحداً؛ في رأيي يجب أن يُقدّر المحترفون هذا العمل...».

غمرتني عبارة «فنان ناضج» بسعادة غير متناهية، بالرغم من أنني حاولت عدم إظهار ذلك. لقد قضينا وقتاً ممتعاً في ذلك المساء، شوّث تانيا لحم الخنزير المُتبّل، الذي طهّته بشكل مثير للدهشة، وشربنا قنيتين من الكونياك بشكل غير ملحوظ، وغادرتنا الشابان في الساعة الثانية، لالتقاط سيارة عابرة تنقلهما إلى منزلهما. وقبل أن تغادرنا، نظرت جالكا في الصورة، التي تقف فيها كالعادة على هيئة صليب مع يوركا، أما هو فزحف تحتها على ركبتيه، مرة يتطلع، ويبتعد، ومرة يقارن البدلة الجاهزة مع الرسم التخطيطي، الذي كان يحمله بيده، وكعادته، أبعدته عن عينيه على مسافة بطول يديه...، «لا تعرض هذه الصورة؟ سألتني جالكا، وهي تربط حذاءها في الممرّ، لا تعرضها؟». ابتسمتُ لها فقط:

أين بميسوري أن أعرضها، هل في قاعة اتحاد فناني المقاطعة؟ حيث لا يسمحون لي، حتى بتخطي عتبها! قلت لها، وأنا أربت على ظهرها النحيف: جالكا، لا تقلقي لن تكون مثل هذه المعارض إبان حياتنا.

ولكن في الوقت الذي أخفيت الصور عند تانيا، فإنني كما قلت سابقاً، كأحمق، كنت أحمل معي باستمرار، شريط الصور السالبة. وكانت تتدحرج في قاع الحقيبة علباً، حَوَتْ لَقَات الصور السالبة التي تَمَّ التقاطها على شرائط ممتازة من صنع ألمانيا الديمقراطية، كنتُ أستعملها فقط للصور الفنية حقاً، أما اللَقَات غير المستوردة، السوفيتية الصنع، فقد طويتها في ورق مُفضَض، وحملتها في جيوبي...

ذات مرة احتفلنا في مقر الصحيفة بعيد ميلاد أحد الزملاء، في الغرفة الكبيرة للسكرتارية، حيث كنَّا نقيم حفلات الشرب. انتهى الشراب بسرعة، حينها هرعنا بالتناوب في وقت متأخر إلى الشارع، لشراء المزيد من الشراب من سائقي التاكسي، وحن دوري كي أذهب، وغبتُ حوالي نصف ساعة، فقد صادفتُ سائقي تاكسي جشعين، طلباً سعراً خيالياً، وفي النهاية ساومت على شراء قنيتين بخمسين روبلاً، وعدت بصدر سترة منفوخ، فقد أخفيت كلا القنيتين في الجيوب الداخلية، حتى لا تجد المناوبة عند المدخل، حجة شكائية للمحاكمة معي، وأن يتيسر لها التظاهر بأن التحرير في حمى العمل الإبداعي الليلي.

عندما عدت، وجدتُ الغرفة خاوية، إمّا لأن المحتفلين تعبوا، أو أنهم لم ينتظروني، وذهبوا إلى منزل أحدهم لمواصلة الاحتفال. وكانت على الطاولة، المغطاة بخطوط قديمة ورسوم ممسوحة، قناني فارغة من الشراب الأبيض القوي، وعلب خيار مملح محلي الصنع، وكانت تطفو في الخَلّ العكر عيدان الشبث، وتكوّمتُ في الصحون المتكسرة أعقاب سجائر مدعوكة، اختلطت مع قطع الخبز والنقانق...، وفي وسط الغرفة جلس المدير التنفيذي فيتيا ماننسيفيتش، وقد جعل ظهر الكرسي للأمام، وامنتاه، وكأنه يمتطي حصاناً، وكان يدخن، وأشاح بوجهه نحو الباب. على ما يبدو سيمضي الليلة هذه المرة أيضاً في مكتب التحرير، ولذلك لم يكن في عجلة من أمره. وبادرني السكرتير التنفيذي:

- أين كنتَ؟ لقد تأخرتَ طويلاً، وذهب الجميع، إن رئيسك بيلياكوف لم يوبخك، أنت غير فعّال، وبطيء يا شيخ،... ولكن هيا، ليشرب كل منّا القدر الأخير؟

ووفقاً لما اقتضته تقاليد التحرير الصارمة، صبَّ كل واحد منّا لنفسه كأساً، وشرب. تنفستُ الصعداء بعد أن أخذت الكأس، واقتصرت عليه، نظراً، لأنني رأيت أنه لم تعد هناك مازة، إمّا ماننسيفيتش، فكد يسبب لي الغثيان، حين سحب من تحت منفضة السجائر قطعة نقانق، وراح يمضغها بهدوء. ولم أرغب على الإطلاق في أن أشرب معه ثانية، حملتُ حقيبتني التي قبعتُ في الزاوية، وألقيتُ حزامها على كتفي، وأومأت له من بعيد كما لو أقول له، إلى اللقاء. بيد أن فيتيا نهض على عجل، وأبعد الكرسي قليلاً، كما لو كان فارساً بالفعل، وكاد يقترب جداً مني، وبصورة مفاجئة أمسك يدي بمكر، وهزّها بقوة، وكأنه يتوادع مع أقرب صديق له. وقال بغتة بانفعال، وتأثر:

- إلى غدٍ يا شيخ، كُنْ بصحة ونشاط، أفهم؟ إن النشاط هو الشيء الرئيسي في عملنا، أفهم؟ إنَّ القارئ والرئاسة سيعربان عن الشكر على النشاط، أما على الكآبة والتشاؤم، فيمكن الحصول فقط على وسام على العجز...

في الوقت الذي أدهشني هذا الخطاب الفلسفي، أومأت برأسي مرة أخرى بصمت، وسحبت بحذر راحة يدي من يده، وبعد خمس دقائق اتجهت بسرعة بخطوات منتظمة، وسريعة إلى المنزل تعين عليّ أن أسير مشياً على الأقدام حوالي ساعة، إذ لم يكن بحوزتي نقود لدفع أجرة تاكسي، أو سيارة عابرة.

أتذكر ذلك اليوم تماماً، كان من أيام نهاية الصيف الساحرة، حين تغدو السماء في مناطقنا الحارة، باردة ومشرقة، ويبدأ العالم في التآلق، كما لو كان مغسولاً بشكل جيد استعداداً لعيد.

بعد فترة من ذلك اللقاء، أسرعت إلى مقر الجريدة، لحضور الاجتماع الكبير الذي يعقد كل يوم اثنين، اندفعت إلى مكتب التحرير على مشارف الدقيقة الأخيرة، وانطلقت في الدهليز، على أمل اللحاق للجلوس في مكتب رئيس التحرير، حينها ظهر في الدهليز فجأة الرئيس نفسه، وهو شخص قصير القامة، وشخصية ممتلئة، بطل المقاطعة السابق في رياضة حمل الأثقال من الوزن المتوسط. توقفت بصعوبة، وأصبحت وجهاً لوجه مع فلاديمير إيفانوفيتش كاشينسكي، رئيس تحرير الجريدة الناطقة باسم لجنة اتحاد الشباب الشيوعي اللينيني.

فولوديا كاشينسكي هذا؛ كان رجلاً طيباً، لطيفاً، لا يميل للوقاحة، على سبيل المثال، على عكس المحرر الأسطوري لصحيفة المقاطعة الحزبية، بشكل عام إنه غير مؤذ. كان نادراً ما يأتي إلى إدارة التحرير، كما ينبغي على أي رئيس تحرير طبيعي، حيث يتواجد بشكل رئيسي في اجتماعات المقاطعة العامة والمكاتب السياسية، ويلقي كلمات في اجتماعات النشاط، ويمكن رؤيته فقط في اجتماعات بحث الخطط الصباحية، حيث يجلس بعيداً عني، أنا الذي أعمل خارج الملاك، خلف عارضة الطاولة التي لها شكل حرف T. وكان هناك نظام على الشكل التالي؛ يجلس خلف العارضة، أي خلف مكتبه، مدير التحرير، وعلى جانبي الطاولة أعضاء هيئة التحرير ورؤساء الأقسام، وعلى الكراسي على امتداد الجدران بقية العاملين، أما الذين يعملون خارج الملاك، فيراوحوون واقفين في مكانهم عند باب المكتب، ويغادرونه عند استلام واجباتهم...

- متأخر؟

سألني رئيس التحرير بنبرة لطيفة دون أن يذكر اسمي، من الواضح أنه لم يتذكره، وأضاف:

- أنا بحاجة إليك بالذات... المسألة لا تستحق الغم... ولكن الذين يمتلكون النقود، ويشغلون مناصب رفيعة ويعتمد عليهم مصير الآخرين، مهتمون بك، هل تفهم؟ بعد الاجتماع اذهب إلى ماننسيفيتش، سوف يشرح لك...

كان فولوديا كعادته: يعشق الأمثال والأقوال المأثورة والعبارات، في الوقت نفسه يتلاعب بالألفاظ بشكل غريب، محدثاً تأثيراً ساخراً غير مقصود تماماً. العبارتان الرائعتان الحاليتان، لم تكونا الأكثر إثارة «لا تستحق الغم»، بدلاً من «لا تستحق الهم»، و«من يملك النقود» بدلاً من «أصحاب النفوذ»، لم تترك انطباعاً تقريباً لدي، ولكن العبارات تركت تأثيراً خارقاً، حينما صرخ ذات مرة

بوجه رئيس قسم الشباب العامل، لارتكابه دفعة واحدة خطأين: «سأخبره بقوة» كتم جميع أعضاء هيئة التحرير أفواههم، وارتعشوا، فَنَقَلْتُمْ عَضَلَاتُهُمْ بِشَكْلِ لَا إِرَادِيٍّ، فقد جمع بمهارة فائقة بين «أخبره بقوة» و«أجبره بقوة».

دَلَفْنَا مَعاً إِلَى قَاعَةِ هَيْئَةِ التَّحْرِيرِ، عند ذلك نظر مانتسيفيتش إلينا باهتمام عَبَرَ المَكْتَبِ، وكما خُيِّلَ لي، بوجل، فضلاً عن أنه، ولسبب ما أو ما لي إيماءة خاصة. فَكَّرْتُ لبعض الوقت، ماذا حدث، ومن هي الرئاسة التي يمكن أن تهتم بشخص، لا أهمية له مثلي يعمل خارج الملاك، ولكن انصرف انتباهي بعد ذلك، نظراً لأن الحديث تناول سلسلة التحقيقات المصوّرة من منشآت شباب كمسؤول المقاطعة، ومن الضروري أن أواجه بكل الوسائل توزيع العناوين على المصوّرين، حتى لا يرسلوني إلى أبعد مؤسسة معزولة عن السكك الحديدية، ووعرة. حتى إني نسيت لبعض الوقت المحادثة القصيرة التي دارت مع مدير التحرير، بيد أن مانتسيفيتش بنفسه ذكّرني بها. أمسكني، كالعادة من يدي بقوة، وانتحى بي في غرفته، وأجلسني، وجلس هو خلف الطاولة مقابلي، وطفق يتحدث، وهو يُحَدِّقُ في عينيّ بنفس التعبير المهتم والخائف:

- هناك قضية يا شيخ، عليك الذهاب بسرعة إلى اللجنة التنفيذية للمقاطعة.

نظر في التقييم على المنضدة، حيث سُجِلَتْ كيفما اتفق أرقام هواتف وألقاب. وتابع:

- اذهب إلى الغرفة رقم مئتين وخمسة، هل فهمت، هناك تجلس تمارا ألكسييفنا بينتشوك، تذكر اسمك في صالة الاستقبال. ينتظرونك هناك، هل فهمت؟

- لم أفهم قاطعته بشكل غير لائق، ماذا بحق الجحيم نسيت في اللجنة التنفيذية؟ مَنْ تكون تمارا هذه؟ - ماذا؟.. يجب التقاط صورة لها؟ لمقابلة صحفية، صورة؟ أم ماذا؟

اذهب يا شيخ، إلى ما قيل لك أجب مانتسيفيتش بهدوء وعلى نحو مدهش بصبر، كما لو يتحدث لمريض: هناك سيشرحون لك، ما المطلوب، صورة أم شيء آخر. هل تذكرت؟ غرفة مئتين وخمسة، تمارا ألكسييفنا.

... وجدت خلف الباب الذي يحمل الرقم مئتين وخمسة، وعليه لوحة «ت. أي. بينتشوك» من دون الإشارة إلى المنصب، صالة استقبال صغيرة، جلست فيها، وسط الأصص، وحتى حوض خشبي مع الزهور، كما لو جلست في مستنبت زجاجي، سكرتيرة عجوز نحيلة، بأنف طويل بشكل مدهش وقوي، مثل منقار غراب، وعموماً كانت تشبه الغراب، وحتى تنظر جانباً، شزراً. وبعد أن سألتني عن كنيّتي، وفحصت بطاقة هويتي، ذهبت إلى بابٍ مُغْلَفٍ بغطاء مشمع، ومن الواضح أن خلفه كان مكتب تمارا ألكسييفنا، وبعد ثانية عادت، ودعتني بإشارة خرقاء أيضاً، كحركة الطيور، إلى المكتب.

كانت المديرية، على عكس السكرتيرة الشبيهة بطير، امرأة عادية جداً، من النمط الذي غالباً ما يلتقي فيه المرء بمدينةتنا الجنوبية. كان قدّها مكوناً من كرات مختلفة الأحجام، عندما اندمجت بعضها ببعض شكّلت قواماً أنثوياً، حتى جذّاباً، بخصر ارتسم بشكل جيد، وغيره من التفاصيل،

صفوة القول؛ كانت جميع الأشكال واضحة، في أقصى شمال بلادنا، تكون بنية مثل هذا الجسم بلا شكل محدد. واعتلى بدنها رأس لائق؛ تسريحة عالية، بشعر مصبوغ بلون نحاسي داكن، وقسمات وجه صحيحة، ربما شبيه بعض بالشيء بوجه البط، ولكن يمكن وصفه حتى بالجميل، لو لم يكن يهتز حول الوجه نفسه لحم إضافي كثير، يجعل السيّدة، كما لو كانت تنظر من خلال وسادة. إنّ هذا المظهر كان يُميّز الكثير من القيادات الحزبية النسوية في مدينتنا، وكذلك البائعات في المتاجر، والمعلمات، على العموم كل النساء اللواتي يمتنعن بسلطة. في الماضي، وكقاعدة عامة، كان لهنّ شباب كمسولي عاصف، مقرون بتجمعات النشاط البهيجة، وفي الوقت الحاضر في كثير من الأحيان، إنهنّ عازبات، وإذا كنّ متزوجات، فإن مكانة الزوج في المجتمع محفوفة ببعض الغموض، إذ تبدو مكانة مهمة، ولكنها غريبة، مثلاً مدير دار سينما أو مسرح، أو مدرب فريق المدينة للكرة الطائرة...

أومأت تمارا ألكسييفنا لي، من دون أن ترفع عينها عن الأوراق على الطاولة، وأشارت بيدها بصمت إلى كرسي، كان لسبب ما في وسط الغرفة تقريباً، وليس أمام الطاولة، كما هي العادة في المكاتب. كانت بالقرب من المكتب الكبير، طاولة صغيرة وعلى جانبيها كرسيان للزوّار. جلستُ، ووضعتُ حقيبة معدات التصوير، بالقرب مني على الأرض، وشعرتُ بأنّي في دعوة استجواب، وهو المطلوب كما يبدو.

ابتسمتُ لي تمارا ألكسييفنا بشكل غير متوقع، وكشفت، كما كان متوقّعاً، عن الكثير من أسنان ذهبية في فمها، ونظرتُ مرة أخرى إلى الأوراق على الطاولة، ونادتني باسمي، واسم والدي:

- دعنا لا نطيل الموضوع، دعنا ندخل على الفور في الموضوع. هل توجد لديك صور أخرى؟

- أي أخرى؟

ارتبكتُ جداً، لدرجة أنّي أتذكر بشكل سيئ تقريباً، ومن دون تفاصيل، كل ما حدث في المكتب بعد هذه الكلمات:

- أي أخرى؟ بمعنى أي صور؟

- ما عدا هذه.

قالت، وهي تتمتع بشكل غير مفهوم، التقطت المسؤولة السمينة من الطاولة الأوراق التي تفحصتها عندما دخلتُ، وجعلتها في حزمة، وبغثة وبشكل غير متوقع تماماً، هرعت بعجلة من وراء الطاولة، وأصبحت قريبة جداً مني، حتى انحنيت إلى الوراء، وتأرجحت على أرجل الكرسي الخلفية، وأردفت، وهي تهزّ الحزمة أمامي:

- هذه، يا شاب.

رأيت أوراقاً مطبوعة، عليها صور صغيرة الحجم، نسخ أولية لصور موجبة صغيرة، وومض أمامي مشهد تعرّفت منه على الفور، أنها الصور التي التقطتها لمسلسلي «دار عرض الأزياء»، وفهمتُ، أن في هذه الحزمة، الفتيات شبه العاريات، وجالكا المغتمة، ويوركا الزاحف على ركبتيه على المنصة، ومن غير المناسب أن تُشاهد في مكتب اللجنة التنفيذية.

إن تمارا ألكسييفنا بينشوك، كما خمنتُ، هي رئيسة دائرة الصناعة الخفيفة واللجنة التنفيذية في المقاطعة، التي يخضع لها يوركا وداره لعرض الأزياء. في غضون ذلك طلبتُ مني صوراً أخرى، موضحة: «أنت تعرف جيداً بنفسك أنّ هذه المشاهد، أي هذا الفحش الذي التقطته، لا يستأثر باهتمامنا، لكنك تعرف ما نشر إستومين هناك، وهذا يستأثر باهتماماتنا، لأن هذا شيء غير أخلاقي، بل وإجرامي، أنت بنفسك تعرف... ولسبب ما، أصرت على التعاون في بعض القضايا القذرة. وكان الرؤساء دائماً يشيرون إلى أننا بأنفسنا نفهم كل شيء. وفي هذا على ما يبدو تجلّت بصدق قناعتهم العميقة، بأن جميع المحيطين بهم أوغاد مثلهم، والفرق فقط في أنهم لم يتمكنوا من التسلّق في السلم الوظيفي مثلهم.

كيف وصلت الصور إلى هنا، فكّرتُ بصورة مشوشة، وأنا مشدوه من إلحاحها، وأهزّ رأسي بصمت، وأشدّ كتفي رداً على قولها: «يجب أن تفهم بنفسك»، وهي تلعب بالأوراق التي طبعت عليها الصور بحجم صغير، وقامت بدسّها في يدي قبل أن تعود إلى الطاولة، والجلوس مرة أخرى هناك بكل كراتها. كيف وصلت الصور إليها، ومنّ قام بطبعها بالحجم الصغير... ربما، لو لم يكن تفكيري مشوشاً على هذا النحو، لأدركت بسرعة كيف وصلت الأشرطة، ولكن قدراتي العقلية كانت مشلولة في هذا الظرف. وأخيراً، انحنيتُ، وقمّنتُ بدسّ يدي في صندوق معدات التصوير، ورحت أنقب فيه، وفتشت طويلاً دون طائل، أصبح مفهوماً لدي على الفور عدم وجود الأشرطة هناك. كم كان عددها؟ حوالي 15... بلى، وها هي في الواقع كلها مطبوعة بحجم صغير على الورق... ولكن كيف... من استطاع... كل هذا بالطبع موجّه ضد يوركا، ولكن من استطاع...

إن حالة الدهشة والتحير التي سيطرت عليّ، يمكن أن تُفسّر شكوكي في الدقائق الأولى بتانيا. ولكن حتى في ظلّ مطالب الرئيسة بصوت صارخ، فهمت بنفسني على الفور، وطردتُ هذه الفكرة بسرعة. لم تستطع تانيا القيام بهذا العمل، وليس لها حاجة به.

وأخيراً فتحتُ شفّتي -يجب أن أعترف- المرتجفة، وقلت لها:

- ليس لدي أي صور أخرى غير هذه، وهذا هو المسلسل الذي أعدّه لمجلة «الصور الفوتوغرافية السوفيتية» أدركت بأن عليّ الالتجاء للكذب، فذكرُ مجلة «التصوير الفوتوغرافي» التشيكية قد ينشر حفيظة السيّدّة تماماً، وحتى هذه الصور السالبة قد ضاعت. على الأرجح تعرفون من...

ضربت الطاولة براحة يدها المنفوخة، التي حرّت أحد أصابعها الغليظة «دبلة» رقيقة، غير متكافئة معه، وانبرت تقول:

- نحن نعرف كل شيء!.. وعلاوة على ذلك تريد إرسال الصور إلى مجلة «الصور الفوتوغرافية السوفياتية»... وتستعد لجلب الخزي على المقاطعة في موسكو، من سيسمح لك بهذا؟! قُلْ شكراً، لأننا... رحمنك... باختصار هل توجد صور أخرى؟

نهضتُ واقفاً، وأخذتُ صندوق معدات التصوير، وراوحت للحظات في مكاني، ثم رميت بأوراق الصور الصغيرة على مكتبها، وانزلت ورقة منها إلى الأرض. وتصرفتُ بهذه الطريقة، ليس لأنني أصبحت أخيراً أكثر جرأة، ولكن قواي نضبت تماماً.

وداعاً، تمارا ألكسييفنا كنت أقف عند الباب، وكلما ابتعدت طاولتها عني أصبحت أكثر هدوءاً أمل أن يتم إرجاع أشرطة الصور السالبة إلي، فأنا أخطط لإقامة معرض، وأحتاج بالذات إلى هذه الأعمال. إن هذا سيكون معرضاً فنياً... لفظت الكلمة على مقاطع، لقد اطّلع عليها بعض فناني التصوير المشهورين في موسكو، ونالت موافقتهم. مع السلامة.

كدت في دهليز اللجنة التنفيذية أن أصطدم بامرأة ذات مظهر عجيب، كانت تسير نحوي بسرعة. لم تكن من نساء اللجنة التنفيذية، في منتصف العمر، ذات جمال لا تشوبه شائبة. كانت تلبس بأناقة غير مألوفة في هذا المكان. كانت تسريحتها، حسب الموضة، قصيرة مرفوعة بشعر مقصوص ناعم داكن، مع خصلة طويلة في مقدمة الرأس، وكانت ببدلة رمادية داكنة، مصنوعة من قماش جيرسيه، ناسبتها بشكل مذهل، ومن الواضح أنّ البدلة من ماركة تجارية معروفة، وكانت بحذاء معتم من جلد لَمَاع، متفق مع أحدث طرز الموضة، على كعب سميك ذي شريط طفولي... ليأخذني الشيطان، فكّرتُ، ماذا تعمل هذه اللوحة هنا؟ من أين ظهرت في منطقتنا؟ بيد أن المرأة غمغت بالاعتذار، ونظرت في وجهي ببعض الاهتمام، وفسحت لي الطريق. وعلى الفور نسيّتُ هذه الحادثة العجيبة، لم يكن لدي وقت لها.

أدرتُ ما جرى معي في ذهني إلى ما لانهاية، محاولاً تحليل ما حدث. ساعدني الحدسُ في مثل هذه الحالات الخطيرة، وبشكل أكثر دقة، ساعدتني غريزة الجُبْن. وأدركتُ بعد أن خرجت من اللجنة التنفيذية، وهبطت في الشارع الكبير، إنّ كذبتني، التي ظهرت على أساس التعارف مع بيريفورتشيكوف بشأن «فناني موسكو» كانت مناسبة. إن الإحالة إلى السلطات العليا في العاصمة، قد فعلت مفعولها في مناطقنا النائية الوجيهة. يمكن أن يعيدوا لي الصور «النيجاتيف»، كل شيء جائز... على أي حال، لم أخطر بأي شيء إضافي في حالتي، من المؤكد سيفصلون المصوّر المتمرد، الذي يعمل خارج الملاك، ويمكن أن توفّقهم فقط الخشية من علاقات هذا الوقح في موسكو. فالوقاحة لا بدّ أن تكون معتمدة على شيء ما...

فقط في طريقي إلى مكتب التحرير بدأت أرتجف حقاً.

لم يكن هناك أي شكّ في أنني فقدت عملي، ولن تساعدني أي تلميحات غامضة عن علاقتي في العاصمة. وكان من المفترض أن يتم قبولي بعد شهرين عضواً في اتحاد الصحفيين، الذي سمح لمصوّر خارج الملاك بالانتماء له، ولم يحسبه طفيلياً على المجتمع، أما الآن فلن يقبلوني أبداً. والشرطة، التي سيبلغها أعضاء هيئة التحرير ذو النوايا الطيبة، بإنهاء عملي وفقاً للعقد، ستهتم بي كطفيلي كسول، وستعرض عليّ الالتحاق فوراً بعمل ما. وفي أحسن الأحوال سأجد وظيفة في

مكتب هزيل، أحسد عليها، أو كمصمم مبتدئ براتب تسعين روبلاً، وفي أسوأ الأحوال سأعمل حملاً في متجر ضمن مجموعة مرحلة من الصعاليك والمهمشين. انتهت الحياة...

لم تطراً في رأسي الهائج للغاية حتى في الأوقات العادية، أية قرارات متطرفة، مثل السفر إلى الأصقاع النائية للعمل، أو الهروب إلى موسكو بهدف غزوها. إن رومانسية الطرق البعيدة توجد في السينما، حيث لا يوجد تسجيل اسم النزول، ولا إدارة شؤون الموظفين، ولا التحقق من وجود تصريح لدى الشخص، للسماح له بالتعامل مع الوثائق السرية، ولا غيرها من الأشياء الواقعية. لقد حصلتُ على تصريح، ولم تُننّه مدّة سريان مفعوله، بعد أن تسرّحتُ من معهد البحوث، لذلك كانت الفرصة الأخيرة هي إعلان نفسي يهودياً أخفى هويته، والعثور، عبر عشرات الأشخاص، وعبرَ المحتشدين قرب المعبد اليهودي نشطاء العودة إلى الوطن التاريخي، على أقارب مزيفين في إسرائيل، ومغادرة معسكر السلام والاشتراكية إلى الأبد، لقد كانت حتى هذه الفرصة، لحلّ جميع المشاكل مغلقة أمامي. كانت بالنسبة لي مروعة، فإلى جانب الرأفة بالعجوزين، كان يجب أن يكتب الوالدان موافقة على سفر ابنهم، وإذا وقّع الأب على مثل هذه الورقة، فإنّ حياته ستستحيل إلى جحيم، وسيطرد من الحزب، ومن العمل قبل خمس سنوات من بلوغه سنّ التقاعد، وإذا لم يوقع فلن يسمحوا لي بالخروج. وسوف يسومونه العذاب على أي حال، على تربيته السيئة للابن... كما كانت كل ثاني مؤسسة، وجهاز حكومي في مدينتنا، تحمل صفة سرّي، لهذا لم يُسمح بالمغادرة إلا لعدد قليل من أبناء الطائفة اليهودية، التي شكّلت حوالي نصف سكان المدينة.

لم يراود الشكّ أي أحد في أن الأوضاع القائمة ستبقى إلى الأبد.

باختصار، لم يكن هناك منفذ، والطرق مكفهرة، مسدودة من كافة الجهات، وبينما كنت أرتقي درج ما يسمى بدار الصحافة، إلى الطابق الثالث حيث يقع قسمنا الشبابي، فكّرت بجدّ، بصدد الانتحار بالحصول من خلال تانيا على بعض علب الحبوب المنومة القوية. ولكن ينبغي التفكير في كيفية تخليص الطيبية المسكينة من المسؤولية. بمعنى الذهاب عدّة مرات إلى المستشفى، والتسجيل في البطاقة الطبيّة الشكوى من الأرق، والحصول على وصفة، ومن ثم لن يكون أحد ملزم، ولا بميسور أحد مراقبة عدد الحبوب التي أخذتها، وعموماً من الأفضل ألا أراجع عيادتها، بل عيادة طبيب أمراض عصبية غريب...، ومن ثم الذهاب إلى منتزه الكسمول الواقع على الجانب الآخر للنشاط، وهناك في ممرّ ما بعيد، أبتلعها كلها، وأشرب قنينة فودكا عليها، لكي يكون كل شيء واضحاً، وعدم اتّهام أحد، عند التحقيق بسبب انتحاري...

إن منطق خطتي، وتأملي بيرهن على أنّي كنت في حالة سيئة.

حينما صعدتُ إلى مكتب التحرير، استندرت فوراً إلى الزاوية، التي تمّ حجزها بسياج فصلها عن الممرّ، وفُصلت من إحدى الجهات بجدار من الخشب المعاكس، لم يبلغ السقف، ومن جهة أخرى، حيث يوجد باب يقود إلى السلم الثاني، مغلق دائماً. غضّ رجال الإطفاء النظر عن هذه الشناعة... كانت هناك عدّة طاولات صغيرة متداعية، ولم يجرّ إسنادها، لأيّ مُصوّر صحفي، وجرى استخدامها من قبل الجميع حسب الحاجة. أفرغتُ على إحداها محتوى حقيبتني من معدات التصوير، من أجل أن أقتنع تماماً بأنّ الأشرطة غير موجودة فيها.

بطبيعة الحال، إنّ الأشرطة لم تكن هناك.

في هذه اللحظة صمّ أدنيّ رنين التليفون الداخلي، فرفعت السمّاعة. كانت على الخطّ أولجا فاسيليفنا، سكرتيرة مدير التحرير، أقدم العاملات في الصحيفة، والتي نعرفها جميعاً حتى من دون أن نراها، ويناديها العديد بالعمّة أولجا. كان من المستحيل الخلط بينها وبين شخص آخر.

جلبت المتاعب لنفسك، بعملك المتهور؟ سألتني بنبرة حزينة، وأكدت بنفسها:

جلبت المتاعب لنفسك... طيب، تعال يا غبي إلى فلاديمير أيفانوفيتش، واستعدّ لنيل العقوبة...

تحدثت العمّة أولجا بطريقة فظة، كما لو كانت بالأسلوب الودي للفتيات، اللواتي أطلق عليهنّ «آلهة الكمسول» في فترة ما بعد الحرب، ومنذ ذلك الحين خَطَطْتُ للعمل كسكرتيرة لرئيس التحرير.

كان فولوديا مغتمّاً، ولكنه خرج من خلف مكتبه، وبأسلوب رفاقي لمدير ديمقراطي، هزّ يدي مُصافحاً، على الأرجح إنه لم يكن مشغولاً كعادته في الاجتماعات العامة، ولذلك فهو في مكتبه، وسعى للتعامل معي كما لو كنت بمستوى واحد معه، وبعد أن طلب مني أن أجلس في المقعد ذي المساند، عند طاولة تناول الشاي الصغيرة، جلس هو في المقابل مني، وتفرّس بي في تأمل واضح، ربما أن المسألة الهامة التي تمّ استدعاء المُصوّر من خارج الملاك لها، قد نُسبت خلال الوقت الذي كنت أسير فيه إلى مكتبه. بيد أن التعبير الحائر على وجه الرفيق كاشينسكي استحال بعد دقائق إلى قلق، وبادرني:

- كيف تمشي الأمور بشأن الصورة الجماعية لفريق العمل الشيوعي؟ -سأل بصرامة- بحلول مناسبة ثورة أكتوبر، يجب أن تكون لدينا جميع الصور، في مجموعة واحدة، سيكون لدينا عدد خاص، هل أبلغوك بذلك؟ الهدية ثمينة، بعد فوات الأوان...

وبعد أن أعطى هذه التحفة الجديدة للحكمة الشعبية المركبة، لاذ بالصمت، فبدل أن يقول الهدية ثمينة في الوقت المناسب، قال بعد فوات الأوان. لشدّ ما اندهشت، وأنا أفكّر لماذا يشرف رئيس التحرير بشكل مفاجئ على سير فعالية من الدرجة الثالثة، تقضي بالتقاط صور مطلوبة بعد شهر ونصف، ولا يستدعي لهذا الغرض المدير التنفيذي، أو كحالة قصوى رئيس القسم، بل موظّفاً لا قيمة له، من خارج الملاك؟ وقبل أن أسرع في الردّ بتلك الروحية الشاعرية، بأن العمل سيكتمل، وإنه جارٍ بالفعل، تعيّر الوضع تماماً. اكفهرت ملامح فولوديا، ومطّ شفته السفلى، إمّا بطفولية، أو بتكبر، مما كان يعني دائماً الغضب و«السحق حتى العظام...»، وانتقل لمخاطبتي بصيغة «أنتم»، وومضت في خاطري فكرة، ربما أن المحادثة معي من باب التدابير الاحترازية، وأن الدعاوى الحقيقية موجّهة ضد شخص ما، وقال:

- لقد اعتدتم هناك، اعتدتم شيئاً، فشيئاً على الفن، وعلى مختلف أشكال الهراء في أبراجكم العاجية، والصحيفة إذن، سقطت من حسابكم. في هذه الحالة سلّموا بطاقة هوية الصحيفة، ومارسوا

ولو فنّ التجريدا!

لم يتيسر لي أن أبتهج بعبارته «البرج العاجي»، حتى بهتُ من شدة صراخ فولوديا، وهو ينطق العبارة الأخيرة، وحتى تَفوّه بكلمات نابية، وهذا نادراً ما يحدث معه، وفي الحالات الفظيعة للغاية. فذات مرة شتمّ علناً كوليا من قسم الشبيبة الطلابية بكلمات نابية، وكان وراء ذلك مبرر، فقد خلط هذا في مادته بين معهد المناجم ومعهد الطبّ، وشمّ طويلاً الموظفين في معهد المناجم على إهمالهم، وهفوتهم في تحديد مَنْ الذي قام بالأنشطة الاجتماعية، والتي سجلت في الواقع لصالح طلاب كلية الطبّ. إذ إنهم أخذوا المعلومات من دفتر آخر... وفهمت كل شيء؛ لقد اتصلوا من اللجنة التنفيذية، والآن، سأسلم بطاقة الهوية، وسأكون مستقلاً، ومن دون أي مسؤوليات، وأفعل ما أريد. لم أظهر بأني لا أفهم، عمّ يدور الكلام. وطفقت أتحدث بحزم هستيري لحدّ ما:

- لقد سرقوا مني الصور السالبة، وأنا يا فلاديمير أيفانوفيتش، أعددت المسلسل، وحتى الآن لم أرسل أي شيء منه إلى أي مكان، إنه محاولة إبداعية... لا بدّ أن يكون قد سرقها شخص ما... إنّها دناءة، هذا ما حدث...

في نهاية خطابي العنيف خفضتُ قوة النبرة، ولم أكمل العبارة. وهذا فولوديا، واكتسب وجهه تعبيراً عادياً، وكئيباً لحدّ ما، ولطيفاً. وقال:

- هذا لا يهمني -وقف، وأمسك بيدي، وصافحني مرة أخرى- ستكتشف ذلك هناك...، وعندما يقدم رئيس على نطاق المقاطعة طلباً، فهذا ليس طلباً، ولكنه مهمّة، هل تفهم؟ اذهب، واعمل، يجب أن تخصص وقتاً، واهتماماً أكبر للعمل في الصحيفة، أكثر من كل أنواع الترفيه والتسلية.

التقى ماننسيفيتش بي في الدهليز، كان قادماً من جهة الطريق المسدود، حيث غرفة التصوير كما كانوا يسمون في هيئة التحرير الزاوية المحاطة بسياج. أوماً لي بصمت، واختفى في غرفة السكرتارية.

كان كل كنزي كما تركته، مطروحاً على الطاولة إلى جانب حقيبتني: جهاز التصوير والعدسات ومقياس الضوء، والفلاش والبطاريات... فتحتُ الحقيبة، كي أوزّع من جديد المعدات على الجيوب، ولمحت على الفور في القاع كومة علب بلاستيكية رمادية. لم تكن هناك حاجة للنظر في الصور السالبة، فقد أدركتُ، إنّ هذا هو المسلسل الملعون. جميع الشرائط الخمسة عشر كانت في مكانها.

جلسنا مرة أخرى عند تانيا، حتى وقت متأخر من الليل. كان الجميع في مزاج جيد للغاية، حتى جالكا التي لم تذق الشراب تقريباً. تحدثتُ بلا انقطاع، عن كل التفاصيل الصغيرة، عن الزيارة التي قمتُ بها لثمار؛ قيصرة اللجنة التنفيذية للمقاطعة، وعن المحادثة في مكتب رئيس التحرير، وحول الاختفاء الغامض للصور السالبة، وعودتها العجيبة... على أي حال، اتضحت لي تماماً خلفيات هذه العجائب بالكامل: تذكرتُ بأني عند اقتراب نهاية حفلة عيد الميلاد في هيئة التحرير، وحين ذهبتُ لشراء قنينة شراب، تركت حقيبة معدات التصوير، وبعد عودتي وجدت ماننسيفيتش

وحده في الغرفة، جالساً في الزاوية التي كانت فيها الحقيبة. وتذكرت أخيراً أنني التقيتُ به في الدهليز، قادمًا بوضوح من زاويتنا للتصوير، حيث ليس لديه شيء يقوم به هناك على الإطلاق، وبعد ذلك عادت الصور السالبة إلى الحقيبة... نعم، وعلى العموم انتهى كل شيء بشكل حسن. ولم يبق شك في أن فيتيا مانيسيفيتش أدّى في كل هذه المكيدة دوراً مهماً، كمنفذ لإرادة مسؤولين في المدينة. إنه روح هيئة التحرير النتنة... كان شخصاً زلقاً، وكان هذا واضحاً لي في وقت سابق، والآن كانت المفاجأة فقط في أن سلطات المقاطعة الرفيعة تُكَلِّف هذا التافه، بمهمة دنيئة هامة للرئاسة..

لم يفهم أحد منّا لماذا أثار كل هذا اهتمام الرؤساء. إنّ مدينتنا المريحة الدافئة، وكما قلت سابقاً، تميّزت بموقف معتدل إزاء الممارسات غير الأخلاقية، وحتى من الانتهاكات المفضوحة للقانون الأخلاقي، لباني الشيوعية، والنظر لها بحسن نية. وكان الرؤساء ينامون في هدوء، مع سكرتيراتهم، وفي كل اجتماع من الاجتماعات، وجرت في إطار الأنشطة على مستوى المقاطعة، ليس حفلات تناول جماعي للكحول بشكل منقطع النظير، وحسب، ولكن ممارسة الحب لمرة واحدة مع أي شخص. وعلى وجه الخصوص استمتع أعضاء منظمة الكمسمول، كما يليق بشباب جامح هرمونياً. واحتدمت ليالي كلياالي أثينا، في الفنادق الصغيرة، حيث يجتمع أصحاب الدرجات المتوسطة والدنيا من النشطاء، لاستكمال استيعاب التعاليم الأيديولوجية. ولكن كان كل شيء على مايرام تماماً مع الأيديولوجية، وجرت محاسبات صارمة على الأخطاء الأيديولوجية.. فلماذا بحق الجحيم تشبّثوا ببيوركا وجالكا؟! إذن هذا يعني أن هناك شيئاً آخر في المسألة، وليس كفاً من أجل القيم الأخلاقية...

لم ينخرط يوركا تقريباً معنا في الحديث، ولم يتناول تقريباً اللحم المخلل الممتاز، الذي أعدته تانيا - دخن، وشرب الكونياك في رشفات صغيرة، ونظر في النافذة، التي تساقط خلفها أول مطر خريفي غزير. وطوال الوقت، ذرفت جالكا الدموع بصمت، وكررت باستياء صياني «إنهم لا يعرفون شيئاً، لكنهم يتدخلون». وبشكل واضح كان من الصعب عليها تحليل الوضع. وشتمت تانيا بقسوة - وعلى العموم، إنّها كانت تشتم بكلمات نابية، عندما تكون في دائرة الأصدقاء - ولم تشتم مانيسيفيتش فقط، ولكن شتمت بشدة مدينتنا الملعونة، التي لا يمكن «التنفس فيها»، وسمعت في لعاتها هذه أصداء محادثاتنا الليلية، وهي تردّد بهمس «هيا لنغادر من هنا إلى أي مكان، أنت مرتاح معي، لكن لا يتحقق لنا شيء هنا، سنغرق هنا في هذا القرف...». لذتُ بالصمت، ومسحتُ وجهها المبلل بالدموع - لم أكن أرغب في مغادرة المدينة في ذلك الوقت، ولم أتخيّل العيش معها في مكان ما، مكان غريب، فهنا مدينتي، مهما كانت، وهنا أصدقائي، ووالداي كبير ي السن...

الآن غالباً ما أتذكر - وكلما ابتعد الزمن تذكرت أكثر - أتذكر تانيا، ومحاولتها بصعوبة اختراق روعي الناعسة الوجلة، ولكني أتذكر، عينيها السوداوين الضيقتين، كما لو كانتا بدون حدقة، وشعرها المنبسط الكثيف بلون أسود ضارب إلى الزرقة؛ لقد تمّ إرسال جدّها، الطبيب الرومانسي الشاب، في مهمة لمكافحة وباء، وتزوج هناك من فتاة من بورياتيا على الحدود مع منغوليا.

نعم، كان من الممكن أن تكون الحياة بشكل مختلف، ولكن سنظلّ حتى النهاية كما هي عليه الآن.

لم نتفق بوضوح على أي شيء، لكن بعد أن شربنا ثلاث قناني كونياك بالتمام، وجدنا أن الساعة كانت الثالثة. لم يتوقف المطر، وكان من غير المعقول إيجاد سيارة أجرة في مثل هذا الطقس، وأقنعت تانيا يوركا وجالكا بالمبيت عندنا، وقدمنا لهما السرير في غرفة النوم، وشراشف وملاءة نظيفة، وحشرنا نحن أنفسنا في المطبخ، على الأرض بين الموقد والطاولة، ونمتُ وتانيا على مرتبة هوائية، مغطاة ببطانية سميكة. رفض يوركا بفتور البقاء، وكان قد شرب أكثر من الجميع، ولاح في غاية التعب، ومن على قصبة أنفه، امتدّت في جبهته طيّة عميقة عمودية، وسقطت خصلات مثل شعر كلب مريض... لكن جالكا غفت، فحسب وهي جالسة، ولذلك لم تتمكن من الاعتراض عموماً.

استغرقت تانيا في النوم على الفور، حالما استلقت بجواري على المرتبة الهوائية الضيقة. وأدارت ظهرها، وغمغمت «تصبح على خير، أنا أحبك»، وسحبّت باحتراس البطانية التي تغطينا بها معاً، وبعد دقيقة واحدة، طفقت تننفس مع صفير بالكاد يسمع، كما كانت تننفس دائماً في النوم؛ إنها كانت تدخن كثيراً.

أما أنا، فلم أتمكن بأي حال من الأحوال من النوم. شعرتُ بالبرد وعدم الراحة، ولم أفلح في صرف أفكارني عما تحدثنا عنه لعدّة ساعات متتالية، ولاح لي أن الوضع، كما يبدو عادة للمرء في الليل، أصبح أكثر فظاعة، ولا مُخرج من المأزق... تعذبتُ حوالي ساعة، حينما تنهى لي صوت جالكا المرتفع لحدّ ما. لم تكن جميع كلماتها مفهومة...

- حسناً من فضلك، أرجوك... - قطع صوتها نشيجها المرتفع - حسناً، دعنا على هذا النحو... حتى إنك لم تجرب... أنت... أنت وغد، نذل!... تعتقد أنني لا أفهم لماذا تحتاجني؟! يكفي... اتركني واذهب إلى الجحيم، وليكن... ولكن من فضلك، ولكن يا يورتشكا، عزيزي... أه، أنت وغد، وغد، وغد!..

لم أتعرّض في أي وقت مضى في حياتي، لوضع حرج أكثر من هذا! ولم تكمن القضية في أنني كنت أتصنّت خلسة إلى مشهد، من المؤكد أنه شخصي للغاية، يدور في سرير نوم، ففي نهاية الأمر لم أكن مذنباً في أنني لم أستطع النوم، وكان عليهما التفكير، قيل أن يباشرا بإثارة الضوضاء، وتوضيح سوء التفاهم، والخلافات بينهما في شقة غريبة ذات غرفة واحدة، بيد أن الشيء غير المقبول أكثر ينحصر في أن المشهد كان غريباً للغاية، فقد أدهشني أن جالكا وبّخت يورا بأقبح الكلمات! وفي أي حال من الأحوال ليس بوسعي تصوّر هذا على الإطلاق، ففي السرير هو يبقى بالنسبة لها أيضاً، كما في صالة القياس في دار عارضات الأزياء: يوري بتروفيتش، أو في أقصى الأحوال، يورتشكا...

لقد اتخذتُ القرار الوحيد الممكن، وهو أن أنهض، وأسعل بصوتٍ عالٍ، وأنا في طريقي إلى الحمام - لا بدّ أنهما سيصمتان، لا أريد أن أعرف المزيد من الأسرار!

وما كدت أتأوه، وأنا أنهضُ من المرتبة الهوائية، حتى حلّ الهدوء. ورحتُ أفتشُ في جيوب الملابس، التي ألقيت على الخزانة الصغيرة، ووجدت سجائر وعلبة كبريت، وتخطيت تانيا - لم

تستيقظ حتى عند ذلك - ومشيت خطوتين، وانتهى بي المطاف إلى الدهليز، الذي كان بين باب الحمام وغرفة النوم.

كان باب الغرفة مفتوحاً على مصراعيه. وأضاء القمر في النافذة مباشرة. توقّف المطر. وفي ضوء القمر السديمي، رأيتُ بسرعة خاطفة جالكا جالسة على الأرض بالقرب من السرير، كان جلدها ضارباً إلى الزرقة، واستلقى يوركا منبطحاً، واستدار بوجهه نحو الجدار، وتمكنت أن أرى أنه كان في سروال داخلي؛ سروال سباحة أبيض لشاب يبالغ في التألق، ربما من صناعة مصرية، اشتراه عندما كان في موسكو. جابت في خاطري هذه الأفكار الغبية فقط، وأنا جالس أدخن في المراوح، ومن ثم أطفأت عقب السيارة بسيل ماء من الصنبور، وبعدها أطلقت الماء بقعقة، حتى أنبّه العاشقين، بأنني أخرج.

كان ما سمعته بالصدفة غير قابل للتفسير، لدرجة أن عقلي كفّ عن العمل، ورفض التفكير.

وعندما عدت إلى المطبخ، كان باب الغرفة مغلقاً.

هذا هو في الحقيقة كل شيء.

مضى الزمن بعد تلك الليلة، بسرعة، كما لو أن شهريّ الخريف تقلّصا، وانكمشا في يوم واحد ممطر وكثيب.

لقد حُلّت الألبان والمكائد، بكل ما فيها من خفايا وأسرار، واستحالت إلى مشاحنة عادية دنيئة، من نوع تلك المشاحنات التي تنتشب في مطابخ المنازل العامة، المقرونة بالزعيق الهزيل، والتهديد بأواني المطبخ.

ظهر أنّ تلك الجميلة، التي التقيت بها في اللجنة التنفيذية، هي زوجة رئيس أركان حرب المنطقة العسكرية. وجرى نقل زوجها منذ فترة قصيرة من موسكو مع ترقية كبيرة، ومن المتوقع أن يشغل منصب القائد العام للمنطقة العسكرية، واتضح أن هذه السيّدة كانت زميلة يوركا في الدراسة وفي المهنة، وبدأ التنافس بينهما في موسكو، وقامت هنا في المحافظة بهجوم حازم عليه، إذ ينبغي أن تتولّى هي منصب المدير الفني لدار عرض الأزياء، بحكم كونها زوجة شخص من الطبقة الحاكمة. إن وجود يوركا يعرقل وضع الأمور في نصابها الصحيح، ولم يكن من السهل عزل إستومين، فقد جرى تعيينه من موسكو...

كنت خلال بعض الوقت مستاءً من يوركا. اتضح أنه، يعتبرنا، أنا وتانيا من حثالة ناس المدينة العاديين، وأخفى عنّا كذلك جوهر المشكلة، كما أخفاها عن الآخرين. ونجح بإخفائها حتى النهاية، وهذا بوجه خاصّ ما أثار غضبي عليه! ولو لم أكن أحمق عفيفاً، لطرقت نافذة مكتبه في تلك الليلة الممطرة، واكتشفت سرّه، ولربما اعتقد بعدها أنني مصدر الشائعات عنه. يا لها من سعادة! إن الفكرة الغبية، بل بالأحرى كما أدركت الآن، الساذجة لمسلسل صور عارضات الأزياء العاريات، صرفتني عن شخص رائع حقاً، عن الحارس الذي يرتدي بدلة ستالينية، وله وجه تمثال...

ومن ثم زال الاستياء. كان لدي ما يكفي من الخيال، لأتصوّر مدى الرعب الذي عاشا فيه، يورا ومحبوبه الحارس، ذلك الخوف الذي حطمهما، وذلك الميل لبعضهما، الذي لم يقاوم، والذي كان سعادتهما، وقضى عليهما بالقيام بمخاطرة رهيبية. ذات مرة أخبرتُ تانيا - تخيّلِي، أننا سنواجه عقوبة السجن، لأننا ننام معاً، هل أنت مستعدة لذلك؟ أجهشت بالبكاء، وحوّلت وجهها عني، وشبكت رأسها بين يديها...

أصبحت حياتنا بسيطةً وشفافةً. ذهبت إلى المصانع، والتقطت صوراً للعمّال المتقدمين في الإنتاج، وتانيا قامت بين يوم وآخر بالمناوبة في المستشفى، وجلس يوركا في مكتبه أياماً بطولها، وهو يشرب الكونياك، ويبدو أن الملابس، التي أعدتها المصمّات للعرض الربيعي، جرت من دون مشاركته. ولم يعد هو وجالكا يلتقيان إلا في دار عرض الأزياء، ولم يظهرأ أبداً في أي مكان - انتهت المسرحية.

لم يتعامل مانتي سيفيتش معي تقريباً، وكان يتبادل التحية بإيماءة رأس فقط، وذات مرة فقط لاحظت، أثناء اجتماع توزيع المهام على الصحفيين، أنه كان يتفحصني، وبعد أن التقى بنظرتي له، شدّ على كتفيه، وأشاح بعينه عني...

أنهيت التقاط الصور لمسللي، بطريقة ما، كما لو كان عملاً إضافياً، وأرسلتها إلى مجلة «الصور الفوتوغرافية» التشيكية، كطرد مسجّل من مكتب البريد المركزي. ولم أكن واثقاً من أن الشحنة سوف تصل إلى المرسل إليه.

استسلمنا جميعاً للواقع. بدا لنا حينها أنّ هذا الوضع سيستمرّ على هذا النحو مدى الحياة.

ذات مرة هبط ناوميتش من طابقه الرابع في دار الصحافة، ومال على غرفة التصوير الفوتوغرافي التي نعمل فيها، حيث كنت في ذلك الوقت وحيداً أنظر في الصور السالبة (النيجاتيف)، لتحقيق مُصوّر جديد حول أفضل نماذج المنافسة الاشتراكية. جلس الرجل العجوز إلى الطاولة، ودفع الأفلام بازدراء، وحدّق بي بتعاطف صادق وحقيقي، وتنهّد... وبإشارة مميزة، كأنه يجمع وجهه في قبضته، مسح براحة يده جبهته، وهبط بها إلى ذقنه، وبادرني بالقول:

- أشعر بالأسف عليكم يا شباب، ستظلّون تعاونون لفترة طويلة...

وغادر دون أن يقول وداعاً.

ودّعنا يوركا إلى موسكو في أوائل ديسمبر، مباشرة بعد الاحتفال بيوم عيد الدستور، وكان قد استقال، وذهب إلى المجهول. قال لي عبر الهاتف «لم أعرف أي فنان أنا، جيد أم متوسط، ولكني الآن بالتأكيد حرّ»، ودعاني للمجيء إلى محطة القطار. لم نُقَمّ ولائم بمناسبة سفره...

وقفنا في الريح التي حملت ثلجاً رطباً ولزجاً. وكنا صامتين. وكان على رصيف محطة السكك الحديدية، التي يغادرها القطار المتوجّه إلى موسكو، وكالعادة مع وجود عدد غير من الناس، التقيت بالكثير من المعارف، كما لو كنت في الشارع الرئيسي، فغالباً ما أسافر على متن هذا القطار، كل مَنْ كان له شأن في المدينة... كان المشهد متوتراً مع يورا الذي وقف في مركز نصف الدائرة

التي شكلناها، لم تأتِ جالكا، وردّاً على سُؤالي بصوت خافت، أجاب يوركا بصوت خفيض «سافرت إلى أهلها في القرية، لم تعد قادرة على رؤيتي...»، وكان مكانها فارغاً في نصف دائرتنا، وبدا أن مسافة تفصلني عن مُخرج مسرح الدراما، الذي صمم يوركا له البدلات للعديد من المسرحيات. وكان المُخرج رجلاً مليحاً، لا يمكن تحديد عمره، تحرّك بعجلة، استلّ من جميع الجيوب قناني الكونيك، وصبّ في أقذاح كارتونية كان قد جاء بها لهذا الغرض، وأدار عملية التوديع، واقترح:

- حسناً، لنرفع نخب الطريق، حتى لا ينسانا!

بكلمة، أقام حفل وداع...

حتّى «الكمسارية» المسافرين على الإسراع، واحتفلت قرب العربة المجاورة، مجموعة صاحبة من الطيارين العسكريين.

وقف الحارس جانباً في معطف داكن، كما لو كان مربّعاً، وقبعة ذات حافة من النسيج. ولمع من تحت المعطف حذاء عالٍ مبلّل. مرّ يوركا من خلال نصف حلقتنا، واخترقها مثل جدار ورقي.

تعانقا، وجمدا، في احتضان لا يطاق بالنسبة لعيون الآخرين. هزّت الريح عامود المصباح الكهربائي، فأضاء وجه التمثال الأبيض، وبنات الغضون العميقة من أنفه حتى زوايا الفم، والعيان سوداوان من دون بريق.

همس المُخرج في أذني:

- تخيّل لو عثروا على دليل ضدهما، ولنفترض، إذا كنت قد التقطت لهما صوراً، لحكما عليهما بالسجن خمس سنوات...، وكل هذه بسبب هذه الكلبة، كانت بحاجة إلى منصب!

حدّق في عيني، وفكرتُ بأنه لن يرفض حتى الآن الحصول مني على معلومات، أي من المصدر الأصلي، لكل الاحتمالات...

وقلت بصوت عالٍ لحدّ ما، وأنا على قناعة بأن البعض من مجموعتنا قد سمعه، وضغطت تانيا على يدي:

- اذهب إلى الشيطان يا جوشا، اذهبوا جميعكم إلى الشيطان، كفّوا عن تخويفي، لقد انتهى كل شيء، أنا لم أجلب المنفعة لكم...

نعم، بالتأكيد كان اسمه جوشا، إيجور، لا أتذكر كنيته، بأي شكل من الأشكال، ربما ميخايلينكو...

أما الكلبة، فكان اسمها مارينا نيكولايفيتش بيتروفا، هذا مؤكد، من ثم تألقت عالياً في العاصمة، حيث كان المكان في موسكو يتسع لها، وليوركا. لقد تذكرتها، وتابعت كيف أنها ظهرت على سطح الماء في البداية، ومن ثم بخفوت، وكيف تغرق من دون فقاعات...حتى لم تتبَّق منها دوائر، هذا ما تستحقه، ولكن هذه السيِّدة كانت جميلة جداً.

تعانق يوركا معي، وهو ينظر جانباً..

وذهبت تانيا إلى ساحة محطة السكك الحديدية، ومن هناك استقلَّت حافلة ترامواي فارغة، متألقة، وذهبت إلى المناوبة الليلية، أما أنا فقد أدركت الحارس في بداية الشارع الرئيسي. استدار على وقع خطواتي، وبادرتة:

- كنت منذ وقت طويل أودّ أن أسألك، ماذا تعني بدلتك؟ هل أنت من أنصار ستالين؟

وردّ على الفور، وكأنه انتظر السؤال:

- أنا ابن مَعْدُومَيْن؛ أعدم والدي وأمِّي في نفس الليلة. هذه بدلة الموت.

لم أجد ما أقوله سوى:

- اعذرنى... إلى اللقاء.

- وداعاً... لم يمد يده للمصافحة، سأعادر هذه المدينة الملعونة، ومن غير المرجّح أن نلتقي مرة أخرى. أودّ أن أقول لك كلمة مجاملة؛ إنك خرجت بشكل لائق من وضع المأزق. لا تخجل من الخوف، فالخوف يستولي على الجميع...

سار صاعداً في الشارع، ولاح جلياً في العتمة المرتعشة، مثل كابوس ليلي. وكان الثلج الندي، يتساقط بكثافة أكثر...

لم أعد التقط الصور تقريباً.

اجتمعت موسكو بأسرها في العام الماضي في معرضي، الذي أقمته بمناسبة مرور كذا عقد على ممارستي التصوير. وكان بين ضيوف المعرض عجوز وقور في بدلة لامعة تشبه تقريباً بدلة مهرّج، ذي وجه مترهل، من دون شعر، وشعر مجعد، ضارب إلى الوردية، يحيط بصلعته. لم نلتق أبداً في الوقت العادي، ولكن هنا اندفعنا نحو بعضنا البعض، وتماسكنا، ووقفنا طويلاً، حتى خطرت بالي فكرة مصدرها الجبن الأبدي! إن هذا العناق يبدو ذا معنى مزدوج. ولكن العناق مع يورتشكا إستومين، أمهر فناني الخياطة الراقية في روسيا، كان منذ زمن بعيد لا يجلب سمعة سيئة لمن يرافقه.

اللهم اغفر له!

نعم، واغفر لنا جميعاً، إذا كان من الممكن الغفران لنا.

أنا أعرف أن جالكا توقّيت في ألمانيا قبل خمس سنوات بالسرطان. لكن وكالتها للموديلات احتفظت باسمها «Gala stars».

وأعتقد أن تانيا ما تزال على قيد الحياة، وتواصل العمل في المستشفى.

لسبب ما غالباً ما أتذكر بيريفوزتشيكوف، إنه لم يغادر بطرسبورج أبداً، يقال إنه بعد السكتة الدماغية، بالكاد يمشي.

اختفى الآخرون منذ زمن بعيد، وغسل المطر آثارهم من الشارع الرئيسي، الذي ما زالت تنزلق فيه تحت أعمدة المصابيح الظلال المرتعشة، لأوراق أشجار البلوط.

حاولت عدّة مرات أن أسرد هذه الحكاية لزوجتي، بيد أن هذه الذكريات غير ممتعة لها أيضاً، بل وحتى غير مريحة، إنّها تحب الحكايات العائلية.

ويقولون إن ذلك القصر تحوّل الآن إلى مطعم أسعار وجباته باهظة، ويحمل أيضاً اسم «دار عرض الأزياء». وأعتقد أنّ هذه التسمية بالنسبة لمطعم غير مناسبة، ولا معنى لها إطلاقاً.

عن المؤلفين

يفجيني فودولازكين: كاتب وباحث في الأدب. دكتور في العلوم اللغوية. وُلد في عام 1964 في كييف عاصمة أوكرانيا. تخرج من كلية فقه اللغة التي تحمل اسم شيفتشنكو، والدراسات العليا في معهد الأدب - معهد الأدب الروسي التابع لأكاديمية العلوم في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (دار بوشكين)، قسم الأدب الروسي القديم، الذي ترأسه الأكاديمي دميتري ليخاتشوف. وفودولازكين عضو هيئة تحرير مجلة الأدب الروسي، ورئيس تحرير «التقويم» «النص والتقاليد» ومؤلف مشروع «الإملاء العام» (2015). تُرجمت أعمال فودولازكين إلى العديد من اللغات بما في ذلك العربية. ووفقاً لصحيفة الجارديان، فإن رواية «لافر» هي من أفضل عشرة كتب في الأدب العالمي حول الرب. كما نشر روايات «أفياتر» و«سولوفيوف ولاريونوف» وغيرها، فضلاً عن العديد من المجموعات القصصية والدراسات الأدبية واللغوية. فاز بجائزتي «ياسنايا بوليانا»، و«الكتاب الكبير» الأدبية، وجوائز ألكساندر سولجينتسين، و«كليو»، و«ميلوفان فيداكوفيتش» (صربيا)، وجائزة غوركي الروسية والإيطالية (سورينتو) والعديد غيرها.

رومان سينشين: وُلد في عام 1971 في مدينة قزيل في جمهورية توبا الاشتراكية السوفيتية المستقلة. تخرج من معهد غوركي الأدبي. نُشرت أعماله القصصية في مجلات «العالم الجديد»، و«الراية»، و«أضواء سيبيريا»، و«الصدقة بين الشعوب»، و«أورورا»، و«أورال». مؤلف عشرات الكتب، بما

في ذلك «لا شيء يدعو للقلق»، «ظلال موسكو»، و«يلتيشي»، و«منطقة الفيضانات»، و«في الطريق إلى الصيف»، و«الجهد المستمر»، و«المطر في باريس». «تُرجمت أعماله القصصية إلى الألمانية والإنجليزية والفرنسية، والفنلندية والصينية وبعض اللغات الأخرى. حائز جوائز «يوريكا»، و«ياسنايا بوليانا»، و«الكتاب الكبير»، وجائزة حكومة الاتحاد الروسي في مجال الثقافة. عضو ندوات الكتاب الشباب «ليبيكي» (2001-2006)، ومهرجان المسرح «لوبيموفكا»، (1997-2010). يعيش في يكاترينبورج.

فاسيلي أفتشينكو: صحفي، كاتب نصوص نثرية. وُلد في عام 1980 في منطقة إيركوتسك، ونشأ ويعيش في إقليم فلاديفوستوك بالشرق الأقصى. تخرج من قسم الصحافة في «جامعة الشرق الأقصى الحكومية»، مؤلف الفيلم الوثائقي «المقود الأيمن» (2009)، (تُرجم إلى اليابانية)، ودليل الموسوعة الخيالية «كرة فلاديفستوك» (2012)، ورواية الفيلم الخيالي (فلاديفستوك 3000) (2011)، (تأليف مشترك مع الموسيقي إيليا لاغوتينكو)، وكتاب «بلور في إطار شفاف. قصص عن الماء والحجارة» (2015)، سيرة ذاتية للأديب السوفيياتي قسطنطين فادييف ضمن سلسلة «حياة المشاهير» (2017)، رواية «تحذير من العاصفة» (2019)، (تأليف مشترك من تأليف أندريه روبانوف). في عام 2019، كتاب وثائقي عن الكاتب أوليغ كوفاييف بعنوان «شعلة في المحيط»، الذي شارك في تأليفه أليكسي كوروفاشكو، وصلت أعمال الكاتب إلى القوائم القصيرة لجوائز «الكتاب الأكثر مبيعاً» و«نوس» وجائزة بونين وإلى القائمة الطويلة لجوائز «الكتاب الكبير» و«ياسنايا بوليانا».

أوليغ زوبرن، وُلد (1980) في موسكو من عائلة أرثوذكسية مشهورة. درس في مدرسة كنسية تابعة لبطريركية موسكو. حازت مجموعته القصصية «أريخون الهادئ» في 2004 جائزة «دبيوت» الأدبية المعروفة، كما تُرجمت المجموعة إلى الإنجليزية والهولندية. في عام 2007 تخرج من معهد مكسيم غوركي الأدبي، في اختصاص المهارة الأدبية. وتخرج في عام 2013 من جامعة القديس تيخون الأرثوذكسية الإنسانية (الكلية التبشيرية). نُشرت دار النشر الروسية الكبرى «اكسمو» باسم مستعار، في عام 2016 كتاب زوبرن «قصص معتمة». صدرت في عام 2018 أول رواية لزوبرن «السيرة الذاتية للسيد المسيح»، التي تصدرت المبيعات، وحصلت على تقويم النقاد الإيجابي، ووصلت إلى قائمة جائزة «الكتاب الوطني الأكثر مبيعاً»، يعيش في القرية، يمارس مهنة تربية المواشي.

ميخائيل تاركوفسكي: كاتب وشاعر روسي، وُلد في عام 1958 في موسكو. حفيد الشاعر المعروف أرسين تاركوفسكي، وقريب المُخرج السينمائي العالمي أندريه تاركوفسكي. تخرج من معهد التربية الحكومي في موسكو، الذي يحمل اسم لينين. باختصاص «الجغرافية والبايولوجي». مؤلف مجموعات شعرية وقصصية وروائية. وصل إلى نهائي جائزة إيفان بتروفيتش بيلكين (2003). حائز جائزة «ياسنايا بوليانا»، في قائمة «القرن الواحد والعشرين» وجائزة البطريركية الأدبية على المساهمة في تطوير الأدب الوطني (2019).

سيرجي شارجونوف: كاتب وصحفي، وشخصية اجتماعية روسية، وُلد في 12 مايو 1980 في موسكو. في عائلة قسيس. تخرج عام 2002 من جامعة موسكو الحكومية، قسم الصحافة- الشؤون الدولية. بدأ في سن الـ 19 ينشر في مجلة «العالم الجديد»، حيث نشر ليس الأعمال القصصية وحسب، وإنما المقالات النقدية. ومنذ ذلك الحين بدأ ينشر في المجلات الرصينة. في سنّ الواحد والعشرين حازت روايته «الطفل المُعاقب» على جائزة «ديبوت». رئيس تحرير مجلة «الشباب» منذ عام 2019. حائز جوائز «ديبوت» و«افريكا» وجائزة «موسكو الحكومية في مجال الأدب والفن» وجائزة «اركوباليون (الإيطالية)، وجائزة «الجواب المسحور» التي تحمل اسم نيكولاي ليسكوف. وجائزة «فيتياز الذهبية»، وصل مرتين للدور النهائي لجائزة «الكتاب الوطني الأكثر مبيعاً»، تُرجمت كُتب شارجونوف إلى اللغات الإيطالية والإنجليزية والفرنسية والصربية.

زاخار بيرليبين: وُلد في عام 1975. تخرج من كلية اللغة والأدب لجامعة نيجني نوفغورود الحكومية. أديب، وعالم لغوي، وناشر مقالات. عضو المجلس الاجتماعي التابع لوزارة الثقافة الروسية. نائب المدير الفني لشؤون القسم الأدبي في مسرح موسكو الفني، الذي يحمل اسم مكسيم غوركي. مؤلف ست روايات، وسيرة ذاتية للأديب ليونيد ليونوف، وعدة مجموعات قصص قصيرة ومقالات. حائز جائزة حكومة روسيا في مجال الثقافة، وجائزة «الكتاب الكبير»، وجائزة «بوكر الروسية»، وجائزة «ياسنايا بوليانا». وعدداً آخر من الجوائز.

دميتري باكين (1964-2015) أديب روسي. حصل على جوائز مجلتي «اوجونيوك» (1989) و«الراية» (1995). حازت مجموعته «بلد المنشأ» في عام

1995 جائزة «ضد بوكر». نشر مجموعتين قصصيتين. تُرجمت أعماله، ونُشرت في إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا وبلدان أخرى، وقارن النقاد إبداعه بنصوص بلاتونوف، وكامو، وفولكنر، وأشار باكين نفسه إلى أنه اكتشف أعمال بلاتونوف بعد أن كتب جميع نصوص مجموعة «بلد المنشأ». نُشرت في مارس 2016 بألمانيا مجموعة «باكين» حول السقوط في الهاوية»، المكرسة لإحياء ذكراه، والتي تضمنت جميع القصص التي تمكن من كتابتها. في عام 2017، بعد وفاته، جرى تقليد اسمه جائزة بونين الدولية على «المساهمة المتألقة في الأدب الروسي».

يوري مامليف (1931- ٢٠١٥) - أديب، وكاتب مسرحي، وشاعر، وفيلسوف. مؤسس الحركة الأدبية «الواقعية الميتافيزيقية». تخرج من معهد هندسة الغابات في موسكو، حصل على دبلوم مهندس. من 1957 إلى 1974 دَرَسَ الرياضيات في المدارس المسائية. لكن المجال الرئيسي لنشاطه هو الأدب. وُزعت قصصه والروايات والمقالات الفلسفية عن طريق «النشر الذاتي». هاجر في عام 1974 جنباً إلى جنب مع زوجته ماريا ألكسندروفنا إلى الولايات المتحدة، حيث دَرَسَ، وعمل في جامعة كورنيل، كما حاضر في جامعات الولايات المتحدة المرموقة الأخرى، وفي وقت لاحق، في عام 1983، انتقل إلى باريس، حيث بدأ أخيراً في النشر (في الولايات المتحدة الأمريكية، لكن في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية رفض الناشرون كتبه). وهناك دَرَسَ الأدب واللغة الروسية في معهد ميدون للثقافة الروسية، ثم في معهد الحضارات الشرقية في باريس. خلال فترة الهجرة القسرية تُرجمت أعماله إلى اللغات الأوروبية، تمَّ الاعتراف بإبداعه في الغرب. مؤلف العديد من الكتب. حائز جائزة أندريه بيلي (1991). وعلى وسام الصداقة الحكومي للإبداع والجدارة الأدبية.

يوري بويدا: كاتب وصحفي. وُلد في عام 1954 في إقليم كالينينجراد. منذ 1991 يعيش في موسكو، ومنذ ذلك العام ينشر أعماله القصصية. مؤلف رواية «دون دومينو» (1994) التي وصلت إلى القائمة القصيرة «للبوكر الروسي»، وكتاب «عروس بروسكايا» (1998)، الذي حاز الجائزة الصغيرة التي تحمل اسم الناقد الروسي أبولون جريجوريف، وكذلك وصل إلى القائمة القصيرة لجائزة «البوكر الروسي». وحصل يوري بويدا في عام 2013 على الجائزة الثالثة من جوائز «الكتاب الكبير». نُشرت أعماله في مجلات «العالم الجديد» و«الراية» و«أكتوبر» و«صداقة الشعوب» وغيرها. تُرجمت أعماله إلى

اللغات الألمانية والبولونية، والفنلندية، والفرنسية، واليابانية. وتنتشر كتبه منذ التسعينيات في فرنسا، وإنجلترا، والنرويج وبولندا، وإسبانيا وغيرها من البلدان.

إدوارد ليمونوف (سافينكو): كاتب وشاعر وناشر مقالات روسي، شخصيّة اجتماعية. وُلد في عام 1943 في مدينة دزيرجينسك جوركوفسكي في إقليم غوركي. عاش في خاركوف، ثم في موسكو وهاجر إلى الولايات المتحدة في عام 1976، وكتب روايته الأولى بعنوان «هذا أنا - إديتشكا»، حيث انتقد فيها بشدّة الحياة في الولايات المتحدة. تمتع الكتاب بشعبية واسعة، وتُرجم إلى العديد من اللغات. انتقل ليمونوف في عام 1980 إلى فرنسا. وعاد في عام 1991 إلى روسيا. وهو مؤلّف العديد من الكتب الأدبية والمقالات. وإدوارد ليمونوف - بطل العديد من الأعمال الأدبية لكتّاب آخرين.

إيلدار ابوزياروف: مؤلّف روايات «خوش»، و«موتابور» و«سرقة على الطريقة الألبانية» و«شمس فنلندا» وعدد من مجموعات القصص القصيرة. وُلد في عام 1975 في مدينة غوركي (نيجني نوفغورود). ينشر أعماله الأدبية منذ عام 2000 ولديه حتى الوقت الحالي حوالي 30 عملاً منشوراً في المجلات الرصينة الأدبية والحوليات «أكتوبر» و«فافلون»، و«الصدّاقه بين الشعوب»، و«الراية» و«العالم الجديد» و«سنوب». ووصلت في 2012 قصتان قصيرتان مرة واحدة إلى القائمة القصيرة لجائزة يوري كازاكوف، وفي 2001 فاز ابوزياروف بجائزة «بوشكين» على روايته «خوش» و«قربان قصة». وحصلت روايته موتابور في عام 2012 على جائزة فالتين كاتاييف الأولى. ووصلت رواية «موتابور» إلى القائمة القصيرة «للكتاب الوطني الأكثر مبيعاً». ووصلت في عام 2013 رواية «سرقة على الطريقة الألبانية» إلى القائمة القصيرة لجائزة بونين. أخذ فيلم سينمائي فني عن قصته «قصة ضحية».

يانا فيشنيفسكايا - شاعرة وكاتبة قصصية. وُلدت في عام 1970 في كييف. تخرجت من المعهد الأدبي، تعيش في موسكو. نشرت القصائد والأعمال النثرية في مجلات: «بابل»، و«الشباب الجديد»، و«مختارات من قصص الشباب حان وقت الولادة»، و«قصص روسية حديثة»، وغيرها. ترجمت الشعر الياقوتي.

جريجوري سلوجيتيل - كاتب، وممثل روسي. وُلد في عام 1983 في موسكو. تخرج من معهد الدولة للفن المسرحي (غيتيس). اشتهر بروايته الأولى «أيام سافيلي» التي أعيد طبعها عدّة مرات في روسيا، وتُرجمت إلى عدّة لغات أوروبية. حاز جائزة «ياسنايا بوليانا» بترشيح من القراء، وصل الدور النهائي لجائزة «الكتاب الكبير».

أندريه روبانوف: كاتب ومؤلف سينمائي روسي، وُلد عام 1969 في ضواحي موسكو. اشتهر كمؤلف كتب في السيرة الذاتية، أو «الواقعية الجديدة». نشر أيضاً العديد من روايات الخيال العلمي والنوع البيلوجي. وبلغ نهائي جائزة «اركادي وبوريس ستروجانسكي الدولية»، على روايته الخياليتين «كلوروفيليا» (2010) و«الأرض الحية» (2011)، وصل إلى القائمة الطويلة لجائزة «الكتاب الكبير»، ووصل أربع مرات للنصف النهائي لجائزة «الكتاب الوطني الأكثر مبيعاً». وحاز عام 2017 جائزة «ياسنايا بوليانا» على روايته «الوطني» في جائزة «النثر الروسي المعاصر». تُرجمت أعمال أندريه روبانوف إلى اللغات الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والصربية والبغارية.

دينيس دراجونسكي: وُلد عام 1950. كاتب وصحفي، نجلُ كاتب الأطفال الشهير فيكتور يوزيفوفيتش دراجونسكي. وأصبح نموذجاً لبطل «قصص دينيس». مؤلف العديد من الكتب، بما في ذلك «المعماري والراهب» و«صورة شخصيّة لمجهول». وأدرجت مجموعته القصصية «ليس هناك مثل هذه الكلمة» في القائمة الطويلة لكتاب العام (2009) ودخلت قصته «الراهب والمعماري» في قائمة «جائزة بيلكين» عام 2013.

يفجيني شكوفسكي: ناثر وناقد أدبي. وُلد عام 1954 في موسكو. تخرج من كلية اللغات، والدراسة العليا في كلية الصحافة في جامعة موسكو الحكومية التي تحمل اسم لومونوسوف. مؤلف العديد من كتب النثر. نشر أول قصة قصيرة في مجلة «الشبيبة الريفية» (1989). تُرجمت أعماله إلى الإنجليزية والهنغارية والإيطالية والألمانية.

إيليا كوتشيرجين: وُلد في موسكو عام 1970. عمل حارساً لغابات الدولة في محميات سيبيريا. تخرج من المعهد الأدبي. نشر أعماله في المجلات الرصينة، وصدرت كتبه في روسيا وفي الدول الأجنبية. حاز عدداً من

الجوائز الأدبية، بما في ذلك جائزة حكومة موسكو في مجال الأدب والفن. يعيش في موسكو وفي القرية بإقليم ريازان.

ألكسندر كاباتوف: (1943-2020)، وُلد في نوفوسيبيرسك. أديب، وكاتب سيناريو، وكاتب مقالة. مؤلف عشرات الكتب النثرية. حائز جائزة الكتاب الكبير، وجائزة بيچ أبولون جريجوريف، وجائزة إيفان بونين، نثر السنة. بناء على أعمال ألكسندر كاباتوف تمّ تصوير فيلمي، «عشر سنوات دون حق المراسلة» (1990) و«اللاعائد» (1991). تصدر كتبه في العديد من دول العالم.

Notes

[1←]

سيرجي ألكساندروفيتش شارجونوف: كاتب وصحفي روسي، وشخصية اجتماعية، رئيس رابطة اتحادات الكُتّاب والناشرين في روسيا. (المترجم)

[2←]

إيفينكي - أحد الشعوب التونغوسية في شمال آسيا. يُعترف بالأيفينك في روسيا بصفتهم من الشعوب الأصلية في الشمال الروسي. (المترجم)

[3←]

فاسكا هو اسم التصغير والتدليل، لاسم «فاسيلي»، و«فاسيا». (المترجم)

[4←]

هو الاسم الرسمي الكامل لفاسكا. (المترجم)

[5←]

عبارة «فرخ البومة» في اللغة الروسية كلمة تصغير للتدليل والتحبب للبومة، ولكن تتأى بمعناها ودلالاتها عن كلمة «البوم» كرمز للشوم والقبح. وهناك الكثير من المخازن والمراكز التربوية ومعسكرات الراحة للأطفال والدمى... إلخ يطلق عليها «فرخ البومة» تحبباً. (المترجم)

[6←]

هو قنديل سام ذو حجم صغير، يختبئ في البحر، لكنه يخرج أحياناً إلى الشواطئ. جسمه شفاف، لذا فإن جميع أجهزته الداخلية التي تمثل شكل الصليب واضحة للعيان. لذلك غالباً ما يسمى كروسمان. (المترجم)

[7←]

أكبر مدينة وميناء في الشرق الأقصى الروسي وعاصمة إقليم بريموريه، تأسست عام 1860 على شبه جزيرة مورافيوف - أمورسك على سواحل بحر اليابان وتبعد عن العاصمة موسكو 6430 كم. (المترجم)

[8←]

القصة تدور عن مشاهدات أحد الصحفيين الذي قام مع زملاء له لقاء أجر، لعمل دعاية انتخابية لأحد نواب الدوما في المناطق السكنية في الشرق الأقصى. (المترجم)

[9←]

شارع زفيرينسكايا هو أحد شوارع بطرسبورج القديمة ونحت اسمه من اسم «الحيوان» بالروسية «zver» لذلك يندھش بطل القصة من إطلاقه على الصالون الفني، وأن يكون لقباً لصاحبه. وأطلق اسم زفيرينسكي على الشارع في 5 مارس/ آذار 1871 لكونه يمرّ بمحاذاة المدخل الرئيسي لحديقة الحيوان. (المترجم)

[10←]

أحجية الصور المقطعة. بالإنجليزية: (Jigsaw puzzle) هي أحجية تركيبية تتطلب تركيب عدد كبير من القطع الصغيرة من أجل تشكيل صورة كبيرة، غالباً لاتحوي أي فراغات. (ويكيبيديا). (المترجم)

[11←]

يقتبس الكاتب الفقرات المكتوبة بخط مائل ولون أسود غامق من الموسوعة العالمية ويكيبيديا. (المترجم)

[12←]

إيفان كونستانتينوفيتش إيفازوفسكي (1817 - 1900) رسّام أوكراني - روسي من أصول أرمنية ذو شهرة عالمية ويعتبر من أعظم الرسّامين في مجال الطبيعة البرية والبحرية التي تشكل أكثر من نصف لوحاته. (المترجم)

[13←]

فيودوسيا، مدينة ساحلية وميناء ومنتجع يقع في شبه جزيرة القرم على ساحل البحر الأسود اسمها من «ثيودوسيا» اليوناني. (المترجم)

[14←]

إيليا ريبيّن وُلد في 5 أغسطس 1844 في أوكرانيا. وتوفي في 29 سبتمبر 1930 في ريبينو في فنلندا وهو رسّام ونحات روسي شهير، يعد أحد أعظم رسّامي التيار الواقعي الروسي في القرن التاسع عشر. (المترجم)

[15←]

ممنوع. (المترجم)

[16←]

الكيمونو اللباس التقليدي في اليابان. (المترجم)

[17←]

الفن الياباني لتنسيق الزهور. (المترجم)

[18←]

علامة الين واليانغ من مكونات الفلسفة الصينية القديمة وهما يمثّلان الطاقتين المؤدبتين لحدوث أي شيء في الحياة. وأن كل شيء من حولنا يحتوي على طاقتين متعاكستين، بل ويتوازن باعتماد كل قوة منهما على الأخرى، ويتكامل كل منهما للأخرى. (المترجم)

[19←]

وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه، والقضاء على جميع رغباته المادية. (المترجم)

[20←]

زهرة الساكورا رمز معروف في جميع أنحاء اليابان، وهو مُصوّر في العديد من بضائع المستهلك، كالكيمنو والقرطاسية والصحون بالإضافة إلى لوحات في الفن الياباني. (المترجم)

[21←]

بارك: مبنى منخفض الارتفاع، وغالباً ما يستخدم كمكان للإيواء الجماعي غير المريح للأشخاص، على سبيل المثال، في معسكرات الاعتقال. (المترجم)

[22←]

المجوس الثلاثة أو الملوك المجوس أو الحكماء الثلاثة من الشرق، هم ثلاثة أشخاص ذكروا في إنجيل متى (أصحاح 2) الذي يقول إنهم أتوا «من المشرق إلى أورشليم (ويكيبيديا). (المترجم)

[23←]

كاسبار أو غاسبار وهو اسم ورد في الثقافة الأوروبية المسيحية لأحد المجوس الثلاثة الذين زاروا يسوع بعد مولده في بيت لحم مع بلطاصر وملكيور بعد متابعتهم للنجم الذي قادهم للمغارة، وصف بأنه ملك الهند وهو من قام بإهداء الذهب ليسوع ويعتبر قديساً في المسيحية مع الشخصيتين المجوسيتين الأخرين. ومعنى اسمه باللغة الكلدانية هو الكاسب «ويكيبيديا». (المترجم)

[24←]

كاتكا اسم التحبب لاسم كاتيا. (المترجم)

[25←]

ليف تروتشكي (1879-1940) ماركسي بارز، وأحد زعماء ثورة أكتوبر في روسيا عام 1917، دعا إلى الثورة العالمية الدائمة، وتسلم بعد الحرب العالمية الأولى عضوية مفوضية الحرب، وهو أيضاً مؤسس الجيش الأحمر. (المترجم)

[26←]

الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوي. (1910 1928) من عمالقة الروائيين الروس ومصلح اجتماعي وداعية سلام ومفكر أخلاقي، يعد من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر والبعث يعدة من أعظم الروائيين على الإطلاق. أشهر أعماله روايتا «الحرب والسلام» و«أنا كارينينا». (المترجم)

[27←]

الأمير أوليغ المنتبى أحد قادة ومؤسسي الدولة الروسية حكم من عام 882 وحتى وفاته عام 912، ويلقب بـ«المنتبى» لقدرته على استشراق المستقبل وكذلك لحكمته. وتقول الأسطورة إن سبب وفاته كانت لدغة ثعبان زاحف من جمجمة حصانه، والتي من خلالها وعد المجوس الأمير بالموت. (المترجم)

[28←]

الطماق هو لباس نسوي ضيق ومثير تلبسه النساء الغربيات من أجل لفت الانتباه، وقد كان سابقاً لباساً داخلياً إلا أنه في السنوات الأخيرة أصبحت الفتيات تخرج به وأصبح موضة عالمية وهناك من الرجال من يلبسه في الأونة الأخيرة. (ويكيبيديا). (المترجم)

[29←]

نظام التقييم في نظام التعليم الروسي يقوم على أساس أربع نقاط. بالإضافة إلى علامات «ممتازة» (علامة 5)، «جيدة» (الصف 4)، «مرضية» (3)، «غير مرضية» (2). (المترجم)

[30←]

كولينكا وكولكا هما اسم التحبب والتصغير لاسم نيكولاي. (المترجم)

[31←]

بورتشكا اسم التحبب والتصغير لاسم يوري. (المترجم)

[32←]

حقبة السنوات الأخيرة من الاتحاد السوفياتي السابق. (المترجم)

[33←]

الكسمول تعني اتحاد منظمات الشباب الشيوعي السوفيتي. (المترجم)

[34←]

يوركا اسم التحبب والتصغير لاسم يوري. (المترجم)

[35←]

جالكا هو اسم التحبب والتصغير لاسم غالينا. (المترجم)

[36←]

كان اسماً جماعياً شائعاً للتشكيلات المسلحة للحركة البيضاء والحكومات المناهضة للسوفييات خلال الحرب الأهلية في روسيا. (المترجم)